

# لَيْلِي الْمُرْتَضِيَّةُ فِي الْعِرَاقِ

« تاريخ يفضل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من  
سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ويشرح جوانب من  
أسرار المجتمع وسرائر القلوب ».



## زكي مبارك

« لقد ابتكر زكي مبارك قسماً  
جديداً حين نقل الغزل  
والتشبيب . من الشعر إلى النثر »  
على الجارم بك

« فتستى رسائل ليلى المربضة في  
العراق »

ي بك

بجالة

Bibliotheca Alexandrina



0155627



مطبعة خان بكينة مهر

# ليلة المأزنية في العراق

« تاريخ يفصل وقائع ليلي بين القاهرة وبغداد . من  
سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ويشرح جوانب من  
أسرار المجتمع وسرائر القلوب ».

زكي مبارك

القاهرة  
مكتبة مصر  
٣ شارع كامل مكتبي - البغداد

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة البسهار وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## المقدمة

سنة ١٩٣٨ ومن بغداد ، نشر زكى مبارك في مجلة الرسالة عدة مقالات تحت عنوان « ليلي المريضة في العراق » .

سنة ١٩٣٩ صدرت هذه المقالات في كتاب من ثلاثة أجزاء ، والكتاب بنفس عنوان المقالات « ليلي المريضة في العراق » .

قدم زكى مبارك الكتاب بتقرير طبي رفعه إلى حضرة صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، وكان يومها وزيرا للمعارف .. أى وزيراً للتربية والتعليم ..  
وزكى مبارك عندما يقدم كتبه أو يكتب تقريراً طبياً كالذى سنقرؤه في بداية هذا الكتاب ، فإنه يقول لك كل ما تريد أن تعرفه عن ظروف الكتاب وملابساته ، إن كانت هناك ملابسات .

لذا فإننى في مقدمتى هذه أحب فقط أن أشير إلى نقطتين ربما يحتاج بعض الشباب اليوم إلى إيضاحهما ، لأنهم لم يعيشوا عصر زكى مبارك .

والسؤال الأول الذى يطرح نفسه : من هى ليلي المريضة في العراق ؟  
قال زكى مبارك (\*) :

« طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاى غير ليلي الزهاوى ، فإن الزهاوى كانت ليلاه في بغداد هى العراق ، وأنا أصرح بأن ليلاى في بغداد هى ليلي المريضة في العراق ، وهى معروفة لجميع الناطقين بالضاد » .

وأنا بدورى أقول : ومن تكون ليلي المريضة في العراق والمعروفة لجميع الناطقين بالضاد ، غير اللغة العربية ؟

والسؤال الثانى ، والذى يطرح نفسه أيضا : ولماذا قصة الحب التى عاشها زكى مبارك مع ليلي ؟

لو عدنا قليلا للوراء لعصر زكى مبارك ، لرأينا أن الكلام في الحب كان غير مستحب ... ولكن زكى مبارك لم يكن مجرد كاتب يريد أن يكتب ... أو أديب يسحرك بيانه ... أو شاعر

---

(\*) من كتاب ( ليلي المريضة في العراق ) الطبعة الأولى مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٣٩ ص ٣٤

يعبر عن ذاته وعصره ... أو ناقد يريك الطريق ... أو باحث يبحث عن الحقيقة ... أو ،  
أو ... إنما كان زكى مبارك كل هؤلاء . أضف إلى ذلك أن زكى مبارك كان صاحب  
رسالة .. رسالة لها أبعادها الوطنية والسياسية والدينية والاجتماعية ... والتربوية ... إلخ .  
كان زكى مبارك يريد أن يحب الشباب في اللغة العربية ، لغة القرآن ... وأقرب طريق إلى  
قلوب الشباب لغة الحب ... ولهذا كثر حديث زكى مبارك عن الحب ، فكتب عن ليلي في  
الزمالك ، ويلي في أسيوط ، ويلي في لبنان ، ويلي المريضة في العراق ، إلى آخر ما هنالك من  
اللياليات إذا جاز هذا التعبير ؟

على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٤٤٦ وبتاريخ التاسع من فبراير سنة ١٩٤٠ يقول  
زكى مبارك تحت عنوان « تشرح عاطفة الحب » (\*) .  
حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيا أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع  
والأهواء ، ونحن لم نبتكر الكلام في الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود  
الوجود ، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟

ولأى غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف ؟  
وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟  
إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجاج والدوافع حين استطاعوا أن يقولوا :  
إن الدنيا في حرب وإن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب ...

وأقول : إن ما هتفوا به لم يصدر إلا من صدور مراض ، فالحب لا يغزو إلا قلوب  
الأصحاء ، وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب . وكيف يرانا من  
سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب  
من فنون المزاح ؟

الحب جده جد ، وهزله جد ، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن  
أو السيئ في تلوين الوجود .

الحب جد صراح والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمة لعلم النفس ، فكيف نسكت  
عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع ، وله تأثير شديد في توجيه مصائر الرجال ، وبأى  
حق تخلو دنيانا من تشرح عاطفة الحب ؟

وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمت على الدفاع عن كتاب « ليلي المريضة في  
العراق » وهو كتاب أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبناء هذا الجيل .

( \* ) هذه مقتطفات فقط من المقال .

كنت أحب أن أولف كتابا عن « ليلي المريضة في الزمالك » أفصل به أسرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة تفيض على شبابنا روحا من أرواح الوجدان ، ولكن خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء .

إن عصرنا عصر الرسوم والأشكال ، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق .

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب ، فمن يتحدث عنها ونحن ندعى النياحة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟.

الأوروبيون لا يرون الحب من المزاح ، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان ، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية ، وتشريح عاطفة الحب هو عندى باب لتربية العواطف .

تربية العواطف ؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زمانى ، ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وصناعة الأراجيف . نعم ، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف ، وإهمالها ستكون له آثار أيسرها رياضة الشبان على رذيلة « عدم الاكتراث » وهى أقبح الرذائل وأشدّها تأثيرا فى قتل حيوية الشعوب . وهل نستطيع القول بأن رأى العام عندنا يحس هذه المعانى ؟

وما رأى العام ؟

أليس صدى لآراء الباحثين والمدرسين وهم عندنا هيايون خوافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول ؟

وضمور العواطف هو الذى قتل الشاعرية فى مصر ، وهو الذى جعل المصريين أقل الناس إحساسا بمعانى الوجود .

نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم ، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية .

نحن نفكر فى خلق عصبية أدبية تعلق على العصبية الحزبية ، ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول ، وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ويطمئنا فى الخلود » .

أيضا يقول زكى مبارك :

— ٦ —

سأعنى أن يقال إن « راسين » هو أعظم من شرح عاطفة الحب ، فألفت كتاب ( ليل  
المريضة في العراق ) لأقيم الدليل على أن في كتاب اللغة العربية من يتفوق أظفر التفوق على  
« راسين » .  
والآن ...

إذا كانت هناك كلمة يجب أن يقال فهي تحية لصاحب دار مصر للطباعة الأديب الشاعر  
الفنان الأستاذ سعيد جودة السحار — أحد تلاميذ زكى مبارك في الجامعة المصرية — فهو أول  
عربي مصري يتصدى لإعادة طبع هذا العمل الكبير ، حبا منه في أن يعرف الشباب كبار  
الكتاب الذين أفنوا شبابه في خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن ، فعاشوا في وجداننا على مر  
الأزمان ... وليترسم الشباب خطاهم ويكملوا المسيرة بالمزيد من العمل والفكر والفن .  
كريمة زكى مبارك

# تقرير طبي

مرفوع إلى حضرة صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكल باشا

وزير المعارف

أيها الأستاذ الجليل

كنت سأتمنى منذ شهرين أن أقدم إليكم تقريراً عما صنعتُ في مداواة ليلي المريضة في العراق ، فأنا اليوم أجيبكم إلى ما سألتكم ، راجياً أن تفضُّوا النظر عما وقع من إهمال وتسويف .

وأسارع فأعذر عن تقديم هذا التقرير مطبوعاً إلى الجمهور في الوقت الذي أقدمه إليكم ، لأن لي من ذلك غايةً نبيلة : هي تذكير زملائي من الأطباء بنواجبهم في التعرف إلى الدراسات الأدبية والفلسفية ، على نحو ما كان يصنع الأطباء العظام في الأمم العربية والإسلامية ، وقد أعلنتُ هذا المعنى منذ شهور طوال في مجلة « المعلم الجديد » التي تنشرها وزارة المعارف العراقية ، فاستقبله الأطباء هناك بالترحيب .

ومعاذ الأدب أن يكون في نشر هذا التقرير بطريقة علنية دعائيةً لنفسى ، فما أطمع في أن أكون أستاذاً للحكمة الوجدانية بكلية الطب بعد أن صنع الأدب بخيالي ما صنع : فقوض عيادتي بشارع المداينغ ، وأغلق عيادتي بشارع فؤاد ، وأصارني إلى احتراف الصحافة والتدريس .

وقد كنت نشرت بعض فصول هذا التقرير بمجلة الرسالة في السنة الماضية فارتاع زملائي من أطباء بغداد وشكوا إلى الجمعية الطبية المصرية وكانت حججهم أنه لا يليق بالطبيب أن يفشئ سرا المريض . .

وما أجهل أنى أخطأت ، ولكن متى سلمت أعمال الرجال من الأخطاء ؟ وهل يدعى العصمة إلا أهل الغفلة والحمق والخيال ؟

إن أعظم مزية يتحلّى بها كاتب هذا التقرير هي أنه يعترف سراً وعلانية بأنه إنسانٌ يخطئ ويصيب ، وقد يشطح وينطح في كثير من الأحيان !

وما أتخوفه اليوم وأنا أقدم إليكم هذا التقرير قد تخوّفته من قبل : فقد كاد ما تُشير من هذا التقرير يزلزل الأرض تحت قدمي في بغداد ، واضطرنى ذلك إلى الدفاع عن نفسي أمام « نادى القلم العراقي » وفيه كثير من الأطباء ، فتقبل الزملاء دفاعي بأحسن القبول . ومن ذلك عرفت أن الأطباء قد يحسّون معاني الإنسانية حين يتصلون برجال الأدب والبيان .

وما أخفى عليكم أني كنت أعرف أن اهتمامي بمداواة ليلى سيعرضني لكثير من المكاره ، فهدّئني الفطرة إلى أن أحتاط لنفسي فأوهمت أهل العراق أني أديب عظيم ، واستطعت بذلك أن أتصدر لتدريس الأدب العربي بدار المعلمين العالية ، على قلة ما أملك من الذخائر الأدبية ، وقد أعانني الله تباركت أسماؤه على تحقيق ما ادعيت ، فألقيت على تلاميذي وعلى جمهور أهل بغداد محاضرات أسبوعية بكلية الحقوق كان لها في آذان أدباء بغداد رنين أي رنين .

ولم أكتف بذلك ، بل بالغت في ستر الموقف فأنشأت الفصول التي رأيتها في كتاب « وحي بغداد » .

فإن عجبتم من أن أوفق إلى ما وُفّق إليه في زمن لا يزيد عن تسعة أشهر فتذكروا أن الإخلاص قد يزعزع رواسي الجبال .

أليس من العجيب أن أهاجر إلى بغداد وأنا طبيب فأرجع وأنا أديب ؟

\* \* \*

ولكن ما الذي ستقرأونه في هذا التقرير الذي تعدّ صفحاته بالمئات ويقع في ثلاثة أجزاء ؟ من المؤكد أنه يغيّر التقاير التي أقدمها إلى مكتب تفتيش اللغة العربية من أسبوع إلى أسبوع .

ستجدون في هذا التقرير صراعاً مروّعاً بين الحلم والجهل ، والرشد والغى ، والهدى والضلال . وستجدون فيه ما هو أخطر من ذلك : ستجدون فيه صراعاً بيني وبين نفسي ، والجهاد الأكبر جهاد النفس ، كما قال الرسول .

ستروننى هزرت شجرة النفس الإنسانية هزة عنيفة لأعرف ما تحمل من الثمار المعطوبة والثمار الصحاح .

ستروننى صنعت بالقلوب والنفوس ما تصنع الأعاصير بالشجر والنبات لا ينجو من عنفها إلا القوى المتين .

فإن رأيتونى قدّمت إلى أصونة وزارة المعارف تقريراً لم تعرف مثله قبل اليوم فاجزّوني بكلمة ثناء تخفّف ما أصارتني ليلى إليه : فقد رجعت من دارها مفلطحة القلب مصهور

الروح . وإن رأيتُموني أحدثت في عالم الطب بدعة سيئة فاغفروا ذنبي ، فحسبي من الخنة أن أسكب الدمع كل يوم على ما أسرفتُ على نفسي من الهيام بأودية المعاني ، والضلال في هوى الملاح . أعاذك الله من بلاء الحب ، ونجّاك من قتل العيون السود !  
أتذكر أيها الوزير الجليل كلمة جاءت في كتاب « ثورة الأدب » الذي ألفه كاتب من أقطاب الكتاب في هذا الجيل ؟

أتذكر أن ذلك المؤلف قال : إن هناك آفاقاً من المعاني يتحاماها كتاب العصر الحديث ؟ فما رأيك فيمن يكفر عن سيئات أولئك الكتاب فيتحمّل المشاق في ارتياد تلك المجاهيل ؟ لقد افتتحتُ تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء ، وأنا أعرف أني أعرض سمعتي للأقاويل والأراجيف ، لأن الناس عندنا لا يفهمون كيف يدخل الطبيب على نفسه ليُشرح على حسابها أهواء النفوس والقلوب والعقول .

اقتحمتُ تلك المهالك وليس لي إلا سِنَادٌ واحد هو الشعور بأنّي أؤدّي خدمة للأدب والطب . وهل يُخدّم الأدب والطب بأفضل من التغلغل في تشريح النزعات والأهواء ؟ وهل كنتُ أملك الفرار من الصُّنع الذي صنعتُ ؟

لقد قضيت نحو تسعة أشهر في بغداد وأنا في جوارٍ موصول مع ليلى وظمياء ، وأنت تعرف كيف يتعرض القلب — حين يَأْلَفُ مثل هاتين الشيطانيتين — للطواف بأركان الحقائق والأباطيل . أقول هذا وأنا أشعر بأنّي لم أوفّق كل التوفيق في تدبيح هذا التقرير لأنه خلا خلواً تاماً من شوائب الرياء ، في وقت صار فيه الرياء سيد الأخلاق ، وإلا فما الذي كان يمنع من أن أضيف إلى نفسي وإلى ليلى محامد ومناقب يسير بها الركبان ؟ ما الذي كان يمنع من أن أقول إن ليلى لم تُعْتَبَ عليّ مرةً واحدة وإني كنت في هواها أعقل الناس ؟

منع من ذلك التعقل مانعٌ واحد هو الغرام بالصدق ، منع من ذلك أني أشعر بأن الأدب أصبح على شفا الهاوية بفضل شيوع التدليس في تصوير العواطف والغرائز والطباع . منع من ذلك أني أبغض أشد البغض أن تشعر وأنت تقرأ هذا التقرير بأن فيه شيئاً من الزور والبهتان .

وما الذي تملك من أمرى حين تجد في هذا التقرير ما لا يرضيك ؟  
قد تغضب عليّ وأنت وزير ، لأن الوزراء في الأغلب يتوقرون ويتزمتون ، ولكنك لن تبقى وزيراً طويلاً دهرَكَ ، فقد ترجع إلى فردوس الأدب بعد شهور أو بعد أعوام ، ويومئذ تقرأ هذا التقرير بروح الأديب الفيلسوف فتعرف أني لم أكن من المسرفين .

وهل من القليل أن ترانى وصلت إلى ضمير الحياة العراقية ثم وصفته بأسلوب يخفى سحره  
الدقيق على هاروت وماروت ؟

\* \* \*

في هذا التقرير ، أيها الوزير ، ما يشبه التحامل على الأطباء .  
ولى في ذلك عذر مقبول .  
فأنت تعرف أن الحكومة كانت أوعزت إلى الجمعية الطبية المصرية أن تقيم مؤتمرها العاشر  
في بغداد لتعينني على مداواة ليلي المريضة في العراق .  
ولكن أولئك الأطباء حاربوني وقتلوني بلا ترفق ، وقد جزيهم بما يستحقون ، وأنا مع  
ذلك أشعر بأني أحسنت إليهم كل الإحسان .  
أما يكفي أن أصور بقلبي فلما للمؤتمر الطبي العاشر ، فلما رائعا لم يشهد مثله الناظرون ؟  
فإن كنت في ريب من ذلك فانظر كيف يصور المؤتمر الطبي الحادى عشر ، الذى تشهد  
موكبه القاهرة في هذه الأيام ؟  
أنظر أيها الوزير فسترى أن هذا المؤتمر سيمر بلا صدى ، لأنه لم يُرَ قى كاتباً يصوره كما  
صورت المؤتمر الذى عُقد في بغداد .  
وكان في نيتي أن أصور المؤتمر العتيد ، ثم تذكرت ما حاول الدكتور على باشا إبراهيم ،  
تذكرت أن هذا الرجل العارم كان يريد أن يأخذ ليلي من يدي . ولكن هيهات !  
أترى كيف كانت الدسائس تتعقبني من القاهرة إلى بغداد ؟  
سهم أصاب وراميه بذى سلم . من بالعراق لقد أبعدت مراك  
كنت أظن أن زملائي في مصر يفرحون حين يروننى أفلحت في كسب ثقة العراق !  
كنت أظن أن زملائي في مصر يسرههم أن يعرفوا أن لى هو بى بشارع العباس بن الأحنف في بغداد !  
كنت أظن أن المصرى للمصرى كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، ثم عرفت أنى أقيم  
البناء على تَبَج النيل !  
وأؤكد لك يا معالى الوزير أن ليلي هى التى أنقذتنى من عُنوان الزملاء في هذه البلاد .  
ليلى — شفاها الله وهداى — هى التى أمدت طبيبها بالعافية ، وعاونته على أن يحيا بهامة  
مرفوعة بين هامات الرجال .  
ولولا لطف الله وعطف ليلي لكنت اليوم من الهالكين .

\* \* \*



سترى في هذا التقرير أن ليلى — وإن بالغت في الدلال — لم تُضَيِّر غير الحب ، ولم تمنح  
الواشين الآثمين غير الصدِّ والإعراض .

سترى أن ليلى عرفت أنى لم أكن إلا طيفاً زار في السَّحَرِ بساتين الكرخ وبغداد .  
ويؤذيني أن أعرف أنه قد يصعب أن أرى ليلى بعد اليوم : فقد قيدنى أهلى وأبنائى بقيود من  
حديد ، وقهروني على أن أعترف بأنى من مصر لا من العراق .

وإن رأيتم في هذا التقرير حباً شديداً للأمة العراقية فلا تعجبوا ، فما ذقتُ طعم الحياة إلا في  
العراق ، ولا رأيت صدق القلوب إلا في العراق ، ولا عرفت جمال النيل إلا بعد أن رأيت لون  
مائه في دجلة والفرات .

وما أسفتُ على شيء كما أسفتُ على أن لم يُقدَّر لشاعرنا شوق أن يزور العراق .  
وقد دعوتكم إلى زيارة العراق ، فمتى تجيبون ؟

أحب أن أعرف متى أراكم في العراق بين قومي وأهلى ؟  
أحب أن تسمعوا سجع الحمام في الموصل ، وأن تروا غابات النخيل في البصرة ، وأن  
تعانوا بقايا السحر في بابل ، وأن تكحل أعينكم بغبار الصحراء في النجف ، وأن تستصبحوا  
بظلام الليل في بغداد .

أدعوكم أيها الوزير إلى زيارة الأماكن التي قضت بأن يتموِّج هذا التقرير بعباب الهدى  
والضلال .

أدعوكم إلى زيارة العراق لتواجهوني بما في هذا التقرير من الزائف والصحيح ، إن ارتبتم في  
بعض ما ستقرأون .

سترون في هذا التقرير رموزاً كثيرة ، وقد تجدون من يحدثكم بأنى سلكت فيه مسلك  
الغمز والتجريح ، فإن سمعتم شيئاً من ذلك فاخبروه بأنفسكم على ضوء الحق لتعرفوا ألى  
أخلصت النصيح للأمتين العظيمتين مصر والعراق .

وما الذى يوجب التصريح في مواطن يكفى فيها التلميح ؟  
إن البلاغة تجعل اللبس والغموض من أغراض الكتاب في بعض الأحيان ، فكيف تحرمون  
علّى ما استباحه المفكرون في مختلف العصور والأجيال ؟

إن هذا التقرير يحدّد صلات مصر بالأمم العربية والإسلامية ويدلّها على مذاهب الخلاص من  
الشبهات والأراجيف . وهو كذلك يشرح العضلات التى يتعرض لها الجيل الحديث في مصر  
والشرق ، وما كان يتيسر ذلك إلا إذا اعتمد الكاتب على رموز وإشارات يفهما أولو الأبواب .

وإلى لوائح بأنكم ستعجبون حين تروني وصلت إلى دقائق لم يظن إليها أحد قبل اليوم وأنا أتلقى الوحي من ليلي ومن ظمياء .

وهل كان ينتظر من رجل يلهو ويلعب أن يصل إلى ما وصلت إليه في تشريح السياسة الدولية بالشرق العربي والإسلامي ؟

ذلك شيء غريب ، ولكن الأغرب أن تتلقوا الحكمة عن أفواه المجانين ! وأعيذكم أن تظنوا أنني أذيت بهذا التقرير أحداً من الناس ، فقد عَرَضْتُ بعض فصوله على ليلى بالعراق قبل أن أعرضه عليكم فتلفته بالقبول ، وهي التي علمتني مذاهب الرمز والإيماء ، وسيرمي النقاد مني بداهية إن بدا لهم أن يعترضوا على ما في هذا التقرير من رموز لا يدرك مغازيها إلا الراسخون في الحب والطب .

ولك يا معالي الوزير أن تبلّو سرائر هذا التقرير إن أردت .

لك أن تسأل — بيني وبينك — عما في هذا التقرير من غرائب وأعاجيب ... وليس لك أن تطالبني بأن أفسر للجمهور ما يقصد إلى طيه الحكماء ، وأنا من الحكماء لأنني بحمد الله مجنون !

\* \* \*

في هذا التقرير خطابات شخصية ، فلا يرغك ذلك : فقد كان أدبي من مواسم الأفراح الروحية في بغداد ، وفيه صور كثيرة لمعالم العراق وبعض أهل العراق ، وكان في نيتي أن أحلّي هذا التقرير بصورة ليلى — أعزها الحب — ولكنني خشيتُ أن أخرج على أمرها العالي ، وهي قد أشارت بأن يصان وجهها الجميل عن شره العيون . لا تعجب من أن أفتن بما وُقِّتُ إليه في هذا التقرير ، فستري أنني لم أفرط فيه من شيء ، وسيدعوك إلى أن تستوحى ليلى المريضة في أسوان كما استوحيتُ ليلى المريضة في العراق !

\* \* \*

أيها الأستاذ الجليل .

ستري في هذا التقرير صفحات تشرح الحوادث التي كانت سبباً في وقوع فاجعة بغداد ، فأقرأ تلك الصفحات — غير مأمور — لترى أن ما وقع لم يكن أثراً لعداوة موجّهة إلى الأمة المصرية ، وإنما هو نتيجة لتصرفات أوقعت فيها المقادير بعض الناس لعرف ما في أنفسنا من الصلاحية للاستبسال في خدمة المقاصد العالية بمعاهد الشرق .

وكان في نيتي أن أطوى تلك الصفحات من هذا التقرير ، ولكن دعاني إلى إثباتها ما عرفتُ

من أن بعض المفسدين يريدون أن يجعلوا تلك الفاجعة نهاية الصلات الودية بين مصر والعراق . وأرجو أن تعرفوا أنى لم أتلطف في سرد تلك الأسباب ، ولم أضف إليها شيئاً يملية الغرض في مراعاة مصر أو التحامل على العراق ، وإنما وقفت موقف الرجل الأمين الذى يقدر المسؤولية أمام الله وأمام التاريخ .

وعند قراءة الفصول الخاصة بتلك الفاجعة سترون أن الله قدّر ولطف : فلم تكن تلك الحوادث إلا سحابة صيف ، وقد تقشعت بفضل الله الكبير المتعال . وإنما أدعوك إلى النظر في الأسباب التى دوتها بنزاهة في هذا التقرير ، لأن تلك الفاجعة عرضتني إلى شبهات أشد ظلاماً من حظوظ الأحرار من الأدباء ، فقد أشاع المرجفون أن لى غرضاً في دفع قالة السوء عن العراق في هذه البلاد ، وما أذاع الفرية الأثيمة إلا أناسٌ حميت أعراسهم بقلمى ولسانى ، أناسٌ .

يَرجون عثرةً جَدنا ولو انهم لا يدفعون بنا المكارة بأدوا  
وقد آذنتى تلك التهمة الفظيعة فصرت لا أمشي في شوارع القاهرة إلا على استحياء .  
ومن دعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّه بالحق وبالباطل  
ولكن كيف يدعوا إلى ذم نفسه من يقول كلمة الحق ليصلح بين أمتين شقيقتين مثل مصر والعراق ؟

أفى الحق أن الرجل لا يقول كلمة الصدق في أعقاب فتنة هوجاء ، إلا إذا كان من أصحاب الأغراض ؟

لقد عشت دهرى وأنا من أقطاب الشجعان ، ولكن المقام الأغر في حياتي هو المقام الذى استطعت فيه أن أدفع قالة السوء عن العراق في وقت كانت فيه كلمة الحق تعرض قائلها لعدوان الشبهات السود .

أَيَّتَهُمُ رجلٌ مثلى بالغرض ؟

إن كان مثلى يَتَّهَمُ بالغرض فمصر كُلُّها صائرة إلى الزوال .

وعند مَنْ تُرَجَّى الأمانة إذا كتب الله على رجل مثلى أن يخون ؟

لقد قلتُ ما قلتُ ، وكتبْتُ ما كتبْتُ ، في الدفاع عن العراق ، ومن الله وحده أنتظر حُسنَ الجزاء . فمن كان له هوى في أن يصدّنى عن قول الحق فليمض في ضلاله كيف شاء ، فما أنتظر العطف من أحد ، وقد أقمتُ حياتي الأدبية على قواعد من الحديد .

وما هذه الدنيا الصغيرة التى يتعادى فيها الناس بلا بينة ولا بُرهان ؟

— ١٤ —

وما بال قوم يؤذوننى وما قدمت إليهم غير الجميل ؟  
اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون .

محمد زكى عبد السلام مبارك

١٥ من ذى الحجة سنة ١٣٥٧  
مصر الجديدة في ٤ من شباط سنة ١٩٣٩

حاشية :

عزّ علىّ يا معالى الوزير أن يمرّ المؤتمر الطبى بلا وصف ، وهو أروع ما شهدت القاهرة في  
هذه الأيام ، فهل يكون من الفضول أن أضيف إلى هذا التقرير صفحات تسجل ما وقع في  
أيامه ولياليه ؟

إن مؤتمر العام الماضى عُقد في بغداد لمدة ليلة ، ومؤتمر هذه السنة عُقد في القاهرة لمواساة  
طبيب ليلى ، وفي هذا ما يوجب أن أسجل أيامه الغرّ في رحاب القاهرة وسقارة والقناطر  
الخيرية ومصر الجديدة .

وتقبل تحيات الحافظ للعهد ...

زكى مبارك

« .... وأرجو أن يشفَى الله ليلي على يديك ، ولا سيما وقد حشدت لها الأقطار العربية  
مؤتمراً طبياً يعاونك على أداء مهمتك السامية ...  
... ويسرنى أن أعلم أنك ملأت فراغاً بالحياة الأدبية في القطر الشقيق ...  
وأرجو أن أسمع من أخبارك ما يُطمِّئِن مصر على أحد سفرائها لنشر الثقافة المصرية العربية  
بالعراق » (١) .

---

(١) قطعة من خطاب أرسله سعادة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف إلى طبيب ليلي في مطلع آذار

— ١٦٠ —

ليلي ...

ليلي ... ليلي ...

يقولون ليلي في العراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداويا

ليلي ... ليلي ...

يقولون ليلي في العراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداويا

ليلي ... ليلي ...

يقولون ليلي في العراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداويا

ليلي ... ليلي ...

يقولون ليلي في العراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداويا

ليلي ... ليلي ...

يقولون ليلي في العراق مريضة

فياليتني كنت الطبيب المداويا

ليلي ... ليلي ...

يقولون ليلي في العراق مريضة

فياليتني كنت الطبيب المداويا

ليلي ... ليلي ...

يقولون ليلي في العراق مريضة

فياليتني كنت الطبيب المداويا

## - ١ -

أخى الأستاذ الزيات

تحتى إليك ، وإلى السامرين فى نادى الرسالة من كرام الأصدقاء . وتحتى إلى القاهرة التى لا تقع فيها العين إلا على نجم أزهر أو كوكب لَمَاح . وسلامى على مصر الجديدة وعلى سينتريس . ولو شئتُ لسلّمتُ على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف حيث يحلّو الجدل ويطيّب الضجيج !

وبعد فإنك تعرف كيف رحلت إلى بغداد .  
أنت تذكر ولا ريب أن حكومة العراق طلبتُ أستاذاً للأدب العربى بدرجة دكتور ؛ وتذكر أن وزارة المعارف المصرية فهمتُ أن الغرض من ذلك مداواة لىلى المريضة فى العراق . وقد صرح بهذا سعادة الأستاذ عوض إبراهيم بك وسعادة الأستاذ محمد فهم بك ، وكان من المفهوم أنه لا يصلح لهذه المهمة غير مؤلف « مدامع العشاق » .

\* \* \*

تلك هى الأسباب التى قضت برحلى إلى العراق ، ولولا ذلك لبقىْتُ فى مصر أحراب من أحراب ، وأسلم من أسلم ، وفقاً للنزق والطيش ، وطاعة لصديقنا الشيطان !  
ولا أستطيع أن أصف كيف كانت الأيام التى سبقتُ رحلى إلى العراق : فقد قضيتها فى درس الطب النفساني والروحاني ، وزوّدتُ عقلى بأهم ما يعرف أقطاب العلم الحديث ، من أمثال الدكتور محجوب ثابت ، والدكتور محمد عبد الحى ، والدكتور منصور فهمى ، والدكتور طه حسين .

ولم يُفْتنى أن أستفتى بعض المولعين بدرس المشكلات الغرامية كالأستاذ محمد الهراوى ، والأستاذ محمد مسعود ، والموسيقار محمد عبد الوهاب .  
وكان فى النية أن أستفتى بعض الأقطاب من علماء الأزهر الشريف ولكن ضاق الوقت عن ذلك .

\* \* \*

وجاء يوم الرحيل ، والتفتُ فإذا محطة القاهرة تموج بعددٍ كبير من كرام الأصدقاء ،  
( لىلى المريضة فى العراق )

وكننت أظنهم جاءوا مودعين ، ثم دهشت حين رأيتهم لم يجيئوا إلا ليحملوني التحية إلى ليلي المريضة في العراق !

وعند ذلك عاهدت نفسي وعاهدت الواجب أن أكون عند ما يرجو المصريون والعراقيون من الظن الجميل .

ولم يكد القطار يبرح محطة باب الحديد حتى أسلمتُ خيالي إلى مغريات الأحلام . ولما وصلت إلى بيروت رجاني بعض الأدباء أن أقيم أسبوعاً في ضيافة لبنان فأبيت وقلت : كيف أتلبث في الطريق والواجب يدعوني إلى عيادة ليلي المريضة في العراق ؟

وكذلك كان حالي حين وصلتُ إلى دمشق ، فقد رجاني الأستاذ كرد علي والأستاذ عبد القادر المغربي أن أقيم مدة بالشام في ضيافة الأكرمين من أهل تلك البلاد ، فأبيت وقلت : كيف أتمهل في الطريق والهوى يدعوني إلى موافاة ليلي المريضة في العراق !

ثم قضيت أربعاً وعشرين ساعة في الطريق من دمشق إلى بغداد . ولا تسلى كيف قضيت تلك الساعات الطوال ، فقد كانت كآلف سنة مما تُعدُّون ، بسبب القلق على ليلي المريضة في العراق .

ولما وصلت ألقيت أثقالى في القُنْدُق ، ومضيت بسرعة البرق إلى وزير المعارف ألتقى تعليماته فيما يختص بذلك الروح العليل .

\* \* \*

ستمضى الشهور والسنون ولا أنسى كيف لقيت وزير المعارف في العراق ، فقد بدار رجلاً شاعراً لا يهّمه غير الاطمئنان على ليلي المريضة في العراق .

وجلستُ فتحدثتُ معه في كثير من الشؤون ، ولكنه لم يفتح الحديث عن ليلي ، فأخذ منى العجبُ كلَّ مأخذ ، وخشيتُ أن تكون « قصة » ليلي قصة مخترة ، وأننى كنت حين صدقتها من كبار الأطفال !

وذهبت إلى دار المعلمين العالية فأعطاني وكيل العميد جدولاً يقصم الظهر ، وهو دروس في الأدب وفقه اللغة وتفسير القرآن ، وليس فيه أية إشارة إلى مداواة ليلي المريضة في العراق . فتأخّدت مرة ثانية أن قصة ليلي من اختراع الخصوم الألداء الذين أرادوا أن يستريحوا منى فزينوا لي الرحيل إلى العراق .

ثم خطر بالبال خاطر طريف : فقد حدثتني النفس بأن مرض ليلي لا يهّم أهل العراق ، وإنما يهّم المصريين ؛ وإذن فلا بد أن تكون المفوضية المصرية على بينة من هذه القضية . فأخذت



عربة ومضيت إلى هناك فوجدت رجال المفوضية لا يعرفون شيئاً عن ليلى المريضة في العراق .  
وصرح أحدهم بأن هذه القصة من أوهام الشعراء .  
وكذلك عرفت مرة ثالثة أن تلك الحكاية لم تكن إلا خداعاً في خداع . وعند الله جزائي  
على الصدق في الحب .

\* \* \*

قضيت الأسبوع الأول وأنا في همٍّ مُعِيدٍ مقيم . وهل كان يُعَوِّزُنِي أن أدرس الأدب وفقه  
اللغة والتفسير ؟ هل ضاقت معاهد القاهرة عن رجل مثلي حتى يرحل إلى العراق ليكون أستاذاً  
للأدب في مدرسة عالية ؟ إنما كنت أرجو أن أؤدي رسالة عجز عنها الزيات والسنهوري  
وعزام ، ثم قضى الحظ العاثر أن أكون رجلاً ساذجاً لا يدرك وجه المِحال ، في أحاديث  
الرجال .

وفي الأسبوع الثاني تلقيت رسالة من القاهرة : رسالة من الآنسة جيمي التي ملكتُ نُهاى  
حيناً من الزمان ، وهي تسأل وتُلحُّ في السؤال عن ليلى المريضة في العراق . وللآنسة جيمي  
حقوق ، فقد كانت أوهمني في السنين الخالية أن الهوى إله معبود ، وبالرغم من تجنيها في الأيام  
الأخيرة فقد أحسست أن إشارتها أمرٌ يجب أن يطاع . ومنيت نفسي برضاها في الليالي  
المقبلات ، حين يسمح الدهر بمسامرة الأنجم الزهر على ضفاف النيل . فهل تراني أعيش إلى  
ذلك العهد يا صديقي الزيات ؟ وهل أعاقِر الهوى من ذلك الرُضاب بعد أن تدول دولة  
الفراق ؟

ولكن ماذا أصنع ؟ هل أخترع قصة جديدة عن ليلى المريضة في العراق أصل بها إلى قلب  
الآنسة جيمي ؟ وكيف وأنا رجل لا يجيد اختراع الأقاصيص ؟ ومعشوقتي تميز بين الصحيح  
والمزيف من أحاديث الوجدان !

رعاك الله يا جيمي وأراني وجهك الجميل ؟

\* \* \*

ما أعجب ما تصنع المقادير !

هذا رجل يسأل عني بالتليفون تسع مرات في كل يوم ؛ وما هو ذا ينقلني بسيارته إلى منزله  
الفخم بالكاظمة ، ويسألني كيف وجدت ليلى ، فأتضحك وأنا محزون ، وأقرر أن ليلى اسم  
اخترعه العابثون من الشعراء ؛ وعندئذ ينفجر الرجل بالبكاء ويقول : إن ليلى لا تزال مريضة  
في العراق ، ولكن العراقيين يتجاهلون ذلك ، لأنهم في هذه الأيام مرضى بالجد والنشاط ،

— ٢٠ —

ولا يحبون أن يعرف أحد أنهم أهل وجدان . ولا تعجب إن كتم عنك رجال المفوضية المصرية أخبار ليلى ، فهم قوم دبلوماسيون لا يرون الخروج على الوفاق الذي تصطنعه حكومة العراق . وما أكاد أسمع هذا حتى أجذب الرجل من ذراعه وأمضى به كالمجنون لأعرف كيف حال ليلى ، وما هى إلا لحظات حتى تقف السيارة على بيت متواضع فى شارع العباس بن الأحنف ، أحد شوارع بغداد ، وأطرق الباب برفق كأننى على ميعاد ، وتخرج وصيفة فتقول :

« من الطارق ؟ » .

فأقول :

« أنا الدكتور زكى مبارك » .

فتقول :

« أدخل بسلام ، فإن ليلى تنتظرك منذ سنين » .

---

## - ٢ -

... ودخلت أعدو تحلف الوصيفة في بصري زائع ، وقلب خفاق ، فلم أكد أتبين مدخل البيت ، وعثرت قدمي على السلم عثرة خفيفة سلم الله منها ولطف ، وانتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد ، وتركتني الوصيفة وراحت تدعو ليلى ، فتلفت أدرس أثاث الغرفة في لهفة وشوق ، فوجدت على الحائط قطعة من القטיפه نُقش عليها هذا البيت :

يقولون ليلى في العراق مريضة فيا ليتنى كنت الطبيب المداوياً  
ورأيت بجوار تلك القטיפه صورة السيدة نادرة التي جمعت عواطف العرب حول ليلى  
بفضل ما أبدعت في ترجيع هذا البيت ، ورأيت فوق المنضدة كتابين : رسالة التوحيد للشيخ  
محمد عبده ، وذكريات باريس للشيخ زكي مبارك ، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع  
بين الهدى والضلال !

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة ، واستمر الحال كذلك عشرين دقيقة فدفعني الملال إلى التلهي بالنظر في سلة المهملات ، وما أدرى كيف وقعت في هذا الفضول ، فهل تصدقون أني رأيت بين الخطابات الممزقة رسالة من « فلان » يؤكد لها أن زكي مبارك أديب وليس بطبيب ؟ ساحك الله يا دكتور فلان ، ولا أراك نعمة الهوى والجنون !

\* \* \*

لعل ليلى في زينتها ، وإلا فكيف أعمل صبرها عن لقائي كل هذا الزمن الطويل ؟  
ثم فُتح الباب ، ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد لا تقع العين منها على شيء ، ولم لأقول :  
دخل شبح أسود نحيل كأنه عود الخلال ؟  
وانحط ذلك الشبح على أحد المقاعد ، ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبي من تواتر الحفوق ،  
وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمت ليلى .  
رباه ! ماذا أسمع ؟ إن أذنني لا عهد لهما بمثل هذا الصوت المتكسر الناعم الحزين .  
ومضت ليلى تتكلم وتسهب ، ولكنني لم أفهم شيئاً ، فقد كنت مشغولاً بدرس طبيعة هذا  
الصوت ، هذا الصوت الذي يذكرني بتلك الفتاة التي خَفَقَ القلبُ لها أول خفقة ، والتي قلتُ  
فيها أول قصيدة ، وسكبتُ عليها أول دمة ، تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت

سماء سينتريس .  
ما هذا الصوت ؟ يا رباه ! أفي الحق أني سمعت أمثال هذه النبرات على كثرة ما طوّفت في  
البلاد ؟

لا أكذب الحق ، هذا جوهر لم أشهد مثله في سنتريس ولا باريس وإنما هو من جواهر  
العراق ، هو صوت تحدر عن تلك الإنسانية التي قال فيها أحد المفتونين :  
وَكأنَّ رَجَعَ حَدِيثُهَا قَطَعَ الرِّياضُ كُسينَ زَهرا  
هو صوت تحدر عن تلك الإنسانية التي قال فيها أحد القدماء :  
رُهبانَ مَذِينٍ والذين عهدُهمُ يكون من خَوفِ العذاب قُعودا  
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها نَحَرُوا لِعَزَّةٍ رُكعاً وَسُجُودا  
هو صوت ليلي يا بني آدم ، ليلي المريضة في العراق ، ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه  
اللُّعاب !

\* \* \*

ثم انتبهت ، فقلت في نفسي : إن ليلي بخير ، فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تهدُّ رواسى  
الجبال .

ثم انطلقنا نعدو في شجون الأحاديث ، فسألتني عن مصر ، وسألتني عن صاحبة الذهبية  
التي ترسو على الشاطئ الأيمن خلف جسر إسماعيل ؛ فعجبتُ من أن تصل أخباري إلى ليلي  
وهي مريضة في العراق ، وقلت : إن تلك الإنسانية بخير ، ولكنها تركت الذهبية وعادت إلى  
منزلها بمصر الجديدة وقد صحا القلب يا ليلي فلم يعد بيننا تلاقٍ منذ ربيع سنة ١٩٣٥ ، والله  
المستعان على مكاره الصدود !

فتنهدت ليلي وقالت : حتى أنت تنسى العهود ! وماذا خليت لِغُلْفِ القلوب ؟  
ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية في وادي النيل ، وسألتني عن كثير من الأدباء ، فكنت  
أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به في بغداد ورأيت أن أكون أميناً في تبليغ التحيات فقلت :  
إن الأستاذ الزيات يسلم عليك . فقالت : لا أحب أن أسمع اسمه . فقلت : وكيف ؟  
فقالت : هل تصدق أنه أقام سنين في بغداد ولم يسأل عني ؟ فتشجعت وقلت : لعل له عذراً  
وأنت تلومين ، ذلك رجل يتهيب أقاويل المرجفين .

واستطردتُ فقلت : ولعل الدكتور السنهوري قام بالواجب .  
فضحككتُ ضحكة عالية كادت تحرق النقاب وقالت : السنهوري أغلظ كبداً من ذلك !

فقلت : وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام ؟  
 فأجابت : أو كنت تحسبني أنتظر زيارة الدكتور عزام ؟ إنه رجل أديب ، ولكن انشغاله  
 بالتحريم والتحليل لم يترك في قلبه مجالاً لرقيق الأحاسيس .  
 فقلت : لقد مر الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين ، فماذا فعل ؟  
 فقالت : هو رجل صافي الذهن ، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه في مصر أن العالم الحق  
 لا يليق به أن يُشغل بشؤون الوجدان .  
 ثم أغرقت في صمت موحش حسبته لوناً من العتاب .

\* \* \*

وجاءت أقذاح الشاي ، فتجراأت وقلت : وأين أكواب الصهباء ؟  
 نحن في حضرة ليلي وتحت سماء بغداد !!  
 فقالت : أنا امرأة مسلمة ونحن في رمضان ... وأنت ؟  
 فقلت : وهل حسبتي من الكافرين ؟  
 وفهمت أنني أخطأت فغيرت مجرى الحديث .  
 — مولاتي ليلي !  
 — نعم ، يا مولاي !  
 — إنما جئت للعناية بصحتك ، كما تعلمين .  
 — أعرف ذلك ، وهو فضلٌ سأذكره ما حييت . سأذكر أن الحكومة المصرية كانت  
 أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحو امرأة عليلة أوحث ما أوحث من الشعر والخيال ، ثم  
 أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون .  
 فقلت : البركة في الحكومة العراقية .  
 فقالت : الحكومة العراقية ؟ سامحها الله ! هل تصدق يا دكتور أن الحكومة العراقية تبيع  
 لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغاني والأناشيد ، إلا الصوت الحزين :  
 يقولون ليلي في العراق مريضةً فيا ليتني كنت الطبيب المداويها  
 وهنا تنبت إلى أني لم أسمع هذا الصوت في بغداد .  
 فقلت : وكيف تحرّم الحكومة العراقية هذا الصوت ؟  
 فأجابت : إن الحكومة في هذا الزمن لا تعرف غير الجيش والرمح والسيوف والمدافع ،  
 وهي تُبغض أحاديث الوجدان كل البغض ، ولا يُرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلي

المریضة بالعراق .

فقلت : وكيف یصح ذلك وعندكم وزیرٌ مُشرق الجبین هو المدفعی ، وعندكم وزیرٌ أديبٌ هو الشیبی ؟

فقلت : أما المدفعی فله من اسمه نصیب ، لأنه منسوبٌ إلى المدفع ؛ وأما الشیبی فلا تغرنك بسماته العذاب ، فقد كان شاعراً فیما سلف ، أما اليوم فهو من دواهی العراق ، العراق الذى یعبد النضال .

ومرت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح .

\* \* \*

— مولای لیلی !

— نعم یا مولای !

— إنما جئت للاهتمام بصحتك .

— أشكر لك یا دكتور ، ولكنك تكرر هذه العبارة ، فماذا تريد ؟

— أريد أن أرى وجهك ویديك .

— وهل تريد أن تخطبني ؟

— ليس هذا ما أريد ، فلی یحمد الله أهل وأبناء .

— إذن ماذا تريد ؟

— اعقلی یا لیلی ، إن الأمر كله جِدَدٌ ، والأمة المصرية تهتم بصحتك أبلغ اهتمام ، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتني إليك ، ثم بالغت في الاحتياط فأوعزت إلى الدكتور على باشا إبراهيم أن یقترح على الجمعية الطیبة أن تجعل مؤتمرها المقبل في بغداد ، وأنا أحب ألا یعقد المؤتمر إلا وأنت في عافية الفرس الجُمُوح ، فإن لم یكن ذلك فلا أقل من أن أقدم للمؤتمرین تقريراً ضافياً يشهد بأننى لم أضع الوقت في التعرف إلى عیون الظباء . وسیقدم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصومى الألداء وأخشى أن یشتى بی فیصرح لمعالى الأستاذ نجیب الهلالی بك بأننى لم أكن في الحرص على مهمتى من الصادقین .

وبدأت لیلی فكشفت عن یديها ، فانخلع قلبی 'من الرغب' ، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصُفَر الدقاق .

فتاسكتُ وقلت : وعیناك ؟

فألقت النقاب عن وجه ملیح التقاسیم كان له في ماضیه تاریخ جمیل ، وتأملتُ أنفها مرات

ومرات فرأيت فيه أخيلةً من الملاحة قلما يجود بمثلها الزمان .  
ثم ارتقيت فوقعتُ على عينيها وقوَّعَ الطائر الظمآن على الورد التمر .  
الله أكبر ! ما هذا السحر المبين ؟  
أأنت مريضة يا ليلي ولك هاتان العينان ؟  
فابتسمت وقالت : صدق الدكتور فلان حين كتب إلي أنك أديب ولست بطبيب !  
فقلت : إنما أريد بعث الطمأنينة في قلبك المروَّع يا مريضة العراق .  
وقضيت ساعتين في مسامرة ليلي ثم استأذنت في الانصراف . والله المحمود على نعمة ذلك الحديث .

\* \* \*

والآن أوجِّه القول إلى الأمة المصرية ، الأمة القلقة على ليلي المريضة بالعراق ، ولا سيما  
الأستاذ محمد الهراوي الذي دسَّ في جيبي دينارين على المحطة ، أجرة برقية أرسلها من بغداد  
ليطمئن على ليلي المريضة بالعراق ، إليهم أوجِّه الكلام فأقول :  
بنى وطني .

إن ليلي تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة : رخامة الصوت ، وجلالة العينين ؛  
ولكنها مع ذلك فريسة الضنى والنحول ، وسأبدل جهد الجبابة لأصل بها إلى ساحل النجاة .  
وقد كلَّفت السيدة جميلة المقيمة بشارع صريع الغواني أن تحتال في دعوة وصيفة ليلي  
لقضاء سهرة بريئة في منزلي بشارع الرشيد ، فإن حضرت تلك الوصفة فسأعرف سير ليلي ،  
سأعرف كيف قضتْ أهوال الحب بأذاً، تصل إلى ذلك النحول .  
فإن تمت تلك المحاولة فقد أصل إلى شيء ، وإن لم تتم فستذهب جهود المؤتمر الطبي أدراج الرياح .  
وأنا أرجو صديقي الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة ، فما  
أحب أن يعودوا خائبين ، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول .

\* \* \*

وأنت أيتها السيدة التي اسمها جميلة ، والتي زعمت أنني فتى جميل ، اسمعي ، ليس يهمني  
بالدرجة الأولى على حد تعبيركم في بغداد أن تغسلي ثيابي ، وأن تحضري لي مائدة فخمة في كل  
أسبوعين ، يا بخيلة ، وإنما يهمني أن تقودي وصيفة ليلي إلى منزلي ، إلى غرفة الاستقبال يا لئيمة  
لا غرفة السرير ، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلي المريضة بالعراق .  
يا جميلة ! لقد كنت في صباك جميلة ، فكوني عندما أرجوه من محمود الظنون .  
يا جميلة ! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلي في الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل ، والله  
بالتوفيق كفيل .

... وفي صباح يوم السبت توجهتُ إلى بهو أمانة العاصمة لأؤدّي واجب التحية ، تحية العيد إلى وزراء الدولة . وقد ظننى فخامة الرئيس عراقياً ، لأنى كنت بالسّدارة ، فسرّنى ذلك . وكانت فرصة طيبة عيّدت فيها على رجال كان يجب أن أذهب إليهم في منازلهم ؛ وراقبى أن يعرف العراقيون مكاناً عاماً يلتقون فيه يوم العيد ، وهى عادة حسنة كنت دعوت إليها في الرسالة التى قدمتها للمباراة الأدبية الرسمية : رسالة ( اللغة والدين والتقاليد ) . وتلفتُ فرأيت الدكتور حسين كامل يشير إليّ ، وما هى إلا لحظة حتى كانت يدُ كريمة تصافحنى وتقول : أنا الدكتور شوكة الزهاوى رئيس الجمعية الطبية العراقية ، وقد سألتُ عنك مرات لأن اسمك يرد كثيراً فى المخابرات التى تجرى بيننا وبين الجمعية الطبية المصرية ، والحمد لله على أن اهتديتُ إليك بعد التشوف والاشتياق . ثم استطرد فقال : إيش لون ليلي ! ( واللون فى عرف العراقيين هو الحال فى عرف المصريين ) .

فقلت وأنا أبتسم : ستعرف ذلك يوم ألقى بحشى فى المؤتمر الطبى عن ليلي المريضة فى العراق .

فقال : عجّل بدفع الاشتراك ليحفظ لك مكانك بين الخطباء . فأخرجت ديناراً لم يكن معى سواه وقلت : إليك الدينار فى سبيل ليلي ! والله المستعان<sup>(١)</sup> . والظاهر أنه لم يعرف شيئاً عن الرسالة التى كلفتُ الأستاذ الزيات تبليغها إلى الجمعية الطبية المصرية (ولا تغضب يا صديقى الزيات من كلمة تكليف ، فكذلك قلت ، وما أكذب عليك) .

\* \* \*

وفى المساء ذهبتُ إلى نادى المعارف واشتركت فى استقبال الكشافة السورية ، وألقيت خطبة تناسب المقام . وما كادت تنقضى الحفلة حتى عدّوت إلى منزلى لأنتظر وصيفة ليلي .

---

(١) اعترض باحث فى مجلة الرسالة على عبارة « إليك الدينار » وقال إن الصواب « هاك الدينار » . فليعرف أن العبارة الأولى هى أيضاً صواب .



وجاءت الساعة العاشرة ولم يحضر أحد ، فقلت في نفسي : هذا جزء الفضول !  
ثم تذكرت أني أؤدي خدمة وجدانية سيذكرها التاريخ ، فانشرح صدرى بعض  
الانشراح ، وهدأت ، ثم أخذت أقلب أوراقى فى سكون واطمئنان .  
وبعد نصف ساعة أحسستُ يدأ رفيقة تطرُق الباب ، فخففت إليه فى وقار مصنوع  
وفتحته بدون أن أسأل عن أسماء الزائرين .  
وما الحاجة إلى ذلك وأنا أعرف جوهر الزيارة فى نصف الليل ؟ ولينها كانت زيارة تذكُر  
بالأيام الخوالى حين كنتُ أدرس الطب فى باريس ، وحين كنتُ أترك الباب بلا رِتاج لتدخل  
الصغيرة المحبوبة حين تشاء .  
إنها زيارة جَرْداء ستنتضى فى السؤال والجواب ، وأنا اليوم طبيب مسئول عن رعاية  
الحرَمات .

\* \* \*

دخلت جميلة أولاً ، وتبعها وصيفة ليلى . دخلتا ملفوفتين ، مع أن المرأة جميلة جاوزت  
الستين ؛ وشعرتُ بشيء من الخجل للفقر البادى فى غرفة الاستقبال ، ثم تماسكتُ حين  
تذكرتُ أن هاتين المرأتين تفهمان بلا ريب أنى طبيب غريب ، وأن الوقت لم يتسع لتأنيث  
العيادة والبيت .

— يا جميلة ، ما اسم هذه الوصيفة ؟

— اسمها ظمياء ، ولكن ما ذنبى عندك يا دكتور حتى تغير اسمى ؟

فقلت : لن أذكر اسمك الصحيح فى علاج ليلى ، لأنى لا أريد أن تغتسمى الفرصة فتصبحى  
عَلَمًا على حسابها يا حيزبون !

وأخذت المرأة فى اللجاجة ، ولكنى انصرفتُ عنها والتفتُ إلى ظمياء .

— إيش لون ليلى ؟

— بخير ، يا دكتور ، وقد سَرَتْ فى روحها البشاشة منذ الوقت الذى رأتك فيه ، ولكن فى  
نفسها منك شيء .

فقلت وأنا منزعج : وما هو ذلك الشيء ؟ أعوذ بالله من كيد الشياطين !

فأجابت : كُتِبَ إليها كثيرٌ من أدباء مصر يؤكّدون أنك أديب ولست بطبيب .

فقلت : هؤلاء دساسون ، وقد آذونى قبل ذلك أبلغ إيذاء ، فقد كنت خطيبُ فتاة فى  
باريس وطاب لى معها العيش ، إلى أن تدخّل المفسدون وحدثوها أنى متأهل ، وأن لى خمسة

أبناء . وأنا يا آنسى رجل محسود لا أخطو خطوة إلا ونحولى رقباء لا ضمائر لهم ولا قلوب .  
فقلت : ولكن ليلي رأت في صدور كتبك أنك دكتور في الآداب .  
فقلت : هذا تواضع مني ، لأن الطبيب الحق لا يقول إنه طبيب ، ومع ذلك فلا بأس من  
إخبارك بكل الحقيقة لتبلغى ليلي فتطمئن . عندي يا آنسى ثلاث دكتوراهات : الأولى في  
الآداب ، والثانية في الطب ، والثالثة في القانون .  
فتهلل وجه ظمياء وقالت : الآن فهمت ما يُنشر في الجرائد من أنك تلقى محاضرات في كلية  
الحقوق .

فقلت : هو ذلك يا آنسى . وستقرئين في الجرائد بعد حين أني ألقى محاضرات في كلية  
الطب .

والآن ندخل في صميم الغرض من هذه الزيارة الليلية ، ولندرس الموضوع من جميع  
الأطراف ، لأنني لا أستريح إلى دعوتكما لزيارتي مرة ثانية ، فإن العيون تترصدني من كل  
جانب ، وسمعة الطبيب هي كل ما يملك ، وأنت في الحق فتاة حسنة ، وأخشى أن تحيط بي من  
أجلك الظنون .

فتنهت وقالت : العفو يا دكتور ! إن مرض ليلي هُدئي ولم يُبق مني على شيء من العافية .  
فقلت وقد غاظني أن تحسبني أتغزل : اسمعي ، ليس الوقت وقت دلال ، أنت هنا في  
خدمة الواجب ، أجيبني على الأسئلة الآتية بصدق وصراحة ، واحذري عواقب المداورة في  
الجواب .

— هل ترين ليلي امرأة مصونة ؟ هل يحيط بسمعتها قليل من الشبهات ؟  
— ليلي مصونة كل الصيانة يا دكتور ، وبالرغم من كثرة الحواسد لم تستطع امرأة أئيمة أن  
تقول في حقها كلمة سوء ، فهي مثال الطهر في بغداد ، وحديثها كالعطر في جميع أرجاء  
العراق .

— وكَم سنُّ ليلي الآن ؟ وكيف كان ماضيها في الحياة الزوجية ؟

— هي في حدود الأربعين ، ولا تزال عذراء .

« وعندئذ دونت في مذكري أن المرأة التي تصل إلى سنِّ الأربعين وليس لها زوج ولا أطفال  
معرضة لكثير من الأمراض ، وهذه أهم نقطة أعرضها للدرس في المؤتمر الطبي » .

ثم رفعتُ بصري إلى ظمياء وقلت : ولكن كيف اتفق أن تعيش ليلي كل هذا العمر عذراء  
القلب ؟

— ٢٩ —

فتلجلجت الفتاة ثم لاذت بالصمت ، فنهرتها بعنف ، فأجابت وماتكاد تُبين :

— كانت تحب الضابط عبد الحسيب .

— ومن هو الضابط عبد الحسيب ؟

— فتى كان في الجيش العراقي ، وأبوه من مصر ، وأمه من لبنان .

—————

— ضابط في الجيش العراقي أبوه من مصر وأمه من لبنان ؟ كيف اتفق ذلك يا ظمياء ؟  
 — لذلك يا سيدى تاريخ ...  
 — انتظري قليلاً ... قبل أن ندخل في تاريخ ليلي مع الضابط عبد الحسيب ، أحب أن  
 أسأل : هل كان حبها لذلك الضابط أول حب ؟  
 — نعم يا سيدى أول حب .  
 — منذ كم سنة أحببت ذلك الضابط ؟  
 — منذ اثني عشر عاماً .  
 — تذكرى يا ظمياء أنك قلت إن ليلي في حدود الأربعين ، فهل يُعقل أن تظل عذراء القلب  
 إلى الثامنة والعشرين ؟  
 — نعم يا سيدى ، وما أقوله تشهد به الست جميلة ، وتعرفه الخالات والعمات والجارات  
 في شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغواني .  
 — ولكن هذا غير معقول ، فما يمكن أن تظل فتاة عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين !  
 — أنت يا سيدى غريبٌ بهذه المدينة ولا تعرف النساء في بغداد .  
 — بغداد في عينك يا ظمياء ! وهل بغداد تحمي المرأة من أن تكون لها عينٌ تنظر وقلبٌ  
 يميل !

— أوكد لك يا سيدى أن ليلي لم تحب أحداً قبل الضابط عبد الحسيب  
 — ولكن كيف اتفق أن تظل بلا زواج إلى الثامنة والعشرين ؟  
 — لقد حَفِيتُ أقدامُ الخاطبين وهي ترفض بلا سبب معقول .  
 « فدونت في مذكري أن الفتاة التي ترفض الزواج ، ويطول بها ذلك ، لا بد أن تكون أُمِيت بنوبة  
 حب ، ولا بد أن يكون ذلك الحب صوراً لها فحولة الرجل في صورة فلسفية أو أدبية . ولكن هذا  
 الحب سيظل مجهولاً ما دامت ليلي تكتمه ، وما دام النساء اللاتي يُحطن بها يتمتن بقسط وافر من  
 الغفلة ، على قلة ما نرى من النساء الغافلات . ويظهر أن موقفى سيكون دقيقاً في المؤتمر الطبى ، لأن  
 المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال في أخيلة النساء ، ولكن لا بأس فهى

فرصة طيبة لشرح آراء شيث بن غزبانوس\* في هذه القضية . على أنى سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب ، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذى نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب في الأمراض العصبية » .  
— دكتور ! ماذا تكتب ؟

— اسمعى يا بلهاء .

— هذا جزء من يصنع الجميل !

— أستغفر الله ! إنما أردت أن أقول : اسمعى يا ظمياء . أنا يا بُنْتَى أُقَيِّد ملاحظات تنفعنى في مداواة ليلى ؛ ومرضها كما تعلمين عصب ، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم استعداد ، والله المعين .

« ولكن ألا يمكن أن يقال : إن ليلي مرضت في صباها بالغفوة الروحية ، ولم تُفَق إلا في الثامنة والعشرين ؟ ومن يصدّق حديث الغفوة الروحية ؟ لقد كنتُ الطبيب الوحيد الذى استكشف هذا المرض الخبيث وألقيتُ عنه محاضرة في باريس بعد أن أدت الامتحانات النهائية في الطب ثم نشرتُ خلاصة بحثي في المجلة الطبية المصرية ، ولم أظفر — وأأسفاه — بغير السخرية يواجهنى بها زملائي في مصر ، ويراسلنى بها أساتذتي في باريس » .

— دكتور ، ألا ترى كيف أُقَفِّفُ مِنَ البرد ؟

— اسمعى يا بلهاء ، فما عندى لك دفع .

« وما الذى يمنع من انتهاز هذه الفرصة الثمينة ، فرصة انعقاد المؤتمر الطبى في بغداد ، لإعلان نظرية الغفوة الروحية بطريقة دولية ؟ إن الشواهد تحت يدي ، فأنا أعرف ناساً بأعيانهم انخرطوا في سلك الكهَنُوت وهم شبَّان ، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين ، ثم امتيقظت أرواحهم فجأةً فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المنهومين ، ومنهم صديقى فلان الذى عرفته في حانات مونمارتر سنة ١٩٢٧ وصديقى فلان الذى عرفته في مرقص الكوبول سنة ١٩٣٣ .

ولكن كيف أقول هذا الكلام في المؤتمر الذى يعقد في بغداد وأنا أشتغل بالتعليم في بغداد ؟ الخطب سهل : أنا أتكلم في المؤتمر باسم الدكتور مبارك الطيب ، والناس جميعاً يعرفون أنى أحرزت الدكتوراه في الطب قبل أن أحرز الدكتوراه في الآداب » .

— دكتور ، أروح ؟

— وأين تروحين ؟ اجلسى يا بلهاء .

\* تجد هذه الآراء في كتاب زكى مبارك ( بين آدم وحواء ) طبع دار الجليل . بيروت

— أنا اسمي ظمياء .

« ولماذا أفضح نفسي في المؤتمر بأحاديث مومنا رتر ومونبارس ؟ لماذا لا أكتفى بالشواهد التي أعرفها في مصر ؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف الناس في صباه ؟ ألم يكن يُحَوَّل ويستغفر ويسترجع حين يَطْرُق أذنيه بيت من النسيب ؟ رحمة الله على أيامه الطيبات ، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمينه ! فمن يصدقني اليوم إذا قلت إنه كان فتى عفيفاً ؟ وكيف يصدقني الناس إذا ادعيت ذلك وهو اليوم ألطف ماجن وأظرف عرييد ؟ » .

— دكتور !

— اخرسى يا بنت !

— إيش لون ؟

— ما أدري شلون !

« إن حال ليلي في جوهره يرجع إلى قرضين : القرض الأول أن تكون رأيت في مطلع صباها صورة ممست شغاف القلب ثم اختفت تلك الصورة ، وظلت المسكينة تترقب ملاحظها في أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء ، فلما وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأيت فيه ملامح الحبيب الضائع ، فأقبلت عليه وقد استيقظ هواها القديم يقظة مريبة ضجّت لها بغداد ؛ والقرض الثانى أن تكون أصيبت بالغفوة الروحية ، ذلك المرض الخطير الذى تفردت باستكشافه والذى سيجعل لى مقام صديق في عالم الطب ، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة فكانت عيناها الناعستان وابتسامتها المباحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب » .

— دكتور ، طال مقامى عندك ، وليلى ستظن الظنون !

— أى ظنون يا ظمياء ؟

— قد تحسبك كالطبيب فلان الذى خربت عيادته بسبب امرأة ألمانية كانت تزوره في

العشيّات .

— وأنت تلك الألمانية يا ظمياء ؟ ما هذا الغرور الفظيع الذى لا تخلو منه امرأة شواء !

« وهنا ضحكت المرأة جميلة ضحكة رجّت أركان البيت » .

— اعقلى يا ظمياء ! أنا رجل غريب ، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغم . فأنت

في حماية هذا التخوف ، تخوف الغريب من قالة السوء . وسأعيش في بلدكم ما أعيش ، ثم

أخرج بإذن الله وأنا أبيض الصحائف وضاح الجبين .

— هل معنى ذلك أنى فى أمان ؟

— فى أمان يا ظمياء ، سبحان الله !

— أنت تهيننى ! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تهيج الغواية فى قلوب الرجال !  
« وهنا دونت فى مذكرتى أن المرأة لا يسرها أن تكون فى أمان ، لأنها لا تكون فى أمان إلا حين تزهد فيها القلوب . وأشهد أن ظمياء فتاة شريفة ، ولكن تغلب عليها نزعة الجنس ، فهى تحب أن يكون شرفها بفضل التصون ، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد ، الزهد فيما تدّعيه لنفسها من حسن مرموق » .

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ حدثينى عن قصة ليلى مع الضابط عبد الحسيب .

— كانت بداية القصة فى سنة ١٩٢٦ حين ثار حزب الشعب على المرحوم عبد المحسن السعدون ، وكانت الجرائد العراقية أطنبت فى وصف المعرض الزراعى والصناعى الذى أقيم فى الجزيرة بالقاهرة فى ذلك التاريخ ، وكانت ليلى ضجرت من ضجيج السياسة فى بغداد فاستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علها تنسى ضجيج بغداد ، فرفض أبوها ، وشجّعته والدتها ، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء ، فلم ينتصف شهر آذار ، شهر الأزهار والرياحين ، إلا وليلى تطالع سيفر الحياة على شواطئ النيل ، وطن مولاي الطبيب .

## أخبار قصيرة

١ — اعترضت مجلة الحاصد على عبارة « ليلي المريضة بالعراق » . وقالت : إن البيت المشهور يجعلها مريضة في العراق لا بالعراق ، وتسألنا عن معاني الباء ، ولكننا نعرف أن الجدل في النحو أخرج سيبويه من بغداد وهو محموم ، فلنصرح بأن الباء في العنوان القديم لم يكن لها في ذهننا معنى غير الطرفية ، على حد ما قيل :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله  
فاتركنا يا سيد أنور ما تركناك !  
فإني وقيار بها لغريب

٢ — نشرت جريدة البلاد كلمة لحضرة سكرتير الإذاعة اللاسلكية ينفي بها ما نُشر في مجلة الرسالة عن إغفال أسطوانة السيدة نادرة :

يقولون ليلي في العراق مريضة  
فياليتني كنت الطبيب المداويا  
ويؤكد أنه لم تصدر أية إشارة من أية جهة بمنع هذه الأسطوانة من الأذاعة ، ونجيب بأننا سمعنا ذلك الكلام من ليلي وهي عندنا أصدق .

٣ — كثر الاستفهام عن السيد الذي يقيم بالكاظمية والذي تفضل فهداني إلى منزل ليلي ، ولكن لذلك السيد مكانة اجتماعية تجعل من العسير أن نصرح باسمه في هذه الأحاديث الوجدانية .

٤ — طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاى غير ليلي الزهاوى ، فإن الزهاوى كانت ليلاه هي العراق ، وأنا أصرح بأن ليلاى في بغداد هي ليلي المريضة في العراق ، وهي معروفة لجميع الناطقين بالضاد .

\*\*\*

وبدت لي ظمياء فتاة شاعرة العواطف حين وصفت آذار بأنه شهر الأزهار والرياحين .  
وغلب الأدب على الطب فأحببت أن أعرف كيف رأت مصر وكيف رأت النيل .  
والحق أن ظمياء في جوهرها فتاة مليحة ، ولكنني أغالب نفسي فأقول إنها شوهاة ، مداراة للمرأة جميلة التي تفحص أسارير وجهي بعينين كأنهما عينا العقاب ، وما أدري والله كيف نجحت في اصطناع التجميل والتوقرو كنت طول حياتي مَفْضُوحَ النظرات .



- ظمياء .
- نعم يا مولاي .
- كيف كان طريقكما إلى مصر يا بنيتي ؟ بالسيارة أم بالطيارة ؟
- لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً في سنة ١٩٢٦ وإنما ذهبنا بالسيارة إلى الشام ، ثم اخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة السويس ، وقد قضينا على شاطئ القناة ثلاث ساعات مرث كلمحة الطرف بفضل ما غرقنا فيه من التأمّلات .
- وهل التأمّل يقصّر الوقت يا ظمياء ؟
- لا أعرف يا سيدى الطبيب ، وإنما أذكر أن ليلى كانت تحفظ قصيدة شوقي في قناة السويس فظلت تنشد طول الوقت وهي في حلاوة الرّشأ النّشوان .
- لا أعرف أن لشوقي قصيدة في قناة السويس ، وإنما أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفنى .
- لا ، يا سيدى ، هي قصيدة .
- هل تحفظين منها شيئاً ؟
- أحفظ المطلع :
- تلك يا ابنتى القناة لقومكما فيها حياه
- هذه ليست قصيدة يا ظمياء .
- ليلى تقول إنها قصيدة .
- القول ما قالت ليلى ! ثم ماذا يا ظمياء ؟
- كانت ليلى تنشد ما تنشد ثم تحاورنى في أمر المصريين الذين حفروا القناة ، ومن رأى ليلى أن حفر القناة أعظم عمل قام به المصريون في التاريخ .
- ولكنها أضرت مصر يا ظمياء .
- هذا يا سيدى كلام الساسة لا كلام الأطباء . وهل يضر مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتُنشئ من المرافق ما بَخِلَتْ به الطبيعة القاسية على الإنسانية ؟ إن الحياة يا سيدى الطبيب لا تنهض إلا بفضل التضحية ، وقد ضحّت مصر بمالها وسلامتها في سبيل الإنسانية ، وسيجزئها الله على ذلك خير الجزاء .
- هذه فلسفة يا ظمياء ، وما تهمنى الآن ، ثم ماذا ؟
- ثم دخل الليل ونحن على الشاطئ ، وطلع القمر فتحول الوجود إلى مَوْجَة فضيَّة نفتن القلوب ، ونظرتُ إلى ليلى فرأيت انعكاسات القمر على وجهها آية من آيات السّحر والفتون .

— دخلنا في العزل يا ظمياء .  
 — أنت الذي شجعتني على الوصف يا مولاي .  
 — اسمعي ، هنا سؤال مهم : هل رأيت ليلى على القناة في حال تختلف عما كنت تعهدين وهي في بغداد .  
 — أنا أصغر من ليلى سنًا كما تعرف .

— مفهوم ، مفهوم ، وهل تخفى على مثلي هذه الفروق ؟  
 — لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب ، لولا علاقة سطحية بابن عمي عبد المجيد .  
 — يظهر أنك فتاة متعبّة وحمقاء . ما شأني بعلاقاتك السطحية أو العميقة مع ابن عمك عبد المجيد ؟

— أنا أريد يا سيدي أن أقول إنني لم أكن يومئذ أدرك كيف تتغير أسارير الفتاة حين يطلع القمر أو حين يهبّ النسيم ، وإنما فطنتُ إلى ذلك بعد ما ثارت العواصف حول ليلى . وأقول لك إنني فهمت الآن أن ليلى كانت تتأهب لحب مجهول ، فقد كان للقمر على وجهها أصواء وظلال يطير لها لبّ الحكيم ، وقد مددت ذراعتي فطوقتها فبانعطف عليّ وقبلتني قبلة عطيف لن أنساها ما حييت !

« وهنا تذكرت الوجه الذي كان القمر يسبغ عليه ألوان الأضواء والظلال ، وجه الإنسانية النبيلة التي أتحفنتني بصورتها الغالية لأدفع بها ظلام الليل في بغداد ، وكيدت أتنهد ثم تماسكت . ولى قدرة على ضبط النفس في بعض الأحوال » .  
 — كَفَى ، كَفَى .

— تحب يا سيدي أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة ؟  
 — إن كنت تحبين ذلك ...  
 — أحب أن أقول لتسمع الست جميلة ، فهي تحب ذلك .  
 — وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة ، فقد طال شوقي إلى القاهرة .  
 — تعرف يا سيدي محطة باب الحديد ؟  
 — أراها يا بُنَيَّ في طيف الخيال !  
 — لقد أرهقنا الحمالون ...

— أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السائحين . إن محطة باب الحديد سحرًا لا تعرفينه يا حمقاء .  
 « ثم سكّ لحظة فقد تذكرتُ أُنَى زرت تلك المحطة أكثر من مئة مرة على غير ميعاد ، لأشهد أسراب المودعين والمودعات في القطار الذي يقوم إلى بورسعيد كل مساء . وتذكرت أني كنت أضحّي بمكان في قطار البحر فلا أصعد إليه إلا بعد أن يدق الناقوس لأمتع عيني وقلبي

بالحسن الذى يروج فوق الرصيف . وتذكرت الفتاة التى استقبلتها فى تلك المحطة عند منتصف الليل فى الشتاء الماضى ، تلك الفتاة التى جاءت من نورمنديا خاصة لتزور معى الأهرام فى ليلة قمرء . تذكرت وتذكرت حتى كاد يفضحنى الدمع ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، فهو وحده يعلم ما يقاسى قلبى من الغربة بين القلوب » .

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم اخترقنا شارع كامل .

— هو اليوم شارع إبراهيم .

— أفادك الله !

— يا لئيمة ، فيك أشياء من دعاية بغداد !

— ثم نزلنا عند أسرة عراقية تقيم فى شارع قصر النيل ، وكانت ليلى قد تعبت فظلت فى البيت يومين كاملين .

— وهل فى الدنيا إنسان يرى القاهرة أول مرة ثم يجلس نفسه فى البيت يومين ؟

— قلت إن ليلى كانت قد تعبت ، والحق أن ربة البيت الذى نزلنا فيه نهتنا عن الخروج ، لأننا نزلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب على نحو ما ترى عقائل بغداد ، وكانت تلك السيدة تخشى إن خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء ، والغريب لا يسلم من فضول الناس ، وفى يومين اثنين أحضرت تلك السيدة الكريمة ما ترى أن نلبس من الثياب . أما أنا ففرحت بتيأى ورأيت أنى تجددت ؛ وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنت أن الخروج بهذه الثياب يناق الحياء . وفى الحق أن ليلى بدت فى تلك الثياب كالحورية الهاربة من الفردوس ، فقد كان يجب أن تمشى فى الجادة<sup>(١)</sup> وهى سافرة الوجه ، وكان الثوب المصرى يكشف بعض الطلائع من صدرها الجميل . ولو رأيت ليلى فى تلك الساعة وهى غاضبة لرأيت العجب العجائب ، فقد توهمت المجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على حسننها المرموق ، وبلغ بها الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون فضيحة للعراق .

وعندئذ قهقهت ربة البيت وقالت : « اسمعى يا ليلى ، إن المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه المعطف » فسكنت ليلى قليلاً ، ثم لبست المعطف فوق الفستان ، ونظرت فى المرأة فرأت أن حالها مقبول ، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية

(١) الجادة فى بغداد هى الشارع .

المعرض .

— ثم ماذا ؟

— وخرجنا فعبّرنا جسر قصر النيل .

— هو اليوم جسر إسماعيل .

— أفادك الله !

— يا مضروبة ، هل تخرجت في الأزهر الشريف !

— دخلنا المعرض ، أو دخلت أنا ثم تبعني ليلي ، فقد كانت على غاية من التهيب والاستحياء ، ثم رأينا أفواجاً من الشبان قيل إنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدى الطيب .

« وهنا ابتسمت ابتسامة خفيفة لأنه لا يبعد أن أكون ذلك الأستاذ فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذى لزيارة المعرض ، فيهم إبراهيم رشيد وإبراهيم نصحي ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادى شعيرة ومحمد على حافظ ومصطفى زيور وعزيز عبد السلام فهمى ومحمد حمدى البكرى وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيرى ، ويسرنى أن أقول : إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالى . ثم شعرت بحسرة لاذعة حين تذكرت أنه كان يمكن الفرار من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية من فى المعرض ، ولعلنى كنت أعترب ليلي فأصبح من أقطاب الشعراء ، ولكن ما فات مات فاقتل نفسك إن شئت يا صريع الملاح » .

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم طوّفنا بالمعروضات فلم يرقنا غير معروضات سليم عبده .

— مات ، يرحمه الله .

— يا عيني ، لقد كان رجلاً لطيفاً ، ومن عنده اشترينا أشياء كثيرة وقدم إلينا هدايا لا تزال

نحتفظ بها إلى اليوم .

— ثم ماذا ؟

— ثم ركبنا القطار ، قطار المعرض ، وكان أماننا شابٌ يُسارقنا النظر بعينين خضراوين ، فتكلّفتُ الشجاعة وهممتُ بزجره ، ولكن ليلي ضغطت على يدي فاعتصمت بالصفح الجميل .

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن بأنى سأهتدى إلى سرّ ليل . وقد عرفتُ أيضاً أنه لا بدّ لي من التجلّ والتوقّر حتى يصل الحديث إلى مداه ، فقد قضيتُ دهرى وأنا أرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقارى أشنع افتضاح . ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التي قضت بأن يُطوى عني إلى الأبد سرّ السيدة ( ن ) فقد كانت عرفت من صواحبي أن شفاءها عندي ، وجاءت الشقية إلى عيادتي بشارع المدابغ ، فلما فحصتها تبين أن العلة لها سبب مدفون ، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تُفَرِّس المُحجَّب من سرائر النفوس ... انهذت تلك السيدة على المقعد وبدأت أحاورها في ماضيها لأعرف سرّ العلة ، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضي حتى طار صواي ، فوضعتُ يمينها على صدري ولكن الشقية لم تمهلني وأفلتت كالظبي المذعور ، وبذلك طوى عني سرها إلى الأبد . وكانت تلك الحادثة سبباً في انتقالى من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد .

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة ( ن ) وربما كانت أظفع وأعنف : فهي عراقية ، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الانفعال ؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف ، وهي عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها بمعسول الأحاديث وإنما تنطلق كالبحر الثّجاج ؛ فإذا ارتابت في أدبك ... لا أدري ما تصنع فإن الله رحمنى من أمثال هذه المواقف منذ قَدِمْتُ العراق ، وهو عز شأنه قادر على أن يردّنى إلى وطنى مُشرق الجبين .

وجملة القول أنى تجلّدت وتماسكت ، فمضتُ ظمياء تتحدث ، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول ، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود .

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم وقف قطار المعرض ، فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين . ودار القطار دورة ثانية قطعها في ذهول .

— وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء ؟

— ألسنت إنسانة ، يا سيدى الطيب ؟

« وهنارأيت من الحزم أن أعلن نزاھتى ، فأفھمتھا أنى أنكر علیھا هذه البّدوات ، لأن الذى یھمنى هو الوقوف على سرّ لیلى ، وأشهد أنى لم أجد صعوبة فى اصطناع هذا النفاق ، فقد مرّنتُ علیھ بفضل ما ابتلیتُ بالمنافقین الذین تقدموا وتأخّرت ، ویکفى ما مرّ ى من التجارب ، وأخشى أن تقنعنى الأيام بأن النفاق سید الأخلاق » .

— أنت یا مولای طلبت أن أقص الحديث كما وقع .

— كما وقع للیل ، لا كما وقع لك یا ظمياء ، فأنت فى عافية ولیلى ھى المریضة ، والحكومة المصریة لم تكلفنى استقصاء أخبار المتیمنین فى العراق ، وإنما كلفتنى مداواة لیل المریضة فى العراق .

— فھمتُ یا سیدی فھمت .

— زین ، زین ، ثم ماذا ؟

— ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان .

— عاشقان ؟ وهل یم العشق فى لحظة ؟ هل نحن فى السینا یا ظمياء ؟

— وقع التلاخط بین لیلى و بین ذلك الفتى ، والتعبیر بالعشق من عندى .

— شىء جمیل ! فى آیة مدرسة تعلمت یا ظمياء ؟

— فى المدرسة التى تعلمتُ فیھا لیلى ، وهى المدرسة التى أنشأھا حكمت سلیمان فى سنة

١٩١١ بعد إعلان الدستور العثمانى ، وكان حكمت سلیمان مدیر المعارف فى بغداد ، وكان

تعلیم الفتاة فى تلك الأيام من المسائل التى یختلف حولھا المسلمون ، فكانت لیلى أول فتاة قُید اسمھا فى تلك المدرسة .

« وهنادونت فى مذكرتى أن لیلى قديمة العهد بالثورة على مآثور التقالید ، وهذه نقطة مهمة

سأعرضھا على المؤتمر الطبى ، ولعلھا تكون السبب فى كشف كثير من الأسرار ، فالثورة على

التقالید تُحدث رجّة فى المخ والأعصاب ، كما حدثنا المسیو دیویو ھو یحاضرنا بكلية الطب

فى باریس ، وهو أستاذ فاضل كنت السبب فیما وقع بینھ و بین زوجته من شقاق » .

— وهل دُرتم بالقطار دورةً ثالثة ؟

— لا ، یا سیدی ، فقد خشیْتُ لیلى أن تفتن إلھا العیون فنزلت ونزل الفتى ؛ ولكنه أقبل

علیھا یقول : هل أستطیع أن أرشد السیدة إلى محتویات المعرض ، فإنى أراها غریبة بهذه

البلاد ؟ ولكن لیلى لم تلتفت إلیھ ، وانصرفنا ساکتین . وعرف الفتى أن سهمه طاش فمضى

كاسف البال .

— وبعد ذلك ؟

— مضينا بعد ذلك إلى البيت الذى نزلنا فيه بشارع قصر النيل ، وكان الحديث على المائدة أشهى ما يكون ، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول ، وكانت ربة البيت تحب إمتاعنا بصور الجدل السياسى فى مصر ، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لذلك الحديث ، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت فى الكشكول لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشرى فيما أتذكر ، وصورة أخرى للشيخ بخيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان ، وكان الجوُّ كله جوَّ ضحك ، ولكن ليلى لم تبسم ، ولعلها لم تعرف كيف كان الطعام فى ذلك اليوم .

— مسكينة ليلى !

— نعم يا سيدى مسكينة ، فقد قضت ليلة مؤرقة ، ثم أزعجتنى من نومى قُبَيْلَ الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض .

— ورجعنا إلى المعرض ؟

— رجعنا ، رجعنا ، وركبنا القطار عشرين مرة .

— عشرين مرة ؟ ولماذا يا حمقاء ؟

— لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين !

— ورأيتاه ؟

— ما رأيناه ، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح ، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنشور ، هم الشاهد على أن مصر من الحقول التى تُنبِت الجمال . وقد أمتعتُ عيني بمن رأيت ، ولكن ليلى ظلت صريعة الهم والبلبال .

— مسكينة ليلى !

— هل تسمح لى أن ألطم يا سيدى ؟

— تلطمين ؟ إنك لبغدادية ظريفة يا ظمياء ، ما يهمنى أن تلطمى ، وإنما يهمنى أن أسمع بقية الحديث .

— لم تكن ليلى تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى وإنما كانت تدعى أنها تحب الوقوف على سَرِّ تقدم الزراعة والصناعة فى الديار المصرية . وحثتها هذه الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاى ، وهى النماذج التى عرضها السيد محمد محمود . — سمعت بمعرضات هذا السيد يا ظمياء .

— ٤٢ —

— وكتبت ليلى مقالة في وصف المعرض نشرتها جريدة « البلاغ » .  
— سبحان الله ! لقد قرأت تلك المقالة في ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى لصحيحة في حلوان .

— لا ، يا سيدى ، هى من إنشاء مولاتى ، شفاها الله !

— آمين ! ثم ماذا يا بلهاء ؟

— قلت إن ليلى كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع على أسباب تقدم مصر في الزراعة والصناعة ، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين ، ثم يئست ليلى مما تريد ، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك .

— وبهذا انتهت القصة ؟

— لا ، يا سيدى ، فقد زعمت ليلى أنها شبعت من المعرض ، وشبعت من الأخبار الحديثة في القاهرة ، وصرحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزية ، عليها ترى ما يدكرها بأحياء بغداد ؛ فصحبنا ربة البيت إلى حتى يسمى الغورية ، فدخلنا الحمزاوى والقحامين ، وشهدنا حارة اسمها وكالة ( أبو زيد ) وفيها تجارة السيد ( ... ) الذى يبيع أدوات السمنة للسيدات ، فوقفت ليلى عنده لحظة ، ثم انصرفت . وفى خان الخليلي رأينا سيدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد ، فحيتنا على غير معرفة ، فردت ليلى التحية بلهفة واشتياق . وأحببت أن أعرف سر هذه الحماسة من ليلى فنظرث إلى تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين !  
— أعوذ بالله !

— تستعيز بالله يا سيدى من ذلك ؟

— نعم ، أستعيز بالله من شر العيون الخضر ، فهى سبب بلائى فى هذا الوجود . ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت إن زوجها أستاذ فى الأزهر وإنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريسي . ونظرث فرأيت ليلى تمشى وهى نشوى من الانشراح كأنها تلمح من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق .

وما هى إلا لحظات حتى كنا فى حضرة شيخ جليل اسمه الشيخ دعاس .  
— الشيخ دعاس ؟

— نعم يا سيدى ، الشيخ دعاس ، وهو الذى أنجب أحمد وإبراهيم وشلبى وسيد ومحمود ، وهم زينة الرجال فى بلاد النيل .



— رضى الله عنهم أجمعين ، ثم ماذا ؟

— ثم تعلل ذلك الشيخ بضيق الوقت ، ودعانا إلى تناول القهوة في منزله ، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره في محلة الزمالك . ولما دخلنا أبصرنا فتاة هي قيّد القلوب ، اسمها درية ، فسألنا عنها فعرفنا أنها ابنة الشيخ دعاس ، وابنة السيدة نجلاء ، ونظرنا ليلي إلى تلك الفتاة فلم تر عينها حضراوين ، وإنما رأت عيونها عسلية ، وهو اللون الغالب على عيون المصريين ، وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال .

— اتقى الأدب يا ظمياء ، فأنت في حضرة طبيب !

— الطبيب يسمع كل شيء !

— آمنتُ وصدقت !

— ومضت درية تباعم أمها باللغة الفرنسية . فسألت عنها فقيل إنها تلميذة بمعهد الليسيه . ( وهنا أجهدتُ ذاكرتي لأعرف من هي تلك التلميذة ، ثم تذكرت أنني لم أتصل بمعهد الليسيه إلا في سنة ١٩٢٨ والحمد لله على ذلك ، فما يسرنى أن تكون تلميذاتي محوراً للأمثال هذه الأحاديث ) .

— نعم يا ظمياء .

— وبدأ ليلي أن تسأل عن السر في اختلاف ألوان العيون ، فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورة لأبيها الشيخ دعاس ؛ أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية . فقالت ليلي : وهل اللبنانيون خضرة العيون ؟ فأجابت السيدة : أنا لبنانية الموطن ، تركية الأصل . فقالت ليلي : ومعنى هذا أن لك ابناً أخضر العينين ؟ فقالت السيدة : نعم ، وهو المحروس عبد الحسيب ، وهو طالب بمدرسة البوليس ، وسيحضر بعد قليل .

## ٧

وعند هذا الحد من الحديث تذكرت ليلي .  
تذكرت العبارة البغدادية الطريفة التي طَلَّت بها قلبي منذ أول زيارة ، فقد قالت حين رأتني  
أهمّ بالرواح :

« فراقك صعب ، سيّدى . »

ورأيت من الخير أن أصرف ظمياء ، وكانت لى سياسة أوحاها الشيطان ، فقد رأيت الفتاة  
تقص أحاديث الشيخ دعاس وزوجته نجلاء بحماسة سحرية ، ورأيتهما تطنب في وصف ابنتهما  
الجميلة ، تلك الفتاة التي اسمها درية ، وهو اسم لا أدرى كيف يلذع قلبي ، ولكن لا موجب  
للمضى في سماع ما تقول ظمياء في وصف درية ، فليس من الحزم أن تقول ظمياء كل ما عندها  
في ليلة واحدة . وهل أضمن رؤيتها بعد ذلك إن تمّ هذا الحديث ؟ من الخير أن أصرف هذه  
الفتاة وهي في نشوة الحديث فلا أتعب في رَجْعها إلى منزلي حين أشاء .

\*\*\*

ولكن كيف أصرفها وقد استأنست كل الاستناس ؟  
يجب أن أصرفها بعلة طيبة لتتّهياً للمرض ، فقد أمسيّت أشعر بوجوب أن تصبح هذه الفتاة  
من مرضاي ، ولا بدّ للطبيب من مريض ؛ وستعافى ليلي بإذن الله ، فلتكن لى ذخيرة أتمس  
بها البقاء في بغداد . وكذلك صوبت نظري إلى الفتاة وقلت :

— ما هذا الذي أرى بوجهك يا ظمياء ؟

فانزعجت الفتاة وقالت بصوت مقتول : إيش لى يا عمّى ؟  
فقلت وأنا أتكلف الحزن : سأخبرك يا بنيتي حين أجيبك لعيادة ليلي . فاذهبي الآن  
واستريحى ، وتجنّبي التعرض للتيارات الوجدانية .  
فخرجت الفتاة مذعورة لا تُلوى على شيء . والجمال الساذج يفتن القلوب حين يَكْرِثه  
الانزعاج .

\*\*\*

فراقك صعب ، سيّدى .

كذلك قالت ليلي .

فراقك صعب ...

إلى والله ، فراق صعب ، يا ليلي ، وفراقك أصعب ، فمتى يكون اللقاء ؟  
وأويتُ إلى فراشي في ليلة باردة لم يدفئها غير الذكريات . ثم خرجتُ مبكراً في الصباح  
فرأيت بغداد تموج بالحديث عن ليلي والدكتور زكي مبارك وانتخاب مجلس النواب .  
أعوذ بالله !

ثم سألتُ فعلمتُ أن مجلة الرسالة نشرت كلمة عن ليلي المريضة في العراق ، فتذكرت  
الخطاب الخاص الذي أرسلته إلى الأستاذ الزيات منذ أسابيع . وما أتهم هذا الصديق بسوء النية  
في نشر ذلك الخطاب ، فهو رجل عاش سنين في بغداد ولم ير ليلي بعينه ، فهو يحب أن يراها  
مع قرائه بأذنيه ، تأسيماً بقول الشريف الرضي :

فاتنى أن أرى الديار بطرفي فلعلى أرى الديار بسمعي

ومضى يوم ، ويوم ، وأيام ، وأنا طُعمة الألسنة والعيون في كل مكان .  
وكانت فرصة تذكرت فيها ما جنيت على نفسي في السنين الخوالى ، فقد كنت عدو نفسي  
من حيث لا أريد . أنا الطبيب الذي أضاعه الأدب فلم يبق أمامه غير احتراف الصحافة  
والتعليم . ولولا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية ، فأنا عند  
المنصفين أعرف بالطب من العميد المعروف .

\*\*\*

تذكرتُ وتذكرت ...

تذكرتُ العيادة التي أقمتها في الزمالك مع زميلي الدكتور أديب نشوان ، وهي عيادة كان  
يُرَجى أن تكون مضرب المثل في عالم الطب ، ولكن مقالاتي في جريدة البلاغ جنت على فلم  
يَعُدُّ أحدٌ يصدق أنني طبيب .

وتذكرتُ مجلة ( طبيب القلوب ) وكانت والله مجلة لطيفة ، ولكنني تفلسفتُ في  
الدراسات النفسية ، ثم مازلت أوغل في التفلسف حتى حسبني القراء من العابثين ؛ وعُطِلت  
المجلة ، ولا نزال إلى اليوم في نزاع حول ما تراكم عليها من ديون .

وقد نجأ زميلي بجِلده ، وكيف لا ينجو وهو جبان ! وبقيت أنا أضاع الدينار بجانب الدينار  
لأنخلص مما جناه قلبي البليغ !

يرحمك الله يا أبني ! فكلم نصحتني ولم أنتصح ! كم قلتُ إن الطبيب لا يليق به أن يتحدث  
في أشعاره عن الحدود والعيون والنحور والشغور ، ولا ينبغي له أن يتفجع على مواسم الروح  
في مصر الجديدة والزمالك . ولكنني أحسنُ الظن بالناس فانطلقت أشدو وأترنم ، فكان

جزائى أن أعيش عيش المشردين بين القاهرة وباريس وبغداد .

\*\*\*

تذكرت وتذكرت لو تنفع الذكرى ...!

تذكرت العيادة الجميلة التى أقمتها فى شارع فؤاد بعد أن خُربت عيادتي بشارع المدابغ بسبب السيدة ( ن ) ، وكانت عيادتي بشارع فؤاد تبشر بمستقبل رائع ، فقد كانت مجهزة على أحدث طراز ، وكان فيها ممرضة جميلة تخلب عقول النساء قبل أن تخلب عقول الرجال ؛ ولكن الله ابتلاني بطائفتين من الناس كانوا السبب فى خراب تلك العيادة الفيحاء : الطائفة الأولى جماعة الأصدقاء الذين يرون من حقوق الصداقة أن أداويهم بالمجان . أما الطائفة الثانية فهم الأدباء الذين جعلوا عيادتي سامراً يلتقون فيه كل مساء . وفى تلك العيادة تألفت رابطة الأدب القديم ، وجمعية غطارد ، وأصدقاء أفروديت . وفى تلك العيادة قامت المعارك بين القديم والجديد ، وفيها نظم أول مؤتمر لكلليات الجامعة المصرية ، وفيها أسست نقابة المحبين .

ومالى أكتب حقائق التاريخ ؟ إن هذه المذكرات لن تنشر فى حياتي ولن يراها الزيات ولا غير الزيات ، فلأدون فيها كل شيء ، وليلقى الناس بعدى ما شاءوا ، فسأكون فى شغل عنهم بما أعددت الله للأشقياء من نعيم الفراديس . وهل يرضى الله فى كرمه أن نشقى فى الدارين ؟

كانت عيادتي بشارع فؤاد هى الملاذ لكل أديب لا يجد فى جيبه خمسة قروش يجلس بها جلسة لطيفة فى مشرب ... أو مشرب ... أو مشرب ... ولا موجب لذكر أسماء هذه المشارب فأصحابها لثام لا يستحقون الإعلان ، وأخشى أن يعيشوا بعد أن أموت . أليس فيهم الرجل اللئيم الذى استقبل فى حانته صديقى ... فلما انصرف سألتنى عن اسمه فطويته عنه . وكان اللئيم يريد أن يعرف ما هو اسم ذلك الشاب الذى يخاصر تلك الشقراء ؟ وكان ذلك الصديق من كبار الموظفين بوزارة المالية .

إن القاهرة ليس فيها مشرب أمين يلقي فيه الرجل حبيبته وهو فى أمان من عيون الرقباء . ومع ذلك يقولون إن مصر تحضرت . كذبوا !

وهذا الكلام الذى أدونه فى مذكراتي هو السبب فى خرابي ، فأنا طبيب دقيق الإحساس ، ودقة الإحساس فى زماننا من أشنع العيوب . ومن حسن الحظ أن هذا الكلام سيُطوى إلى حين ، لأننى سأدفن مذكراتي بالمكتبة العامة فى بغداد ، ولن يطلبها مجلس كلية الآداب بالجامعة المصرية إلا بعد مئات من السنين ، وستكون لكلية الآداب جهودٌ مشكورة فى درس النثر الفنى فى الأدب الطبى .

ألا فليعلم الجمهور الذى يخلفنا بعد مئات السنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا يعيشون فى مصر ، وهم محبوب ثابت ، وأحمد زكى أبو شادى ، وزكى مبارك .

ولكن هل ضاع محبوب ثابت ؟ وكيف ؟ لقد اشتغل بالتمثيل السينمائي فنجح أعظم نجاح . وقد تفضل سعادة الأستاذ طه الراوى وكيل وزارة المعارف العراقية فدعانا منذ ليال لتناول طعام العشاء . وعلى المائدة تحدث الأستاذ منير القاضى فأشاد بنبوغ محبوب ثابت فى التمثيل وجزم بأنه أبرع من الممثل زكى طليمات . وعندئذ أحسست الغيرة ثلّهب أحشائي فهذا زميل أضاعه الأدب وحفظه التمثيل .

وأبو شادى أحبته المعامل البكتريولوجية ، فهو يفحص ( عيّات ) الجراثيم ثم يخلّد أصنافها بالشعر البليغ . أما زكى مبارك فقد أضاعه الأدب جملة واحدة ؛ وإني لأخشى أن لا يستمع إليه أحد إن وصف لمريض شربة زيت ؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية الآداب فقد ضاع فى الكليتين ، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب ، وعند كلية الطب رجل أديب . وعند الله جزاؤى !

\*\*\*

ومما زاد فى البلاء أننى صرحت بأن ليلى تقيم فى شارع العباس بن الأحنف ، وهو شارع معروف فى بغداد ، فما الذى كان يمنع من اختراع اسم موهوم أضلل به أهل الفضول ؟ كذلك أُمسيّت فى حيرة وارتابك ، فما توجهت إلى ليلى إلا رأيت الشارع يعجّ بالناس . ويحسن النص على أن المدنية الحديثة جنت على بغداد أعظم جناية ، فليس فيها شارع ولا حارة ولا درب ولا عطفة إلا وهو مُضاء بالكهرباء ، وبذلك ضاع علينا الحظ الذى كان يتمتع به المتنبي إذ يقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى لى  
وفى بغداد شرطة لا تعرف التغافل الظريف الذى تصطنعه شرطة باريس ، وليلى نفسها لا تخلو من عُجْجِيَّة البدويات ، وأنا نفسى لا أحسن الصبر وهو أقل ما يتخلق به الأطباء .

\*\*\*

وفى معمعة هذا الكرب وقع حادثٌ ظريف ، فقد تلقيتُ صكاً من مجلة الهلال على بنك إيسترن فى بغداد ، تلقيته فى ساعة ضيق ، فمضيت إلى البنك لأتقاضاه وأنفق محصوله على نفسى وعلى بعض مرضاى من الملاح .

ولكن إدارة البنك رفضت تسليم المبلغ الميمون وقالت : هات جواز السفر ، أو أحضر رجلاً يعرفك . فقلت : أما جواز السفر فلا سبيل إليه لأن المطر ينهر والطريق كله أوحال . وأما البحث عن رجل يعرفنى فهو سهل ، ولكنه لا يتم بدون فضيحة البنك . فقال فريق من الموظفين : وكيف ؟ فقلت : لأن مما يفضح بنك إيسترن أن يجهل زكى مبارك وهو رجل يشار إليه بالبنان فى كل أرض ، وفى صدره ودائع أغلا وأنفس مما تحفظ أقوى الخزائن فى أعظم البنوك .

وعندئذ ضجّ موظفو البنك بالضحك والقهقهة الساخرة ؛ ولكن أحدهم ترفق وقال :  
أنت الطبيب الذى جاء يفتش عن ليلي والذى ينشر نتائج بحثه بمجلة الرسالة المصرية ؟  
مقلت : نعم !  
فالتفت ذلك الموظف إلى زملائه وقال : يا جماعة ، هذا هو الطبيب الذى جاء يفتش عن  
ليلى !

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى أقبل الموظفون لمصافحتي . وفي لحظة واحدة تسامع من  
في البنك بقصتي ، وقد استظرفوني جدًّا ، بالرغم من أني أحمل أنفًا أعظم من أنف ابن حرب ،  
كما قال الأستاذ حسن فهمي الدجاني زميلي في أيام البؤس ، يوم كنت تلميذ الشيخ سيد  
المرصفي . وصحبنى ذلك الشاب إلى مكتب المدير فشربت عنده كأساً من قهوة أبي الفضل  
لا قهوة أبي نواس . ولم يفتنى أن أسأل عن اسم ذلك الموظف الأديب الذى يقرأ مجلة  
( الرسالة ) وهو في البنك — وتلك إحدى الأعاجيب — فعرفت أنه يسمى ألبرت داود  
يعقوب ، فمضيت وأنا أرتل الآية الكريمة : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت  
عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » .

\*\*\*

لقد نفعنى الأدب في بنك إيسترن ، فهل ينفعنى الأدب عند ليلى ؟  
وهل نفعنى الأدب عند عروس دمياط حتى ينفعنى عند عروس بغداد ؟  
أمرى إلى الهوى !

\*\*\*

ظهر المقال الثانى في مجلة الرسالة وفيه كلام عن وزير المعارف ورئيس الوزراء ، وقد  
صارحنى السيد عبد الجليل الراوى بأن لذلك عواقب ...  
فليكن هذان المقالان كل ما أرسل إلى الزيات ، ولتكن هذه الحوادث بدايةً لرجوعى إلى  
العقل ، فأنا لا أزال شاباً ، ومن السهل أن أحسن سمعتى وأن أعيد تنظيم عيادتى في شارع  
فؤاد ، فلولا جناية الأدب لكنت اليوم أغنى الأطباء .  
على أنه لا موجب للندم على المقالين اللذين نشرتهما الرسالة ، فقد أصبح العراق جذوة  
وجدانية ، وضار اسم ليلى بداية كل حديث ونهاية كل حديث في الأندية والمعاهد ، بغضّ  
النظر عن الفتنة التى ثارت بسبب ليلى في الرستمية ، وبغضّ النظر عن المشاجرة التى وقعت  
من أجلها في كلية الحقوق ... وينبغى أن أسجل أن هذين المقالين جذبا الأنظار إلى المؤتمر

الطبيب ، فقد حدثني الدكتور حسين كامل أن طلبات الاشتراك بلغت المئات في أسبوع واحد ، والسبب لا يخفى على من سيقروا من مذكراتي في السنين المقبلة ، فقد صار مفهوماً أن ليلى ستحضر جلسة الافتتاح ، وإلى ذلك أشارت جريدة البلاد وجريدة العقاب وجريدة الرأي العام وجريدة الهدف ، وأنكرت ذلك مجلة الكفاح وقالت : إنه لا يليق بأمة إسلامية أن تُعرض امرأة لعيون الناظرين ؛ وفات مجلة الكفاح أن المؤتمر لا يُعقد هذه السنة في بغداد إلا بسبب النظر في أمر ليلى المريضة في العراق .

ولكن هل أسمح بخروج ليلى ؟ وهل ضاقت الحيل حتى أمكن الناس من رؤية ليلى ؟ رباه ! لقد بدأتُ أشعر بالغيرة على ليلى ، فهل تكون الغيرة نذيراً بهبوب عاصفة الحب ؟ أمرى إلى الهوى !

\*\*\*

نشرت جريدة البلاد في أبرز مكان كلمة تحت عنوان :

« أنشودة اللقاء »

ثم قالت إنها تلقت قصيدة موجهة إليّ بتوقيع ( ليلى المريضة ) وأنها حوّلت القصيدة إلى الدكتور زكي مبارك راجية أن يكون له فيها شيء من العزاء .

وقد تلقيت القصيدة وتأملت الخط ، فعرفت أنها من ليلى غير ليلاى .

ونشرت جريدة العقاب كلمة قالت فيها إنني شرعت في تعلّم الطب ، وذلك دليل جديد على أن شهرتي الأدبية أضاعت منزلتي في عالم الطب ، فمتى يشفيني الله من الغرام بالأدب وصحبة الأدباء !

آه ! آه !

هذا خبر جديد ، فقد أخبرني الدكتور حسين كامل أن الزيات سيحضر إلى بغداد لشهود المؤتمر الطبي ، وأنا أفهم جيداً ماذا يريد ، وهل تجوز عليّ الجيل وأنا خريج مونمارتر ومونبارناس ؟ هيئات هيئات !

• أترك هذا العبث في تدوين مذكراتي ، وأمضى لعيادة ليلى ، فقد طال الشوق إلى صوتها الرخيم و ... عينها الناعستين . أليست هي التي قالت : فراقك صعب ، سيّدى ! فراق صعب ؟ نعم ، إن ليلى تقول ذلك ، والقول ما قالت ليلى ولو كره السفهاء من العذال .

مفداد ٤٥/٨

لحظة انما نحن الدكتور زكي مبارك المحترم  
 بعد السلام عليكم ورحمة وبركاته : وبعد هذا الميماني  
 العاطف الصادره من قلب متفان . ومن نفسي «هادقة  
 مخودها وفيه مخلصه من هبها  
 الصديق هذه الدثوره صبرة بها عما يتا لمي صبري  
 من سرور بقاءك . واعجاب ~~ببقائك~~ ببقائك  
 وصحة اخلاصك . وتقبل مني شكر وحناني  
 الطيبة (

من صبيته الموحية

ليلى المريضة



(نشودة ملا القاسم)  
مرهدة الى الدكتور زكى ابرار

### قيس الطبيب

ايضا النفس ابشرى واظرب بمينة القلب بما تطلبى  
وانضرى زوال ضل البؤس واستبشرى  
وامطرى قلبك من فيض الرهني الكوثر  
واسكرى في صوتك العالم او عذب

x x x

يا طير غني يا عذرا نشيد باروض از هو يا زمان افعد  
وارشفو كأس الرهني فالدهر لا ينصف  
وامزفو في معرف الحب ولا تصرفو  
واقطفو لكل جميل فهو طوع اليد

x x x

ما اجل العالم ما ابدعه في ضل صب الحبيب والوحي يتبعه  
والنقى (واجل الدجمل يوم القي)  
يا شفي زل مخبيبي جاتني يا شفي  
فالبقى عندي لمن مثلك لا ينفعه

x x x

يا قيس ما هذا البعاد الطويل هل قد نسيت الحب ام تستطيل  
قل ليا ما شاك لم تنس ولدنا يا  
باقيا يضرر لي من جسد الضانيا  
بعد يا عنك لقد اسقم جسدي العليل

x x x

انت الذی قد قلت یا لینی      کنت طبیباً لندا وینف  
یا صیب      اشکر عطفاً لک لہا الغریب  
لہ طبیب      الذی لک لی انت الطبیب الذی دیب  
والصیب      نبقی وان نکان فی مکن

x x x

قد جرد الروض وفاض الربیع      ونامت الطیر وناہ القطیع  
والقدر      قد فرق الدرحا طاعدر  
واخذر      مجد عدشس الضی وانہدر  
والفر      قد غاب لایظهر لہ یسطع

x x x

محاسن الدنس عند صفصفا      لہ حشہ تبصر لہ عازفا  
لہ رجیم      یجمع عقد فضی کی یستقیم  
لہ سلیم      ما بقی الدخل من ینا سقیم  
لہ عظیم      ما دامت الہمة لن تعرفا

x

x

ہیما اتل فی الکون نشید الدمل      معی لکی نوقض روض العمل  
طرمعی      نقرس زہر الروض بالبلقع  
وانزعج      فظہا لقد جار علی المجمع  
وارفع      صوتک کی نوقض روض العمل

x x x

من حیبتک الوضیہ  
(لیلی المریضہ)

## ٨

... ومضيتُ أعود ليلى مرة ثانية ، بعد أن قبَلتُ الصورة التى أدفع بها وحشة الليل فى بغداد ، وبعد أن قرأتُ الرسائل المعطّرة التى وردت من مدينة بغداد وكذلك أعددت قلبى للرفق واللفظ ، وأنا فى عالم الطب كالْبُلْبُل فى عالم الأغاريد ، لا أطرب إلا بعد مُناجاة الأحلام ، ولا يطربُ إلا بعد أن تَضُوع من حوله أرواح الأزهار . فهل تعرف معنى ذلك تلك الإنسانة التى بلغ بها العناد أن تصرّح بأنها لن تفتضح فى حُبِّى إلا يومَ يظهر أنها دفعتنى إلى الخلود ؟

رباه ! ما أصعب تكاليف الخلود !

ولكن كيف ألقى ليلالى ؟

إننى أخافها أشد الخوف ؛ فقد بدت لى فى المرة الماضية على جانب من الوُغُورة ، ولا يبعد عندى أن تكون حمقاء ، فإن الجمال يورث أهله بعض نِخال النزق والطيش ؛ وأنا والله على استعداد لمقابلة الشر بالشر ، فإن رمتنى بالحمق رميته بالجنون ؟ ولكن ذلك لا يقع بدون جزاء ، فقد تفسد العلائق بين مصر والعراق .

\*\*\*

فراقك صعب ، سيدى ! كذلك قالت ليلى منذ ليلال .

فما الذى يمنع من الأدب ؟ وهل كُتب على أن أظل دهرى شقياً لا أعرف غير الرجز ؟ مالى لا أجرب الحب العذرى مرة واحدة فى حياى ؟ ما لى أُحرِم قلبى أطايب العفاف ؟ آمنت بالله ! وهل كنت فاسقاً حتى أفوه بمثل هذا القول ؟ إنك يا ربى تعلم كيف ابتدأت وكيف انتهيت . إنك يا ربى تعلم أنى أشرف مخلوق سوّته مِنّاك ، مع استثناء الأنبياء ؛ ولكنى طيب جنى عليه الأدب فسار فى بقاع الأرض أنه من الفاسقين .

\*\*\*

كيف ألقى ليلى ؟ تلك هى النقطة ، كما يقول لافونتين !

ألّفّاها بالتجارب التى أفدّتها فى باريس ، فقد وردت مدينة النور أول مرة فى سنة ١٩٢٧

وكنيت سمعت أنها مدينة تموج بالهوى والفنون ، فكان أكبر همى أن أعيش فيها عيش المجانين بعد أن عانيتُ الأمرين من عيش الجفاف في شارع الحمزاوى وعطفة الجمالية !

ودخلت السوربون ، سقاها الغيث ، وجعل الله لها لسان صدق في الآخرين ، فكانت عيني لا تقع على الأساتذة ، وإنما كانت تقع على الطالبات ، وهنّ في دروس الأدب أكثر من الطلاب . والفتيات هناك يفهمن وحي العيون ، وكان يتفق أن تلقاني فتاة بعد المحاضرة فتقول : من فضلك يا سيد ، هل عندك مذكرات عن دروس المسيو شامار ؟ فأجيب : نعم ، يا آنستي ! فتقول : هل تفضل فتعيرني إياها لأنسخها ثم أردّها إليك ؟ فأقول :: وهل لمثلي أن يرفض ما تطلب هاتان العينان ! فتنظر الفتاة إلّى نظرة سخرية وتنصرف !

وحدث مرة أن قالت لى فتاة ربّما الجسم كأتها من دميّاط : هل لك يا سيد أن تفضل فتعيرني مذكراتك عن دروس المسيو مورّنيه ؟ فقلت : لك ذلك يا آنستي ، ولكنى لن أعود إلى السوربون إلا بعد يومين . فهل أستطيع أن أراك غداً عندى في الساعة الخامسة لأقدم إليك المذكرات ؟ فأجابت بالقبول بعد أن استفهمت عن اسم الشارع ورقم البيت .

وما كاد يحين الموعد حتى كانت المائدة مجهزة بأطيب ما تملك فرنسا من ألوان الشراب ، ثم مضت ثوانٍ ودقائق وساعات ، ولم تحضر الفتاة ، عليها وعلى أمها اللعنات !

وفى ذات يوم قالت لإحدى زميلاتى فى الدرس إنها تعيد الرقص ، فقلت لى لا أحسن منه غير « الحنّجلة » ورجوتها أن تعيننى على إتقان ذلك الفن الجميل فأجابت جواباً كله إغراء . ولكننى اشترطت أن يكون ذلك فى غرفتى حتى لا يعرف أهل باريس أننى رجل « غشيم » .

وانتظرتُ ، ثم انتظرت ، ثم انتظرت ، ولم تحضر الراقصة الحسناء !

ولم تمض أسابيع حتى شاع فى جميع أروقة السوربون أنى فتى ماجنٌ خليع ، فكنتُ ألقى أطيب التحيات ولا يمينى مجيب . والشيطان يشهد أنى كنت فى ذلك العهد أعظم مغفل عرفته باريس .

ونظرتُ فرأيتُ فتياً أقلّ منى فتوةً وجاذبية يعيشون فى ظلال الحب عيش الملوك ، فعرفت أنهم يحسنون ما لا أحسن من فن الغرام ، وللغرام فنون ... !

\*\*\*

ولكن أين أذهب ؟ لقد ضاع حظى فى كلية الآداب ، فهل أذهب إلى كلية العلوم ؟ وكيف وهى أيضاً من السوربون ؟ فلم يبق إلا أن أذهب إلى كلية الطب لأقيم فيها تجارب الحب

من جديد ، بعيداً عن جوّ الأراجيف الذى خلقته تحلقاً بفضل الغفلة والجهل .  
 وكانت فرصة عرفتُ فيها قيمة الشر فى تحلق الرجال . فلولا الحب ما عرفت كلية الطب ؛  
 ولولا الطب ما سترفتنى الحكومة المصرية بمداواة لىلى المريضة فى العراق .  
 أقول إني ذهبتُ إلى كلية الطب بعد أن صقلتني التجارب ، وبعد أن عرفتُ أن من العيب  
 أن أخيب فى باريس وأنا شاعر سنتريس ؛ فلم تمض أيامٌ حتى كنت فى تلك الكلية فتى الفتيان .  
 وبيان ذلك أني كنتُ أخفى عواطفى كل الإخفاء ، فكنتُ ألقى الفتاة فلا أحدثها عن عينيها  
 وخديها وشفتيها ونهديها — وما أجمل نهود الفتيات فى باريس ! — وإنما كنتُ أسارع فأحدث  
 عن حدائق الحيوانات فى القاهرة وأقول إنها أجمل ما يعرف العالم من حدائق الحيوان فإن  
 اعترضت إحدى الفتيات وفضلتُ حدائق الحيوان فى لئذَنَ تحمستُ وقلت إن هذا مستحيل ،  
 لأن مصر هى البلد الوحيد الذى يطيب فيه العيش لأنواع الحيوان !  
 وما كنتُ أكتفى بهذا ، بل كنتُ أخترع أسماء وهمية للباحثين والمفكرين ، فكنتُ أقول إن  
 بلدنا هو الذى نبغ فيه فلان وفلان ، وهى أسماءٌ تحلى بها بعد ذلك جماعة من الناس .  
 وفى أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناى فى أعطاف الفريسة الحسنة ، فإن بدا لها أن  
 تعترض على ما تقول عيناى ، أنكرتُ ما تقول عيناى : وهل كنتُ مسئولاً عما تقوله عيناى ؟  
 وما هى لغة العيون ؟ وهل للعيون لغة ؟ إن هذا إلا اختلاق !  
 وما زلت أوجل فى المداهنة والتفاق حتى تقدمتُ إحدى الفتيات وقالت : ما أجمل عينيك  
 يا مسيو مبارك ! فتكلفتُ الغضب وقلت : أنا أكره المزاح ! فطوقتني بذراعيها وقالت : أنا  
 أحب الشبان العقلاء ! فقلت : وأنا أحب المجانين من الفتيان !  
 وكانت لحظة ستُنصبُ لها الموازين يوم يقوم الحساب !

\*\*\*

وفى ظلال هذا الروح الطيب مضيئٌ لعيادة لىلى ، وقد صممت على الخوض فى أحاديث  
 لا تتصل بالحب . وما قيمة التجارب إن لم تنفع وأنا فى ديار الاغتراب ؟  
 دخلت على لىلى فى ليلة مطيرة غاب فيها القمر وغابت النجوم ، فتفضلتُ حرسها الله  
 ومدت يديها الناعمتين لمعاونتى على درج السلام ، فشعرتُ كأن خيوطاً من نور تجذبني إلى  
 العلية ، وقد تكلفتُ التعب والضعف لأرى كيف تجذبني تلك الأنامل الرقاق . وكانت لحظة  
 سحرية لا يعرفها إلا من أسدلت عليه الستائر فى ليلة قمراء بالقصر الذى يعرفه القلب فى  
 الشارع رقم ١٣ بالضاحية ... إحدى ضواحي القاهرة الفيحاء .

رباه ! إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك ، فاجعلها عامرة أبد الآبدين ، واجعلها إلى يوم القيامة عروس الشعر والخيال ، بل احفظها واجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقي المخلصون جزاء ما يعملون !

رباه ! إن القاهرة هي الشاهد على أن اللغة العربية خليقة بالسيطرة في عالم العلم والمدنية . رباه ! إن القاهرة من أجمل ما خلقت من المدائن فاجعلها كنانتك واحفظها من سوء حتى أعيش فيها عيش السعداء ، وحتى يعيش فيها أبنائي وأحفادي وأحفاد أحفادي عيش النضرة والنعيم ، على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية .

\* \* \*

كانت ليلى في زينتها ، وكنت في عقلي !  
وكان في نيتي أن أثير الجدل حول « قضية الأخلاق » التي اشتجرت فيها أقلام الخولى وعزام والزيات ، وكنت أنوى أن أقرر أن المنافقين ينجحون باسم الأخلاق ، فكيف لا ينجح بها الصادقون ؟ وكنت أحب أن أقول أيضاً إن الثورة على الأخلاق كالثورة على الدين ، فالذين يثرون على الدين لا يُغضونه من حيث جوهرة ، وإنما يحاربون الأبالسة الذين يسترون سواتهم بتكلف الغيرة على الدين . وكذلك يثور على الأخلاق من يؤذيه أن يغار المنافقون على الأخلاق . وكان من شهوة النفس أن أعلن في حضرة ليلى أن أهل البلادة يسترون تخلفهم بالأخلاق فإذا رأوا رجلاً قوياً القلب مُشرق العبقرية ، أسرعوا فاتهموه بضعف الأخلاق لينفض الناس من حوله ويخلو لهم الميدان . ومن أجل هذا كان من النادر أن يمر بهذه الدنيا رجل عظيم بدون أن تطول في تجريحه السنة المتخلفين والمنافقين . وهل سلم الأنبياء من السنة الناس ؟ كان في نيتي أن أصول وأجول في حضرة ليلى ، فأعظم لذة في الدنيا أن يعذب لسانك ، وتقوى حجتك ، في حضرة امرأة حسناء . والكلام في هذا الموضوع يسهل على بفضل ما أضعت من العمر في دراسة علم النفس وعلم الأخلاق ، وبفضل ما ابتلاني الدهر من معايشة أهل الرياء .

ولكن ليلى ابتدرتني وقالت :

هل قرأت العدد الأخير من مجلة الرسالة ؟

وما كادت شفتاها تفصحان عن هذا السؤال حتى كاد قلبي ينخلع ، فقد تذكرت أنني رجعت عن عزيمتي في طي هذه المذكرات وأرسلتها جميعاً إلى الزيات . وهل أخاف ليلى أكثر مما أخاف سعادة الأستاذ محمد العشماوى بك الذى أوصانى بالاعتصام بالعقل يوم سفرى إلى

العراق ؟ وما وجه الخوف ؟ إن مذكراتي بريئة من العبث ، وأنا أعيش في بغداد عيش النساك ، وإن لم يكن لي فضل في هذا التنسك ، فإن الحفلة التي كرمني بها أدباء بغداد جعلتني ممن يشار إليهم بالبنان ، ولم يبق من ميادين الهزل غير تذكر الأحلام القديمة ، أحلام القاهرة ومصر الجديدة وباريس .

ثم تشجعت فقلت : وماذا في مجلة الرسالة ؟

فقلت : إن الأستاذ سعيد العريان يتحدثك .

فبلغت ريقى ، وحمدت الله . وهل يؤذيني أن يتحدثني كاتب من الكتاب ؟ يرحم الله الأيام الماضية حين كان الأدباء يتهيبون المرور في طريقي ، وحين كانت مقالاتي في جريدة البلاغ كالسيف المصلت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين . يرحم الله الأيام الماضية حين كان أعظم الرجال يسرهم ويشرفهم أن أهجم عليهم في جريدة البلاغ . ولكن وأسفاه ! أنا اليوم أعيش في قفصين من الفولاذ . وهل كان الدكتور طه حسين يمزح حين قال : تذكر يا صديقي أنك أصبحت موظفاً في حكومتين ، وأن مركزك دقيق ؟

\*\*\*

لقد قرأت كلمة الأديب العريان ، ولكن لا بد من التجاهل لتعيدها ليلى على مسمعى ، فإن الهجوم على يعذب ويطيّب حين أسمع من ليلى . وهل كانت رخامة الصوت إلا عند ليلى ، ليلى التي زعموا أنها مريضة في العراق ، مع أن في صوتها من الخلاوة ما يهتّد رواسى الجبال ؟ وقرأت ليلى :

« ولقد سرني والله أن تُعنى وأنت في العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر ، وإنها لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كل العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد » .  
— أعيدى يا ليلى .

— ولماذا ؟

— أعيدى يا ليلى ، ففي مصر إنسان يشهد بأنّي أعرف معنى الوطنية ! وهل كنت في حاجة إلى من يشهد لي بصدق الوطنية ؟ عشنا وشقنا !  
— ولكنه يتهمك بمصانعة أهل العراق !

— أنا أصانع أهل العراق ؟ وهل صانعت أهل مصر حتى أصانع أهل العراق ؟ لقد جنّث على الشجاعة ما جنت فلم أتائب ولم أتوجّع ، وتركّ الجبناء يتمتعون بمناصب كنت بها أحق ، فكيف جاز لأديب مصرى أن يتهمنى بالمصانعة في معاملة أهل العراق ؟

إسمعى يا لىلى . إن هذا الأديب نسى أن مجلة « الرسالة » لها في العراق قراء يعدُّون بالألوف ، ونسى أن كلمته قد تؤذيني ؛ وهذا الأديب الطيب القلب نسى أيضاً أن أهل العراق لن ينتظروا شهادته في عبقرية زكى مبارك ونسى كذلك أننى لا أحتاج إلى سناد يتفضل به كاتب يجعل الرافعى إمام الأدباء . فأنا أعيش في مصر والعراق بفضل الله وبفضل عزيزتى ، وإن كنت لا أنكر أن في مصر إخواناً كراماً يجعلون سيرتى مسك الختام في كل حديث .

إسمعى يا لىلى . إن أدباء مصر لا يعرفون عواقب ما يكتبون . أليس من البلاء أن أنفق أوقات الفراغ في الدفاع عن مصر والمصريين ؟ أليس من البلاء أن يكون من واجبى أن أتنقل في الأندية والمجتمعات لأصحح الأغلاط التى يرتكبها الكتاب المصريون ؟ إن مصر ليس لها مطامع في العراق ، ولكن ما الموجب لحرمان مصر من مودة أهل العراق ؟ إن العراقيين يروننا إخوانهم ، أهلاً وسهلاً ! فبأى حق يستبيح ناس في مصر أن يفوهوا بكلمات ينفر منها أدباء العراق ؟ إن مصر تنفق ألوف الدنانير لتؤسس صداقات ومودات في الأقطار الأوربية والأمريكية ، فكيف يغيب عنها أن تنفق الكلمات الطيبات لتؤيد ما يربطها من العلائق بالأقطار العربية ؟ هل يعلم أدباء مصر — ولا سيما أعدائى — أنى أدفع عنهم قالة السوء في العراق .

إسمعى يا لىلى . إن أهل بلدكم يقولون إن زكى مبارك لا يزال يحافظ على مصريته ، وهذا حق ، ولكننى أتشبه بمصر في سبيل اللغة العربية ، فاللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى سيكون في المستقبل أساس ما سيعرف الشرق العربى من قوة البنين .

\*\*\*

وكنْتُ وصلتُ إلى حد من التأثر انزعجت له لىلى . فقالت : هوّن عليك يا صديقى ! فنظرت إليها نظرة الطفل المكروب إلى أمه الرعوم ، ثم قلت : لىلى ، إنها سنة واحدة أقضيها في العراق ! فقالت وهى تنهد : ستبقى عندنا طول حياتك . فأجبت : على شرط أن تُغفونى من هفوات الكتاب المصريين الذين أحمل جرائرهم صباح مساء .

فقالت لىلى : وعلى شرط أن تنسى مصر الجديدة والزمالك !

فقلت : ذلك إليك يا لىلى !

فصوّبت إلى عينين عاتبتين ، فعرفت أنها تُنكر التشبيب .

ما أجمل لىلى حين تعتب بعينها ! إن لىلى جميلة يا بنى آدم ، وإنها لخليقة بأن ننسينى من في



— ٥٩ —

مصر الجديدة ومن في الزمالك ، إن جاز لقلبٍ مثل قلبي أن يعرف العقوق .

\* \* \*

— ليلى !

— مولاى !

— ليلاى !

— لست ليلاك !

— معذرة يا ليلي ، فأنا طيب جنى عليه الأدب . وهذه عبارة شعرية سبقت إلى اللسان .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول ... أريد أن أقول إنى سأعيش في بلد كم سنة واحدة ، أعنى أننى سأفارقك

بعد أشهر معدودات .

— هذا وعيد ؟

— لن أعيش في بلد كم إلا إذا عينتني الحكومة المصرية واعظاً في بغداد .

— واعظ ؟ ما هذا الكلام ؟ هل جُئنت ؟

( وقد انتشيتُ من هذه العبارة لأن المرأة الجميلة لا تصف الرجل بالجنون إلا إذا ارتفع بينه

وبينها التكليف ) .

— ما جُئنتُ ، وإنما أقول إن المصريين والعراقيين يحتاجون إلى من يرعى العلائق بين البلدين

فلا ينشُر خبر في جرائد العراق عن مصر ، ولا ينشُر خبر في جرائد مصر عن العراق ، إلا بعد

أن يمر على رجل حكيم يفهم عواقب ما تنشر الجرائد والمجلات .

— وأنت ذلك الرجل الحكيم ؟ آمنت بالله !

— اسمعى يا ليلي ، إن المحررين في الصحف يحتاجون إلى لجام من العقل والذوق .

— دع هذا ، وحدثني عما تعرف من أسرار ليلى المريضة في لبنان .

— تريدين ( فلانة ) التى قيل إنها كانت تحب الرافعى ؟

— نعم ! وهذه أهم نقطة تعينى في كلمة الأديب العريان .

— وأنا أريد أن أؤمن على مصر وأدباء مصر فأقول إنى قضيت في بغداد سنة كسبتُ لوطنى

فيها ألوفاً من الأصدقاء .

— أنت تمنُّ على وطنك ، والمنُّ على الوطن لا يليق بكرام الرجال

— وماذا أصنع إذا كان وطنى لا يعرف غير من يمتنون عليه ؟ وهل يعرف وطنى أنى أكتب

— ٦٠ —

فى كل أسبوع أكثر من تسعين صفحة وأشتغل أكثر من سبع عشرة ساعة فى كل يوم ؟ هل يعرف وطنى أنى أهتم بالمصريين المقيمين فى العراق أكثر مما أهتم بنفسى ؟ هل يعرف وطنى أنى أزور كلية الحقوق مرتين فى كل يوم لأطمئن على صحة الدكاترة عزمى وفهمى وسيف ؟

— ومن هؤلاء ؟

— هم أساتذة فى القانون لا فى الطب ، وهم من أبناء القرن التاسع عشر .

« وكانت غلطة فظيعة ، فإنه لا ينبغى أن تعرف ليلى من المصريين أحداً سوى » .

— حدثنى عن ليلى المريضة فى لبنان .

— كانت ليلى المريضة فى لبنان زميلتى فى الدرس يوم كنا طالبين فى الجامعة المصرية ؛

وكنى أتقرب إلى قلبها باغتياب الأساتذة ، فأزعم أن الكونت دى جلاز لا يفهم الفلسفة ،

وأن الشيخ المهدي لا يعرف أسرار الأدب ، وأن الشيخ الخضرى لا يدرك حقائق التاريخ ، وأن

إسماعيل بك رأفت يجهل الجغرافيا ووصف الشعوب !

— يظهر أنها كانت طالبة شقية ؟

— كانت أشقى من ليلى المريضة فى دمياط .

— أنا لا يهمنى إلا الوقوف على أسرار ليلى المريضة فى لبنان .

— انتظرى ، انتظرى ، إن الله مع الصابرين .

---

خرجتُ من عند ليلي وقد انتصف الليل ، فما كدت أبلغ الجادة حتى لحت إنسانة تعدو خلفي في الدربونة<sup>(١)</sup> فالتفتُ فإذا هي ظمياء .

— دكتور ، متى أرجع إليك ؟

— حين تشائين يا ظمياء ، ولكن ما الموجب لهذا الاستعجال ؟

— هل نسيتُ البقية من قصة ليلي مع عبد الحسيب ؟

— ما نسيْتُ . ارجعي إليّ مساء الغد يا ظمياء ، ومعك ماعونٌ من الكُبة الموصلية<sup>(٢)</sup> .

\*\*\*

لا موجب للنفاق في هذه المذكرات ، إن ظمياء فيما يظهر تشهى أن تتكلم في عبد الحسيب ؛ وأنا فيما يبدو أتشهى الكلام عن درية ؛ وأكرر ما كتبتُه من قبل : ( إني لا أعرف كيف يلذعني هذا الاسم ) وربما كان هذا من جنون الشعراء ، فأنا شاعرٌ مُقِلٌّ ، ولكن الاقلال لا يمنع من التشرف بجنون الشعراء . ولعل الاقلال أدل على الجنون ، وإلا فما الذي كان يمنع من أن أفجع العالم بعدة دواوين ليصبح شعري حديث الأدباء في سائر البلاد ؟

دزية ! درية ! ما أعذب هذا الاسم ! وما أشقائي في ( استلطاف ) الأسماء !

\*\*\*

رجعتُ إلى المنزل وأنا أتشوق إلى اقتيات النعاس ، فقد كنتُ انتشيت من حديث ليلي ، والمنتشون يتشوقون إلى الهجود ؛ كذلك سمعت . ولكنني صادفت ما أطار النوم من رأسي ، فقد وجدت جريدة الشباب بين البريد وفيها هذه الكلمات :

« فُجِعَ الأدب والعلم ونُكِبَت الأخلاق الكريمة بوفاة الأديب الكبير المحقق والكاتب العبقري المنقطع النظر المرحوم الأستاذ محمد صادق عنبر المنشئ الشهير واللغوي المعروف ،

(١) الدرب في مصر هو الدربونة في العراق .

(٢) الكبة عند العراقيين هي الكبيبة عند السوريين ، ويقال إن الكبة الموصلية كانت السر في براعة أبي

إسحاق في الغناء !

فقبول الخبر يحزن شديد ، وألم عميق ، لما اشتهر عن المرحوم من واسع العلم والاطلاع وصدق الوداد ومكارم الأخلاق » .

وقد هدنى هذا الخبر المزعج ، ونشر أمام عيني كثيراً من الصور والأطيان ، فتذكرت أنى رأيت صادق عنبر أول مرة سنة ١٩٢٣ فى جريدة الأخبار ، فسألنى عن أفضل من الشعراء فقلت : شوقي ، فقال : أسألك عن الشعراء الثلاثة . فقلت : ومن هم ؟ فقال : أبو تمام والبحترى والمتنبى فقلت : أنا أفضل الشريف الرضى على هؤلاء الثلاثة . فاستغرب وقال : هذا كلام لم يقل به أحد سواك !

وتذكرت أنى كنت أتلقي مجلة النهضة النسائية وأنا فى باريس سنة ١٩٢٧ وفيها رسائل وجدانية عنوانها : ( الرسائل الضائعة ) وهى رسائل نفيسة بقلم صادق عنبر ، فلما لقيته بعد حين أثبتت عليها ، فقال وهو يتوجع : ليها كانت صحيحة ، فهى خيالية ! فقلت : ليتك تمضى فى هذا النظام البديع !

وبعد رجوعى من باريس فى سنة ١٩٣١ كان أول من سأل عني ، فمررت عليه فى قلم المطبوعات فحبسنى ساعتين ليمتع أذنى برسائله : ( رسائل الحب بين قيس وليلى ) فقلت : أهى أيضاً رسائل خيالية ؟ فتنهد وقال : لو كانت تنبئ عن وجد دفين لما كان جسمى أضخم جنس فى هذه البلاد ؟ فنصحته بتكلف العشق ليخف وزنه فيمسى وهو فتى رشيق !

وتذكرت أنى أردت مداعبته فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٥ فذهب إلى صديقى الأستاذ كامل كيلانى وقال له : قل للدكتور زكى مبارك : إن صادق عنبر لن يقرأ البلاغ ولن يعرف ماذا يقول ؛ فليشق حضرته بأن الأرض لن تزلزل تحت قدمي ، ولن يتقوض ماضى صادق عنبر لأن زكى مبارك يهجم عليه فى جريدة البلاغ !

وتذكرت والدمع يملأ عيني أن الأستاذ محمد على الطاهر أراد أن يحتفل بسفرى إلى العراق فدعانى إلى الغداء عند العجاقى مع جماعة من أهل الأدب والعلم والبيان ، كان فيهم الأستاذ صادق عنبر ، ولكنه يومئذ لم يشترك فى أطايب الحديث ، فهل كان انتهى من دنياه ؟ يرحمك الله يا صديقى ، ويرحم عهدك فى جريدة اللواء ، يوم كان أكثر كتّاب اليوم أطفالاً يلعبون !

\*\*\*

الشجى يبعث الشجى !

هل أستطيع أن أنتهز هذه الفرصة فأجود فى هذه المذكرات حادثة عجزت عن تدوينها منذ

أشهر طوال ؟ هل أستطيع أن أقول بصراحة إننى كنت من أشد الناس ارتياحاً إلى اصطحاب الجدل السياسى فى مصر ؟ لقد آن لقلبى أن يفصح عن بلائه المكنون . إن الجدل السياسى فى مصر كان نعمة وارفة الظلال لأنه استطاع أن يشغل صديقى الأستاذ عباس الجمل عن أفدح نكبة أصيب بها فى دنياه ، وهى اختصار الغصن المطلول الذى اسمه طاهر عباس الجمل الطالب بكلية الحقوق<sup>(١)</sup> .

آن أن أصرح بأن هذا الأديب المفقود كان يحفظ ديوانى ، وأنه تفضل فأسمعنيه قبل أن يذهب إلى دمياط يوم واحد . آن أن أصرح بأن هذا الشاب كان يراى أكرم أصدقاء أبيه ، وكان يرى من البر أن يحفظ أشعارى ويقتنى مؤلفاتى . آن أن أبكى هذا الشاب النبيل الذى كان أظهر ضحية ظفرث بها الأمواج .

لقد حضرت الذكرى الأخيرة من ذكريات سعد زغلول وكان مجلسى فى السرداق يواجه مجلس النقراشى باشا فلم أسلم عليه ؛ وظن بعض الحاضرين أنى خشيت أن يكون فى السلام عليه ما ينقض مودتى للنحاس باشا . فهل أستطيع أن أنص فى هذه المذكرات على أنى لم أخف يوماً إلا أن يقع بصرى على الأستاذ عباس الجمل فأذكره بتلك المصيبة التى تذيب لفائف القلوب ؟

كان طاهر الجمل لا يلقانى فى الطريق إلا دعانى إلى رؤية منزلهم الجديد فى مصر الجديدة ، وكان يغربنى فيقول : إن لونه كالثعلب ! ولكنى لم أطعه ولم أر المنزل . وما أظننى سأراه فى بقية حياتى ، لأن جزعى على طاهر خليق بأن يقتلنى إذا رأيت ما كان يهواه فى دنياه . أخى الأستاذ صادق عنبر .

أرأيت كيف كانت مصيبتى فىك باباً من البلاء ! إن طاهراً فى نضارته كان مثلك فى ذكائك ؛ وعبقريته النضارة لا تقل روعةً عن عبقرية الذكاء . وأنت قد تجدد من بحبر الرسائل الطوال فى الشاء عليك ، وقيم لك حفلات التأين ؛ أما طاهر الجمل فيستصغر ناس قدره ، لأنه كان طالباً بالسنه الثالثة بكلية الحقوق ، فلم يبق إلا أن أقف وحدى لبكاء تلك الزهرة النضيرة التى اقتطفها الموت فى شاطئ دمياط . وما يؤذبنى وأنا أكتب هذه الكلمات إلا أن تحمل نسائم الهواء إلى الأستاذ عباس الجمل أننى

(١) الاختصار بالخاء المعجمة هو الموت فى عهد الحداثة والشباب .

فكرت في طاهر ، فيتذكر أنني ما عزيتته فيه ، فيتجدد عَته على صديقه القديم ، أو يؤذيه أن يتذكر ابنه بعد تناس ؟ ولكن كيف يتناساه بعد أن نعم بوجهه وروحه سنين ، وأنا ما نسيتته مع أن بصرى لم يقع على وجهه الجميل غير مرات ؟  
يا طاهر !

أذكرني عند ربك ، وقل إن في سكان الأرض ناساً يحفظون الجميل !

\* \* \*

وقضيت تلك الليلة وأنا مؤرق الجفون ؛ وزاد في الغم والحزن أن الوهم تحيل إلي أن صادق عنبر قد يكون مات بسبب ليلى ، مع أن ليلاه خيالية ، فكيف يكون مصيرى وليلى امرأة رخيصة الصوت ، ساحرة العينين ، تقيم بشارع العباس بن الأحنف في بغداد ؟  
فكرت ثم فكرت ، والشُّجون من جملة الأرزاق !  
ولكن وقع حادث طريف خفف ذلك البلاء :

فقد صمم سعادة وكيل وزارة المعارف العراقية أن يزورني في منزلي ليؤدي واجب التحية لرجل هاجر وطنه وأهله ليتشرف بخدمة الأدب العربي في العراق ؛ وكانت زيارته في الليل ، فراحه أن يرى الظلام يعمّر السلام والدهاليز ، فاستشاط غضباً وقال : كيف يجوز لصاحب المنزل وهو عضو بمجلس النواب أن يُهمل الإضاءة الواجبة ، وهو يعلم أن من سكان منزله صاحب « النثر الفني » ؟ سأعرف كيف أحاسب ذلك النائب وكيف أقهره على تعميم النور في دهاليز البيت ؟

فقلت وأنا أتحوّل العواقب : أنا مطمئن إلى هذا الظلام يا سعادة الأستاذ ... !

فقال : وأنا أخشى أن تشكونا إلى مجلة الرسالة أو جريدة البلاغ .

ولم يمض يومان حتى نفذ النائب المحترم ما أراد سعادة الوكيل .

ولكن ظمياء استراحت بهذه الأنوار ورفضت دخول البيت ؟

— ماذا تتخافين يا ظمياء ؟

— أخاف الأفاعيل والأراجيف .

— من المفهوم أنك وصيفة ليلى ، وأنى طيب ليلى .

— هذا كلام لا يصدّقه غير المطلعين على ما جرى في هذا الشأن من المخابرات بين الحكومة

العراقية والحكومة المصرية .

— والجنهور ؟

— ٦٥ —

- أترى الجمهور يصدّق أنك جئت لمداواة ليلى المريضة في العراق ؟
- خير أسود !
- خير أسود ، خير أبيض ، خير بنفسجي ، خير حمري ؛ أنا لا أدخل هذا البيت في هذه الأنوار وكل سكانه يعلمون أنك رجلٌ وحيد .
- نعم ، أنا رجلٌ وحيد .
- وحيد ، أعني تعيش وحدك .
- مفهوم ، يا ألام الناس في بغداد .
- إيش لون ؟
- لا شيء ، أقول إنه لا موجب لهذا التخوف ، فأنا طبيب ليلى وأنت وصيفة ليلى .
- اسمع يا دكتور ، أنا أتق بأمانتك ، وليلى لم تنهى عن التودد إليك ولكنني لأقبل أن أكون مُضغّة الألسنة في هذا الحان .
- ومن الذي سيعرف مثلاً أنك ظمياء ؟
- يجب أن تفهم أنك في بغداد !
- باسم الله الحفيظ !
- اسمع يا دكتور ! يظهر أنك رجل طيّب أكثر مما يجب . إن التعرض لأقوال الناس كالعرض لأقوال الجرائد ؛ وربما كان كلام الجرائد أسلم عاقبة من كلام الناس ، لأنك تستطيع أن تكذب ما تنشر الجرائد من الباطل فتدفع ما تؤذيك به من بهتان ؛ أما كلام الناس فلا سبيل إلى دفعه لأنه ينتقل من أذن إلى أذن ومن لسان إلى لسان ، ثم لا تمضي أيام حتى يأكل لحمك المُفترّون ، ويأثم بسببك الأبرياء .
- وماذا أصنع يا ظمياء ؟
- ارحل عن هذا البيت .
- وكيف بعد أن تكلف صاحبه ما تكلف في تبديد الظلمات ؟
- اختلق سبباً من الأسباب .
- أختلق ؟!
- الاختلاق مما يجوز في بعض الأحيان .

\*\*\*

وعندئذ تذكرت أن الأستاذ محمد بهجة الأثرى كان اقترح على صاحب البيت أن ينظم  
( ليلى المريضة في العراق )

الحمام ولم يفعل ؛ فطمأنتُ ظمياء ، ومضيت فقضيت معها السهرة في بيت أمها ، وهو منزل صغير في درب ضيق لم أسأل عن اسمه وهو درب يشبه ما يسمونه في مصر : شق الثعبان . وفي صباح اليوم التالي قابلت حضرة النائب المحترم وذكرته باقتراح حضرة الأستاذ محمد بهجة الأثرى ، فاراد أن يتحلل من الوعد فتكلفت الغضب وقلت في سخرية مصطنعة : كذلك تكون وعود النواب يا سيد عبد الهادى !

ولم تمض غير ساعاتٍ حتى انتقلتُ إلى منزل آخر في شارع السموءل . ولكن كيف انتقلت بهذه السرعة في يوم واحد ؟ ذلك أمر كان يعجز عنه السنهورى والزيات وعزام . والواقع أنى رجلٌ تحيطُ جداً ، فقد أُمسيت أعرف بغداد كما أعرف باريس ؛ ومعرفتي بهاتين المدينتين تساوى جهلى بمدينة القاهرة التى لا أعرف منها غير ثلاثة أحياء . أما الإسكندرية فلا أعرف منها غير الشاطئ الذى تُعطرُه أنفاس الملاح في الصيف .

\* \* \*

ولكن لماذا اخترت شارع السموءل ؟ لأنه شارع البنك وأكثر سكانه من أهل المال ، وأهل المال في الأغلب لا يعتدون على الأعراض ، وإنما يعتدون على الجيوب ، فالشرطة في مثل هذا الشارع لا تفكر في الفجرة وإنما تفكر في اللصوص ، وكذلك تُعودنى ظمياء بلا تيب ، لأن المآثم في هذه الجادة قليلة الخطور بالبال ، وذلك كل ما أتمناه للسلامة من أهل الفضول وقد عزَّ على أن يتناول بنو إسرائيل على اسم السموءل فيسموا به شارع البنك ، وكان السموءل على يهوديته عربياً سخى اليدين ، فما كان ضرهم لو نطقوا اسمه على طريقتهم فقالوا ( صمويل ) ؟ ثم تذكرت أن السموءل كان أقدم من عبَّر عن ضمائر البنوك حين قال : وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول فالبنك هو الذى يُنكر ما نقول ، ولا تستطيع أن تنكر ما يقول ، فهو الفيصل في التصحيح والتزييف .

ولعل انتقالى إلى شارع السموءل يُدخل على طباعى بعض التعديل ، ولعلنى أكتسب شيئاً من أخلاق بنى إسرائيل ، فإن الحب يبدد ما أجمع من المال . أليس من السفه أن أرانى مسؤولاً عن طوائف من البيوت تُسدل ستائرُها على طوائف من الوجوه الصُّباح ؟ وهل رأى الناس حالاً أغرب من حالى وأنا أنفق على بيت في النمس منذ سبع سنين لأن فيه فتاة جميلة كانت



ترافقني في السوربون ؟

أمرى إلى الهوى !

\*\*\*

تركت أول منزل سكنته في بغداد . ويا حسرة القلب على فراق ذلك المنزل الجميل ! فقد كان صورة صحيحة للمنزل الذي كنت أسكن فيه حين كنت طالباً بالأزهر الشريف . كان صورة لرّبع يعقوب بالغورية ، على أيامها السلام ! وكانت جاراتي في ذلك الربع من الغيد الحسان ، وكان فيهن إسرائيلية تأتمنني على كل شيء وتقول : الشيخ زكي مُسلم ولكنه ابنُ حلال .

وكنت حقاً ابن حلال . كنت مستقيماً أؤدي الفرائض والنوافل وأقرأ الأوراد ، وما تغير حالي إلا منذ استطعت أن أقول : بُنْجُور مَدْمُوزِيل ! بُؤْسُور مَدَام !

لم أفارق منزلي في شارع الرشيد بدون حسرة لاذعة ، فقد أقمت فيه ثلاثة أشهر أنشأت فيها تسعمائة صفحة ، واستقبلت فيه ظمياء تسع مرات وهو يذكرني بمأوى القديم في رّبع يعقوب الذي ألفت فيه كتاب ( الأخلاق عند الغزالي ) واستقبلت فيه الشيخ الزنكلوني والشيخ عبد المطلب ويذكرني بأول منزل سكنته في مصر الجديدة وهو الذي ألفت فيه كتاب « التصوف الإسلامي » واستقبلت فيه الدكتور طه حسين والمسيو لالاند والمسيو ماسينيون ، ويذكرني بغرفتي بشارع أُرّاس في باريس ، وهي الغرفة التي ألفت فيها كتاب « النثر الفني » وسمعت فيها أنغام اللغة الفرنسية كما ينطقها بناتها ، وكما يلحن بها الإنجليزيات والاسبانيات والمسيويات والألمانيات ، ولا سيما الشقراء التي ما كانت تتكلم بغير الغناء :

هل الله عافٍ عن ذُنُوبٍ تسَلَّفَتْ أم الله إن لم يَعْفَ عنها يُعيدها ؟

أمرى إلى الهوى !

\*\*\*

لقد انزعج صاحب المنزل حين رأى الحمالين من الأكراد يتقلون أثقالاً ، وبالغ في التلطف ليردني إلى المنزل ، ولكن هيهات ، فأنا طيب أفسده الأدب ، والطبيب الفاسد لا يطافي . أنا أعرف أني خاصمتُ نائباً ، ولكن يعزّيني أن نواب العراق لا يلفتون إلى المسائل الشخصية ، فلن يبالئني شرٌّ من هذا النائب على الإطلاق . وسأرجو الأستاذ معروف الرصافي أن يصلح ما بيني وبينه إن رأيت ما يوجب ذلك ... وهل من الكثير أن أخرج على أصول الأدب والذوق في سبيل ظمياء ؟ إن هذه الوصفة تعرف جميع أسرار ليلى وهي أيضاً ستحببني

عن دُرّية . وبالوعة القلب من طيف درية ! فهل يتلطف الحظ فيمتعني بهوى امرأة تحمل هذا الاسم الجميل ؟

\* \* \*

إن أحزاني لا تحملها الجبال ، ولكن الله بعباده رؤوف رحيم ، فهو يسوق إلّى موجبات الابتسام ، أنا الرجل الحزين الذى لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين ، وكيف أفرح وقد طلبنى أى يوم موته أكثر من خمسين مرة فلم أكد أصل إليه حتى بكته النائحات ؟  
انتظرت ظمياء فى المنزل الجديد وأنا محزون ، وأشهد أنى مُكرمة على تأدية هذه الخدمة الوجدانية ، فما أعرف كيف يصير حالى مع ليلى ، ولعلها تُعافى ويمرض الطبيب !  
ودخلتُ ظمياء وهى تُرغى وتُزبد .

— هل عرفتَ ما صنعت المرأة جميلة ؟

— ماذا صنعت ؟

— لقد مزقت قمصانك بعد أن غسلتها وكوثها .

— عجيب ! ولماذا ؟

— لأنها قرأت فى مجلة الرسالة أن اسمها جميلة ، واسمها الحقيقى هو ...

وعندئذ ضحكْتُ ضحكة قوية كادت تمحو سطور الأحزان من القلب العميد .

إن تلك المرأة لم تعرف إحسانى إليها بتلك التسمية ، فقد خلعتُ عليها اسماً أحبه أصدق الحب ، ورحمتها من الاسم الذى كانت تحمله ، لأنه يقربها من شيخ أبغضه أشد البغض ، ويكفى أن يكون اسمها واسمه مبدوءين بحرف الحاء !

تلك امرأة حمقاء ! ولكنى لن أنسى معروفها عندي ، فقد كانت أول امرأة خدمتنى فى بغداد . ولو رآها الجاحظ لصاغ لها عقود الشاء .

\* \* \*

— ظمياء .

— إى ، مولاي . .

— لا أريد أن أسمع اسم هذه المرأة مرة ثانية ، ولا أحب أن أراها بعد أن مزقت قمصانى .

— وأنا أكره لسيدى الطبيب أن يتصل بهذه المرأة فقد بدأت تغتابه منذ يومين .

— تغتابنى ؟ وما عساها أن تقول ؟

— تقول إنك تحب ليلى .

— ٦٩ —

- أنا أحب ليلي ؟ وهل جُنِنْتُ حتى أحب امرأةً عليلَةً لا تملك من شواهد الحياة غير صوتِ  
بُغُومٍ وطَرْفٍ يشيع فيه التكسُّرُ والنُّعاسُ ؟
- إيش لون ؟
- ما أدري يا ظمياء .
- الأفضل أن نعود إلى قصة عبد الحسيب .
- أو قصة درية .
- قصة عبد الحسيب .
- قصة درية ، قصة درية .
- وهل تكره قصة عبد الحسيب ؟
- قُصِّي عليَّ حديث الأخوين : درية وعبد الحسيب .
- وأخذت ليلي تقلُّبُ الجرائد بحضور السيدة نجلاء ، فرأت في السياسة الأسبوعية مقالة  
في رثاء أستاذ مستشرق اسمه بول كازانوفاً كتبها أستاذ مستغرب اسمه طه حسين . وتدخل  
الشيخ دعاس ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق .
-

أقف قليلاً حتى أستعدّ لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد أنى سمعتُ بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح يُزعجنى ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثانى ، وحماسة ظمياء فى سرد القصة قد تنتهى بتذكير لىلى بماضيه فتتكس وتضيع من يدي ، لا قدّر الله ولا سمح . وهل أملك زمامها إلا أن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها السلامة ، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبى نحو نفسى أن أنص بصراحة على أنى لست لثيماً كل اللؤم فى هذه القضية — وما أبرئ نفسى ، إن النفس لأتارة بالسوء ، إلا ما رحم رنى — فأنا أحب أن تُعافى لىلى لأتفرد بهواها ، ولكنى مع ذلك أشعر فى بعض الأحيان أنى أخدمها بإخلاص ، فإنه يعزّ علىّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يعزّ علىّ أن تُعطب مثل تلك الإنسانية وإن خلّت منها يدي ، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوى امرأة جميلة إلا هممتُ بخطفها من زوجها . وقد وقعت لى من ذلك جوادث سيطول عليها ندمى ، حين أثوب إلى رُشدى ، أنا الطبيب الآثم الذى زرع عروش السعادة فى كثير من البيوت .

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن لىلى تهمنى ؛ وأشعر حقاً وصدقاً أنى مستعدّ للنضحية بنصيبى من هواها ؛ ولكن ما الذى يمنع من الجمع بين المزيّتين : عافيتها وسعادتي ؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتى بلا بغي ولا غدوان . والخلاصة أنى أريد أن يُنسَى اسم عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمنى جداً ، لأنها ستعلّمنى كيف أسوس لىلى ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح مفهوماً عندي أنه كان ساذجاً لا يعرف ما يأتى وما يَدَع . وكان مصيره أن يُحرّم عطف لىلى ، فيمرض هو فى مصر ، وتمرض هى فى العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضى !

يضاف إلى هذا أن ظمياء ستكلم أيضاً عن درية أخت عبد الحسيب ؛ وهذا الاسم بهمنى جداً ، ولا أعرف السبب فى ذلك ، ولعلّى أعرف بعد حين ، فقد تتذكر الإنسانية التى تحمل هذا الاسم الجميل أن الفتى الذى كان يصارحها وتكأتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب جسم تبخر واختال فى شارع فؤاد . ولعلها تمرض هى أيضاً فيدعى لها الطبيب الذى يداوى لىلى

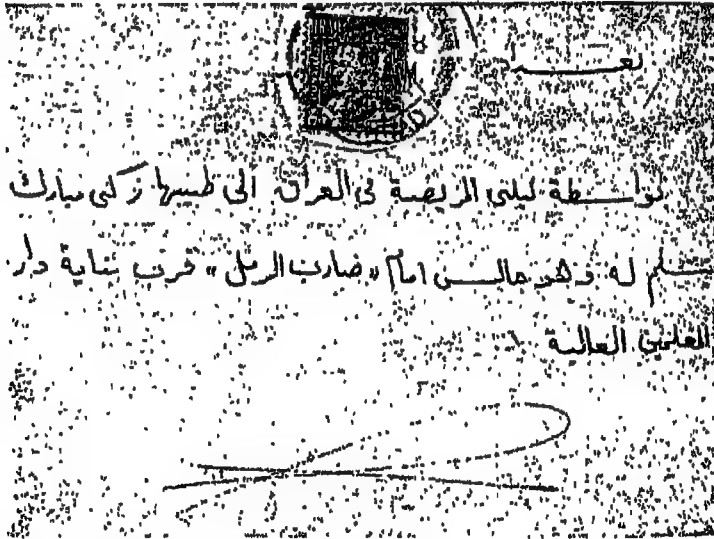
المريضة في العراق :

درية ، متى تمرضين ؟ إخص عليك ! بل متى تتصنعين المرض لأراك — في غير رية —  
ممددة على السرير ؟ متى ؟ متى إن بلائي سيطول !

\*\*\*

أنا أغار من اسم عبد الحسيب ، فليؤجل حديثه لحظات ، ولأدوّن بعض الوقائع المتصلة  
بهذه الأحاديث .

١ — بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض و ( يضرب الرمل ) وهو معروف  
لسائر أهل بغداد ، وهو يذكّرني بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيري في الحب حين  
كنت أمشي بشارع الخليج . وما كنت أول محب استخبر الرمل ، فزميلي البهاء زهير تنطق  
أشعاره بأنه كان يعرف جميع من ( يضربون الرمل ) بالقاهرة .



أقول إنني أقف دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا في طريقى إلى الدرس ، والطلبة  
يمرون فلا ينتقدون أستاذهم ، لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهمه غير الوقوف على أحوال  
المجتمع . ولكن الواقع غير ذلك ، الواقع أنى بدأت أتخوف مصيري في هوى ليلي ، وأصبحت  
كالطفل أصدّق كل شيء . ولكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يغدون ويروحون وأكثرهم  
يحمل المصورات الشمسية ، وفي مقدورهم أن يأخذوا صورتي على تلك الحال ويقدموها إلى

الجرائد فأصبح محور السَّمر السّاحر في الأندية والمعاهد ؟  
الحل سهل : أنتظر ذهاب الطلبة للغداء ثم أعرج على ضارب الرمل لأشوف بختي .  
وكذلك فعلت .

ويلاه ! ماذا تصنع المقادير ؟  
أنا أجلس أمام أحد الدراويش في بغداد لأشوف بختي ، وأنا الذي غلبت الساحر الهندي  
على شاطئ الإسكندرية في صيف سنة ١٩٣٤ ؟  
ليت أيامي تعود !  
فمازلت أذكر كيف أعطاني ذلك الساحر الهندي عشرين ديناراً في سبيل أن أترك له التفرد  
بقراءة الكف لمن يمج ذلك الشاطئ من الطَّيِّبات .

وخلاصة القصة أني ذهبت في ضحى يوم صائف إلى خليج ستانلي ، ونزلت بثوب البحر  
إلى ملعب الغزلان ، فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الكف لفتاة ناهد تشبه أفروديت ، أو تشبهها  
أفروديت ، فجلست بجانبها جلسة الباحث المتعقب ، لا جلسة اللاهي اللاعب ، وما هي إلا  
لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول : على رسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر  
قليل العلم بأسرار الكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى . أين تعلمت  
هذا العلم أيها الدراويش الجهول !

فانزعج الرجل انزعاجاً شديداً ، وفقرء الهنود ضعاف العزائم والقلوب في أكثر الأحيان .  
ونظرت الفتاة في استغراب وقالت : وحضرتك تعرف علم الكف ؟  
فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق : نعم أعرف علم الكف وهو خير ما تعلمت في  
باريس !

فانعطفت الفتاة في تخاذل وقالت : تسمح تقرأ لي كفى !  
فأخذت يدها ونظرت إلى صدرها مرة وإلى عينيها مرتين ، ثم شرعت أقص عليها أخبار  
المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين .

وما هي إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطئ .  
فهل تعود أيامي ؟ هل تعود ؟ أمرى إلى الهوى !  
وتخاذل الساحر الهندي وتضعضع وأقبل يُسير في أذني : تفضل بكلمة ؟ فقلت : نعم .  
وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال : أعرف أنه لا يفيل الحديد إلا الحديد ، وأعرف ثانياً أني  
أعلم منك بقراءة الكف ولكني واثق بالهزيمة إذا ناضلتك ، لأنك تحدث الفتيات بأحاديث

أجهلها كل الجهل ، ويغلب على ظني أنك لا تقرأ الكف ، وإنما تقرأ العيون ، ولا علم لهندي مثلي بلغة العيون .

فقلت : وماذا تريد ، أيها الشيخ ؟

فقال : أرجو أن تبينني هذا الميدان .

« وعندئذ تذكرت أني موظف في الحكومة المصرية وأن من الممكن أن يتعقبني مندوب ( آخر ساعة ) أو مندوب ( روز اليوسف ) أو مندوب ( الصباح ) ، وأن من العقل أن أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان » .

— وماذا تقدم يا شيخ ؟

— أقدم عشرة دنانير .

— أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير ؟ هيهات !

— يا سيد ، أنت في وطنك وأنا غريب .

— ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب .

— أنا لست أجنبيّاً بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم متلك وأتكلم اللغة العربية .

— إنك رجل لبق يا شيخ ، ولكني لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير .

— أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً .

— أنت إذا جهول ، ولو كنت مكانك لجمعت ألف دينار في شهرين .

— هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدى ان عمل السحر صار قليل المكسب بفضل المقالات

التي تُكتب ضده كل يوم ، وأنت يا زميلي تعرف ما جنت علينا حذقة أصحاب الجرائد والمجلات .

— إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين :

فقبل الرجل وقدم المبلغ ، فأخذته وانصرفت .

وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطئ شككن في قدرته على فهم أسرار الكف فبارث

سوقه وضاع .

أما أنا فمضيت في دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ، ولكل مجتهد نصيب .

\*\*\*

أليس من الغريب أن يكون هذا حالى في العلم بمصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبي ؟

إن هذا لدليل على ضعف القدرة البشرية ، إن كان ذلك مما يرتاب فيه الزنادقة

والملاحدون .

جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه ، والأمر للهوى .

— يا با ، يا با .

— نعم يا عمى .

— لك أعداء في الشام ، وسينصرك الله عليهم .

— طيب ، طيب ! ( وماذا جنيت حتى يكون لي أعداء في الشام أو لبنان ؟ ) .

— ولك أعداء في مصر ، وسينصرك الله عليهم ، قل آمين .

— آمين ، آمين !

— ولك في العراق فرد عَدُوّ ( يعنى عدواً واحداً ) .

— طيب .

— ويحيى إليك فرد مكتوب .

— من وين يا عمى ؟

— من بغداد .

— خير ، خير .

— وأنت تحب فرد امرأة ، وأكُو<sup>(١)</sup> ناس يحسدونك .

— أكُو خوف يا عمى ؟

— ماكو خوف ، ولكن احترس .

— فنفتحت الرجل درهما<sup>(٢)</sup> ومضيت .

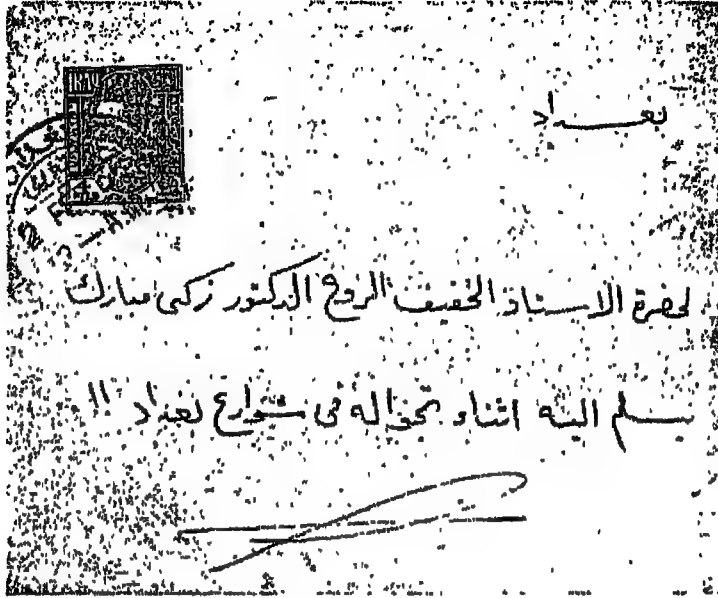
وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً يناديني فالتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إليّ خطاباً فمعبت من أن تفضحنى ليلى إلى هذا الحد ، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة :

شئ ظريف حقاً ! وأى ظرف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتى موزعة بين شوارع بغداد ، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عنى في شوارع بغداد ؟

(١) أكُو : يوجد ، ويقابلها ( ماكو ) أى لا يوجد في اللهجة العراقية .

(٢) كلمة ( درهم ) لا تزال حية في العراق وهى قطعة تساوى ( الربع ريال ) في العملة المصرية .





إن مرسل هذا الخطاب لا بد أن يكون أظرف الناس ، وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات في خفة الظل ولطف النسيم .  
ولكنني ما كنت أفضُّ الظرف وأنظر الخطاب حتى انزعجت . فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهائي عن عيادة ليلى ، ويهددني بالقتل ...  
أمرى إلى الله لا إلى الهوى !

ورأيت أن أحاط لنفسي فذهبت أستشير صديقا بالمفوضية المصرية سبقني إلى العراق بسنتين ؛ فكان من رأيه أن أبلغ الخطاب إلى الشرطة وأكد لي أن العراقيين لا يعرفون المزاح في هذه الشؤون . وبعد ساعة من تسلم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة ، فكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال :

— إيش لون ليلى ؟

— أهدد من أجلها بالقتل !

وقدَّمْتُ إليه الخطاب فكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون ، ثم ابتسم فجأة وقال :

— ولكنه صَفَحَ عنك !

— صفح عني ؟ وكيف ؟

— ألم تقرأ هذه الجملة ؟

ونظرت فإذا في نهاية الخطاب « ولكنى عدلت عن هذا الخاطر لأنى إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً في الطب ، ودوقاً دقيقاً في الأدب » فعجبت من أن تفوتنى هذه الجملة ، ولكن يظهر أن انزعاجى صرفنى عن استيعاب الخطاب ؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك . عافى الله قراء هذه المذكرات من الأسواء !

ولما اطمأننت إلى صفح غريمى فى هوى ليل تشجعت وقلت : ومع هذا فأنا لا أبالى أحداً ،  
وقديماً قال جميل :

فليت رجلاً فيك قد نذرُوا دمي      وهمُّوا بقتلى يا بُئِينَ لقوفى

إذا ما رأوى طالعاً من ثِيْبَةٍ      يقولون مَنْ هذا وقد عرفوفى

فقال رئيس الشرطة وهو يتسم : يجب أن تثق يا دكتور بأن العراقيين يفدون ضيوفهم بالأرواح ، وهم لا يخافون عليك إلا عادية هواك .

\*\*\*

٢ — تفضل سكرتير محطة الإذاعة العراقية فدعانى لإلقاء محاضرة عن الحِكم العطائية ؛ وأنا فيما يظهر رجل خدّاع ، فقد ظن السيد فؤاد جميل أنى أصلح الناس للكلام عن حِكم ابن عطاء الله ، ولعل حياتى فى بغداد هى التى هدته إلى ذلك ، فقد رأتى أحفظ آداب الصيام ، وأودى الفرائض والنوافل ، فظننى رجلاً تقياً ، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له فى التخلق بمكارم الأخلاق ، وهل يستطيع رجل مثلى أن ينحرف عن الصراط المستقيم فى بغداد ؟ إن استقامتى فى هذه المدينة ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية ، ولن تكون لها قيمة إلا إذا عاملنى الله عز شأنه بالمثل المأثور :

« يُؤَجِّر المؤمن رغم أنفه » .

وهنا أشعر بأن الله تباركت أسماؤه خصنى بمزية قليلة الأمثال ، فأنا أحاسب نفسى قبل أن يحاسبنى الناس ، وأدوّن عيوبى قبل أن يدونها الكرام الكاتبون ، وربما كنت الرجل الوحيد الذى يُخفى حسناته — إن كانت له حسنات — حتى لا يَزُولَ قدمه فى مزالق الرياء . أقول لى ألقى محاضرة فى محطة الإذاعة عن حِكم ابن عطاء الله ، ولكنى ما كبدت أودّع

جمهور المستمعين حتى كان المذيع يجلجل :

يقولون ليلى في العراق مريضةً فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

وكانت لحظة طرب لن أنساها ما حييت ، فاسم ليلى يشوقنى ، وبفضل ليلى رأيت العراق ، وبدأ لى أن أسأل عن صاحب الفضل في إمتاعى بهذا الصوت ، فعرفت أنه السيد يونس بحرى صاحب جريدة العقاب . ويونس بحرى أديب شرب ماء النيل ، وذاق لذة الأسماك في القاهرة ، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات في مصر الجديدة والزمالك والمعادي وحلوان ، وتمرغ على الرمل المقدس : رمل الإسكندرية وبورسعيد ودمياط وقد شاء له وفاؤه لمصر أن يؤنسنى بهذا الصوت ، لأنه يعرف أنى طبيب ليلى ، ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادى الصحافة منذ سنين فلم تر إلا أن تجلس بجانبى عند أخذ الصورة التاريخية ليصبح لها أن تقول إنها رُسِمَتْ وبجانها قلبٌ تحفّاق .

وليس من التزيد أن أقول إن محاضراتى في الإذاعة ينتظرها الناس في جميع أرجاء العراق ؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتى شاهداً على حلاوة الدعاة العراقية التي خلدها أبو الفرج الأصفهاني على وجه الزمان .

جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت ، والرفاق يضجّون من حولى بالضحك ، وفاتهم أنى صرت كالذى قال :

بكث عينيّ اليسرى فلما زجرتها عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا  
فقد كنتُ أعرف أن ليلى تسمع ، وكنت أعرف أنها ستطرب لهذا الصوت الذي حبسه  
البغداديون عن أذنيها خمس سنين ، وكنت أعرف أنها لو رأتني لقبّلتني . ولكن هل تقبلني  
ليلى ؟ ليت ثم ليت !

وخرجتُ من دار الإذاعة فعبّرت دجلة من الكرخ إلى بغداد وأنا في ذهول ، فحدثتني  
النفس بحلاوة الغرق في ذلك النهر الذي وعى ما وعى ، وضئع ما ضئع ، من أسرار القلوب .  
ثم تذكرت ديونى في القاهرة ، ديونى للوجوه الصُّباح التي تعطر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة  
والزمالك ، وديونى لعرائس دمياط اللائى تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث :

رباهُ صُعَّتْ فؤادى	من الأسى والحنين
ولم تشأ لضلوعى	غير الجوى والشجون
فكيف تصفو حياقي	من الهوى والفُتُون
أم كيف تُرجى نجاتي	من ساجيات الجفنون

وهل من الإثم في هوى ليلي أن أجنّ إلى هوائى في القاهرة عروس الشرق ؟  
هل من الإثم في هوى ليلي أن أتذكر غُبوّقى بمصر الجديدة وصُبُوّحى بالزمالك ؟  
هل من الإثم في هوى ليلي أن أقول إني أبذل دمي إن استطعت لأقضى ليلة واحدة في ضيافة  
ليلي الصحيحة في حلوان ؟

متى تعود أيامي وأستأنف اختطاف القُبَلات في القطار بين المعادى وحلوان ؟  
وما كنت أنتظر أن يخطّ قلمي أمثال هذه الاعترافات ، ولكنى أحب أن تغار الإنسانية التي  
سيخلد اسمها شارع العباس بن الأحنف في بغداد ، فإن غارت فهي ليلي بنت ليل وإلا فهي  
صخرة تغمرها الثلوج في أقاصى الشمال .  
وأقسم لمن لم تنته عن تغافلها البغيض لأحدثتها عن ليالى وأيامي في فندق ميناهاوس بسفح  
الأهرام ؛ ولكن فعلت لأصوّبنّ إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجى منه شفاء .

ليلي ، يا بنت الفرات !  
أمرى وأمرى إلى الهوى ، فإنه يرجع القلوب !

\* \* \*

ألم يأن لي أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب ؟  
إن حديثه لن يصل إلى ليلي حتى أكون أنسيته كل من في الوجود .  
وهل أمكن يوماً أن يكون لي فيمن أحبُّ شريك ؟ فلنقصّ حديث ذلك الغريم بلا تيب  
ولا إشفاق .

قالت ظمياء ( وما أعذب كلام ظمياء )

— وأفاض الشيخ دعاس في شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذى  
يدّعى علم الشرق ، والمستغرب هو الذى يدّعى علم الغرب . ثم تشعب الحديث من فن إلى  
فن ، فانتقلنا من الأدب إلى السياسة ؛ وليلى لم تشاطرنا الحديث ، فقد كانت مشغولة البال  
بانتظار عبد الحسيب . وكانت ترجو أن يكون هو الفتى الذى رافقناه في قطار المعرض . وبعد  
ساعات مرت على ليلي كأنها أعوام دخل شابٌ أخضر العينين ، وكان هو يا مولاي ، هو نفس  
الفتى الذى دارت معه ليلي في قطار المعرض دورتين .

— وكيف كان التلاقى ؟

— قرّث ليلي من وجهه فرار الظبية الضعيفة من القانص الظلوم ، فانزوت في أحد أركان  
البيت . وألحت السيدة نجلاء في أن تتفضل ليلي بالسلام عليه ، فاعتذرت بأن سلام الفتاة على  
الفتى وهى ليست من محارمه أدبٌ تنكره حرائر العراق .

## - ١١ -

وصلت طلائع من كتائب المؤتمر الطبى فى صباح اليوم . فليكن من هواى أن أتسمع أحاديث الأندية فى المساء .

\* \* \*

لم يصل إلى فندق تايجرس غير طبيب واحد . وقد قضيت معه لحظة ففهمت أنه خالى الذهن من الغرض الصحيح لعقد المؤتمر الطبى فى بغداد ، وليس هذا بمستغرب من مثله ، لأنه بولونى لا يعرف ما يساور شعراء العرب من المضاعلات الوجدانية . وقد حاولت أن أفهمه أن المؤتمر إنما يعقد فى بغداد لمعاونتى على مداواة ليل فلم يفهم إلا أن اسم ليلي قد يكون اسماً لمرض من الأمراض . وما علينا إذا لم يفهم البولونيون !

\* \* \*

لم يعرفنى أحد من أطباء فلسطين وسورية ولبنان ، فالذين قرأوا ( مدامع العشاق ) يحسبوننى فتى لا يجاوز الثلاثين ، والذين قرأوا ( الأخلاق عند الغزالي ) يحسبوننى شيخاً يصافح الثمانين ، وهم جميعاً يعتقدون أنى مطربش لا مسدّر ، فدخلوا بينهم بالسدارة يوههم حتماً أنى من فتیان العراق .

وكذلك استطعت أن أسرق أحاديثهم فى فندق استوريا من حيث لا يشعرون . تحدث طبيب منهم قال : ما كنت أحسب الزمن يسمح بمثل هذا الجنون ، وما كنت أظن أن الجمعية الطبية المصرية تدعو أطباء العرب لعقد مؤتمر طبى يختبر حال ليلي المريضة فى العراق . ولولا لاجأة زوجتى ما حضرت ، فهى ترى التخلف عن هذا المؤتمر تحدياً للجنس اللطيف .

واعترضه آخر فقال : هى فرصة طيبة لمشاهدة ليلي ، وهى أيضاً مواساة للطبيب المصرى الشهير زكى مبارك الذى هجر وطنه وأهله فى سبيل الوجدان ، ومن الواجب أن يكون بين أبناء العرب أطباء يتخصصون فى طب القلوب .

وقال ثالث : الذى يهمنى هو مشاهدة ليلي ثم دعوتها لشرب كأس أو كأسين فى فندق

الفرات .

وقد ضجّ الحاضرون بالضحك والقهقهة وكادوا يجمعون على طرافة هذا الإسفاف .

\* \* \*

كنت خليقاً بالحزن على ما صار إليه أدب الناس ، ولكنني حزنت على نفسي ، حزنت حتى غلبني الدمع .

فهؤلاء الذين يتصورون أن العافية لا تُطلب لليلي إلا لتصلح لمعاقرة الكأس ، هؤلاء تقدموا وتأخروا ؛ هؤلاء تفردوا بالفوز وتفردت بالخيبة . وهل كنت أقل سفهاً منهم حتى يفوزوا وأخيب ؟

إن خراب عيادتي في شارع المدابغ ، وتدهور عيادتي في شارع فؤاد ، وحياتي المشردة بين القاهرة وباريس وبغداد ، كل أولئك النكبات ستهد من عزيمتي ، أنا الطبيب المسكين الذي أضاعه الأدب فلم يعد يصلح لغير طب القلوب ، في زمن تحلا من القلوب .

\* \* \*

لن أسمح بخروج ليلي ، ولن يراها أحد من أعضاء المؤتمر الطبي بعد الذي سمعت .

ولكن هل كان ما سمعت هو كل السبب في حماية ليلي من أهل الفضول ؟

الحق أني مريض بالغيرة ، مريض ، مريض لا يُرجى له شفاء .

وكان مرض الغيرة خفّ بعض الخفة في سنة ١٩٢٧ ثم عاد فأضرعني وتفصيل ذلك أني جلست أصطبغ في قهوة الدوم في باريس ، فرأيت فتاةً فصيحة العينين تجالس رجلاً فانياً ، فأخذت أداعبها بنظراتي ؛ وكنت فتىً فصيح العيون يرسل بعينه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ؛ وكانت الفتاة تفهم عني فتعبس تارة وتبسم تارة وفقاً لسياق الحديث . وراها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس ، فسألها فلم تنكر ، فأشار إليّ أن أقرب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟

وقد أزعجني السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت في كل أدوار شبائي أبغض الذهاب إلى إدارة الشرطة ، ولولتأدية شهادة ؛ وتلطف الله عزّته فستر عيوني ، وأعفاني من ذل الاستجواب في مراكز البوليس . تباركت يا إلهي وتعاليت ! فلولا لطفك لأذلتني شماتة الأعداء .

وكنت في تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربت وتلعثمت .

وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد ؟ خبرني ماذا تريد ؟

فجمعت قواي وقلت : سيدي ، أنا شاب من الشعراء ، أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلاً وقال : ومَن العباس بن الأحنف ؟ فأجبت : هو الذى يقول :  
 أتأذُنون لصَبِّ في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر  
 لا يُضْمِرُ سوءَ إن طال الجلوسُ به عَفَّ الضمير ولكن فاسق النظر  
 وترجمت له البيتَين ترجمة مقبولة فابتسم وقال : ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه  
 الفتاة وتسمع صوتها ؟ فقلت : إن سمح سيدي ! فقال :

Mais vous êtes mal placé .

ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتى ركة الفتاة .  
 رباه ! متى تعود أيامى !  
 وأفهمنى الشيخ أنه شاعر سويسرى ، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مُصَنِّر  
 الوَحى . وتلطف فقال إنه يسمح لى بمصاحبتها حين أشاء .  
 فقلت : عفواً ، يا سيدي ، فجيبى يعجز عن تكاليف الحب .  
 فقال : لك الحب ، وعلى التكاليف .  
 فأهويت على يده فقبلتها قبله ما سمحت بمثلها لشيوخى فى الأزهر الشريف .  
 وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود .  
 ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل ، فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا  
 صنعتم يا أطفالى ؟ فكنت أقول مثلاً : رأينا بارك سان كلو ، وطرنا لجمال الطبيعة هناك .  
 فيقول : ثم ماذا ؟  
 فأجيب : ثم رجعنا .  
 فيقول فى ألم وسُخْرية : وهذا كما ما صنعتم ؟  
 وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول : أو كدلك يا مولاي أن المسيو مبارك ليس من العقلاء ،  
 وكان يدهشنى أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص ما اقترعنا من المغامرات .  
 رباه ! متى تعود أيامى !  
 — ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر ، ثم سافر الشيخ والفتاة إلى جنيف وعاد مرض الغيرة  
 يساورنى من جديد . وسأكون بالتأكيد من أشرف صرعا .  
 ولكن هل تكون هذه الغيرة ضرباً من الغباوة والحمق ؟  
 لا ، لا ، وإنما هى فيضٌ من المروءة والشرف ، فقد قضيت دهرى وأنا أحقد على من يهينون  
 الجمال . ولهذا سبب معقول : فالمرأة التى تجود عليك بابتسامة يكون من حقها عليك أن تحفظ  
 ( ليلى المريضة فى العراق )

معها الأدب في السر والعلانية . والمرأة تعطى كثيراً جداً حين تجود بابتسامة . والعاشق في جميع أحواله أقل تضحياً من المعشوق ، لأن العاشق يأخذ والمعشوق يمنح ، والفرق بين الحالين بعيد . ولكن أين من يفهم المعاني ؟

وقد أهلكني مرض الغيرة وأفسد جميع شؤوني وكاد يرزأني بالخراب . ولولا عناية الله لكنت اليوم ممن يبندهم المجتمع ويتحاماهم الأهل والأقربون .

كان لي صديق من كبار الموظفين : صديق فيه شيء من الظرف وأشياء من السخف وكان هذا الصديق يحب أن يطوف بي على رفاقته من حين إلى حين ؛ وكنت أعرف ماذا يريد ؟ كان يريد أن أعلم التسامح لأطوف به على رفاقتي حين يشاء . وكنت أعرف ما يضمن وأسكت ، لأني كنت أحب أن أقف على أمراض المجتمع لأحاربها عن علم لا عن جهل . وفي ذات يوم ابتدرني بهذه العبارة في لهجة جدية :

— يا دكتور زكي ، يا حضرة الفيلسوف ، أما تحب أن تعرف رأي إخوانك فيك ؟

— رأي إخواني ؟ وماذا يرى إخواني ؟ فما كنت إلا خير صاحب وأكرم رفيق .

— إنهم يهتمونك بالبخل .

— أنا ؟ أنا بخيل ؟ وكيف وكان إخواني يغامرون ما طاب لهم الهوى ، اعتماداً على الجيب

الملاّن ، جيب الرجل الذي يجوع ليشبع الرفاق ؟

— هم لا يهتمونك بالبخل من الناحية المادية ، وإنما يهتمونك بالبخل من الناحية الغرامية .

وعندئذ شعرت بأني مُقبّل على خطر فقلت :

— وماذا يريد إخواني ؟

— يريدون أن تطوف بهم على رفاقك .

فقلت : ليس لي رفاق .

فقال : يا سيدي ، يا سيدي ، على منطق الدكاترة !

فقلت : أوكد لك ولسائر الإخوان أني لا أعرف غير الكتاب والقلم والدواة والقرطاس .

فقال : تعجبني حين تتخذ من حياتك العلمية سِتاراً لحياتك الغرامية !

فقلت : أتحدّك أن تذكر اسم امرأة واحدة يتصل بها غرامي .

فقال : هل تنكر أن لك علاقات مع السيدة (...).

ونطق السفية المجرم باسم امرأة مصونة أفديها بروحي . فلطمته لطمّة أطارت ما كان وقع

على صدره من أغربة الأحرم والأمانى .



فنظر إليّ في تخاذل وقال : وَخَش !  
 فقلت : ولا يؤدب الأوباش غير الوحوش ، ولطمته لطمّة ثانية كان وقعها على حده  
 الصفيق أوجع وأبشع .  
 وأراد أن يجمع ما تنثر من أشلاء شجاعته ليقابل العدوان بالعدوان ، فنظرتُ إليه نظرةً  
 ساخنةً بها روحه ، فانصرف وهو يقول : طَوَّل بالك !  
 وقد طَوَّلت بالي ، وكنت أتوقع أن يعود النذل بعد ساعة أو ساعتين وفي يده مسدّس ،  
 ولكنه لم يعد أبداً .  
 ثم عرفتُ بعد حين أنه انتقم مني على طريقة أمثاله من الأندال ، فكان يرسل الخطابات  
 المجهولة إلى الدوائر التي يؤذيني أن أذكر عندها بالقبيح ، فتلطختُ سُمعتي بالمنكرات في أقل  
 من أسبوعين .

رباه ! ماذا نعانى في سبيل المروءة والشرف ؟  
 ومشيت يوماً في شارع فؤاد أروّح عن نفسي قليلاً برؤية اللؤلؤ المنشور ، اللؤلؤ الذي يتوهج  
 بذلك الشارع في الأصائل والعشيات ، فلقيني صاحبٌ قديم فقلت : من أين قدمت ؟  
 فقال : كنت في منزل ( ... باشا ) .  
 فقلت : وكيف حاله ؟ فقد طال شوقي إليه .  
 فقال : لم أجده في المنزل ، وإنما جلست مع زوجته لحظة ، جلّسة بريفة بالطبع .  
 فنظرتُ إليه نظرةً ساخنةً وقلت : أتريد أن توهمني أنك كنت تملك الفجور وعففت مع  
 أنك أضعف من الخِصيان ؟

\*\*\*

وخلاصة القول أني أتهم المجتمع وأرى من النذالة أن تُعرض بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا  
 للناس . ولا يضايقني أن يغضب صديقي الدكتور إبراهيم ناجي وهو يكرر كلمة المرحوم أحمد  
 زكي باشا إذ قال : إن زكي مبارك عاش في باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس .  
 نعم ، فلاح ، فإن شاء أبنائي أن يثوروا على أيهم الفلاح فليحملوا إن استطاعوا رذائل  
 المجتمع . أما أنا فقد نجوت ولله الحمد ، فكانت زوجتي ترفض أن تستقبل أخاها الشقيق وأنا  
 غائب ، ويسرنى أن أسجل اعترافي بالجميل لزوجتي الفلاحة التي سارت سيرة أمها وجداتها  
 فحفظت قلبي سليماً من الهموم التي تزلزل عزائم الرجال .  
 وإذا فلن تخرج ليلى ولن يراها أعضاء المؤتمر الطبّي .

— ٨٤ —

كذلك صممت ولن أرجع عما صممت .

\*\*\*

ومضيت إلى دار المعلمين العالية فإذا خطاب بالبريد الجوى وعلى غلافه :

« وزارة المعارف العمومية » .

« مكتب الوكيل » .

وزارة المعارف ؟

ومكتب الوكيل ؟

وبالبريد الجوى ؟

يا فتاح يا علم !

أتكون وزارة المعارف أرادت أن ترجعني إلى مصر للتفتيش بالسنة التوجيهية والعياذ بالله ؟

أتكون وزارة المعارف فكرت في إلغاء انتدائي لمدة ليلة المريضة في العراق ؟

\*\*\*

ومرت بالبال خواطر كثيرة ، إلا خاطراً واحداً ، هو أن تكون وزارة المعارف فكرت في

تسديد ما عليها من الديون .

وهل في الدنيا إنسان يادر بتسديد ما عليه من ديون بلا طلب وبلا إلحاح ؟

إن ديوني على وزارة المعارف ديون ثقيلة ؛ ولن تدفعها إلا يوم يشهد معالي الوزير أو سعادة

الوكيل بأنني رجل مظلوم لن يصل إلى مناصب تلاميذه إلا بعد أعوام طوال .

ثم تشجعت وقضضت الخطاب فإذا فيه :

\*\*\*

وَأَرْزُقْهُم مِّنْ رِّزْقِكَ

مَكْتَبَةُ الْوَكَل

الطبعة: ٢٩ / ١ — سنة ١٩٣٨

عن زى المحترم الدكتور زكى مبارك

أهديك أطيب تحية • وبعد فقد عزمتنا بمشيئة الله على  
حضور المؤتمر العلمى بهنداد مع بعض الأصدقاء • وسيكون وصولنا  
الى هنداد فى صباح يوم الاحد ٦ فبراير •

وانى أرجو أن تتيح لنا هذه الفرصة الاسم —————  
بأخواننا المصريين والاطمنشان على حالتهم وزيارة  
بعض المشاهد المشهيرة بهنداد واحولها •

وتقبلوا فائق تحياتى //

بـ المخلص

مبارك

ولكن لماذا اختصنى سعادة العشماوى بك بهذا الخطاب ؟  
أغلب الظن أن يكون بعض الدسائس كتب إليه أنى لا أؤدى الواجب فى خدمة ليلى ، فهو  
يريد أن يرى بعينه ما صنعت فى خدمة ليلى .  
وإذا فسيكون من الحزم أن تخرج ليلى لحضور حفلة الافتتاح ، فما هذه المشكلات التى تثور  
فى وجهى من حين إلى حين ؟

من حق العشماوى بك أن يرى ليلى ، ومن حقى أن أحجب عنه ليلى ..  
وأشهد أنى قضيت يومين فى درس هذا الموضوع الخطير ، وكنت لا أعرف بالضبط : هل  
أغار على ليلى ؟ أم أخاف على العشماوى بك ؟ والحق أنى أغار على ليلى وأخاف عليه ، أما  
غيرتى على ليلى فهى مفهومة لا تحتاج إلى شرح ؛ وأما خوفى عليه فيرجع إلى اعتقادى أنه من  
أرباب القلوب . وربما جازى أن أصرح بأنه كان من عبید الجمال فى صباه ؛ وإلا فكيف اتفق  
أن يكون دائماً من أنصار الآداب والفنون ؟

وهل يعطف على الأدب والفن غير أرباب القلوب ؟

\*\*\*

ثم مرّ بالبال خاطر سخيّف ؛ ولكن لا بدّ من تدوينه في هذه المذكرات . ألم أقلّ إني أدوّن عيوني قبل أن يدوّنّها الكرام الكاتبون ؟

أنا مفتش بوزارة المعارف المصرية ، ومن واجبي نحو نفسي أن أحسّن علاقاتي بوكيل الوزارة أستغفر الله ! فما أردت إلا أن أقول سعادة الوكيل ، ولا تؤاخذني يا عشناوى بك فما أقصدك بالذات . وسعادة الوكيل يستطيع أن يكتب مذكرة يقول فيها إنه ثبت أن مواهب الدكتور زكى مبارك أعلا من مستوى التفتيش ، وإنه لا بد من تحويله إلى منصب مناسب بالجامعة المصرية .

وهنا وجه الخطر ، فمناصب الجامعة لا تنفعني ، لأنى لا أستطيع أن أشفى بها ما في نفسي من مرض السيطرة ، لأن السيطرة في الجامعة مقصورة على العُمداء ، والظروف الحاضرة لا تمنحني العمادة ولو في كلية الآداب ، لأن العمادة تتوقف على شرطين : أصوات الأساتذة وموافقة الوزير ، والأساتذة لن يعطوني أصواتهم أبداً ، لأنى جرّحتهم جميعاً في جريدة البلاغ ، والوزير الحاضر وهو معالى بهى الدين بركات باشا لن ينسى أنى هجمت عليه في مقال نشرته بجريدة المصرى ، ومن المحقق أنه لن ينتقم منى ولكن من المحقق أيضاً أنه لن يتحمس لإنصافى فيراى أصلح الناس لمنصب العميد .

لا بد لي على أى حال من أن أبقي مفتشاً بوزارة المعارف . وهل في الوزارة منصب أعظم من منصب المفتش ؟ إن لي في هذا المنصب ذكريات تقضى بأن أخطر في سبيله بكل شيء ، إلا ليلى ، إلا ليلى ، إلا ليلى .

منصب المفتش منصب عظيم جداً ، فمن كان في ريب من ذلك فليسمع .

دخلت المدرسة التوفيقية صباح يوم ، فهالنى أن أرى مظاهر القلق في جميع الصفوف ، فقلت للنّاظر : ما هذه الجلبة ؟ فقال : إن التلاميذ يتطلعون من النوافذ ليمتعوا أنظارهم بطلعة سعادة المفتش . فقلت في تعجرف : هذا أدب ما بعد الحرب ، وكان الواجب أن يقهرهم الخشوع ، فقال النّاظر : الرأى لك يا سعادة المفتش !

وقد عزّ على أن يجاملنى النّاظر إلى هذا الحد ، مع أنه أكبر منى سناً وعلماً ، ولكن ماذا أصنع وأنا لا أخلو من لؤم ، ومن حقى أن أستفيد من فساد المجتمع ؟

ودخلت يوماً المدرسة الإبراهيمية فوجدت مدرساً كان من زملائى ، وكان فيما أذكر

أبصر منى بالدقائق النحوية والصرفية واللغوية ، فأبيت إلا أن أعجرف عليه وأستطيل : وجدته يطلب من التلاميذ أن يتكلموا عن فوائد السينما ، فقلت : لماذا لا تقول الخيالة ؟ ورأيت يمر على كلمة « تطور » في دفاتر التلاميذ فلا يصححها ، فحاسبته أشد الحساب فقال : إن الله يقول في كتابه العزيز : « وخلقناكم أطواراً » فقلت : نعم إن الله خلقنا « أطواراً » ومن أجل ذلك لا يصح أن « نتطور » يا أستاذ<sup>(١)</sup> !

( وقد هداني اللوم إلى أن أقترح على وزارة المعارف أن تعهد إلّى التفتيش على المدارس الأهلية والأجنبية ، لأن التفتيش على مدارس الحكومة يضايقني قليلا ، إذ كان المدرسون في المدارس الثانوية قد ثبتت صلاحيتهم للتدريس منذ سنين ، وأمثال هؤلاء لا يمكن قطع أرزاقهم بسهولة . أما المدارس الأجنبية والأهلية فيمكن فيها زعزعة مركز المدرس بإشارة أو إشارتين ؛ وكذلك أستطيع السيطرة بلا عناء . )

ومن مزايا التفتيش أن يحفظ التلاميذ أشعارى بفضل « لباقة » المدرسين . وأذكر أنى دخلت يوماً إحدى المدارس فأردت أن أختبر الطلبة في المحفوظات : فرأيت تلميذاً قيل إنه لبن وزير سابق ، فقلت : أسمعنى يا شاطر بعض ما تحفظ ، فابتدأ يصيح :

قال سعادة الدكتور زكى بك مبارك :

يا جيرة السّين يحيا فى مرابعكم  
فتى إلى النيل يشكو غربة الدار  
جنت عليه ليليه وأسلمه  
إلى الحوادث صحت غير أبرار  
فخشيت التورط فى سماع شعري فأشرت على الطالب بأن ينشد شعراً غير هذا ، فصاح :

وقال سعادته أيضاً :

نسيتم العهد واسترحتم  
من لوعة الحافظ الأمين  
فأسكت الطالب وقلت للأستاذ : أليس لدى الطلبة محفوظات غير أشعار زكى مبارك ؟ فقال : لقد أعطيتهم خمس قطع من أشعار زكى مبارك وثلاث قطع من أشعار على الجارم ، فحفظوا شعرك وصعب عليهم حفظ شعر الجارم .

فقلت : هذا عجيب ، مع أن شعر الجارم لا بأس به ! وأنا موقن بأن الطلبة والأساتذة يسخرون منا ، ولكن ما الذى يمنع من أن نستفيد من فساد المجتمع ؟

\*\*\*

(١) لم يفتن الأستاذ إسعاف النشاشيبي إلى هذه السخرية. فكتب كلمة في مجلة الرسالة يبين فيها قدم كلمة « تطور » ومثله يتخيل فيخال .

والفتيش سيكون قنطرة لعضوية المجمع اللغوى . ولكنه لن يكون كذلك إلا إذا عرفت كيف أستفيد . وأنا قد عرفت ، والله الحمد . وهل من الصعب أن أجلس في مكتب تفتيش اللغة العربية ثم أنقد تقارير المدرسين ؟ جاءنى يوماً تقرير من الأستاذ الأول في مدرسة أسيوط الثانوية فأخذت التقرير إلى البيت ، وكتبت تقريراً بما في التقرير من اغلاط لغوية ، ورجعت في اليوم التالى فحدثت جميع الموظفين بهذه الفضيحة ، فلم ينقض اليوم إلا وأنا عمدة المحققين ، وجهبذ المدققين .

وكتبت نسيت الموضوع الأصيل الذى كُتب من أجله ذلك التقرير ولكن لم يسألنى أحد ماذا فيه .

وربما كانت مدرسة أسيوط الثانوية لا تزال تنتظر رأى الوزارة في موضوع ذلك التقرير إلى اليوم . والصبر طيب !

وكان لى أسلوب في مضايقة المدرسين ، أسلوب بديع ؛ ولكنى لم أبكره مع الأسف ، وإنما أبكره شيوخاً لنا من قبل . كنت آخذ كرايس التلاميذ إلى البيت ، وأدرس موضوعاً واحداً من كل كراس .

أدرسه بدقة وأمامى المعاجم والمراجع لأبين ما فات المدرسين من اغلاط ، وأنسى أن المدرس لا يستطيع أن يستشير المعاجم في كل كراس . ولكن ماذا يهمنى ؟ المهم أن يشيع في بقاع الأرض أنى محقق مدقق لأكون خليفة الشيخ حمزة فتح الله ، أو حفى بك ناصف أو أحمد بك العوامرى ، وذلك مغنمٌ ليس بالقليل ، وهو بفضل هذه الخلدقة مضمون .

ومن عادى أن أدعو المدرسين الذين أفتش عليهم « للتفضل » با نظارى في المدرسة بعد خروج التلاميذ ، وأكون تغديت وأخذت نصيبى من القيلولة ، ويكونون هم قد اكتفوا بما تيسر من الشطائر الجافة ، وقضوا الوقت في التحضير والتصحيح ، وتكون النتيجة أن أقدم عليهم بعافية ، وأن يلقونى وقد نال منهم الإعياء ، فأرغى وأزبد ما شاء التعسف ، ويصدهم التعب عن درء الشر بالشر فيسكتون .

\*\*\*

قلت لى أفضل المدارس الأهلية والأجنبية على المدارس الأميرية لأستطيع قطع الأرزاق حين أشاء . ثم تبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله وأنى لا أملك إيذاء مخلوق ، وأن اللؤم الذى تنطوى عليه نفسى لن يضر أحداً غيرى ، فقد ذهبت للفتيش على المدرسة المرقسية بالإسكندرية ، ذهبت إليها في يوم مطير يحبس موظفى البنوك في البيوت . وكان أهم ما صنعت

في ذلك اليوم أن أعدّ الغائبين ، ثم كتبت إلى الوزارة تقريراً مزعجاً أقول فيه : إن المواظبة منعدمة في المدرسة المرقسية ، وإن ستة أسباع التلاميذ كانوا غائبين يوم حضرت للتفتيش . وما كان الغائبون ( ستة أسباع ) ، ولكني رأيتها كلمة لم يكتبها أحد من قبل . وما فضل التجديد إن لم أبتكر بعض التعابير ؟

وقد أرسلت الوزارة تستجوب المدرسة ، فكتبت إدارة المدرسة إلى الوزارة أن اليوم الذي غاب فيه التلاميذ كان يوماً مطيراً عاصفاً ، وأن الزوابع هدمت بعض مباني الشاطئ وأغرقت ثلاث سفن ، وأن حضرة المفتش يعرف ذلك ، ويذكر أنه تزحلق ثلاث مرات في الطريق ، وأن منظره في ذلك اليوم كان يخلق الإشفاق في أقسى القلوب .

ودعاني وزير المعارف يسألني ، فقلت : يا معالي الوزير ، أنت تعلمت في فرنسا وزرت جميع الممالك الأوربية ، فهل رأيتم يرون المطر من الأعدار ؟ والإسكندرية كلها مرصوفة الشوارع ، ومن الواجب أن نشدد في المواظبة لنخلق في الجو المدرسي طوائف جديدة من التقاليد .

ويظهر أن الوزير استراح إلى تذكيره بأيام الشباب في فرنسا واستظرف كلمة التقاليد فقال : أحسنت أحسنت !

ويشهد الله أني لم أكن يومئذ من المحسنين .  
أما التفتيش في المدارس الأجنبية فلي فيه نواذر تضحك الشواكل ، وربما جاءت مناسبة لسردها في هذه المذكرات .

والحاصل — كما يقول أهل بغداد — كما كان يقول الأزهريون — الحاصل أنني أريد التلطف مع سعادة العشماوي بك لأبقى مفتشاً وأنتقم من المدرسين الذين يهجون بنقد مؤلفاتي وأشعاري في الجرائد والمجلات .

وهو سيسأل عن ليلى ، فلا بأس من أن يرى ليلى ، وما أظنه سيخطفها من يدي ، ولكن مرض الغيرة تعاودني أعراضه من حين إلى حين .

\*\*\*

وشاع في أروقة وزارة المعارف أن العشماوي بك حضر قبل الموعد ، فمضيت للبحث عنه في فنادق بغداد فعرفت أنه لم يحضر . فتمنيت لو أسمع أنه عدل نهائياً عن الحضور مع شدة الشوق إليه .

وفي مساء اليوم التالي سألت فغرفت أنه في المفوضية المصرية ، فذهبت للسلام عليه

فاستقبلني بالعناق ، فعرفت أن الشر الذي ساورني كان من أوهام الظنن .  
وبعد لحظة دعاني إلى حديث خاصّ فقلت : لعله خير . فقال : كيف حال ليلى ؟ لا تكتم  
عني شيئاً ، فليس لك في وزارة المعارف صديق أخلص مني . إنهم يشيعون في مصر وفي العراق  
أنك لا تخدم ليلى بإخلاص ، فهل هذا صحيح ؟  
فقلت : إنك تعلم يا سعادة الأستاذ أني لا أملك غير ذخيرة الاخلاص وقد بذلت في سبيل  
ليلى ما بذلت ، وعند الله جزائي .

فقال : هذه مسألة هينة ، وسيحكم فيها المؤتمر الطبي .

فقلت : أي مؤتمر يا مولاي ؟

فقال : المؤتمر الذي نظمته الجمعية الطبية المصرية لمعاونتك على مداواة ليلى المريضة في  
العراق .

فقلت : وإذا كانت ليلى لا تريد أن ترى أحداً غيري من الأطباء ؟  
فقال ، ليس الأمر إلى ليلى ولا إليك ، فقد تكونان عاشقين يطيب لكما الاستشهاد في  
الحب . ويجب أن تفهم أن الحكومة المصرية لا تقبل أن يتحول الجد إلى مزاح .  
وارتفع صوت العشماوى بك ، فأقبل عزام بك يسأل عما بيننا من خلاف فلخصتُ  
القضية فقال : وما الذي يخيفك من أعضاء المؤتمر الطبي ؟  
فقصصيت عليهما ما سمعت في فندق استوريا . فتأثر العشماوى بك وقال : الحق معك  
يا دكتور زكى ، ولكن ماذا أقول حين أرجع إلى مصر وليس معي وثيقة رسمية عن صحة  
ليلى ؟

وهنا ظهرت البراعة السياسية لوزير مصر المفوض في العراق فقال : تحضر ليلى حفلة  
الافتتاح وهي متنكرة في زي امرأة حَضْرِيَّة عرفتُ أزياء باريس ، ويسلم عليها سعادة  
العشماوى بك نائباً عن وزارة المعارف ، وفضيلة الشيخ السكندري نائباً عن المجمع اللغوى ،  
وسعادة الدكتور على باشا إبراهيم نائباً عن الجامعة المصرية ، وبذلك ينفضُ الإشكال .

\* \* \*

ومررت على فُنْدُق مُودُ فُرايْت جماعة من الأطباء يتحدثون عن آمالهم في مشاهدة ليلى  
فقلت : موتوا بغيظكم إن كنتم صادقين !

وتلفتُ فُرايْت بهُوَ الفندق يوج بكرام العراقيين الذين جاءوا للتسليم على العشماوى بك  
ومن بينهم أصحاب السعادة طه الراوى وساطع الحصرى وتحسين إبراهيم وإبراهيم حلمى العمر



— ٩١ —

فحدثتهم بما وقع بيني وبين سعادة العشماوى بك فقالوا : الرأى رأيك فى هذه القضية ، فأنت وحدك طبيب ليلى المريضة فى العراق ، ونحن لا نشير أبداً بتعريض ليلى لأعين الناس ، ولو كانوا أطباء .

إلى هنا سارت الخطوات بسلام .

فما الذى سيحدث فى أيام المؤتمر ؟ ما الذى سيحدث ؟  
لطفك اللهم ورحمتك ، فإن قلبى يحدثنى بأن ستقع غرائب يشيب لها مفرق الوليد . قلبى يحدثنى بأنى مُقبل على أيام تموج فيها الفتن والمعاطب وما كان قلبى من الكاذبين .

\* \* \*

بغداد ، بغداد !

تُحْدِى بزمامى ، فأنا فى يمينك طبع ذلول ، وليكن ما يكون ، فإنى واثق بأن الله لن يفضح الشاعر المخلص الأمين طبيب ليلى المريضة فى العراق .



... وبكرت إلى منزل ليل بُكُور النَّدى لأدعوها إلى شهود حفلة الافتتاح : فوجدت الشقية في الفُستان المصرّي الفضّاح الذي زارث به معرض القاهرة في ربيع سنة ١٩٢٦ ، وكان يجب على ذلك الفستان أن ( يذوب ) بعد أن ( ذابت ) به أكباد وقلوب ، ولكنها حفظته تذكيرةً لحبها الأول ، الحب المشعوم الذي أورثها الضنى والذبول ، الحب الذي عجز عنه الأطباء والذي أجاهد في خلاصها منه بحبٍ أقوى وأعنف ، إن كانت الصبايات القديمة أبقت في عزمي ذخيرةً للجهد ... وقد اهتاجت الغيرة في صدري حين رأيت ذلك الفستان فكدت ألطم ليلي على خدّها الأسيل . ثم تراجعت حين تذكرت أن بلواها من بلوى . وهل كان حبي في بغداد أول حب حتى أنتظر أن تحبني ليلي أول حب ؟ إن المسكينة تعرف أن طبيها من قداماء المحاربين ، وتعرف أنه لم يحمل النظارة إلا بعد أن تعبت عيناه من نضال العيون . فليكن أنسها بحبي أنس الجريح بالجريح ، ولتفهم أنى أشفيها من جواها لتشفيني من جواي .  
وقديماً قال الشاعر :

يا خليلي والرفيئ مُعِينٌ	أسعفاني ببعض ما تملكان
أبتغي آسياً فقد عِيلَ صبري	من توالى الوجيب والخفقان
أبتغي صاحباً تولّه قبلي	وشجاءه من الجوى ما شجاني
فلقد يُسعف الجريح أخاه	ويواسي الضريب في الأحزان

\*\*\*

وبعد تناول ما تيسر من الصبّوح خرجنا في سيارة إلى بهو أمانة العاصمة ، فترجّلت عند باب المعظم لتدخل وحدها ، ومضيت أحمل آمالي وآلامي ، فلما وصلت إلى مدخل البهو اعترضني أحد الضباط قائلاً : سيدي ، هذه الحفلة خاصة بالأطباء . فقلت : وأنا طبيب ليلي . فابتسم وقال : تفضل ، تفضل .

وسألت بعد ذلك عن الرجل الشهم الذي أفسح الطريق لطبيب ليلي فعرفت أنه السيد سليم محمود معاون مدير شرطة السير والمروز ، وسيحدثنا الضابط عبد الحسيب فيما بعد أن الغرام بالأدب من أظهر صفات الضباط بالعراق .

وكانت ليلى تعرف أن طبيبها يكره أن تأخذها العيون ، فنظرت في أماكن السيدات فلم تجد أصلح من جيرة السيدة التى تنطق أسارير وجهها بأصدق معانى الكرم والتبلى ، عقيلة الرجل الشهم الذى يمثل المروءة المصرية فى العراق .

أما أنا فأخذت مكانى بين الدكتور عُسران والدكتور غلاوى .

وكنْتُ — مع الأسف — ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشر للأستاذ على الجارم ، فقد كُتِبَ فى منهاج الاحتفال أنه « شاعر مصر » وأنا أبغض الألقاب الأدبية . فلما وقف ليلقى قصيدته لم أصفق ، وأعدت من حولى بروح السخرية فلم يصفقوا ، ولكن الجارم قهرنى وقهر الحاضرين جميعاً على أن يُذموا أكفهم بالتصفيق .

وغاظنى أن تصفق لىلى لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسى ، لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية . ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرءوس ، ولكن ماذا أصنع وقد سبقنى إلى الأستاذية بأعوام طوال ؟

وأنا والله أظلم نفسى بهذا الكلام ، فما أذكر أبداً أنى حققت على إنسان . وما أذكر أبداً أنى عرفت معانى الحسد والضغن إلا على الدهر المحبول الذى يتسفل فيرفع الأعداء . وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات ، وحاربه فى وزارة المعارف يوم رأى الأستاذ أبو بكر إبراهيم أن يكتب فى نشرة رسمية أنه أمير الشعراء . وقد عرف الجارم خطر ما أصنع ، فكان «و» أيضاً يحاربنى فى مكتب تفتيش اللغة العربية ؛ ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق .

فيا أيها العدو المحبوب الذى اسمه على الجارم ، تذكر أنك كنت حقاً وصداقاً شاعر مصر فى المؤتمر الطبى العربى ، وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق .

وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها فى العراق وأنت كنت خليفة شوقى فى المعانى وخليفة حافظ فى الإلقاء ؟

إننى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك . وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك ؟ هل أنصفتنى مصر وكنْتُ مجنونها وكانت ليلى ؟

يرحمنى الله ويرحمك ، فعنده وحده جزاء المجاهدين .

\*\*\*

وعند نهاية الاحتفال دعوت لىلى للتسليم على سعادة العشماوى بك ، وسعادة على باشا إبراهيم ، وفضيلة الشيخ السكندرى .

أما العشماوى بك فسلم تسليمًا خفيفًا ، سلم تسليم « المتباهين » ليظهر أنه أكبر من أن يفتنه الجمال ، والعشماوى بك « يتباه » فى جميع الأحوال ؛ وقد درسته حق الدرس ، فعرفت أنه يحمل كبدًا أرق من أكباد الحبين ، ولكن له قدرة عظيمة على « التباه » فمن الذى علمه هذا الأسلوب ؟

وقد حقدت عليه ليلى ، فليعرف سعادته أن غضب ليلى سيحل عليه ، وسيرى عواقب ذلك فى الأيام المقبلة !

أما يخف وقارك مرة يا عشماوى بك ؟ إئتى الذوق إن لم تثق الجمال !  
وقد قهقه الشيخ السكندرى حين رأى ليلى وقال : كنت والله أحسبك تمزح يا دكتور زكى ، وما كنت أظن أنك جئت حقيقة لمداواة ليلى المريضة فى العراق .  
والشيخ السكندرى معذور ، فهو يظن أن العشق انتهى من الدنيا بعد قيس وليلاه ، وأن الناس لم يعودوا يحبون غير الملوخية الخضراء !  
أما الدكتور على باشا إبراهيم فنظر إلى ليلى نظرة الأرقم وقال : ما أستطيع الحكم بشفاء ليلى إلا بعد أن أفحصها بنفسى .

ورأت ليلى أنى غضبت فقالت : إنى أحترم رأى سعادة رئيس المؤتمر الطبى ، ولكنى أفضل الموت على الحياة فى سبيل الأدب مع طبيبى الخاص .

ولم أرد أن تطول اللجاجة بينى وبين رجل كان رئيس اللجنة التى أدت أمامها الامتحان النهائى فى كلية الطب ، فأخذتُ بذراع ليلى وانصرفت .

وأراد سعادة العشماوى بك أن يترضاى فرفضت ، لأنى كنت أعرف ما يريد . وهل كان يريد غير إيناس عينيه بوجه ليلى ؟ اطلع من « دُول » يا سعادة الوكيل !

وفى الطريق سألتنى ليلى عن العشماوى بك ، وقد ساءها أن يتلقاها بوجه صامتٍ التقاسيم ، فشهدتُ عند ليلى بأنه رجل مفضل ، وأن جموده فى حضرتها لم يكن جهود استهانة ، وإنما كان جهود تعقل ، والزجال الرسميون يغلب عليهم التعقل فى أكثر الأحيان !

فهل يعرف سعادة العشماوى بك أننى ذكرته بالخير فى حضرة ليلى ؟

لا أمْنُ عليه ، فهو يستحق ذلك ، وأكثر من ذلك .

وفى مساء ذلك اليوم أرادت ليلى أن تحضر معى فى الحفلة التى أقامها فخامة رئيس الوزراء ، فقاومتها مقاومة شديدة ، وكانت حجتى أنها ستكون من الحفلات التى يختلط فيها الحابل بالنابل ، وأنه ليس من العقل أن تتعرض ليلى لأنظار المئات من الناس ، وفيهم العاقل والمجنون

وكنْتُ على حق في منع ليلي من حضور حفلة المساء ، فهي امرأة محجوبة عن المجتمع منذ سنين ؛ وسيكون مثُلها حين ترى اختلاط الرجال بالنساء مثل العين الرمضاء التي تواجه الشمس بعد أن حجبتها الطيب عدة أسابيع في الظلام ، ولكنها ألحَتْ ، ثم انتقلت من الإلحاح إلى التوسل ، ومن التوسل إلى البكاء ، والمرأة أقوى ما تكون حين تبتحب ، فتخادلت وقلت في نفسي : لعل هذه اللجاجة تعود عليها بالنفع ، ولعلها حين ترى تسامح المجتمع لا ترى غضاضة في أن أغازلها حين أشاء .

ولكن هذا الخاطر تبدد في مثل لمحّة الطرف ، فأنا أعرف أن وزير المعارف من علماء النجف ، وهو بالتأكيد يكره سفور المرأة ، وإن سائر العصر فأباح اختلاط الجنسين في المعاهد العالية . ومن المحتمل أن يكره ظهور ليلي في المجتمع بلباس السهرة ؛ وما لي لا أقول الحق كله فأقرر أن أهل العراق في النجف وغير النجف ينظرون إلى سفور المرأة بعين الارتياح ؟ ما لي لا أذكر بصراحة أن أكثر وزراء العراق يكرهون حضور زوجاتهم في الحفلات الساهرات ؟ ما لي لا أنص — للحقيقة والتاريخ — على أن وزراء العراق أكثرهم من رجال الجيش ، والجيش يطبع أبناءه على الخشونة والصرامة والعنف ، وأنهم لأجل ذلك من أغبر الناس على كرامة ربّات الرجال ؟

وأخيراً أعلنتُ ليلي بالرفض المطلق ، فأغربت في البكاء والشهيق .  
غضبة الله عليك يا ليلي وعلى جميع بنات حواء !  
ورأيتني مع الأسف طفلاً في حضرة هذه المرأة ، فقد استبكتني فبكيت .  
ومع ذلك جمعت أشلاء عزيمة وأصررت على الرفض .  
وعندئذ تدخلت ظمياء وهي تقول : هل لك أن تسمح بأن تخرج ليلي معك في ثياب فتي من الأعراب ؟

فكدتُ أطير من الفرح لهذا الاقتراح الطريف ، ومضت ظمياء فأحضرت ملابس ابن عمها عبد المجيد ، فلبستُ ليلي بسرعة البرق ، وخرجت معي .  
ولكننا ما كدنا نخطو بضع خطوات حتى تنبهت إلى الخطر المخوف ، فقد تذكرتُ أن ليلي وهي في ثياب الفتى البدوي لن تقضى السهرة كلها في صمت ، وهل يمكن لامرأة أن تسكت ؟ وليلى تملك صوتاً هو في ذاته من كبريات الفضائح ، وقد نصصت فيما سلف على أن لصوتها رنيناً مبجوحاً لم تسمع مثله أذناً على كثرة ما تنوقت من بُغام الملاح .  
فالتفتُ إليها وقلت : ليلي ، ليلاي ، اسمعي واعقلي ، فإن صوتك سيفضحنا في الحفلة

قالت : أتعهد بالصمت المطلق .

فقلت : وكيف أضمن السلامة من واغل سخيـف يسلم على عمداً ليظفر منك بتحية ، فتكون ثبرة واحدة من صوتك المقتول نديراً بعواصف الفضائح ؟ ولنفرض أنك تلزمين الصمت ويلزم الناس الأدب فكيف تخفين هذه المشية ؟ إن مشيتك يا ليلي فضيحة ولو لبست ثياب الجاحظ ، والسامرون ينظر بعضهم إلى بعض ، وأنت ستخطرين حتماً بين السامرين ، وما أضمن أن يتأدب الجميع فلا تطرق سمعك كلمة نابية أقع بسببها في معركة تطنطن بها الجرائد في مصر والشام والعراق . اعقل يا ليلي ، اعقل ...

ولكن اللئيمة لم تسمع ، ومضت تخاطر في الطريق ، فلطمتها لطمتين ورجعتها صاغرة إلى البيت ، فودعتني وهي تقول :

— سلمت يداك ، فأني أحب الرجل البطّاش !

\*\*\*

دخلت الاحتفال فوجدته يموج بالطرايش فتهيت وتخوفت وانتظرت حتى يأخذ المدعوون أمكتهم من السّماطين ، لأتخير مكاناً ليس فيه طرايش . ولا أدري ولا المنجم يدري كيف أخاف الطرايش ! وربما كان السبب في ذلك أني أريد أن أحيي في الحفلة حياة سعيدة ، وهي لا تكون كذلك إلا إن خلت من التوقر ، وما يمكنني أن أخرج على التوقر في حضور المطربشين . وهل لبست السّداة إلا لأنجو من عنجيه المطربشين ؟ عفا الله عن مصر ! فقد قتلت ما في صدري من شاعرية بفضل ما درجت عليه من التزمّت والجمود .

لكن أين أجلس على المائدة ؟

أين ؟ أين ؟

الحمد لله ! هذا مكان يزدان بعمامتين من وطن سيدنا عمر بن أبي ربيعة رضى الله عنه ، وكان عمر بن أبي ربيعة من المجاهدين الذين قال فيهم جميل :

يقولون جاهداً يا جميل بغزوةٍ      وأنى جهاد غيرهن أريدُ  
لكل حديث عندهن بشاشةٌ      وكل قتيل بينهن شهيدُ

ومن مزايا سيدنا عمر بن أبي ربيعة أنه وُلِدَ في الليلة التي مات فيها سيدنا عمر بن الخطاب . وقد اشترك هذان القرشيّان في الجهاد ، فكان ابن الخطاب يغزو الممالك والشعوب ، وكان ابن

أرى ربيعة يغزو الأفدة والقلوب .  
وأريد أن أقول إن عمر بن أبي ربيعة لا بد أن يكون ترك في الحجاز بعض التقاليد  
الصالحات ، وقد أجاز له القرشيون أن يقول :  
نظرت إليها بالمحصَّب من مِنى      ولى نظراً لولا التَّحْرُج عارِماً  
ولا يمكن أن يكون النظر إلى امرأة في المؤتمر أخطر من النظر إلى امرأة في المحصَّب ، وما جاز  
في مكة وهي بلد حرام لا يُمنع في بغداد وهي بلد حلال .  
وكذلك اطمأنت على المائدة كل الاطمئنان .

\*\*\*

ولكن ما هذه المفاجآت ؟ أراي لا أخرج من مأزق إلا وقعت في مأزق .  
هذه عمامة ثالثة ، وهي من نوع خَطِر ، لأنها عمامة وزير المعارف .  
ونظرت فرأيتني فرغت من التهام الحساء ، وتغيَّر المكان بعد ذلك باب من السُّخف .  
وما الذي يُخيفني من وزير المعارف وهو من كبار الشعراء ، ولا يخلو شاعر من  
صَبَّوات ؟

ما الذي يُخيفني من جيرة شاعر سليم الذوق مثل معالي الأستاذ محمد رضا الشبيبي ؟  
يُخيفني أنه أديب صار وزيراً ، وحياتي امتلأت بالأكدار والأحوال بفضل صحتي لرجل  
أديب صار من الوزراء . وأنا في هذه المذكرات لا أتجنَّب على أحد ، وإنما أسجِّل صُور المجتمع .  
وكان في مصر أديب يعطف على أدبي أشد العطف ، فلما صار وزيراً فسد حالي عنده أشد  
الفساد . كان في حالة الأول يقول : زكى مبارك شابٌ يجيء منه ؛ وكان في حالة الثاني يقول :  
مذهب زكى مبارك في الأدب سيُفسد عشرة أجيال .

وقد تعبت في تحليل هذه الظاهرة النفسية ، ثم اهتديت إلى أن الأدباء الوزراء يهتمهم أن  
يصححوا مراكزهم في المجتمع ، ذلك بأن المجتمع يتوهم وهو خاطئ أن الأدباء يستبيحون من  
ألوان الحياة ما لا يستبيح ، فالأديب حين يصير وزيراً يضيِّع وقته في تصحيح مركزه الذي  
جرَّحته أوهام المجتمع ، فينقلب إلى رجل متحرِّج متكلف لا يُعوِّزه غير عمامة عُجَّراء ليصبح  
شيخ الأزهر أو نقيب الأشراف .

\*\*\*

وكنت خليقاً بأن أعلل النفس بأن ما أخافه في مصر قد لا أخافه في العراق .  
ولكنني تذكرت حكاية الثعلب الذي هَمَّ بالرحيل عن مصر في سنة ١٩١٦ فقد سأله :  
( ليلي المريضة في العراق )

لماذا تهاجر يا أبا الحُصَيْن ؟ فقال : « ألم تعلموا أن السلطة العسكرية قررت جمع ما في مصر من جمال ؟ » . فاعترض عمدة الباجور وقال : وهل أنت جَمَلٌ ؟ إنما أنت ثعلبٌ ؛ فقال الثعلب وهو يحاور حضرة العمدة : إلى أن يَثْبُتَ أنى ثعلبٌ لا جملٌ أكون ضِعْتُ ! وكذلك أخشى أن أضيع قبل أن يثبت أن العقلية العراقية تبين العقلية المصرية . وعلى أساس هذا المنطق جلستُ على المائدة في غاية من الأدب والاحتشام . وأنا رجل يزدان بالأدب في قليل من الأحيان .

\* \* \*

ولكن معالى وزير المعارف ستشغله ألوان الطعام عن مراقبة ما يصنع الفاتك زكى مبارك !! وهل كنت مغفلاً حتى تفوتنى هذه الحقيقة الأولية ؟  
انتظرتُ حتى عُلَّتْ قعقةُ الشوكات والملاعق والسكاكين وأرسلت بصرى فرأيت امرأة تحدثني عن بُعد بعينين ترسلان أشعة العذوبة والحلاوة والرفق .  
ورأيت الفرصة سائحة لدراسة هاتين العينين لأضع عنهما فصلاً في كتاب ( سحر العيون ) الذى شرعتُ في تأليفه منذ أعوام ؛ وحضور هاتين العينين زاد اقتناعى بفوائد المؤتمرات ، ولا سيما المؤتمرات الطبية ؛ وسأكون بإذن الله عضواً في جميع المؤتمرات لأجد المواد الشائقة لكتاب ( سحر العيون ) .  
ورأت المرأة أنى أسأت الأدب فصوّبت سهام عينيها لتقتلنى ، ولكنها لم تفلح ، فقد حاربتنى قبل ذلك عُيُونٌ وَعُيُونٌ ثم نجوت ، ولو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق في باريس !  
فإن سأل قارئ هذه المذكرات عن جوهر هاتين العينين فإنى أجيب بأنهما توحيان الحب ، ولا توحيان الإثم ، وسأعيش ما أعيش وأنا أتشوف إلى تقبيل قدمنى هذه المرأة التى سحرت المجتمع وهى في سذاجة الأطفال ، وربما كنت أول من نظر إليها بعين الطهر والعفاف ، ولو كنت مثلاً لا شترت الساعة بألف دينار لأصنع منها تمثالاً يفضح تمثال أفروديت، وليتها تعرف ذلك فيستهويها حب المال ، لأنى لن أفرغ من صب تمثالها في أقل من عامين . وعلى عهد الله أن أقنع منها بما يقنع السارى من بدر السماء !

\* \* \*

قلت فيما سلف إلى رجلٍ مفضوح النظرات ، وكذلك وقعتُ ، فلم تمض لحظات حتى تنبه زوجها إلىّ ، فما كان يسير بها إلا وحوله جيش من المعارف والأصدقاء ليصد غارة الإثم



والفتون .

وماذا يهمني ؟ إنه يتوهم أنى سأحاول مع زوجته ما حاوله عمر بن أبى ربيعة من زوجة أبى الأسود الدؤلى فى الطواف ، ولكنه مخطئ ، فأنا بالتأكيد أحسن أخلاقاً من أستاذى عمر بن أبى ربيعة ، وأنا قد تفوقت على أساتذتى فى أشياء كثيرة ، منها هذا الشيء . أنا أجِدُّ وعمر كان يمزح ، وهل ترك ابن أبى ربيعة غير أشعار مُلَوَّنة بالمجون ؟ أما أنا فسأترك بعون الله ورعاية الهوى ثروة فلسفية تشرح ما استبهم من أسرار الجمال .

سيعادبنى هذا الزوج وسأعاده ، ولكنى سأعرف كيف أتقى شره فأدرس عيئى زوجته من بعيد بحيث لا يجرؤ على اتهامى بالفضول .

وأسارع فأقرر أنى اشتركت فى جميع الحفلات والرحلات لأستطيع التمكن من دراسة هاتين العينين ، واستعنتُ بالدكتور محمد صبحى بك فى تحديد ما خفى عني من الدقائق البصرية ، ولم يبق إلا شيء واحد هو الوطن الذى تشرح فيه هذه العيون . وكيف أصل إلى ذلك وزوجها بالمرصاد ؟

انتظرتُ وانتظرتُ ، ثم انتظرتُ ، إلى أن جمع بيننا زحام المرقص بعد ثلاث ليال ، فدنبوت منها فى خفية وقلت :

! Tu m'oublieras un jour

فقلت فى عبارة تجمع بين العتب والرفق : « دَخِيلَكَ دَخِيلُ الله ، إتركنى لحالى ! » . فعرفت أنها من بنات عمنا القديم دماشق بن قالى بن مالك بن أرفخشذ ابن سام بن نوح عليه السلام .

رباه ! أنت تعلم ما نعانى فى سبيل الحقائق الأدبية والنوقية والفلسفية ، وتعلم أن الناس لا يَجْزُوننا بغير العُقُوق ، فاغمرنى بلطفك واكتبنى عندك من الصادقين .

\* \* \*

وأعود إلى حفلة رئيس الوزراء فأقول إنها كانت فى غاية من الجفاف فلم يشرب فيها المدعوون غير أقداح الماء القراح . وقد تشاكى السامرون بعضهم إلى بعض ، وعرف أحد الأطباء ما فى نفسى فقال : هل سمعتَ تصریح معالى أمين العاصمة ؟ فقلت : لا . فقال : إنه يقول إن هذه الليلة من ليالى مكة ، وإنه سيُرِينا فى مساء الغد ليلة من ليالى بغداد .

وطاش صوابى فمضيت أبحث عن أمين العاصمة لأسجِّل عليه الوعد ! فرأيتة يحادث رجلاً عرفت فيما بعد أنه وزير المالية ، فما كاد يرانى حتى قال : أنا أفتش عليك يا دكتور مبارك .

فقلت : وأنا أفتش عليك يا معالي الأمين . ولكن قبل أن أخبرك لماذا أبحث عنك ، أسألك لماذا تبحث عني ؟

فقال : كنت أحب أن أوجه نظرك إلى وجوب خلْع السدارة في السهرة .

فقلت : وأنا لا أخلع السدارة لأني أكره أن أعطيها أدب القُبَّة .

فقال : ولكن نحن اصطلمحنا على خلع السدارة في المجتمعات .

فقلت : هذا غير صحيح ، فقد رأيت عشرات من النواب يحملون السدائر في حضرة جلالة الملك وهو يلقي بنفسه خطاب العرش ، ورأيت ثلاثة من النواب يخطبون وهم مُسَدَّرُونَ ، وزرت معالي رئيس مجلس النواب في بيته فكان يحمل السدارة وهو في غرفة الاستقبال ، والصحف تنشر صورة جلالة الملك مُسَدَّراً وهو يقرأ الفاتحة على قبر أبيه .

فقال : قلت لك إننا اصطلمحنا على خلع السدارة في المجتمعات .

فقلت : وأنا أرى الشواهد التي قدمتها كافية لإقناعك بوجوب التسامح في هذا الاصطلاح .

فقال : أنت أستاذ وأعمالك قُدْوَةٌ ، وأخشى أن أقول إنك تعطل ما نسعى إليه من جرّ الشعب إلى المدنية .

فقلت : وأنا أخشى أن تجروه إلى الحيوانية .

فظهر الغضب على وجهه وقال : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

وعرفت أن الموقف سيسوء فأسرعت إلى تحديد ما أريد وقلت : أقول يا معالي الأمين إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يغطي رأسه ، وما عداه من الحيوان لا يعرف تغطية الرأس . وكذلك أحكم بأن كشف الرأس يقرب الإنسان من الحيوانية .

فأخذني من يدي وانتحي ناحية وقال : كيف تقول أمام معالي وزير المالية إننا حيوانات ؟ فقلت : معاذ الأدب أن أقول ذلك ، وإنما شرحت المسألة من وجهة علمية ، فقررت أن

الإنسان هو الذي يغطي رأسه من بين سائر الحيوان .

فقال : ولكنك على كل حال جرحتنى ، فإن كنت جاداً فلتعلم أنه لا يستطيع أحد في العراق ولا في مصر أن يخاطبني بمثل هذا الكلام ، وإن كنت مازحاً فاسمح لي أن أصارك بأن للرجل أن يمزح ، ولكن ليس له أن يخرج على الذوق .

فقلت : ما كنت جاداً ولا كنت مازحاً ، وإنما كنت أقرر حقيقة علمية .

فقال : يظهر أن ما سمعت عنك صحيح .

— ١٠١ —

فقلت : وماذا سمعت ؟  
فقال : سمعتُ وقرأتُ أنك رجلٌ مشاغِب ، ومن واجِبى أن أنبهك إلى أُنَى سحبت منك  
الدعوة لحضور السهرة المقبلة .  
فقلت : ذلك ما لا تملك .  
فقال : ستعرف أن ذلك مما أملك .  
وانصرف وانصرفت .

\*\*\*

رجعتُ إلى منزلي مُبَلِّل الخواطر وأنا أقول : هذا ذنب ليلي ، هذا جزاء من يخالف ليلي ،  
فلو كانت ليلي معي في السهرة لَغُفِرَتْ جميع ذنوبي فقد علّمتني التجارب أن الرجال الذين لهم  
زوجات سَوَافِر تُقْضَى لهم مصالح لا تقضى لأمثالنا أبداً ، نحن المحافظين المغفلين الذين يجهلون  
تُحَلِّق الزمان .  
أُستطيع أمين العاصمة أن يحجبني عن ليلة بغداد بعد أن أضعت من العمر ما أضعتُ في  
التغنى بتاريخ بغداد ؟ أفي الحق أنه أعرق مني لأنه من مواليد العراق ؟  
سترى يا أمين العاصمة أننا أقرب إلى قلب بغداد ، وسترى في الليلة القادمة كيف تلقاني  
وألقاك .

يشرف أمين العاصمة برعوة سعادة الدكتور السيد كركس

إلى حفلة القبول التي ستقام في بهو العاصمة في الساعة العاشرة زوالاً من مساء  
يوم الخميس المصادف ١٠ شباط سنة ١٩٣٨ وذلك على شرف أعضاء المؤتمر  
الطبي العربي الذي نعقد به بغداد الجمعية الطبية المصرية.

اللباسي : فراك

والبزة الرسمية للمسكريين والشرطة  
برمجي ارسال الجواب بأسرع وقت

لقد آذاني معالي السيد أرشد العمرى ، وكظمت غيظى فلم أسمع ما يكره ، وقلت فى نفسى : إن الرجل تصور أننى أهنته فسحب منى الدعوة والجروح قصاص .  
 وقلت : هم سيقضون السهرة فى الرقص وسأقضيها فى التأليف ، وأنا أجد لذة ممتعة حين أراى أجد فى وقت يلعب فيه الناس .  
 وتذكرت أنى أشغل مطبعتين فى بغداد ، وأن من الخير أن أعتكف فى المنزل فأحضر بعض الوقود لجحيم المطابع .  
 وكذلك اطمأنت إلى الزهد فى ليلة بغداد التى وعَدَ بها المؤتمرون !

\*\*\*

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة ؟ هى دعوة لسياحة طريفة فى ضواحي الكرخ وبغداد ، نتفرج بها على إسالة الماء ، وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق ، ولم أر فى بغداد غير الجاذة والدربونة ودار المعلمين العالية وكلية الحقوق وما تيسر من سواد العيون .

وسرت مع السائرين للتفرج على إسالة الماء وأنا أرمى إلى غرضين : الأول الترويح عن النفس ، والثانى كجابه بحث لجلة المقتطف عن تكوين الصهاريج .

فهل رَوَّحْتُ عن نفسى وأعددت مواد البحث المنشود ؟  
 ما صنعت شيئاً من ذلك ، وإنما دارت الأرض تحت قدمي حين رأيت صاحبة العينين ، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية فى تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النقي ، وكنت أنظم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة العينين . ومن العجيب أن أمرى لم ينكشف ؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أننى كنت المستمع الواعى ، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تُسقيان من دجلة لا من الفرات .  
 ولمثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل !

\*\*\*

ومضينا فتناولنا الشاي والفاكهة فوق العُشب الأخضر وبين الأشجار التى أذوتها أرواح

الشتاء ، وأدير على الحاضرين صوت أم كلثوم :

على بلد المحبوب ودّينى زاد وجدى والبعد كاوينى  
فكانت بلد المحبوب عندى هى المائدة التى تجلس عليها صاحبة العينين ولكن أين من  
« يُودّينى » هناك ؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بينى وبينها غير ثلاث خطوات !  
ثم قال الصوت :

يا مسافر على بحر النيل أنا لى فى مصر خليل  
فرمقتنى صاحبة العينين بنظرة حَتّان . فمن الذى أعلمها أنى نشأت فى ديار النيل ؟ مَنْ  
أعلمها ذلك وعلى رأسى سِدّارة ، والمصريون كلهم مطربشون !  
وهممتُ بالتسليم عليها ، ولكن صدّتنى العصاة التى كانت تحرسها منى ، وصدنى أن  
مكاني كان قريباً من مكان رئيس الوزراء .  
ثم تقوض المجلس وانفض الناس . والدنيا اجتماع وافتراق .

\*\*\*

كيف السبيل إلى رؤية هذه الطيبة فى المساء ؟  
إنها ستكون بالسهرة البغدادية التى وعد بها المؤتمرون .  
وأنا ممنوع من سهرة بغداد .  
ولكن من الذى يمنعنى ؟  
هو أمين العاصمة حضرة صاحب المعالي أرشد العمرى .  
أهلاً وسهلاً بمعالى الأمين !  
أأنت الذى يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتب مثله  
كاتبٌ فى قديم ولا حديث ؟  
أنت مهندس بغداد ، وأنا أديب بغداد ، وسترى لمن يكون الخلود ...

\*\*\*

وأخذتُ أفكر فيما سأصنع ، فهذه الطيبة ستكون فى المرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها  
مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب فى رياضة العصاة التى تحرسها منى !  
وأنا قد تعلمت الرقص فى باريس وأخشى أن أنساه ، وحياة العلم مذاكرته ، كما قال  
القدماء .

وهل من الإثم أن أهتم بمذاكرة ما تعلمت ؟ وهل أنفقت من الوقت والمال فى سبيل الرقص

— ١٠٤ —

ما أنفقت لتضيع منى فرصة لن تعود من فرص بغداد ؟  
لا بُدَّ من حضور هذه السهرة .  
لا بُدَّ مما ليس منه بُدَّ .

\*\*\*

ولكن كيف ألقى معالى أرشد العمرى وهو غضبان ؟  
أنفقت فتناوش ونتضارب ؟ وهل أرسلتني مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال ؟  
لو كانت المسألة بينى وبين هذا الرجل مسألة شخصية لضاربه وقتلته بلا تهييب ، وما  
أحسبه يزعم أنه أقوى منى ، ولكن المسألة أنى مصرى وهو عراقى ، وأنا أنفق دمي في خلق  
الصلات بين مصر والعراق ، وإقامتى في بغداد أقنعتني بأن مصر لا بد لها من مودة العراق ،  
فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذى يسلم فيه المصريون من أذى الناس ، وهذه  
العواطف ليست جديدة عندي ، وإنما تلقيتها منذ سنة ١٩١٧ عن الأستاذ أحمد صالح حين كان  
يدرس التاريخ القديم بالجامعة المصرية ، فقد حدثنا عن مودات صوادق أقامها الحلف الشريف  
بين المصريين والبابليين وما جاز في عهد الجاهلية لا يستحيل في عهد الإسلام ، إلا أن نكون  
من الأغبياء .

وتذكرت أن بغداد تحوطنى بأشرف معانى العطف ، وأنه ليس من الذوق أن أخرج رجلاً  
هو أمين بغداد ، وهو أكبر منى سنّاً ولعله أكثر تجربة ، والتحامل عليه ضربٌ من العقوق .  
وتذكرت شعار مصر وشعار العراق .

أما شعار مصر فهو : « أحرار في بلادنا ، كرماء لضيوفنا » .  
وأما شعار العراق فهو :

سيوفنا قاطعة للى يقابحنا ورقابنا قنطرة للى يسابحنا

وتذكرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس في السهرة وأنا أكره كشف  
الرأس لأنه قد يجر إلى الزكام ، وأنا مدرس ، والمدرس المزكوم منظره سخيف ، فما الذى يمنع  
من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خلعه في السهرات .  
هذا حلٌ موفق ، ولكن لا بدّ من الاحتياط ، والاحتياط هو أن أذهب قبل الموعد بساعة  
إلى مكان الاحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول ، وبذهبهم هو أن تحتل  
أولاً ، ثم تفاوض بعد ذلك !

\*\*\*

كان طريقى من باب المعظم إلى بهو أمانة العاصمة يوحى الشعر والخيال فقد كانت ليلة عيد ، وكان القمر ينظر إلى فى ترفق كأننا فى سنتريس ، ولكن صدرى كان مكروباً بعض الكرب : فقد كانت ليلة العيد لا تقع إلا وهى موعد غرام ، وهى فى هذه المرة قد تكون حومة قتال . مشيت مشية المتمهل لأجتلى طلعة القمر ، أو لأؤخر الشر لحظات .

فلما دخلت البهو وجدته خالياً ، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقت الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية ؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخلى الذى تفكر المقادير فى شغله بالحب ، وجدته كالغادة التى تنتظر العاشق الصوال ، وجدته كالكأس التى تنتظر ضريم الصهباء .

دخلت وحدى وتلفت فلم أجد أحداً ، وبعد لحظة تحت شبح معالى الأمين وهو يتمرن على الطواف قبل قدوم الحجيح ! وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يعدو إلى عدواً فقلت : هذه طليعة الشر ، وتأهب للصلال .

ولكن الرجل أخلف ظنى كل الإخلاف ، فقد حيانى أجمل تحية ، وأخذ يدي يرفق فدلنى على المقصف فحسبته صديقاً قديماً أنستنيه الأيام ، فقلت : سيدى ، هل لك أن تُذكرنى متى تلاقينا أول مرة ؟ أترانى عرفتك فى القاهرة أو فى باريس ، ذكرنى فقد نسيت !

فأجاب فى لطف : ما أذكر يا مولاي أننا تلاقينا قبل اليوم ، وإنما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العريزة ، وللمصرى على العراق حقوق الأخ الشقيق . فرفعت الكأس وقلت : تعيش بغداد ، ويحيا العراق ! وسألت بعد ذلك عن اسم هذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب نورس الياور ؛ وكذلك استحال على معالى أمين العاصمة أن يلقاتنى بغير الابتسام .

\* \* \*

نحن الآن فى بغداد ، فى ليلة رأى مثلها الرشيد ، وإن تعب الواصفون فى التذكير بليالى الرشيد . هى ليلة بغدادية لا قاهرية ، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب ، ويختلف حولها الفقهاء ؛ أما بغداد فتعرف الليالى الساهرة عن الآباء والجدود . هى ليلة سيدكرها من رآها وستحتل أقطار ذهابه إلى اللحظة التى يعانى فيها سكرات الموت ؛ هى

ليلة تمثل الفتوة العراقية وتذكّر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت .  
كان الناس كلهم في سماحة الملوك ، وكنت وحدي أبخل الحاضرين ، فقد سألتني رجل  
عظيم متى أرقص ، فكذبت عليه وقلت لن أرقص ، مع أني ذهبت إلى ناحية قصبة وراقصت  
ثلاث فتيات وعاقرت الثغور سبعين مرة أو تزيد ، وعند الكرام الكاتبين جريدة الحساب .  
لا أدري والله ماذا صنعت في تلك الليلة ، وإنما أذكر حادثتين : الأولى حين دخلت  
المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص ، فقد ارتفعت الأصوات : يحيا الدكتور زكي  
مبارك ! وكان الأستاذ على الجارم بك بين الحاضرين فانتظرت أن يهتف باسمي فلم يتردد كما  
كنت أتوقع ، وإنما هتف هتاف الصديق ؛ شق الصفوف إليّ فعانقني وهو يقول : أنا فرحان  
لك يا دكتور زكي ! فرحان لك يا أخوي ، فرحان لك يا حبيبي ، فرحان لك يا نور العيون ،  
يا زهرة مصر في العراق .

وإنما عددت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا في قليل من الأحيان .  
ولا مؤاخذه يا جارم بك ، يا حبيبي يا نور عيوني ، يا أحلا من ملح رشيد !  
أما الحادثة الثانية فهي طرفة لا تقع من رجل سوى .  
فقد عثرت في الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس  
الثانوية ، ولكنها لا تصلح لأن تكون غادة في مرقص ، فقلت في نفسي : ما الذي يمنع من  
التصدق على تلك الفتاة بقبلة أو قبلتين ؟

وأنا في الحقيقة « رجل إنسان » كما يعبر أهل القاهرة ، أو « رجل آدمي » كما يعبر أهل  
دمشق وأهل بغداد . وما أذكر أبداً أن سائلاً سألني وخيئته ، وأنا لا أستحي من الجود  
بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع ؛ وقد أكرمنا الله بالغنى ، فمن اللؤم أن نكون بخلاء .  
طافت هذه الخواطر بنفسي وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت : إن ليلتي هذه لن تخلو من  
سيئات ، ولا بد من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات ، فتوكلت على الله وأقدمت .  
سلمت على الفتاة فاستراحت للسلام ، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفني وقبلت يدها  
فابتسمت .

فقبلت جبينها وخديها ، ثم قبلت جبينها وخديها ، وانصرف .  
ولكنني لم أكد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح : يا دكتور مبارك !  
يا دكتور مبارك !

فالتفت مذعوراً فإذا سكرتير مجلس الوزراء . فقلت : وقعت الواقعة وحقت الفضيحة ،



وجمعتُ أشتات قواى وقلت : نعم يا سيد !  
فقال : لن نحاكمك إلا إلى قول شاعر كم شوق .  
فقلت : وماذا قال شوق ؟  
فأجاب إنه قال :

نظرةً فابتسامةً فسلاماً فكلاماً فموعداً فلقاءً  
فهو قد فرض أن تُسبق القُبلة بستة أشياء ، وأنت قَبَلتَ بدون مقدمات .  
فقلت : يا سعادة الأبتاذ ، لقد عرفتُ شيئاً وغابت عنك أشياء إن شوق قال هذا البيت  
منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ما عرف الناس ، ونحن اليوم في عصر اللاسلكى  
والطيران ، فلا تلمنى إن قَبَلتَ بدون مقدمات ، فمن العقل أن تتخلق بأخلاق الزمان .  
طابت السهرة وطابت ثم طابت ، وعرفت فيها طيباً نبيلاً كان يصادقنى عن طريق  
مؤلفاتى ، وسيكون من الذين أُقْبِل من أجلهم ثرى بغداد يوم أفارق بغداد ، وصداقة الأرواح  
شئ نفيس ، ومودة العقول من ذخائر الرجال .  
كانت ليلتنا كما قال ابن المعتز :

ثم انقضت والقلب يتبعها في حيثما وقعت من الدهر  
فأين ليلتنا من الدهر ؟ أين ؟ أين ؟ إنك يا دهر لظلوم !

\*\*\*

كنت أول من دخل البهو في تلك الليلة ، وكنت آخر من خرج ، ولولا الحياء لطلبت  
المبيت هناك لأستنشق ما بقى من أنفاس الأطباء .  
رجعت إلى المنزل ، ولا أذكر كيف رجعت ، فقد استيقظت قبيل الشروق ، فرأيت  
مصاييح البيت كلها مضاة ، ورأيتنى في ثياب السهرة كما كنت ، فعرفت أننى دخلت البيت  
بلا وُغى ولا إحساس .  
ولكن لا بأس فقد عشت ليلة من ليالى بغداد .  
وإلى معالى أرشد العمرى تحيتى وثنائى !

\*\*\*

هذا صباح العيد ، وهذا طوافى برياسة مجلس الوزراء ، أصافح الرجال الذين عناهم  
الشرىف الرضى حين قال :

نُحامينُ أقمارَ الدجى بوجوههم فنبهَها نوراً ونغلبها سعداً  
تخالمُ غيداً إذا بذلوا الندى وتحسبهم جنأ إذا ركبوا الجرّداً

هذا هو الرجل العذب الروح ، النبيل الشمائل ، جميل المدفعي رئيس الوزراء الذي لا يصدّق من يرى صباحة وجهه أنه من صناديد القتال . والليث لا يكون شتيباً في كل حين . وهذا وزير المواصلات ، الصديق الذي أحببته منذ رأيتَه في سهرات رمضان . وهذا وزير الداخلية يلوم ويعتب لأنه يراى أستبيح من أساليب التعبير ما لا يستبيح أدباء باريس .

\*\*\*

ويتفضل صديق عزيز فينقلني بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نوري باشا السعيد ، وكنت أتمثل نوري باشا رجلاً كهلاً أضوته السنون فأراه فتى خفيف الروح كأنما قدم بالأمس من ملاعب مونبارناس ، ويقبل عليّ فخامته فيقول : أنا تلميذك بالفكر ، يا دكتور مبارك ، لأنني قرأت جميع مؤلفاتك .

ويروعي هذا اللطف فأقول : « لقد علم الله كرم نفسك فحفظ عليك شبابك يا فخامة الرئيس » .

ويقبل عليّ الحاضرون فيسألون عن صحة ليلى ، فيبتسم نوري باشا ويقول : « إن ليلى المريضة في العراق هي شبكة ينصبها الدكتور زكي مبارك لتقع فيها إحدى الليليات » .

وأنا لم من ذلك فأقول : « إن مولاي نسي أنه تلمظ فأعان الضابط عبد الحسيب على الاتخراط في سلك الجيش العراقي سنة ١٩٢٦ » .

ويمسح نوري باشا جبينه ويقول : « تذكرت ، تذكرت ، شفي الله ليلى على يديك » .

\*\*\*

ثم تمضي فنزور معالي مولود مخلص رئيس مجلس النواب فنرى الرجل الذي أفهم العالم أن من واجب الجيش الإنجليزي أن يحسب ألف حساب للجيش العراقي ، ونسمع الفصاحة العربية التي كانت تعذب وتطيب على ألسنة الغزاة الفاتحين .

وفي مساء يوم العيد نحتفل بعيد صاحب الجلالة فاروق الأول احتفالاً فخماً يشاركنا فيه أقطاب العراق .

وفي اليوم التالي أمضى لإلقاء محاضرتي في المؤتمر الطبي فيقبل عليّ عشرون طفلاً وهم يصيحون : « الدكتور زكي مبارك ، الدكتور زكي مبارك » .

ويجيء صديق من الأطباء السوريين فيقول : « لقد صارت طلعتهك بهجة لأطفال بغداد

— ١٠٩ —

يا دكتور مبارك ! فينهمل دمعي وأقول : « نعم ، فهذه الطفلة تشبه كريمة ، وهذا الطفل يشبه عبد السلام ، وذاك يشبه عبد المجيد وتلك الفتاة تشبه زينب ، وهذا الفتى يشبه سليمان » .  
أبنائي الأعزاء ، لقد نهبتى منكم بغداد ، فاغفروا لي ذنبي فما ذقت حلاوة العيش إلا في بغداد .

\*\*\*

تحدثت عن الليلة السعيدة التي أقامها أمين العاصمة ، وكنت أحسبها خاتمة الليالي الملاح ، ثم ظهر أن هناك ليلة أروع وأظرف ، وهي ليلة الجمعية الطبية العراقية . فلنذكر بالتفصيل ما وقع في تلك الليلة من ضروب الفُتُون فقد تمرُّ أعوام قبل أن تشهد مثلها بغداد ، وقد تسكت عنها الأقلام فتذهب ذكراها من القلوب .  
ومن الواجب عليّ وقد أجاب الأطباء دعوتي ف عقدوا المؤتمر العاشر في بغداد ليعاونوني على مداواة ليلى ، من الواجب أن أسجل بقلمي ما صنعوا من الطيبات حين عطروا بغداد بليال أروع وأنضر من ليالي الرشيد . ولن يكون هذا آخر العهد بالأنس يا بغداد .



الى الدكتور زكي مبارك

من ليلى المريضة بالعراق

١٠ ذ الحجة ١٣٥٦

أهل الأستاذ أعمامك المحترمين

يسرن وأتم الدأ أن أعميك باسم العراقيين عامين وأكافين منهم خاصة مقدماً أعم  
 التهانى مشفوعة بالدعاء لك ولشقيقتنا مصر خباته عليه الأاضحى السعيد.  
 فأننا نطالع بكل اشتياق ما تخطه يدك ولكننا لم نريوياً أن مثل عطفك  
 الكافية تلك المدينة الملقه سبة القريضة من وكرت في بغداد  
 ولديني عطفه أن هذه المدينة أنجبت عشرات الرجال الكبار  
 الذين قدموا ولا يزالون يخدمون وطنهم بكل إخلاص وأذكر  
 لك هنا أسماء البعض على سبيل المثال :- السيد محمد الصمد رئيس مجلس  
 الأعيان وأمين مهندى الخالص من زعماء الثورة العراقية وعضو المجلس  
 الأعلى بمجلس الأعيان والسيد باقر احديكار موظفى البلاط الملكى  
 العامر وحسن السهيل زعيم قبائل بني حميم واليى باقر عبد الله  
 الكافى والدكتور فاضل الجبال ومحمد سادى رئيس محكمة الميى  
 فى بغداد وغيرهم وغيرهم من خطباء وكتباء وعلماء وأساتذة وقادة جيش  
 فأعطف أتم الأستاذ على الكافية لى العراق الصالحة بعد أن انتهت  
 من لى العراق المريضة والسلام ..  
 أهدعبيك من الشباب

نحن في اليوم الرابع من أيام المؤتمر الطبي العربى الذى بث الابتهاج والانشراح في أرجاء بغداد ، وأنا أمضى إلى مدرّج كلية الطب لألقى محاضرتي عن المصطلحات الطبية فأجد اسمي فوق اللوحة آخر الأسماء ؛ وأتلفت فأرى فتاة من قريات ليلى جاءت لتسمع محاضرتي فأحقد على منظّم المنهج ، لأن هذه الفتاة قد تَضَجَّر فتنصرف قبل أن تسمع صوتي ، فأنتهز أقرب فرصة وأدخل في مناقشة حامية مع الدكتور فؤاد غصن ؛ وينهزم الدكتور فؤاد غصن ، فتصفق تلك الفتاة . وما أسعد الخطيب الذى تصفق له فتاة بغدادية ساجية الطرف مصبولة الجبين ! رباه ! متى يُعقد المؤتمر الطبي مرة ثانية ولو في الصين ١٩

ويقوم سعادة الأستاذ على الجارم بك فيلقى محاضراته في صوت مَطْلُول كأنداء الصباح . ثم يقوم فضيلة الشيخ السكندري فيلقى محاضرة نفيسة جداً تضح لها الأرض وتطرب السماء ، ويصبح الدكتور القيسى : تحيا مصر ! تحيا مصر ! وأقبل عليه أشكره على التحية التى وجهها إلى مصر فيقول : كنت أظن الذكاء المصرى خرافة أذاعها المصريون ، واليوم رأيت وتحققت أن المصريين أذكاء وعلماء ، وقد تبددت الصورة المشوهة التى ارتسمت في ذهني بسبب الجموح الذى شهدته فيمن عرفت من الطلبة المصريين في باريس .

وأعتذر عن جموح شبابنا فأقول : لا تلم شبابنا على المرح والطرب ، فنحن شعب طال عهده بالهموم والأرزاء فهو يروّج عن نفسه بتكلف السرور والارتياح . أما سمعت قول شاعركم الزهاوى في مخاطبة أم كلثوم :

يا أم كلثوم إنا أمة رزحت تحت المصائب أحقاباً فسلينا

ويجىء دورى في الخطابة فأعطي المنبر في زهو وتخيلاء . ثم يروعننى أن أرى الناس ينصرفون ، فأذكر أن الموعد حان للغداء في مضارب بنى تميم ، وأن المستمعين الكرام يفهمون جيداً أن الفرق في المرق أشهى وأطيب من بلاغة سحبان !

ويرى سعادة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أنى متألم متوجع فيهمس أن المدرّج لم تبق فيه فتاة واحدة . فأسأل : وكيف ؟ فيجيب بأن وغورة البحث الذى ألقاه الشيخ السكندري

أملت جميع الفتيات فانصرفن عابسات . ويسرنى أن لا تشهد فتاة هزيمتى فأقول : إلى الغد ،  
يا حضرات الزملاء !

وقبل أن أدخل في تفاصيل ما سأراه ، أذكر أنى زرت ليلي شفاها الله في مساء ذلك اليوم  
فحدثنى أن خطبة الشيخ السكندري ملأت مسامع بغداد ولكنها أنكرت أن يتحدث الشيخ  
السكندري فيقول :

« إن الأوكسيجين مثنى أو كسيج ، وإنه يرفع بالآلف وينصب ويجر بالياء » .  
فأصرخ في وجه ليلي : هذا كذب ، هذا افتراء !

ثم أعرف بعد ذلك أن هذه دعاية ثقيلة أذاعها مصرى خبيث يقيم في بغداد .  
ولم أنجح في إقناع ليلي بأن هذا افتراء على الشيخ السكندري إلا بعد أن هددتها بالغرق في  
دجلة ، ويلي تجننى يا بنى آدم ، فلا تستغربوا أن يهولها هذا التهديد .

\*\*\*

ثم أخرج للبحث عن سيارة تنقلنى إلى مضارب بنى تميم ، فلا أجد غير سيارة بالأجرة ،  
فأتردد ، لأنى لم أدر درهماً واحداً في بغداد ، فقد أنفقت مالى على المطابع ، وعند الله  
جزائى .

وأهم بالزهد في الولاية التيمية فأسمع صوتاً يقول : سيارتى في خدمتك يا دكتور زكى .  
فأنظر فإذا الطبيب الذى تشرفت بمعرفته بالأمس وهو الدكتور صائب شوكت ، فأقول  
ولكننى معى صديقان فضيلة الشيخ السكندري والأستاذ عبد المنعم خلاف . فيقول : سيارتى  
في خدمتكم جميعاً يا مولاي .

وقبل أن أدخل في التفاصيل أذكر أنى أعطف على عبد المنعم خلاف لسببين : أما السبب  
الأول فلا أذكره ، وهو يعرف ما أعنى . وأما السبب الثانى فهو أن الشقى يشغل نفسه منذ  
أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحي : الوحي الهائل الخطير الذى جعل الدكتور زكى  
مبارك يكتب ثلاث مقالات في كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف . وسيموت  
الشقى قبل أن يعرف مصدر الوحي . وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا كيف  
استطاع الدكتور زكى مبارك أن يكون أصدق من استرقت بغداد .

ونمضى في السيارة على غير هدى في صحبة الطبيب النبيل الذى ينقلنا إلى مضارب بنى  
تميم ؛ ثم نتلفت فجأة فنرى نحو عشرين سيارة تتعقبنا فنعرف أننا ضللنا مع أننا في رحاب  
عقرووف الذى خلد اسمه أبو نواس في رحلته إلى مصر ، مصر التى فيها الزمالك ومصر

الجديدة وحلوان ، والتي تسدل ستائرهما على الجدائل المعطرة التي تشعث بعد رحيل إلى العراق .

رباه ! إنك تعلم أن الظلام في مصر الجديدة أندى وأطيب من النور الوهاج ، فمتى ترجعني إليه !

ونصل إلى مضارب بنى تميم فنرى أفواجاً من الفرسان ينتظروننا على طول الطريق وهم يحبوننا بأناشيد كلها رفيق وحنان . وفي زحمة الاحتفال يحىء طيب نبيل فيدعوني للتسليم على سيدتين كريمتين ، لا أذكر اسمهما تأدياً ، ولو شئت لقلت إنهما من النفحات الربانية ، وقد رحلت الأولى إلى القاهرة وبقيت الثانية في بغداد . فإليهما أقدم تحيتي وثنائى ، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . ويمدّ السماط ، أو السماطان ، أو الأسطة ، كما يشاء كرم الشيخ حسن سهيل .

ثم يشيع بين الجمهور أن رجلاً غرق في المرق ، فيصيح الطفل الجميل الذى اسمه عمر : بابا ، بابا ، أحب أن أطمئن على الدكتور زكى مبارك . فيقول سعادة وزير مصر المفوض في العراق : اطمئن يا بُنى ، فإن الدكتور مبارك من كبار السابحين !

ويقف عميد بنى تميم ليخطب فيشتد التصفيق ؛ ويقف الشيخ السكندرى ليخطب فيشتد الهتاف ؛ ثم يقول صديق كريم بصوت جهورى : الدكتور زكى مبارك يلقي كلمة العراق ، فيتلفت وزير المعارف قائلاً : ماذا ؟ ماذا ؟ فيجيب الصديق الكريم : الدكتور زكى مبارك يخطب باسم العراق ، فيقول معالى الوزير : نعم ، نعم ، من حق الدكتور زكى مبارك أن يخطب باسم العراق .

وألقي خطبة رنانة أشكر فيها إخوانى المصريين وأقول إن حياتى طابت في العراق وإننى لا أحب الرجوع إلى مصر . فأرى دموع الشيخ السكندرى تتحدر وأسمعه يقول : وهل نسيت ستريس ١٩٠ .

فأقول بصوت صاخب : ونسيت ستريس !

ومن واجبى أن أسجل في هذه المذكرات أنى لم أر في حياتى أياماً أطيب من أيام العراق . وسأظل من أنصار العراق فيما بقى من حياتى . حيّا الله العراق ، ونصر الله العراق !

\*\*\*

أما بعد ، فنحن في منتصف الساعة التاسعة من مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٣٨ وهو مساء لم تشهد مثله بغداد منذ أجيال . وهذه سهرة في بهو أمانة العاصمة أقامها الطبيب الشاب الدكتور ( ليلي المريضة في العراق )

شوكة الزهاوى . وهذا الدكتور زكى مبارك الملحد الفاجر فيما يزعمون ، يتلفت عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين . ولكنه يرى الطبيب النبيل الذى سيقبل من أجله ثرى بغداد يوم يفارق بغداد ، فيستشير صديقه فيما يأتى وما يدع ، فيعرف أن السهرة تنقسم إلى قسمين : قسم عربى وقسم أفرنجى ، فأقول : النبى عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى . وأمضى إلى القسم العربى فأجد الوزراء جميعاً وعلى رأسهم فخامة الرئيس . وأخرج عن وقارى فأمضى إلى رئيس الوزراء وأقول : سيدى ، أسمح بأن أسجل فى مذكراتى أن إثبارك الجلوس فى المرقص العربى هو فى ذاته تزكية نبيلة للثقافة الدوقية فى حياة العروبة ؟ فيبتسم ابتسامة القبول .

وأعود إلى مكافئى وأجعل قلبى كله للمرقص ، وما هو فى الحقيقة بمرقص ، ولكنه معنئى كما يعبر المصريون . وأنظر فإذا فتاة مليحة جداً تجلس بين ألقيان وعليها سيما الدل ، فيزعجنى أن تعجز عيونها الساحرة عن الاستبداد بألباب الناس ، فأنظر إليها بترفق وأرفع الكأس ، فتنظر بحنان وترفع الكأس ، ولا يكفينى ذلك ، بل أصنع الصنيع نفسه مع سائر القيان ؛ ويتقدم رجل لم تذهب الكأس بوقارة فيقول : يا دكتور مبارك ، إن مكانك قريب جداً من فخامة رئيس الوزراء ولعله يتأذى من مداعبة القيان ، وأنا أرى أن ما تصنع لا يليق بمقامك . فقلت فى عبارة صريحة : إن ما أصنع هو الذى يليق بمقامى .

فتلثم الرجل وقال : لطفاً ، يا سيدى ، لطفاً ! ولكن هل أستطيع أن أعرف جوهر رأيك فى هذه القضية ؟

فقلت وأنا أجده كل الجده : لست يا سيدى بفاجر ولا أثم وإنما أنا رجل مؤمن ، ومن واجب المؤمن أن يتونجع لآلام المنكوبين ، وهؤلاء المغنيات والراقصات يعانين أبشع نكبة قاستها الإنسانية ، فهنّ مسئولات عن الوصول إلى قلوب الناس . ويا ويل من يحكم عليه الزمن بأن يكون من صنعتة أن يرضى الناس ؛ والناس يا سيدى يغلب عليهم اللؤم فلا يقابلون من يخطب رضاهم بغير الجحود ، فهل يسوؤك وأنت عراقى كريم أن أكون من الكرماء ؟ هل يسوؤك أن أدخل السرور على قلب فتاة بائسة قضى عليها الزمن الجائر بأن تطلب رضى ورضاك ؟

فهدأ الرجل قليلاً ثم قال : وما رأيك فى هذا ؟

فقلت : وما هذا ؟

فقال : أما رأيت الراقصة ترفع الثوب عن فخذيها فى وقاحة وسفاهة ؟



فقلت : نعم رأيت ، ثم رأيت ؛ ولكن من المعلوم ؟ إن الراقصات يعرفن أن فينا الغوى والسفيه والمجرم ، فهن يتقرين إلينا بتزيين الرجس والدعارة والفيحش ، ولو كن يعرفن أننا جميعاً نغار على الكرامة لما جاز لإحداهن أن تكشف عن قدم أو ساق .

ويقوم المغنى المطرب محمد القومباجي فينشد :

أحبابنا قد فرق الدهر بيننا فأصبح : قد جمّع الدهر بيننا

فيعرف أنه لم يراع المقام ثم تكون أغانيه بعد ذلك ضرباً من الارتجال .

وأنتقل من مكاني لأرى كيف تموج الدنيا في المرقص الأفرنجي فأعثر على الراقصة التي كنت أداعبها بالكأس منذ لحظات ، وأحييها فلا تردّ التحية ، كأنها ظنت أنني كنت في مداعبتها من الماجنين .

إننى أفهم حالك أيتها الصبية المسكينة ، ويسرنى أن أراك تتمنعين فالناس كلهم وحوش ، ولا أستثنى نفسى ، فلتحذرى وليحذر أمثالك من حسن الظن بالناس .

طوّفت بالمرقص الأفرنجي لحظات لأرى صاحبة العينين ، ولم أجدها فأين ذهبت ؟ أين ذهبت ؟ دلونى فقد عيل صبرى . وفوق أى مخدة نام ذلك الخد الأسيل ؟ يرحمك الحب يا قلبى !

\*\*\*

تحيا إنجلترا !!

كذلك قلت ، فدهش السامرون .

تحيا بريطانيا !!

كذلك قلت ، فدهش السامرون .

تحيا بريطانيا العظمى !!

كذلك قلت ، فضجّ السامرون .

وما لى من ذنبٍ إليهم علمته سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمى

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى ثلاث تحياتٍ وإن لم تكلمنى

لقد كنت من أعضاء الحزب الوطنى ، وكنت من أوفى الناس لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويز . وكنت أذيع مبادئ الحزب الوطنى بلباقة فى الجرائد الوفدية ، وكان الوفديون يعرفون صدق وإخلاصى ونزاهتى فيتساحون ويدعوننى أذيع فى جرائدهم ما أشاء . ولما أمضيت معاهدة التحالف بين إنجلترا وبين مصر قررت أن أولف كتاباً أدعو فيه

المصريين إلى أن يتذكروا دائماً أن إنجلترا كانت غزت مصر ورزأتها بالاحتلال .  
فما الذى جَدَّ فى أفق السياسة حتى أهتف بحياة إنجلترا فى بغداد ؟  
ما الذى جَدَّ حتى يتغير زكى مبارك الذى أضاع نفسه فى مصر بفضل حرصه على مبادئه  
الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التى تملك مصائر الأمور فى أكثر الشؤون ؟  
كنتُ ألح من بُعد فتاة تسارقنى النظر بعينين زرقاوين ، وكنت لا أملك الانتقال إليها ولا  
تملك الانتقال إليّ ؛ وكان جاري رجلاً ظريفاً كسائر البغداديين ، فترك المكان عمداً لأستطيع  
دعوة الفتاة إلى جواري . ولم تنتظر الفتاة الدعوة ، فما هى إلا لحظة طرف حتى كان وجهها إلى  
وجهي ، وكلمتني بالإنجليزية فلم أفهم ، فاستوضحتها بالفرنسية فلم تفهم ، فقالت بلسان  
عربي ملحون ما معناه : أرجوك أن تطلب من سليمة باشا أن تغنى :

على بلد المحبوب ودُّيني

ودار الصوت على الحاضرين ويدها فى يدي وعينها فى عيني ؛ وتلطف الكرام الكاتبون فلم  
يسجلوا غير الجميل .

وبعد لحظات همت الفتاة بالانصراف ، فجذبتُ يدها أقبلها فسمحت بعد تمنع  
واستحياء :

ولم يك غير موقفنا فطارث بكل قبيلة منا نواها  
فواها كيف تجمعنا الليالي وآها من تفرقنا وآها

\*\*\*

ثم يجيء اليوم الخامس فألقى محاضرتي فى كلية الطب ، وأعربد على الدكتور عبد الواحد  
الوكيل وعلى الأطباء المصريين ، وأزعم أن أساتذة الطب فى مصر من أكسل الناس ، ولولا  
ذلك لنقلوا علوم الطب إلى اللغة العربية ، ويصفق الحاضرون ، ويقبل الجارم لتهنئتي فأقول :  
أنا تلميذك . فيقول : لقد بددت أساتذتك .

ويجىء المساء فأذهب إلى الحفلة التى تقيمها الجمعية الطبية المصرية ، فأراها وأأسفاه حفلة  
مصرية حقاً وصدقاً ، فلا شراب ولا رقص ولا غناء ، فأقول فى نفسى : فضحتمونا يا ناس !  
لكن الدكتور عبد الواحد الوكيل ينقذ الموقف فيلقى خطبة يقول فيها : إن الجمعية الطبية  
المصرية عرفت أنها تعجز عن إقامة حفلة كالتى أقامها معالى أمين العاصمة ، أو حفلة كالتى  
أقامها سعادة رئيس الجمعية الطبية العراقية ، فقررت أن تقيم حفلة ترقص فيها الخطب ويغنى  
فيها البيان .

الله أكبر ! الله أكبر !

وكذلك قضينا ثلاث ساعات في سماع الخطب والقصائد ، ثلاث ساعات قضيتها في كرب ، لولا الخطبة الظريفة التي ألقاها سعادة العشماوى بك ، ولولا الوجه الأصبح الذى كنت أتعرّى بالنظر إليه .

\* \* \*

ويجئ اليوم السادس وهو رحلة إلى سدة الهندية وأطلال بابل .  
وأصل إلى القطار في آخر ثانية ، فقد كنت في شواغل غرامية عاقتنى عن مراعاة الموعد ؛ ولكن حظى كان سعيداً ، ولا أذكر كيف ، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصُّباح . وعمر القطار على قرية اسمها الإسكندرية فأقول : لعل هذه هي البلدة التى ينسب إليها أبو الفتح الإسكندرى الذى يروى عنه عيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان ؛ وأملاً عيني من نخيلها وأكوأخها لأكتب عنها كلمة في الطبعة الثانية من كتاب ( النثر الفنى ) .  
ثم يقذفنا القطار إلى سدة الهندية : وليتنا غرقنا هناك !

وسدة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات ؛ وللفرات فيها هدير جذاب يدكر بهدير النيل على الرياح المنوفى بالقناطر الخيرية . وقد وقفت على سدة الهندية لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطنى ، إن كان لى إلى أرض الوطن معاد .

لا تحزن يا قلبى ، فليست هذه أول غربة ، فقد كنت غريباً في كل أرض حتى في ستريس !  
لا تحزن يا قلبى ، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء ، لأن الغريب يؤدى امتحاناً في كل لحظة ، وتدرسه الأعين في كل مكان ، ويؤدى حساباً إلى كل مخلوق ، ويعجز عن إصلاح ما يفسد المفترون .

لا تحزن يا قلبى ، فكل غيم يتلوه صُخو وكل ليل يعقبه صباح .  
لا تحزن يا قلبى ، فأنا بجانبك أركاك وأواسيك ، وسأكفئك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب .

لا تحزن يا قلبى ، لا تحزن يا قلبى !

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أتريد أن تفر من قصص الضلوع ؟

وإلى أين ؟ حدثنى إلى أين ؟ إلى أين يا جاهل ؟ فأنت تجمع إلى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو ، وكيف تُقرع الكأس بالكأس ، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث . إلى أين ؟ حدثنى

إلى أين ؟

وهل لك وطنٌ أيها القلب ؟

حدثني أين وطنك فقد نسيْتُ ! أَيْكون وطنك بين تلك القلوب الغوادِر التي تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس ؟ أَيْكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التي قطعت جبل الودِّ لأني دعوتها لزيارتك متنكرةً في بغداد ؟

أين وطنك يا قلبي ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضي معك إليه . أهو مصر ؟ كذبت ، ثم كذبت ، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق ، ولكنك في مصر منبوذة مجهول .

قلبي ! قلبي ! رحمة الله عليك ، فقد سعد ناس بالرفق المزيف ، وشقيت أنت بالرفق الصحيح .

وقد وصل ناسٌ لأنهم كذبوا ، وتخلفت أنت لأنك صدقت .

وتعيم ناسٌ لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك وفيت .

وتقدم ناسٌ لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جددت .

وانتفع ناسٌ لأنهم عدروا ، ونحسرت أنت لأنك وفيت .

قلبي ! قلبي ، أحس الله إليك !

أنظر يا جاحد ! فها نحن أولاء في رحاب أسد بابل ؛ وهذه صاحبة العينين ، أما ترى يا قلبي ؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تُنحى زوجها بعنف لتظهر في الصورة بجانبك ؟ اعترف يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر في صورة عالمية في رحاب أسد بابل وفي جوار صاحبة العينين . اعترف بأنك كنت في إحدى لحظاتك أسعد القلوب .

مولاتي صاحبة العينين :

أعترف بأني أذيتك بعض الإيذاء ، أو كلَّ الإيذاء ؛ ولكن الشاعر مغفور الذنوب ، لو تعلمين ؛ وقد قرأ الناس مذكراتي في مجلة الرسالة فعرفوا من أنت . فهل أطمع يوماً في أن تعرفي من أنا ؟ وهل يعرف زوجك المفضل أنني شاعر لا يهيمه غير أنس الروح بالروح ؟

المهم عندي يا مولاتي أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبت لندن وباريس وبرلين ، وأن في بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والإسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والمقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحاً فيها جمال وصفاء .

مولاتى صاحبة العينين :

لست بالرجل الفاجر ، كما يزعم المرجفون ، وإنما أنا رجلٌ شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبَّ العرب في بلادهم بالإشارة إلى ما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق .  
فهل أستطيع أن أمرَّ على بلدكم الجميل في طريقى إلى مصر ، مصر التى فيها الزمالك وحلوان ؟ مصر التى فيها شارع فؤاد ، والتى فيها الزيات ومحمد المروى ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذى اسمه عبد الله حبيب ؟ مصر التى فيها أحمد فريد رفاعى وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؟ مصر التى فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد ؟

مولاتى صاحبة العينين :

أنا أشرف من العصاة التى حرسنك منى ، فاسمحنى لى بتقيل قدميك قبل أن أموت .

\*\*\*

ولكن ... ولكن ...

ولكن أينسينى حديث العينين وصاحبة العينين ، ما شهدت يوم زيارة القوة الجوية العراقية ؟

إن تلك الزيارة تمثل روح العصر أصدق تمثيل ، فقد كان المفروض أن يخلّق فى الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبى ، وكان المظنون أن لا تظهر هذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء . ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون امتطاء الطيارات حتى خشنا أن لا يمر ذلك اليوم بسلام . وما كان يهمنى أن أشارك فى هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجلتها فى كتاب ( ذكريات باريس ) ، ولكنى رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات ، ثم هالنى أن لا أرى غير جماعة من « الخناشير » كلهم شعثٌ غبرٌ كأنهم قدموا من الببداء .

ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع .

ومع ذلك صممت على الاشتراك فى هذه النزهة ، ولكنى لم أفلح ، فما كانت طائرة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش .

ورجعت أتعثر فى أذيال الخيبة ، فما كدت أصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلاً يقول :

— أتريد أن تطير يا دكتور ؟

— نعم يا سيدى ، أحب أن أطير !

— ١٢٠ —

فدعاني إلى سيارته فركبت ومضينا إلى ناحية قصبة فطلب طيارة وقال : « هذه في خدمتك فادعُ إلى مصاحبتك من تشاء » فنظرت فإذا سيدة « تائهة » فأخذتها معي وطرث .  
وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها في انتظاري فركبت معه إلى المقصف وأجلسني مع جماعة من الضباط . ثم قال بعد تناول الشاي والحلوى والفاكهة : « خذ حريتك يا دكتور وطوف حيث شئت » .  
فلما تركته كان أكبر همى أن أعرف من هو ، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزي باشا رئيس أركان الجيش .  
ومع ذلك يعجب ناس حين يروني أطيل القول في الثناء على العراق وأهل العراق .

\*\*\*

انتهت أيام المؤتمر ، سقاها الغيث ، ولكن جدّ ما لم يكن في الحسبان ، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هي المدينة التي وُلدت فيها ليلي المريضة في العراق . وكنت خليقاً بأن أعرف ذلك من قبل ، ولكن ليلي لم تحدثنني عن وطنها الأول ، ولم أسأل عنه ظمياء ، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضي مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى المندى بالعطر والريحان ، الثرى الطاهر الذي عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القدّ الرشيق .  
إلى وطنك يا ليلاي ، إلى البصرة ، إلى النخيل ، إلى شط العرب الذي تحترب في سبيله أُمم وشعوب ، إلى وطن الجاحظ ، إلى وطن المبرد ، إلى وطن مولاي الحسن البصري أمتطي القطار في ظلام الليل .

محمد توفيق الأُمري

رئيس تحرير (العالم الاسلامي)

من ... إلى ...  
الدرع ... ! ببه ما نريد ... وصفات ... زينة ...

ما ...  
لقد ...  
أنا ...  
أجنى عليه ...

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى المدينة التي تجرى من تحتها الأنهار . إلى مهد ليلي يطيب الإسرائ .

ولكن لا بد من السلام على ليلي قبل الرحيل ، فقد صبرث النفس عن لقاءها ثلاثة أيام ، بسبب حادثة وجدانية لا أجرؤ على تدوينها في هذه المذكرات ، وهي حادثة ضجّت لها أرجاء العراق ؛ ولكن لا موجب لتدوينها ، لأنني أحب أن تموت وهي في المهد ، فقد تطوئني طياً فأخرج من خدمة الحكومة المصرية وأفتح مكتب تصوير في بغداد ؛ وفي مصر رجل عظيم يعرف ما أعني ، ويفهم كيف تستطيع هذه الحادثة أن تهدم ما بنيت من آمال<sup>(١)</sup> وأشهد أني كنت أملك نسيان ليلي أسبوعاً أو أسبوعين ، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان .

وتفصيل ذلك أني رجل محزون ، محزون ، محزون ، ولو شئت لكررتها ألف مرة ، ولكني من أقدر الناس على الفرار من أحزاني . ولعلّي أشبه الرجال بالشاعر الذي يقول :

جئت على الليالي غير ظالمية      إلى لأهلّ لما ألقاه من زمنى  
فما رأيث من الأخطار عادية      إلا بنيت على أجواها سكنى  
ولا لحت من الآمال بارقة      إلا تقجّمت ما تجتاز من قنن  
أحلّت دنياى . معنى لا قرار له      في ذمة المجد ما شردت من وسن

ولكن أحزاني تحقد على تجلّدى أبشع الحق قد فتجمع جيوشها وتهجم على من حبن إلى حين ، وقد انتصرت في هذا اليوم مع الأسف الموجه ، فلم أجد مفرأ من السلام على ليلي ، علّها تجفف دموعى وتبرّد أحزاني .

إليك يا ليلي المرجع ، وإليك يا ليلي المآب .

\*\*\*

دخلت على ليلي في العصرية لأقضى في رعايتها أربع ساعات إلى أن يحين الموعد لقطار

(١) تجد شرح هذه الإشارة في كتاب ( وحي بغداد ) .

- الدمرة ، فماذا رأيت ؟ ماذا رأيت من ليل ربة العطف والحنان ؟  
 تلقتني غاضبة بعينين تقذفان بالجمر المتوقد ، وتحت قدميها ظمياء .  
 — من أتى بك إلى هذه الدار ؟  
 — من أتى بي إلى هذه الدار ؟ هذه دار ليلاي !  
 — ليلاك ؟ وهل يمكن لرجل مثلك أن يطمع في أن أكون ليلاه ؟  
 — سيدتي ، وماذا حدث ؟ خبريني فقد طار صواي .  
 — وهل تجهل ما حدث ؟ أسأل قلبك إن كان لمثلك قلب !  
 — إن قلبي يشهد بأنني وفئ أمين .  
 — وفي مثل ما صنعت تكون الأمانة ، ويكون الوفاء !!  
 — سيدتي ، ماذا حدث ؟ خبريني فقد طار صواي .  
 — هل تنكر ما شاع عنك ؟  
 — وما الذي شاع عني ؟  
 — يقول أهل بغداد إنك كنت مثال السخف في سهرات المؤتمر الطبي . ويقولون إنك لم  
 تترك سيدة إلا قبّلت يديها ، وربما أوغلت في السخف فقبّلت جبينها وخديها .  
 كذبوا ، فأنا لم أغازل أكثر من عشرين سيدة .  
 — ما هذا التطرف السخيف ؟  
 — ليلي ، اسمعي ، أنت حمقاء .  
 — أنت وحدك الأحمق .  
 — أنا وحدي الأحمق ؟ صدقت يا ليلي ، فلو كنتُ أعقلُ لرأيت لنفسي ألف مذهب في الحياة  
 غير مداواة الملاح !  
 — قلت لك إنني أبغض هذا التطرف السخيف .  
 — وهو كذلك ، تركت التطرف السخيف ، تركت التطرف السخيف ، ولكن اسمعي  
 يا ليلي ، سأرحل عن بلادكم بعد شهرين أو ثلاثة ، وستبكين أيامي .  
 — أبكي أيامك ؟ وهل كانت لك معي أيام يطول عليها البكاء ؟  
 — ليلي ، اسمعي واعقلي ؛ أنا لا أنكر ما وقع مني في سهرات المؤتمر الطبي ، ولكنني رجل  
 حزين يداوى جراح قلبه بالعبث والهجون .  
 — أعرف أنك حزين ، لأنني أعرف المرأة التي كوث قلبك .



— ١٢٣ —

- ما كوى قلبى أحد ، وإنما همومى هموم رجال لا تعرفينها يا حمقاء .
- أنت وحدك الأحق .
- شيء غريب ! أهذا أدب النساء فى بغداد ؟
- هذا هو أدب النساء فى بغداد ، وستعرف عواقبه بعد حين .
- ليلى ، يظهر أنك امرأة كسائر النساء .
- النساء أشرف من الرجال .
- المرأة أجمل من الرجل ، ولكن الرجل أشرف من المرأة ، لأنه يحتمل مصاعب وأرزاء لا تحتملها المرأة ، ولو كنت فى مكانى يا لقيمة ...
- أنت وحدك اللئيم .
- من أين تعلمت هذه الألفاظ الغلاظ ؟
- تعلمتها منك !
- هل يسرك أن نفترق ؟
- فى أمان الله !

\* \* \*

خرجت من غرفة ليلى والدمع فى عينى ، فهذه آخر مرة أرى فيها المرأة التى آنست وحشتى فى بغداد . نعم هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الجميلة التى عرفت بها كيف استطاع العراق أن يسيطر على الآداب العربية مئات من السنين . هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الحلوة العذبة التى جعلت قلمي أطوع قلم ، وجعلت يياني أعظم بيان . هذه آخر مرة أشرب فيها صُباية الكأس ، وألقى سيفى وأطوى لوائى ، إلى آخر الحياة ، إن كان لمثلئى بعد ليلى حياة . وفى تلك اللحظة بكت السماء على غير موعد فظننتها تبكى لبكائى ، أنا العاشق المسكين الذى لم يُحفظ له جميل .

وقد سقطت على السلم مرتين ، فرأيت من الخزم أن أجلس لحظة فى الحجرة التى تقارب الباب إلى أن تجف دموعى وترجع قواى .

وماكدت أجلس حتى أدركتنى ظمياء وهى تقول فى تلهف :  
 عيوى ! ذكتور زكى ! عيوى ، تعال ، تعال .  
 ومدت يدها لترجعنى إلى ليلى ، فدفعته بعنف ، وخرجت .

\* \* \*

وفي أثناء الطريق عاد صوابي ، وقد عجبته من أن يعود بهذه السرعة ، ولكن قلب المحب له أحوال ... وتذكرت أن ما وقع من ليلى غير مستغرب من النساء ، فإن من هوى المرأة أن تجحد الجميل . تذكرت أن المرأة يؤنسها ويعجبها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شيء ، وهي تجد لذة في الجحود وتستروح به كما تستروح بعض الأفاعي بسواد الليل .

وتذكرت أخطائي في معاملة النساء ، فقد كنت دائماً أعامل النساء معاملة وحشية ، لأنني عشت دهرى مدلاً بين الملاح ، ولكن هذا الدلال كانت له عواقب سود ، فقد أضاع عليّ فرصة سأندها ما حييت : أضاع على المرأة الجميلة التي اتصلت بها منذ سنين بشارع الباطنية ، المرأة التي قسم الله جسمها أجمل تقسيم ، وصاغها على أفضل نظام ؛ المرأة التي كانت تقول في كل لحظة : إيش سويت لي ؟ إيش صنعت لي ؟ وكنت يومئذ جاهلاً . وأى جهل أقبح من دعوة المرأة إلى حفظ الجميل ؟ وقد حملني هذا الجهل على هجر تلك المرأة بقسوة وعنف ... ثم تطلع إليها القلب بعد ذلك ، ولكنني واحراً قلباه عرفت أن رجلاً تزوجها ونقلها إلى دمياط . وكانت تلك المرأة على جانب عظيم من العفاف ؛ ولكنني لا أزال أسأل : كيف كان يجوز في شريعتها أن تتمدد أمامي على السرير في غير رية ؟ وكيف كان يطيب لها أن تعرض عليّ محاسن جسمها في غير سوء ؟

أحب أن أعرف ما اختلف وما اختلف من سرائر النساء ، فمتى أعرف ؟  
أخشى أن يكون مصيرى مصير الفراء الذي مات وفي نفسه شيء من حتّى !  
والعشاق كالنحوين يموتون وفي أنفسهم أشياء .  
وحال أغرب الأحوال ، لأني نحوّي وعاشق .  
وتذكرت أن ليلى كانت قد رقت ولطفت في الأيام الأخيرة ، فكنت أنعم منها بفنون من الأنس لا تحيط بها أوهام ولا ظنون . وتذكرت أني سأكون ألأم الناس إذا نسيت تلك المعاني الوجدانية التي كنت ألتقاها من عيني ليلى في كل لقاء ، وتذكرت أنها عراقية ، وأهل العراق كأهل بدير تغفر لهم جميع الذنوب .

أرجع إلى ليلى ؟ أرجع ؟

لا . لن أرجع .

ولكن ليلى مريضة ، وهجر المريض لا يستبيحه طبيب أمين .

أعود إلى ليلى أعود .

أعود إلى ليلى ، أعود .

أعود إلى المرأة التي قالت إنها تشتبه أن تموت ورأسها إلى صدرى . أعود إلى المرأة التي ملأت رأسى بالنور ، وغمرت قلبى بالحنان . أعود إلى المرأة التي أعزتني أكرم إعزاز ، ورعتني أشرف رعاية .

أعود إلى ليلى ، أعود إلى ليلاى .

وفي أى قلب غير قلبى تحيا معانى الوفاء ؟

سيموت الرفق يوم تموت ليلى ، وسيموت الشعر يوم أموت أعود إلى ليلى ، أعود .

ولكن ليلى أهانتني وجرحتنى .

لا بأس ، فليس يعيب الرجل أن تُهينه الملاح ، وأى هوان أقبح مما استبحت لنفسى فى حى الحلمية يوم رجوت إحدى معشوقاتي أن تسمح لى بتقبيل نعلها .

وكانت قبلة شهية جداً .

أعود إلى ليلى ، أعود .

أعود إلى الغرفة التي تزدان بمؤلفاتي وهى صنوان خاص ، وقد وشيت بالذهب وأسديت عليها ستائر الحرير الشفاف ، ثم أرى ما تصنع ليلى ، فعهدى بها تنظر إلى الصوان الذى يضم مؤلفاتي وتقول : هذا زكى مبارك العالم وهو رجل محترم ؛ ثم تشير إالى وتقول : وهذا زكى مبارك العاشق وهو رجل سخييف !

عفا الله عن ليلى الغداة فإنها إذا وُلِّيت حُكماً على تجور

وما هى إلا لحة طرف حتى كنت عند ليلى فرأيت المسكينة فى حالة تثير الدمع فى أقرسى الجفون .

ونظرت إالى ظمياء فى حنان وهى تقول : لقد صح أملى فيك فقد أكدت ليلى أنك سترجع وما كانت تصدق أنك سترجع .

وتسكت ليلى فلا تتكلم ، كأنها تُقاسى نوبة إغماء ثم تفتح عينها بتكلف وتقول :

— انتم يا رجال ليس لكم أمان !

وأكد أصعق ، لأنى سمعت هذه العبارة مليون مرة ، ولعلها أول جملة سمعها آدم من حواء .

— ليلى !

— مولاي ؟

— مولاي ؟ وكنت من لحظات ترفضين أن تكونى ليلاى ؟

— إن رجوعك بهذه السرعة يشهد بأنك عليل ، وقد صدق خصومك فى لبنان حين سموك

« قيس المريض في العراق » .

— سنفترق في حُزيران .

— ومن يضمن أن تحفظ العهد إلى حُزيران ؟

— تأدبي يا ليلي ، فستبكين أيامي بالدمع .

— تأدب أنت ، فستبكي أيامي بالدم .

— الرجل أوفى من المرأة .

— لم يخلق الله أغدر من الرجال .

— المرأة سخيصة .

— الرجل أسخف .

وعند هذا الحد تدخلت ظمياء وهي تقول : أتريدون أن تمثلوا الرواية من جديد ؟ أنا لا  
أسمح لكم بهذا العبث ، اسكني يا ليلي اسكت يا زكى .

وقد عجبْتُ من أن تكون لظمياء هذه السيطرة ، وأن ترفع الكلفة في مخاطبتى مع أنى أستاذ  
عظيم . فقلت : وما شأنك أنت يا بنت ؟

فأجابت : احفظ أهلك ، فأنا حارسة هذا البيت ، وأنا ستُّ الكل .

— ست الكل ؟

— نعم ست الكل ! ألا تفهم ؟

ثم رفعت يدها ولطمتنى لطمة غارت منها ليلي ، فنظرتُ إليها بغضب وقالت : الغزل ممنوع  
في هذا البيت !

وكانت ظمياء كالصفورة التى يزعمها المطر فتفرع إلى نوافذ البيوت وتزقزق لترحمها  
القلوب ، فتدخلتُ لإنصافها وقلت : ما هذا غَزَلاً ، إن هذا إلا تأديب .

— ولن أسمح ليد أن تؤدبك غير يدي .

— شرع الله ولا شرعك يا ليلي .

فلطمتنى الشقية لطمةً أحرَّ وأعنف .

ولم أفكر في الدفاع عن نفسى ، وإنما أخذ قلبي يسأل : أى الكفين أنذى وأرق ؟ كَفَّ ليلي  
أم كف ظمياء ؟

إن عيني تعودت كحل هندي جمعت كُفَّها مع الرفق ليناً  
ومن الواضح أن هذا الاعتداء كان إيذاناً بانتهاء الخصام .

— ١٢٧ —

وفي لحظة واحدة تحولت الدار إلى بحر يمجج بالبهجة والانشراح .

\* \* \*

— ليلاى !

— مولاي !

— أنا أحبك !

— وأنا أبغضك .

— سمعت أنك بصرية .

— أبى بصريّ أما أمى فموصلية .

— وأنا أستاذك في زيارة البصرة .

— لا تفعل .

— ولماذا ؟

— البصرة لا تزار في هذه الأيام ، وإنما تزار في الموسم .

— أى موسم ؟

— موسم التمر ، حين تذهب الصبايا إلى النخيل مع تباشير الصباح ، موسم العيون

والقلوب ، موسم الصيد يا جهول .

— جهول ؟ وأنا أستاذ عظيم ؟

— الأستاذة أجهل الناس ، لأنهم يكتفون بما في الكتب من وصف الأشياء ، ويجهلون

حقائق الأشياء .

ولكن أنا أحاول الوصول إلى حقائق الأشياء .

— وإذا فلن تصلح للأستاذية .

— وكيف ؟

— ألا تفهم يا غافل أن الرجل لا يصلح للأستاذية إلا إذا كان قطعة من الثلج ؟ الأستاذ الحق

في بلاد الشرق هو الرجل الذى يحفظ .

— ولا يعقل ؟

— ليس من الضروري أن يعقل ، لأنه لا يشترط في الأستاذة عندنا أن يكونوا يعقلون .

الأستاذ الحق يا غافل هو الرجل الذى يضيع نصف الوقت أو كل الوقت في التبرم بالمجتمع ،

ويقول في كل حين :

— ١٢٨ —

هذا الزمان البذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود  
إن دام هذا ولم يحدث له غَيْرٌ . لم يُبك مَيِّتٌ ولم يُفَرَّحَ بمولودٍ  
— يهمنى أن أعرف شيئاً فى هذا الموضوع يا ليلى ، فأنا طبيبٌ أضاعه الأدب ولم يبق أمامه  
غير احتراف التدريس .

— زين ، زين ! وأنا أعلمك ، ولكن ادفع الثمن .

— وما هو الثمن ؟

— قبّل يدى .

— أقبّل يديك ورجليك يا ليلى .

— اسمع يا زكى .

— أنا الدكتور زكى .

— لن تكون دكتوراً إلا يوم تصبح مثال الغباوة والجهل

— وهو كذلك . هاتى ما عندك يا داهية !

— اسمع ، أيها الطفل الكبير !-إن الأمم المتأخرة تعيش بعقل القرن التاسع قبل الميلاد ، يوم  
كانت الأستاذية وقفاً على الكهان ، والكهان كانوا قومًا منافقين ، وإلهم كان الأمر فى التعليم  
والتشقيف ؛ وهم الذين سيطروا على المصريين والآشوريين والكلدانيين . ومن واجبى أن  
أحذرك عواقب الثقة بأهل عصرك من أهل الشرق ، فهم يتطرفون ليقال إنهم متمدون .  
والبرهان على ذلك أنهم لا يشهدون لحظة من ضوء الفكر إلا أطفأوها بالبصق لا بالماء . فاحترس  
يا غافل من الثقة بأهل زمانك فإنى أخشى أن أسمع من أخبارك ما يسوء بعد حين .

— سيدتى ! إن مصر تحضرت وهى تقود الشرق .

— لن أصدق أن مصر تحضرت إلا يوم يقام المرقص فى ميدان الأزهر كما يقام المرقص فى

ميدان السوربون .

— أنت سخيصة يا ليلى !

— وأنت أسخف !

— أنت لثيمة .

— أنا أعرف ما تريد ، أعرف أنك تريد أن أعرك أذنك ، ولكنى لن أفعل

— ولماذا يا شقية ؟

— لأنك جهول .

- أنا عالم علامة .
- لو كنت عالماً لما فضحت نفسك بنشر أحاديث الحب في الجرائد والمجلات .
- إذاً ماذا أصنع ؟
- اكتم غرامك وناقى ، كما يصنع فلان الذى يلقي الله بالفجور ويلقى الناس بالعفاف :
- ولكن أنا أحب أن ألقى الناس بالفجور وألقى الله بالعفاف .
- غلبتنى أيها المؤمن ، فإن الذى يُصلح ما بينه وبين الله لا يضره أن يفسد ما بينه وبين الناس .
- وآية ذلك يا مولاتى أن تلاميذى لم يفسد رأيهم فى أبداً ، فما اشتغلت بالتدريس فى معهد إلا شهدت أحجاره بأى أصدق من عرف من المدرسين .
- أنت إذاً موفق .
- تحبيننى يا ليلي ؟
- أنا أبغضك !
- ولكن أنا أحبك !
- أمامك دجلة ، فاكرع منها كيف شئت !
- أستاذنك فى السفر إلى البصرة .
- فى رعاية الله وأمان الهوى .
- ألا تغارين من سفرى إلى البصرة ؟
- أنا لا أغار عليك !
- أنت إذاً لا تحبيننى !
- ما أنكر أنى أحبك بعض الحب ، ولكن لا موجب للغيرة ، فقد ضمنت أن تكون لى طول عمرك . ولقد قيدت قلبك بقيود من حديد . أما سمعت ما قال أحد فضلاء المحاضرين بمحطة الإذاعة الفلسطينية ؟
- وماذا قال ؟
- قال إنك تحبنى ، وإننى وهبتك الخلود ، وما يقال فى فلسطين تسجله السماء .
- وأقول فى البصرة إنى أحب ليلي ؟
- قل فى البصرة إنك تعبد ليلي ليكرموك .
- وأنت تحبيننى ؟

— ١٣٠ —

— أنا أبغضك .

— إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى وطن ليلى التى تبغضنى أمتطى قطار المساء ، وأنا على  
موعد مع صاحبة العينين .  
فما الذى سيحدث فى القطار وفى البصرة ؟  
أمرى إلى الله وإلى الحب !

---



خرجتُ من منزل ليلي نشوان ، نشوان إلى حد الجنون . والمرء في العراق لا يكون إلا في حالين اثنين : حال تُحدّثه فيه النفس بالغرق في دجلة من الفرح ، وحال تحدّثه فيه النفس بالغرق في دجلة من الغيظ . فالمرء في العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة ، وإما أن يكون شقيّاً كل الشقاء .

وكذلك حال ليلاى ، فهى قد ترقّ وتلطّف فأدخل دارها بعَيْدُ الغروب ولا أخرج إلا قُبَيْل الشروق ؛ وقد تقسو وتُعْثِف فتطرّدني من دارها بلا ترفق ولا إشفاق .

خرجت من منزل ليلي نشوان ، فقد رُضيْتُ عنها ورُضيْتُ عني ، ولكن الحادث الأخير ترك في القلب عقابيل ، فأخذتُ أحترس ، وهل يتفق الحب والاحتراس ؟ نعم يتفق الحب والاحتراس ، ولكن يضيع النعيم . فالحب المحترس يثق بنفسه ، ولكنه لا يثق بمن يحب ... ويليى بدأت تُعْذُّ ذنوبي ، ولكن من أى تاريخ ؟ منذ اليوم الذى اطمأنت فيه إلى عودة العافية !

فمن أنا في دنيائى ! من أنا في دنيائى ؟

لقد كنت أرجو أن تعمى ليلي عن عيوني ، ولكن هكذا كنتُ في حياتي ، فما أذكر أبدأ أنى عانيت الظلم إلا على أيدي ناس أحببتهم واستقلتُ في الدفاع عنهم . كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يُفْلَهُ القتال . كنت كالغصن المثمر يؤخذ للوقود بعد انتهاب ما يحمل من ثمرات .

كنت وكنت ، فما أشقائى وما أعظم بلائى !

كذلك دار رأسى وأنا ماض إلى قطار البصرة . وما أدري كيف صاغ الله عقلى على هذه الصورة ، فعلى لا يغفو أبداً ، وهو دائبٌ على الدرس والتحليل ، وليس من الزهو أن أذكر أن أعظم ما يساورني من المعضلات الفلسفية أهتدى إلى حلّه في أحلامي ، والمسئو ماسييون يذكر ذلك ، فقد كانت لي معه مواقف يوم كنت تلميذه في باريس .

أُسميت أحقد على ليلي ، ولكن لا بأس ، فقد وثقت بي ، واطمأنت إليّ ، فأخذت تصادق من أصادق ، وتعادى من أعادى ؛ وليس ذلك بالقليل ، فما الذى يمنع من أن أحتمل

ما يثور في صدرها أحياناً من براكين ؟

أليست عراقية ؟

بلى ، هي عراقية .

وأنا رأيت الأعاجيب في العراق .

فمنذ ليالٍ أويت إلى فراشي في منتصف الليل والسماء صاحية ، ثم انتهت على الروح والفرع ، فقد كان المنزل تُرْجُ سقوفه وحيطانه بعنف ، فأوقدت المصباح وأنا خائفٌ أترقب ، ثم عرفتُ بعد التأمل أن الصحو أعقبه غيمٌ ومطرٌ وصواعق .

ولما خرجتُ في الصباح رأيت الشمس آست ما جرح الليل ، وكأن لم يكن شيء !  
ذلك هو العراق .

وكذلك تكون ليالي في العراق .

فما الذي يمنع من الصبر على دلالها وأذاها شهراً أو شهرين حتى تملّ هي من النضال ؟  
إن بعض المرضى يريهم أن يثوروا على الأطباء . ومن واجب الطبيب أن يرحّب بمثل هذه الثورة ، لأنها بشير العافية . وستذكر ليلى أني كنت من الصابرين ، وأنّي منحتها عطف الحب ورفق الطبيب ! ولن أفارق بغداد قبل أن تبذل في سبيلي غاليات المدامع ، إن كتب الله أن تأخذ عن طبيبها أدب الصدق والوفاء .

لن أنساك يا ليلى فقد عاديّ فيك وعوديت .

وأحمِلُ في ليلٍ لقوم صغيّةً وتُحمَلُ في ليلٍ على الضغائن  
ولكن هل تفهمين أو تعقلين ؟

أما والله لو تجدين وجدي جمحت إلى خالعة العذار

\*\*\*

كأنت هذه الخواطر تتناش قلبي وأنا في طريقي إلى المحطة ، ثم تفجّر الحنان في قلبي على غير انتظار ، فقد سمعت المذياع يرسل هذه التغريدة رحمة للقلوب :

« ليه تلاوعيني ، وانت نور عيني »

وهي من تغاريد أم كلثوم ، وكأنّي أسمعها أول مرة ، فرجعتُ على نفسي باللوم وقلت :  
كذلك يكون العتاب ! وهممت بالرجوع إلى ليلى لأقول :

« ليه تلاوعيني ، وانت نور عيني »

ولكنني تذكرت أن الوقت لا يتسع للقيام بواجبين في وقت واحد : عتاب ليلى وملاقاة

— ١٣٣ —

صاحبة العينين التى أرجو أن أدفع بوجهها المشرق وحشة الطريق وظلام الليل .  
ودار ذهنى يحاور ويجادل :

— كيف تُشرك بلىلى هذا الإشراك ؟

— أنا أشرك بلىلى ؟ معاذ الحب !

والحق أنى أشرك بهوى لىلى ، ولكن هذا الشرك هو طريقى إلى التوحيد . أنا أحب جميع الملاح لأهوى قلبى لحب لىلى . أحب من أجلها كل ما فى الوجود ، وأصفح من أجلها عن جميع الذنوب .

وصاحبة العينين ستسألنى عن لىلى ؛ والسؤال عن لىلى من ذلك اللسان الأثغ المجلجج هو فى ذاته زُلْفَى إلى لىلى . وأنا أيضاً رجل مكروب تضيق به دنياه ، والضلال فى هوى العيون قد ينسينى كرونى ؛ ولىلى يسرها أن أعيش أطيب العيش ، وهى تعرف أنى لا أحيا بغير الحب والنسيم ، شفاها الله وشفانى .

طوّفتُ بجميع أرجاء المحطة لأرى صاحبة العينين ، وما رأيت صاحبة العينين .

فتشت جميع دواوين القطار لأرى صاحبة العينين ، وما رأيت صاحبة العينين .

ورأى ناظر المحطة حيرتى فقال فى تلمظ : ضاع منك شىء ؟

فقلت : لا ، ما ضاع منى شىء ، وإنما أخاف وحشة الطريق وظلام الليل .

فتعجب الرجل من هذا الجواب المضحك وانصرف .

فهل رأى الناس حالاً مثل حالى ؟ هل رأوا من قبلى رجلاً يرحّب بالشرك فيعز عليه الشرك ؟

إن الحب يريد أن أذهب إلى البصرة وليس فى قلبى غير لىلاى .

\*\*\*

وكان لى فى القطار رفيقان : أولهما الدكتور عبد المجيد القصاب ، وهو طبيب يمثل عذوبة الروح ، وصفاء القلب ، وهو من خيرة الذين عرفتهم فى العراق ، وثانيهما السيد ظالم وهو صحفى أديب لا تعرف فى صحبته ضجر السفر ولا طول الطريق ، وليس فيه غير عيب واحد هو التجنى على الموسيقار محمد عبد الوهاب والفناء المطلق فى أغانى أم كلثوم .

جلس السيد ظالم يدندن ، ولكن كيف ؟ بعد أن لبس عباءة فضفاضة جعلته نسخة من سلطان زنجبار .

وأمسى ديواننا فى القطار قريب الشبه بالغرفة التى يجلس فيها أحمد رامى بدار الكتب المصرية ، الغرفة التى ترقق فيها الدندنة وتشتبك حتى لتحسبها خيوط العنكبوت ، الغرفة الجذابة التى يحرم دخولها على أحمد الزين ثم يحل ويباح لمن يسألون عن رباعيات الخيام أو تأملات لا مرتين .

وظالم ورامى يشتركان فى صفات كثيرة أهمها تشويه الوجه ورخامة الصوت .

— يا سيد ظالم !

— نعم ، يا سيدنا البية !

— هلم بنا إلى العشاء .

— عشاء إيه ، انت عاوز تخرب جييك ؟

— أخرب جيبى ؟ وكيف ؟

— العشاء فى القطار غال جداً .

واعترض الدكتور القصاب فقال : أما يسرك أن تصنع مثل الذى كنت تصنع فى قطار

ليون ؟

— لا بأس .

— إذا تنظر إلى أن يقف القطار فى المحطة المقبلة .

وفى المحطة تقدمت فلاحه فى خمار أسود ومعها ماعون هائل من اللبن الرائب ، فاشتريناه بعشرة فلوس ، وتقدم طفل وفى يده رغيفان ؛ فساومناه ، فاشتط فى الثمن ، فقاومناه ، فقبض على الرغيفين بأسنانه والقطار يمشى ، فرميناه بعشرة فلوس ونزعنا من أسنانه الرغيفين !

ما أظرف العبث فى قطار البصرة وما أحلاه ؟

وفهم الرفيقان أنى ميت من الجوع فلم يأخذا من الطعام غير لقمتين .

وما كاد الطعام يستقر فى جوفى حتى هجم النوم هجوماً لم أشهد مثله منذ أعوام طوال ، فعرفت أن ذلك اللبن الرائب أراح أعصابى ، وهى أعصاب أرهقها النضال وسهر الليالى . اتكأث على المرفقة ونمت وأنا جالس ، نومًا شهياً جداً ، ولم يعكر نومى غير الجدل السياسى الذى أثاره الدكتور القصاب مع رفيق غاب عنى اسمه ، وكانا يتحدثان عن الممارك الحزبية فى دمشق .

— دكتور ، دكتور ، أنظر ، أنظر .

— ١٣٥ —

فنظرت من نافذة القطار فإذا صاحبة العينين في سيارة مغروزة في الوحل .  
 وهممت بالنزول من القطار لأرى هذه المرأة كيف أنفع في الشدائد !  
 ثم تذكرت أنني أيضاً في سيارة مغروزة في الشوك ، هي سيارة الحب .  
 ونظرت إلى المرأة نظرة الملهوف .  
 ونظرت إليها نظرة الغريق .  
 نظرت ونظرت ، ثم نظرت ونظرت .  
 وأنقذ القطار الموقف فسار لا يُلوى على شيء .

\* \* \*

— دكتور ، دكتور .

— نعم ، نعم .

— أنظر ، أنظر .

فتفتحت عيني فإذا الشمس أشرقت وإذا سيرت من الظباء الوحشية يجول في البیداء ، وهي  
 أول مرة أرى فيها الظباء الوحشية ذات الأجياد والعيون .  
 أتكون هذه الظباء الوحشية هي البشير بالاقتراب من الظباء الإنسية ؟  
 هو ذلك ، فلم يبق بيننا وبين الأنس بوجوه أهل البصرة غير ساعتين .

\* \* \*

الله أكبر والله الحمد !

هذه هي البصرة ، هذه هي البصرة ، وما تخونني عيناى .  
 هذا هو البلد الطيب ، بلد المبرد ، المبرد صاحب الكامل في اللغة والأدب والنحو  
 والتصريف .

وبفضل الكامل للمبرد وصلت إلى منصب الأستاذية في الأدب العربى ؛ وبفضل الكامل  
 للمبرد صحبت الشيخ سيد المرصفي سبع سنين ؛ وبفضل الكامل للمبرد استطاعت القاهرة  
 أن تراحم البصرة ، فسيذكر التاريخ أن الأزهر جلس على حصيره الممزق رجل أعلم من المبرد ،  
 هو الشيخ سيد المرصفي أستاذى وأستاذ الأساتذة طه حسين وعلى عبد الرازق وأحمد حسن  
 الزيات ، وأول أستاذ تصدر لتدريس الأدب بالأزهر في العصر الحديث .

الله أكبر والله الحمد !

هذه هي البصرة ذات النخيل .

هذه هي المدينة التي تجرى من تحتها الأنهار .  
هذه شقيقة الفيوم ، على أزهاره وأشواكه أزكى التحيات .  
هذه هي البصرة وما تخونني عيناي .  
فإذا قيل إن منظر القناطر الخيرية على النيل منظر لا ثاني له في الوجود ؛  
وإذا قيل إن شواطئ الإسكندرية في الصيف لا ثاني لها في الوجود ؛  
وإذا قيل إن حَيِّ الشانزليزية في باريس لا ثاني له في الوجود ؛  
وإذا قيل إن السهل البدي تصادفه بعد الانحدار من جبل لبنان منظر لا ثاني له في الوجود ؛  
وإذا قيل إن مفترق الطرق بين شارع عماد الدين وشارع فؤاد شيء يفوق الظنون ؛  
وإذا قيل إن العبوق بمصر الجديدة والصُّبوح بالزمالك نعيمٌ يذكّر بنعيم الفرديس ؛  
وإذا قيل إن صبايا المنصورة لمنّ مذاق لا ثاني له في عالم الجمال ؛  
وإذا قيل إن مناظر الكروم في « بوردو » لا شبيه لها ولا مثيل ؛  
وإذا قيل إن بَغْيَ المصريين بعضهم على بعض معنًى فريدٌ في الوجود ؛  
وإذا قيل إن قبة الجامعة المصرية أعظم قباب الشرق ؛  
وإذا قيل إن زكى مبارك أسعد من استصبح بظلام الليل في بغداد ؛  
وإذا قيل ذلك أو بعض ذلك فاعرف أن مدينة البصرة هي شيء فريد في دنيا الشرق ، ودنيا الغرب . هي غريبة الغرائب ، وأعجوبة الأعاجيب ، هي فوق الأوهام والظنون ، وإن جهلها فريقٌ من أهل العراق .  
ما هذه المدينة ؟ ما هيّة ؟  
لقد استأنستُ كلّي الاستئناس حين عرفت أن اللغة العربية لا تزال تسيطر على مثل هذا الثغر الجميل .  
لقد كبرتُ وهلت حين رأيت وطن المبرد والجالحظ والحسن البصري وإخوان الصفاء .  
لقد كبرت وهلت حين عرفت أن للعروبة مواطن لا تقل روعة عن القناطر الخيرية .  
ثم غلبني الحزن حين تذكرت أن مناظر شط العرب تشبه مناظر القناطر الخيرية في الحظ :  
فعن شط العرب تغافل الشعراء ، وعن القناطر الخيرية تغافل الشعراء .  
فليس على شط العرب قصور ، وليس على القناطر الخيرية قصور .

\*\*\*

الله أكبر والله الحمد .

هذا طريق النخيل ، وهو في بعض صوره أروع من غابة بولونيا ، ولكن أين الأطباء ؟  
وهؤلاء البصريون وفي عيونهم السّحر الحرام أو الحلال ، ولكن أين الشعراء ؟

\* \* \*

عرفت في البصرة رجلين :  
الأول هو السيد تحسين علّى ، حاكم البصرة ، أو متصرف البصرة<sup>(١)</sup> .  
والسيد تحسين علّى هو مَلَك في صورة إنسان .  
هو تحفة من الأريحية العربية جاد بها الله على الوجود . السيد تحسين علّى هو الشاهد على  
أن شعراء العرب لم يكونوا في مدائحهم من الكاذبين .  
وبفضل السيد تحسين على عرفت من البصرة في يومين ما لا يعرفه غيرى في سنتين .  
أكتب هذا والدمع في عيني ، فالدنيا أَلَمٌ وأَعْدَر من أن تسمح لي بملاقاة هذا الرجل مرة  
ثانية . فإن كان هذا آخر العهد فحسبى من الوفاء أن أسجل ثنائى عليه في هذه المذكرات ، ولها  
قُرَاءٌ يَعْدُونَ بالألوف .  
يا سيد تحسين .

سلام عليك ، سلام رجل مصرى يحفظ عهد العراق .  
أما الصديق الثانى فهو الدكتور عبد الحميد الطوخى ، وما أدرى إلى أى بلد أضيف هذا  
الطبيب ، فقد عرف المنصورة وشبين الكوم والقاهرة وبغداد والبصرة والموصل ، فهو  
بالاختصار رجل مُخْطَرَم : فيه رقة المنصورة وأدب شبين الكوم وعقل القاهرة وذكاء بغداد  
وظرف الموصل وكرم البصرة ، هو شخصية دولية يحسب لها المنصف ألف حساب .  
وبفضل هذا الطبيب قضيت يومين في ابتسام ، فقد ترك سيارته تحت تصرفى يومين ،  
وكانت فرصة تذكرت فيها الزميل الغالى على الجارم بك ، فعهدى به يهرب منى ، لأنى كنت  
أرجو أن ينقلنى بسيارته من وزارة المعارف إلى محطة المترو ، وكان ذكاؤه يسعفه بالهرب منى ،  
فكان يقول : يا دكتور زكى ؛ أنا رائح عند العشماوى بك ، ثم يروح ولا يعود . ولما قدم  
الجارم بك بغداد كنت أنتظر أن ينتفع بخبرتى فيسألنى عن الحياة العلمية والأدبية والفلسفية ،  
ولكنه لم يسألنى إلا عن شىء واحد : لم يسألنى والله العظيم إلا عن أسعار البنزين في بغداد !!

\* \* \*

---

(١) الحاكم غير المتصرف في اصطلاح أهل العراق ، ومعناها في مصر واحد وهو المحافظ .

نحن في البصرة .  
إي والله ، نحن في البصرة .  
وفي تلك المدينة تسأل سيدة نبيلة عن طبيب ليلي المريضة في العراق .  
وتطلب أن تراني وحدي ، فأذهب إليها وحدي ولا يكون معنا ثالث غير زوجها الشهم النبيل .

ويدوم المجلس ساعات وساعات في جدل هو أنضر وأشرف ما عرفت العقول .  
وتجري على لسان تلك السيدة ألفاظ يوحيا روحها الشفاف فيتسم زوجها وهو جذلان .  
وفي غمرة تلك النقشة أنظر ساعتى فأرى الموعد اقتراب للمحاضرة التي دعاني إليها سعادة الأستاذ عبد الرزاق إبراهيم مدير المعارف بالبصرة . وتمتد تلك السيدة يدها لتوديعى فأبكي لأنى لا أضمن الرجوع إلى البصرة ، أنا الطائر الغريب الذى لم ينعم في البصرة بغير سواد العيون في غفوة الزمان ، وهو لا يغفو في العمر كله غير دقائق .  
وبعد لحظات أكون في نادى البصرة فأرى الناس في انتظارى بالمئات ، إن لم أقل بالآلاف . وهناك أرى فتاة جميلة هى بنت عمه ليلي ، فتسرع إلى لقائى بعد انتهاء المحاضرة وهى تقول :

حافظ على شبابك يا دكتور ، فإنى أخشى أن يودى التأليف بشبابك .  
فأتلطف وأقول : لا تخافى على شبابى يا بنيتى ، فهو باق ما بقيت عيون الأطباء .  
وتشجع الفتاة فتقول : أخشى أن يقتلك التأليف !  
فأتشجع وأقول : لا تخافى على بنيتى فأنا لا أخاف الموت ، وإنما يخافنى الموت .  
ويروعا ذلك فتقول : وكيف ؟  
فأجيب : لأن الموت جبان وهو يخشى أن أكتب ضده في الجرائد والمجلات !

\* \* \*

أفى الحق أننى زرت البصرة ورأيت شط العرب ، ونعمت بكرم السيد تحسين على ،  
ومروءة الدكتور عبد الحميد الطوخى ، وأدب السيد عبد الرزاق إبراهيم ، ورأيت بنت عمه ليلي ، وشربت الشاي في منزل السيدة التى تغار من ليلي ؟  
لا تصدق ذلك يا قارىء هذه المذكرات ، فلك أحلام رأيتها في نومي ولن تعود .  
إن سمعت أيها القارىء أن جرائد البصرة اعتركت في سبيل أساييع وأساييع فلا تصدق .  
إن سمعت أيها القارىء أننى كحلت عيني بتراب البصرة فلا تصدق .



- إن سمعت أيها القارىء أننى عرفت السيد تحسين على فلا تصدق .  
إن سمعت أننى زرت قريبات ليلي في البصرة فلا تصدق .  
إن سمعت أننى ألقيت في البصرة محاضرة سمعها مئات أو ألوف فلا تصدق .  
إن سمعت أننى عانقت عشرين نخلة في البصرة فلا تصدق .  
إن سمعت أن أنهار البصرة داعبتنى بالمدّ والجزر فلا تصدق .  
إن سمعت بأن أسماك شط العرب قبلت يدي وخدى فلا تصدق .  
إن سمعت بأنى لم أنفق درهماً واحداً في البصرة فلا تصدق .  
إن سمعت أن البصرة هدتنى بعد ضلال فلا تصدق .  
إن سمعت أننى ودعت البصرة بالدمع السخين فلا تصدق .

\* \* \*

أيها القارىء !  
أنا ما رأيت البصرة ، ولا رآنى أهل البصرة .  
وشاهد ذلك أننى لا أزال في عقلى ؛ ولو أننى رأيت البصرة لخبّلنى حسنّها فأصبحت من  
المجانين .

أيها القارىء !  
أما سمعت أننى اخترع الأقاصيص ؟ فلتعرف أن زيارة البصرة من تلك الأقاصيص .  
متى أعود إليك أيتها البصرة مرة ثانية ؟  
متى أعود ؟ متى أعود ؟

—————

## ١٧

أمرى إلى الحب !  
أمرى إلى الهوى !  
بل أمرى إلى الله الذى يقلّب القلوب .

\*\*\*

كانت ليلتى فى قطار البصرة ليلةً شاتية ، وما كنت أخذت أهتئى لمكافحة البرد فى قطار البصرة ، وهل كنت أعلم أن البرد فى قطار البصرة له تواريخ ؟  
لقد عشت دهرى مفتوناً بشبابى ، لأننى نشأت فى أسرة كان أكثر رجالها من العماليق .  
وكذلك يزّين لى الفتون أن أمتطى قطار البصرة فى ليلة شاتية بلا غطاء .  
دخلت البصرة محمواً ، دخلتها أهذى هذيان المحمومين .  
ولكننى تذكرت فجأة أن سعادة السيد عبد الجبار الراوى متصرف الحلة كان كلفنى تبليغ التحية إلى سعادة الدكتور عبد الحميد الطوخى رئيس الصحة بالبصرة ، وتذكرت أن هذا الطبيب مصرئى صقله العراق ، وأنا على كل حال أحب المصريين ، فقد شاع فى بقاع الأرض أنى مصرئى ، ومن واجبى أن أحب مصر وفاءً وأورياءً ...  
ذهبت محمواً للتسليم على هذا الطبيب فكاد يطير من الفرح بلقاءى . فقلت : هوّن عليك ، فما جئت إلا لأبلغك تحية حاكم الحلة ، الحلة الجميلة التى تشبه شبين الكوم حاضرة المنوفية .

وما هى إلا لحظة حتى نقلنى هذا الطبيب إلى متصرف البصرة ، وإلى مدير المعارف بالبصرة ، وكان اليوم كله طوافاً بما فى البصرة من غرائب وأعاجيب ...  
وعند الغروب لقينى الدكتور عبد الحميد القصاب فقال : ارجع بنا إلى بغداد . فقلت : لا أستطيع . فقال : إنك ستلقى كلمة مصر فى تأييد المغفور له ياسين باشا الهاشمى ، واسمك فى منهج الاحتفال .

فقلت : أعرف ذلك ، وأفهم قيمة الشرف الذى أظفر به فى حفلة يخطب فيها فخامة رئيس الوزراء وفخامة نورى باشا السعيد ، ولكننى محموم وما أستطيع أن أعاقر البرد فى قطار البصرة

ليلتين متواليتين .

وأرسلت برقية اعتذار ، وأويت إلى فراشي بالفندق أعانى الغربة والمرض والحب . وشاع في البصرة أنى مريض ، فتفضل متصرف البصرة ومرّ بالفندق فترك لى كلمة عطف ، وتفضل مدير الصحة بعمادتي فأزعجه حالى .

وفى الصباح أفقُتُ ، فكان أكبر همى أن أزور قبر أستاذى فى التصوف ، مولاي الحسن البصرى ، ولكن كيف ؟ لقد قضيت ليلتي محمومًا وقضت السماء ليلها فى بكاء . وأويت مرة ثانية إلى الفراش لأن المطر جعل ذهائى لزيارة قبر الحسن البصرى غرضاً عزيز المثال .

وطلبت الجرائد لأتلهى بها فرأيت فى جريدة « الناس » وجريدة « الثغر » أنى سألقى محاضرة بنادى البصرة وبعد أداء هذا الواجب مضيت إلى الفندق فأخذت أمتعتى لأعاقِر البرد من جديد فى طريقي إلى بغداد .

هل يعرف قارئ هذه المذكرات كيف يشقى من يقضى ثلاث عشرة ساعة فى القطار وهو محموم ؟

علم ذلك عند الأستاذ النبيل الذى يدير إحدى المدراس فى بغداد ، فقد أخرج ما فى حقائبه من أغطية وملابس وألقاها فوق جسمى لأنجو من البرد الذى قتل أخانا أبا الدرداء . صرعى البرد فى الذهاب والإياب ، وأضرعتنى الحمى فلم أدخل بغداد إلا وشفتى يزيها عُقبُول ، والعقبُول هو التشقق الذى يصيب الشفاه من وهج الحمى ، ومنه جاءت عقابيل الحب ، وكذلك اجتمعت العقابيل فى قلبى وشفتى ، وهو أول حادث يقع فى التاريخ . كان هذا العقبُول مزعجاً ، فقد كان كل من يراى يحسب أنى أصيبت بأخت بغداد ؛ ولو صبح ما حسبوا لكأنت نكبة ، فأخت بغداد إذا أصابت الشفة كانت نذيراً بالحرمان من جميع أخوات بغداد .

ومن أجل هذا العقبُول حبست نفسى فى المنزل أسبوعين قضيتهما فى إنجاز كتاب « عبقرية الشريف الرضى » .

ولكن هذا الحبس كانت له أيضاً عقابيل ، فقد اشتغلت بالسياسة العراقية مع أنى طلقت السياسة المصرية منذ أعوام طوال .

وتفصيل ذلك أن مجلس النواب كان يستعد لدرس معاهدة الحدود بين العراق وإيران ، وكان شط العرب محور النزاع ، شط العرب الذى تغنيث به فى البصرة ونشرت ثنائى عليه

جريدة البلاد .

كان العراق في قُوْرة ، وكنت في فورة ، وما أشقى من يضطرم صدره تحت سماء العراق ! ومضيت إلى رئيس الكتاب بالمجلس النيابي ، وهو صديق عزيز ، فطلبت تذكرة لحضور تلك الجلسة التاريخية . وكنت أول من دخل شرفة المجلس في ذلك اليوم ، فهالني أن أرى خريطة شط العرب مرقومة بالطباشير على لوحة سوداء .

كان الجو كله دُخاناً في دخان ، وكنت أكاد أختنق . ثم وقف وزير الخارجية يخطب ، وما كان أروعه في ذلك اليوم ، فقد بدد ما ران على صدرى من ظلمات .

وتدقق الخطباء بين معارض وموافق ، وكانت جلسة برلمانية حقاً وصدقاً ، كانت جلسة صريحة أبدى فيها النواب آراءهم بألفاظ لا مداورة فيها ولا التواء .

خطب وزير الخارجية خطبتين في ذلك اليوم وكان بالتأكيد أشجع الخطباء . ولن أنسى أنه قال : كان في نيتي أن أقترح جعل هذه الجلسة سرية ، ثم رأيت أن تكون علنية ليرى الجمهور بعينه أن الحكومة حريصة على أرض الوطن كل الحرص .

وسألت أحد الصحفيين عن هذا الرجل ، فقال : أما تعرفه ؟ هذا زميلك . فقلت : وكيف كان زميلي ؟

فقال : هو سوربونى مثلك ، هذا توفيق باشا السويدي خريج السوربون . السوربون ! السوربون !

رعى الله عهدي يوم كنت أجول فيها وأصول !

\*\*\*

خرجت من مجلس النواب منشرح الصدر . ولقيني أحد النواب فقال : كيف رأيت ؟ فأجبت : رأيت وجه الحق ، ولكن آذاني أن تكون حجةً الموافقين على معاهدة الحدود مقصورة على أن إيران جارة عزيزة . فما الذى كان يضيركم لو قلتم إن إيران أمة إسلامية ، وإن المسلمين يجب أن يتسامح بعضهم مع بعض ؟ نحن مسئولون عن الأخوة الإسلامية أمام الله وأمام التاريخ ، مسئولون أمام الله الذى يكره أن يبنى المسلمون بعضهم على بعض ، ومسئولون أمام الماضى الجميل الذى تعاونت فيه الأمة العربية والأمة الفارسية فأنجبتا أشرف ذخيرة من ذخائر الأدب والتشريع . إن العداوة بين العرب والفرس أجج جَذَوتها ناساً من الأدباء ، فما الذى يمنع من أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين فيخلقوا الحب بين إيران والعراق ؟

— ١٤٣ —

إن فرنسا لها مدرسة لنشر اللغة الفرنسية في إيران .  
فما الذى يمنع أن تقوم الحكومة المصرية أو الحكومة العراقية بإنشاء مدرسة لنشر اللغة العربية في إيران ؟

حذق النائب في وجهى طويلاً وقال : هذا رأى وجيه ، ولكن الظروف ...  
فقلت : أى ظروف ؟ إن أوربا يسرها أن تتمزق . وهى قد استطاعت بالفعل أن تؤلب المسلمين بعضهم على بعض وأن تضرب العرب بعضهم ببعض . وإذا استمر الحال كذلك رُبَّع قرن فلن تجد من يرّد عليك السلام في مصر ، ولن أجد من يرّد على السلام في العراق .

\*\*\*

الحمد لله . تم الصفاء بين إيران والعراق ، ومرت معاهدة الحدود بسلام ، والله المستول عن هداية العرب والمسلمين .

ولكن شط العرب الذى عجز عن تكدير السلام بين العراق وإيران استطاع أن يكدر السلام بينى وبين ليلى .

كنت انقطعت عن زيارة ليلى إلى أن يذهب العُقْبُول الذى شوّه شفتى ، فاستوحشت ليلى لغيايى ، وأرسلت ظمياء للسؤال عنى ، فطار إلى إليها الشوق ، فلما وقع بصرها على شفتى قالت : ما هذا الذى بشفتك ؟

فأجبت : هذا عُقْبُول .

فقلت : أما آن لك أن تتوب ؟

فقلت : ماذا تعنين ؟

فأجابت : ما هذا عُقْبُولاً يا حضرة الدكتور .

فقلت : وما هو ؟

فأجابت في سخرية : هذه عضة سمكة من أسماك شط العرب !

فأقسمت بالله والحب أننى ما حاولت الصيد في شط العرب حتى تعضنى السمكات .  
وطالت اللجاجة بينى وبين ليلى ، وحملنى الغضب على أن أقول : اسمعى ، أنا مستعدّ لما هو أخطر من ذلك .

فقلت : إيش لون ؟

فقلت : أنا مستعد لتقيل ثغر الحية .

فقلت وعيناها تقذفان بالشّرر المتوقّد : لن تقبل ثغر الحية !

فانزعجتُ وعرفتُ أنه وعيد .

وانقضت السهرة في كلام تافه ، وعند الانصراف لم تسألني ليلي متى أرجع ؟  
آه ، ثم آه !

كانت ظمياء خدعتني حين قالت إنها وصلت مع ليلي إلى القاهرة في آذار شهر الأزهار والرياحين ، فقد عرفتُ أن آزار القاهرة غير آزار بغداد . عرفت بالتجربة أن العراقيين على حق حين يحكمون بأن « آزار ، شهر الزوابع والأمطار » فقد قضيت هذا الشهر في كربوب وأحزان .

ولكن أى كربوب وأى أحزان ؟

كنت أذهب لتأدية الدروس في الصباح ، وكنت أذهب بعد العصر إلى المطابع لأصحح تجارب كتابي ، ثم أرجع فَيُبَلِّل المغرب إلى البيت لأعاني وحشة الليل ، الليل الهائل ، ليل بغداد . وزاد الكرب أنى انقطعت انقطاعاً تاماً عن المصريين والعراقيين .

انقطعتُ عن المصريين للسبب الذي شرحته في كتاب « ذكريات باريس » وهو سبب يؤذيني أن أسجله مرة ثانية في هذه المذكرات ، وأنا في الواقع أنسى مصر حين أفارق مصر ، لأنى أفهم أن مصر حين ترسلني إلى باريس أو بغداد لا تريد إلا أن أفهم باريس أو بغداد . ومصر لا تلعب ، فهي تحب لأبنائها أن يفهموا روح الغرب وروح الشرق ، وأنا فيما أزعم مصرى تحبه مصر ، وإن كانت لا تلقانى بغير العبوس .

وانقطعتُ عن العراقيين لأن حساسي عندهم أثقل من الجبال . ولن أنسى السهرة التي قضيتها في منزل السيد محمد حسين الشيبى فقد قضيت ثلاث ساعات وأنا أتدقق كالسيل دفاعاً عن الآراء التي أذعتها في مؤلفاتي ، وآذاني ذلك الجهد فمرضت يومين .

\*\*\*

أين أذهب ؟ لا أدري أين أذهب !

كنت أذخر ليلي لأيام الشقاء ، وهى الآن في تغضب وتعتب .

كانت ليلي تقول حين أهم بالخروج : « فراقك صعب سيدى » .

وهى اليوم لا تقول شيئاً من ذلك ولا تسأل متى أرجع .

كانت ليلي تقول : « ليش ما جيت عندنا من زمان يا دكتور ؟ »

وهى اليوم تسأل فيما أظن — وبعض الظن إثم — متى أرحل عن بغداد .

عافاك الله ياليلى وأسبغ عليك نعمة العافية !

\*\*\*

تباركت يا ربى وتعاليت !  
فما عانيتُ في حياتي بلاءً إلا رأيت ما يصحبه من محمود العواقب .  
فبفضل تغضُّب ليلى وتعتُّبها عرفت سرّاً من أغرب الأسرار ، عرفت كيف ظل العراقيون  
أكثر من ثلثائة سنة يغثون هذين البيتين :

ولى كبدٌ مقروحةٌ من ييعنى بها كبداً ليست بذات قروح  
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح  
لقد هدنى غضب ليلى فلم أعد أعرف للحياة أئى مذاق ، وجزعتُ على ما صرت إليه أشدّ  
الجزع ، فهذا الربيع يُفيض على أرجاء العراق أرواح الابتهاج والانشراح ، وقلبي وحده يعيش  
بلا ربيع .

وجاء ( نيسان ، شهر الزيادة والنقصان ) فلم يهشّ له قلبى ، وبقيت أعانى ألم الوحشة  
والانفراد .

كنت أستطيع غشيان بعض الملاحى لأنسى همومى ، وما فى ذلك ما يضرىنى ، فقد كان  
السيد جمال الدين الأفغانى يجلس فى قهوة متاتيا بالقاهرة يوم كان الجلوس فى مثل تلك القهوة  
شيئاً غير لائق ، وكان يقول : من حق الفيلسوف أن يجلس فى قهوة متاتيا ، وأنا دكتور فى  
الفلسفة فمن حقى أن أجلس فى قهوة متاتيون !

ولكن ملاحى بغداد فيها أغاني وألحان ، وقد صرت بعد غضب ليلى مرهف الحس إلى جدٍ  
مُفزع ، وأخشى أن أسمع الغناء مع الناس فتفضحنى عندهم دموعى .  
وكان يتفق أن أسمع المدياح من حين إلى حين فأتوهمه يدمدم :

ولى كبدٌ مقروحةٌ من ييعنى بها كبداً ليست بذات قروح  
ومن غريب ما وقع أن غضب ليلى قوبل بعوضٍ مزعج هو كرم أهل العراق .  
كنت أدخل المطاعم للغداء أو للعشاء فأجد من يدفع عني من حيث لا أعرف ، وكثر ذلك  
حتى أضجرتنى ، وما كنت بخيلاً حتى أنكر الكرم ، ولكن قلبى كان يهتف بقول الزميل  
القديم :

آل ليلى إن ضيفكم واجدٌ بالحيّ مُد نرلا  
أمكنوه من ثنيتها . لم يُرد خمرأ ولا عسلا

وفى حومة هذه الحرب الوجدانية سمعت أن جماعة من الأطباء كتبوا يشكوننى إلى الجمعية  
الطبية المصرية ، وهم يزعمون أننى حنثت فى اليمين ، فقد أقسمتُ كما أقسموا ألا أفشى سرّاً  
( ليلى المريضة فى العراق )

لمريض ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن مرض ليلى أصبح مُعْضِلَةً دولية ، ولكن هل يعقل من في قلوبهم مرض ؟  
آه ثم آه من حقد الزملاء .

\* \* \*

لم تسألني ليلى متى أرجع ، ولكن لا بد أن أرجع .  
وهل هُنت على نفسي إلى هذا الحد ؟  
ما هنت على نفسي . فقد رعاى الله فعشت طول حياتي عزيزاً ، ولكن هذه فرصة أختبر فيها أخلاق ، هذه فرصة ثمينة قد لا تعود . إن ليلى تحقد على ، وتتهمني بخيانة الحب ، ومن واجبي نحو الأخلاق أن أرجح من يرتاب في أخلاق ، فما ارتاب في أخلاق غير الضعفاء والمساكين .  
ولكن ليلى لها تاريخ ، وأشقى الناس من يعشق امرأة لها تاريخ .  
وتاريخ ليلى ابتداءً في القاهرة واستفحل في بغداد ، ومن الواجب أن أكون على بينة من تفاصيل ذلك التاريخ ، وعلم ذلك عند ظمياء .

\* \* \*

— إيش لونك يا دكتور !  
— أعانى ظلام الحب وظلام الليل . وإيش لون ليلى ؟  
— استراحت لمكايدتك فديت في روحها العافية .  
— وكذلك أبني الأصدقاء ليهدموني يا ظمياء .  
— لا تندم على ما صنعت من جميل .  
— سمعت وأطعت يا بنيتي الغالية ، ولكني أحب أن نرجع إلى حديث ليلى مع الضابط عبد الحسيب .  
فانشرح صدر ظمياء وأخذت تقول ...

\_\_\_\_\_



- كان فضيلة الشيخ دعاس العيسوى والد عبد الحسيب يقيم بالزمالك ، أعنى بولاق .  
— ما هذا الخلط يا ظمياء ؟  
— كنا نفهم أنه يقيم بالزمالك ، ثم عرفنا أنه يقيم فى بولاق ، وقد فهمنا أن سكان بولاق  
يجبون أن يسموا محلهم زمالك .  
— شىء غريب !  
— وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ إن بولاق تشرف على النيل كما تشرف عليه الزمالك .  
— ولكن بولاق فى الضفة الشرقية ، والزمالك فى الضفة الغربية ، فبولاق شرق ،  
والزمالك غرب ، والشرق والغرب لا يلتقيان .  
— إيش لون ؟  
— هذه معان لا يفهمها غير الفلاسفة يا ظمياء .  
— وكنت أذهب فى صحبة ليلى إلى منزل الشيخ دعاس العيسوى ، وكان شيخاً يقارب  
الستين ، ولكنه كان أعجوبة الأعاجيب فى مغازلة النساء . كان يصوّب بصره إلى ليلى  
ويقول : « يا بنت يا كهرباء » وكانت ليلى ترتاح لهذا الوصف الطريف . ولعلها كانت تود  
لو سمعت هذه العبارة الطريفة من عبد الحسيب ، وكانت السيدة نجلاء ...  
— هل تعرفين شيئاً من تاريخ نجلاء ؟  
\* — أعرف كل شىء : كانت فتاة خفيفة الروح عرفها الشيخ دعاس وهو يصطاف فى لبنان  
قبل الحرب بأعوام طوال فتزوجها ونسى من أجلها زوجته وأبناءه فى ( أشمون ) .  
— وهى أم عبد الحسيب ؟  
— بالتأكيد ، وعنها ورث خضرة العينين .  
— فهمت . هاتى بقية الحديث .  
— وكانت ليلى ترفض الجلوس على المائدة مع الشيخ دعاس وابنه عبد الحسيب ، ثم  
استأنست بعد حين ، فقد اطمأنت إلى شرف القلوب فى ذلك البيت . وكان فضيلة الشيخ  
دعاس يتناول على المائدة دواءً كُمِّت اللون يُصلح الأمعاء . وكان هذا الدواء يُحفظ فى صوان

خاص ويقدم إليه في الغداء والعشاء . وفي ظهر يوم طُرق الباب وأعلن الخادم قدوم الشيخ الزنكلوني فأسرعت ربة البيت وأخفت زجاجة الدواء . ودخل الشيخ الزنكلوني فرأيناه رجلاً عليلاً وعجبنا كيف يخل عليه الشيخ دعاس بقطرة من الدواء الذي يُصلح الأمعاء .

— عمن تلقيت دروس اللؤم يا ظمياء ؟

— تلقيتها عن طبيب مصري يقيم في بغداد .

— وأين عيادة هذا الطبيب ؟

— هو طبيب بلا عيادة ، على وزن وزير بلا وزارة .

— فهمتُ . ويسرنى أن يكون تلاميذى جميعاً أذكفاء . وماذا صنع الشيخ الزنكلوني حين

رأى ليلى ؟

قُبِلَ جبينها وقال : أنتِ درية ؟ فلما عرف أنها فتاة من العراق قُبِلَ جبينها مرة ثانية وقال : أنا أحب العراق ، ونسائم العراق ، وجميع ما يرد من وطن أبي حنيفة النعمان . اسمعى يا بنيتى ، أنا من البشافة ، ولكنى أستظرف الحنيفة .

وهنا تدخل دعاس فقال : ولكن أبو حنيفة كان يبيع النبيذ .

فثار الشيخ الزنكلوني وقال : هذه دسيسةٌ مذهبية ، فما أباح أبو حنيفة النبيذ ، وإنما أباح العرقسوس .

وتشجعت ليلى فقالت : رحم الله أبا حنيفة فقد كان يعرف أن العرقسوس يصلح الأمعاء .

وكانت أول مرة فهم فيها الشيخ دعاس أن ليلى لم تكن من الغافلات !

ثم دعانا الشيخ الزنكلوني لزيارة منزله في حارة أم الغلام .

— وزارته ليلى هناك ؟

— وعدت ثم أخلفت ، فقد رابها تظرف المشايخ .

— ضيعتم فرصة ثمينة يا ظمياء . فما الشيخ الزنكلوني متظرفاً ، وإنما هو ظريف .

— سنزوره حين نرجع إلى مصر ، يا مولاي .

— ومتى ترجعون إلى مصر ، يا ظمياء ؟

— حين تسمن الأسماك .

— ومتى تسمن الأسماك ؟

— حين ينضج الثوت .

— ومتى ينضج الثوت ؟

- حين تُعْقِلْ ليلي وترجع إلى التلطُّف مع طبيبها النيل .  
— إذاً لن ينضج التوت ولن تسمن الأسماك .  
— صبراً يا دكتور ، فإن الله مع الصابرين .  
— سأصبر يا طفلي الغالية ... ولكن كيف كانت ليلي مع عبد الحسيب ؟  
— كانت تتغطرس عليه كما تتغطرس عليك ، فتجاهل ما تُملئ عليه الصباية من نظرات وأحاديث . والمحبون يتغطرسون لأنهم أذلاء ، ولو كانوا على شيء من العزة لا احتقروا الكبرياء . وهذا هو السبب في أن الأحباب يخرم بعضهم عطف بعض . فالحبيب يريد أن يدل له المحب ، والمحب يريد أن يدل له الحبيب ؛ وفي ظلمات هذا العناد السخيف تنفصم الأواصر والصلات . وكان المسكين عبد الحسيب يسلك إلى قلب ليلي كل سبيل ، كان يحتال ليظفر منها بابتسامة ، فكان يُغرب في سرد أخبار الشيخ كراوية .  
— ومن الشيخ كراوية يا ظمياء ؟  
— أستاذ كان يدرس اللغة العربية بمدرسة المساعي المشكورة بالزقازيق .  
— أنت جاهلة يا ظمياء ، فمدرسة المساعي المشكورة في شبن الكوم لا في الزقازيق .  
— أوكد لك أنها في الزقازيق ، ولك أن تسأل ليلي فعندها الخبر اليقين .  
— إذا أخذت العلم عن ليلي فعلي العلم العفاء !  
— وكان عبد الحسيب يقف فيقلد صوت الشيخ كراوية وهو ينشد قول جرير :  
إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ      قتلننا ثم لم يحين قتلانا  
يصترغن ذا اللب حتى لا حَرَاك به      وهنّ أضعف خلق الله إنسانا  
وكان يصوب بصره إلى ليلي حين يصل إلى عبارة « وهنّ أضعف خلق الله إنساناً » ، وكان يرضيها أن ترى هيامه بها فتبالغ في التغطرس والازدهاء .  
وفي إحدى العصريات دخل عبد الحسيب غضبان فانزعج الشيخ دعاس وانزعجت السيدة نجلاء ، فنظرت إلى وجه ليلي فرأته يشبه دجلة في أيام نيسان .  
— إيش لون ؟  
— وأنت يا مصرى تقول « إيش لون ؟ » .  
— إيش لون ؟ إيش لون ؟  
— دجلة في نيسان تحاول من فرط الشوق والحيوية أن تُلطم وجه بغداد .  
— وكانت ليلي تحب أن تلطم وجه عبد الحسيب ؟

- كانت تهمُّ بافتراسه لأنها كانت تنكر أن يدرك معنى البؤس وهى فى دنياه .
- كانت تحبه ؟
- وأى حب ؟ وهل فى الدنيا فتاة تحبس قلبها عن فتى وافر الرجولة متين الأخلاق ؟
- وما هى أسباب ذلك الغضب الذى سيطر على عبد الحسيب ؟
- قال إنه تلقى محاضرة فى مدرسة البوليس ألقاها الصاغ على حلمى عن « القوة المعنوية »
- فتار صدره وعجب كيف يعجز عن التسلح بالقوة المعنوية ، وجلس على المائدة وهو فى غاية من العقل ، فلا نوادر ولا فكاهات ، ولا الشيخ كراوية ولا عبد الله شعيب . فعرفت ليلى أن الشاب ابتداءً يحاربها بلا رحمة ولا إشفاق . آه ، ثم آه !
- لا تتأوهى يا ظمياء فقد مزقت قلبى .
- تحبنى يا مولاي ؟
- استحى يا ظمياء فأنت فى حضرة طيب .
- وبعد ليلال دعتنا السيدة نجلاء لسماع المغنى عبد اللطيف البنّا فى ملاهى المعرض فسمعناه يقول :

« سلامة القلب من حبك يا قاسى »

- فتحدثت مدام ليلى وأصابها إغماء . وكانت ليلة قضيناها فى كروب وأشجان . وفى الليلة التالية صممت ليلى على أن نذهب وحدنا إلى ملاهى المعرض ، فسمعنا أم كلثوم تغنى :
- ياللى شغلت البال      ياليت أكون على بالك  
الوجد له أحوال      يا ليتنى أعرف حالك
- فأخذت ليلى تبكى بكاءً لا تجود بمثله عيون الأطفال ، فخشيتُ أن نفتضح وأخذتها فى سيارة إلى المنزل الذى كنا نقيم فيه بشارع قصر النيل ، وانحبسنا عن جميع الناس ثلاثة أسابيع .
- ثم ماذا ؟

- ثم تفضل الشيخ دعاس والسيدة نجلاء والآنسة درية بالسؤال عنا فتشجعت ليلى وسألت عن عبد الحسيب ، فابتسم الشيخ دعاس وقال : تحبينه يا ليلى ؟ فقالت : ما أحبه ، وإنما أشتى أن يحدثنى مرة ثانية بحكايته يوم تشيطن فأخذ زجاجة الزيت وملأ بها محابر زملائه من التلامذة الأقباط حين كان تلميذاً بمدرسة المساعى المشكورة الثانوية .
- وقهقه الشيخ دعاس وهو يقول : وما رأيك يا ليلى إذا كان التلامذة الأقباط أصبحوا يرحّبون بوضع الزيت فى محابرهم على أيدي التلامذة المسلمين ؟

ولم تفهم ليلي ما يريد ، فاستطرد الشيخ دعاس قائلاً : نحن ائتلفنا على يد الشيخ الصالح سعد زغلول ، وأنا وضعت قواعد الائتلاف قبل سعد زغلول ، فزوجتي نجلاء كانت مسيحية وأسلمت لتربط بين مصر ولبنان . فما رأيك لو خطبتك لعبد الحسيب ؟

فاستأنست ليلي وقالت : هل قرأت يا فضيلة الشيخ أخبار عمر بن أبي ربيعة ؟ فقال : ما قرأتها ، لأن أخبار عمر بن أبي ربيعة لا تدرس في الأزهر الشريف .

فقلت ليلي : كان ابن أبي ربيعة يستهوى جميع النساء اللاتي يشهدن موسم الحج ، إلى أن فتته امرأة عراقية ، فراودها عن نفسها فاستعصمت ، فخطبها لنفسه فأبت وقالت : تعال إلى العراق واخطبني من أهلي . وكان ابن أبي ربيعة ماجناً فلم يتبع معشوقته إلى العراق ، وحرمه الممجون من التشرف بمصاهرة أهل العراق . فإن كان عبد الحسيب صادقاً في حبي فليمض إلى العراق وليخطبني من أهلي هناك .

وعرف الشيخ دعاس أن هزل الحب جد ، فانصرف وهو مكروب !  
— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم انتظرنا أسابيع فلم يسأل عنا الشيخ دعاس ولا ابنه عبد الحسيب فرجعنا إلى العراق ونحن نبكي سلامة الأخلاق في بلاد الفراعين .

— شيء مزعج ، شيء مزعج !

— لا تخزن يا مولاي ولا تبئس ، فقد وقعت أعاجيب .

— أفصحى يا ظمياء .

— في اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٦ طرق الباب زائر غريب ، فنظرنا فإذا هو الضابط عبد الحسيب بعينه الخضراوين وقوامه الرشيق ؛ وهجمت ليلي عليه فقبلت جبينه وخديه بلا تهيّب ولا استحياء ، ودعوانه للنزول في ضيافتنا فرفض ، وقال إنه جاء لخطبة ليلي ، وإنه ظفر بدبلوم مدرسة البوليس ، وإنه مرشح لرياسة نقطة النعناعية ، فنظرت ليلي بعيني اللبوة العاديّة وقالت : لن أقبل يدك أو أختبر أخلاقك !

— ثم ماذا ؟

— استيأس الشاب المسكين وقال : وبأي صورة أعيش في بغداد ؟ فقلت ليلي : ذلك إلى .

— ثم ماذا ؟

— ثم تحمّلت ليلي بأهلها ومعارفها إلى نوري باشا السعيد وكان يومئذ وكيل القابض العام ،

وكان برتبة زعيم ، فألحق الضابط عبد الحسيب بالجيش العراقي بحجة التقريب بين مصر والعراق .

— شيء جميل !

— انتظر يا دكتور ، فقد أفسدت ليلي كل شيء .

— وماذا صنعت الحمقاء ؟

— بثت من حوله العيون لترى كيف يفكر وكيف يصنع ، فصيحٌ عندها أنه كافر بالحب وبالعروبة فأصلته نار الصدود .

— ثم ، ماذا يا ظمياء ؟

— ثم رحل المسكين إلى مصر بدون أن يستأذن رئيسه نوري باشا السعيد .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

— ثم خلّت حياة ليلي من حبيبها الغالي فلم تُعُد تعرف طعم الحياة وحالفها الضنى والنحول .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

— ثم علم الشاب المسكين بمرض محبوبته الغالية فلاذ بأمه الرعوم فمضت إلى الأستاذ خليل مطران تستفتيه ، فكان من رأيه أن ينتقم من ليلي بطريقة دولية تضجّ لها المشارق والمغارب ، وصحّ عنده أن تغنى السيدة نادرة هذا البيت :

يقولون ليلي في العراق مريضةً فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

ولم يقف عند هذا الحد ، بل أشار بوضع هذا الصوت في شريط « أنشودة الفؤاد » .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

— ثم تنكر أهل العراق لذلك الشريط وقاوموه غيرةً على ليلي فلم يُعرض في بغداد غير مرات معدودات .

— ثم ماذا ، يا ظمياء ؟

— ثم لطف الله بليلي فجاء الدكتور زكى مبارك لمداواتها منتدباً من الحكومة المصرية ، أيدها الله .

— وما رأى يا ظمياء إذا عُوِفَتْ ليلي ومرض الطبيب ؟

— الأمر يومئذ لله .

ليلي ، ليلاي .

أنت تعلمين أني تركت في سبيلك وطني وأهلي . أنت تعلمين أن صحتي اعتلت وأنني أعيش على منقوع الفواكه منذ أسابيع وأسابيع . أنت تعلمين ما أنا صائر إليه إن دام هذا الصدود . أنت تعلمين أني ضحية الواجب والعقيدة والوجدان . فما هذا التجنى يا ليلي وأنا ما نُحْنُثُ العروبة ولا . كفرت بالحب ؟

أحبك يا ليلي ، أحبك ، فاصنعى بقلبي ومصيري ما شئت وشاء الهوى وشاء الدلال .  
أحبك يا ليلي في غضبك ورضاك . أحبك حباً ما سبقني إليه سابق ولن يلحقني فيه لاحق .  
أحبك يا ليلي وأحب من أجلك جميع ما في الوجود حتى قيظ بغداد . أحبك باليلي وأرى وجهك مسطور الملامح والتقاسيم في كل ما تقع عليه عيناي . أحبك وأحب من أجلك نعيم الحياة وبؤس الحياة ؛ وما أحب الحياة لنفسى يا ليلي فقد شبعْتُ منها ورَوَيْتُ ، وإنما أحب الحياة ليبقى لك في الدنيا محب صادق يرى الضلال في هواك أشرف من الهدى ، ويرى الظلام في هواك أكثر إشراقاً من بياض الصباح .

أحبك يا ليلي وأتمنى أن لا تحبينى : فما يرضيني أن تعانين في الهوى بعض ما أعانين .  
أنا أكره لك يا معبودتي أن تذوقى ملوحة الدمع ، وأن تهيمى بعدد نجوم الليل ، وأن تقفَى موقف الجمود أمام الأزهار والأشجار والأنهار فلا تدركين كيف يتسم الوجود .

\*\*\*

— ظمياء !

— عيوى !

— ظمياء !

— عيوى ، دكتور زكى ، عيوى !

— خذى بزمامي إلى الجحيم .

— وأين الجحيم يا مولاي ؟ حماك الله ونجّاك !

— أين الجحيم ؟ أما تعرفين ؟ خذى بزمامي إلى دار ليلي علّنى أعرف مصيري في هوى تلك

الظلم .

— في هذا المساء ؟

— في هذه اللحظة .

— انتظر حتى أراها وأرجع إليك ، فإن اصطدام العاشقين في فورة الغضب قد يحملك على

أن تمنّ عليها أو تجرها إلى أن تمنّ عليك ، والمنّ يصنع بالحب ما تصنع النار بالحلفاء .

طال انتظاري ولم ترجع ظمياء .  
وانقضى مساءً وصباح ، ومساءً وصباح ، ولم ترجع ظمياء ، ومضت ثواني ودقائق  
وساعات وأيام وليالٍ ولم ترجع ظمياء ، وتقلبَت دجلة من حالٍ إلى أحوال ولم ترجع ظمياء .  
وطافت بالأشجار والأزهار والرياحين أطيافُ البؤس والنعيم ولم ترجع ظمياء .  
وطوّفَت بجميع المعاني ، وتدوّقَت صنوف اللواعج وتشوّفَت إلى جميع المطالع ، ولم ترجع  
ظمياء .

وتلقيت مئات الرسائل فلم تكن من بينها رسالة عَظِيف أو اعتذار من ليلى أو ظمياء .  
أَيكون هذا آخر العهد بليلى وظمياء ؟  
إلى إذا لَمَن الهالكين . كتب الله لوطني وأهلي جميل العزاء !

\* \* \*

ولكن ما السبب في هذه القطيعة الباغية ، وما أذكر أني أسأتُ أو جنيثُ ؟  
أَيكون السبب تلك الكلمة الفكاهية التي داعبْتُ بها ليلى بعد رجوعي من البصرة ؟  
ربما كان ذلك ، فالمزاح كان ولا يزال من أشنع البليات ، وما استطاع إنسان أن يجرح قلبي  
إلا عن طريق المزاح . والأحباب ينسون واجب الأدب فيتناول بعضهم على بعض باسم  
المزاح ؛ وذنبِي في هذه القضية غير مغفور ، لأنني انقطعت لدراسة الفلسفة عددًا من السنين  
وكان الظن أن أفهم أن المزاح على لطفه لا يخلو من أشواك ، وقلب ليلى رقيق تؤذيه خطرات  
النسيم ، فكيف لا يؤذيه المزاح ؟

لو رجعتُ إلى ليلى لأحسنت الاستغفار من ذنبي ، ولكن متى أرجع ؟  
لقد داعبْتُ ليلى ألف مرة فتقبلتُ دعاياتها بأحسن القبول ، وكنتُ لجهلي أتوهم أن قلب  
ليلى سرحب لمثل ما رحب به قلبي .

فكيف أخلفتُ ظنوني يا مُنية النفس ويا روح الفؤاد ؟  
ما هذا ؟ أنا داعبْتُ ليلى قبل ذلك فلم تغضب ، فكيف تكون الدعابة الأخيرة بداية البؤس  
ونهاية النعيم ؟



إن من واجبي نحو هواي أن أدرس هذه القضية حق الدرس .  
وقد بدأت أفهم أن كلام الجرائد والمجلات أفسد ما بيني وبين ليلى كل الإفساد ، فقد مضت  
الشهور الطوال والجرائد تهتف باسمي في الصباح والمساء ، وظن الأدباء العراقيون أن الفرصة  
سنحت لتصفية ما بيني وبينهم من حساب ، وكنت أقرأ ما أقرأ وأنا أبتسم ، كنت أقول : هذه  
يقظة أدبية واجتماعية أردّ بها ديوني إلى العراق . كنت أقول : هذه أقلام صدت وقد حان لها  
حين الصّقال ، فليكن أدبي هو ذلك الصّقال .

كنت أقول وأقول ، ولكن التفكير في جوهره غير سليم .  
ما الذي كان يمنع من دفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات ؟  
ما الذي كان يمنع ؟ كنت مشغولاً بواجبات ثقال تكاد تقصم ظهري ولكن هل تفهم ليلى .  
أني مشغول وأن لي منهاجاً يفرض أن لا أخرج من بغداد إلا وفي حقائبى خمسة مجلدات ؟  
ينبغي أن أعترف بأن مركزي بين الأطباء لم يتزعزع بسبب الأدب وحده ، وإن كانت  
حرفة الأدب قادرة على زعزعة العروش ، وإنما وقعت النكبة وتقوضت عيادتي بشارع المدابغ  
وعيادتي بشارع فؤاد لعدم اكترائي بما يكتب في الجرائد ، وعدم اهتمامي بما يتقول الناس .  
وأصل البلية أني كنت أحسن الظن بعقول بني آدم — وهذا أعظم خطأ ارتكبته في حياتي  
— فقد كنت أظن أن الناس يميزون بين الحق والباطل فيما يقرأون ؛ وكنت أتوهم أن أكاذيب  
المفترين لا تضرتني ، فكنت أقرأ ما يكتب عني بلا اكتراث ، وأقول : هذه مفتريات ليس لها  
أساس ، وما قام على غير أساس فمصيره التهدم والزوال .

وظل الحال على ذلك بضعة سنين وأنا أصمّ أذني عن الأقاويل والأراجيف إلى أن دخل  
عيادتي مساء يوم مريض له شأن في المجتمع ، ويكفي أنه أستاذ في أحد المعاهد العالية ، فلما  
فحصته وشخصت له المرض اطمأن واستراح ، فدعوته لتناول فنجان قهوة بالمكتب فتفضل  
بالقبول ، وفي الناس من يفضلون بالقبول وأنت المتفضل عليهم بالمعروف .

وفي أثناء الحديث فهمت أن زوجته عليلة وأنه كان يودّ أن أمضى لعيادتها لولا خوفه من  
كلام الناس ، وبعد مراجعته فهمت أن مركزه العلمي لم يعصمه من تصديق كل ما يكتب في  
الجرائد وعرفت بعد فوات الوقت أن الاعتماد على عقول بني آدم ضرب من الخيال .

إن من الجريمة أن نسكت عما يكتب عنا في أمة لا تنقد ما تقرأ ، ولا تمحص ما تسمع ، ومن  
الجريمة أن نسعى إلى الشهرة فإن الشهرة أصل كل بلاء ، والرجل المشهور يصدّق الناس فيه  
كل بهتان ، ولا سيما في الأمم التي تضعف فيها الثقة بالأخلاق ، ومصر التي نجها راضين أو

كارهين مبتلاة بهذه البلية ، فأهلها لا يصدقون أن العبقريين والنوابغ أصحاب أخلاق ، وما أزعج أئى نابغ أو عبقري حتى أصبح أهلاً لتلك الظنون ، ولكنى بالحق أو بالباطل صرت من أشهر الرجال ، وللشهرة عقابيل.

\*\*\*

كنت أستطيع مع كثرة الشواغل أن أدفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات ، ولكن صرفنى عن ذلك إيمانى بأن لىلى صديقة غالية ، وأنها خليفة بأن لا تفتح أذنيها لما يصوّبه الحاقدون من دسائس وأضاليل . ثم كتب الله أن أتلقى عن لىلى درساً لم أظفر بمثله وقد قضيت عشرين عاماً فى الحياة الجامعية . تلقيت عن لىلى درساً عظيماً جداً ، وأنا أقدمه إلى قراء هذه المذكرات بالمجان وإن كنت دفعت ثمنه من دمعى ومن دمي أنا العاشق الذى يعانى ظلام الحب وظلام الليل . استمع هذا الدرس يا قارئ هذه المذكرات ، استمع فما أرجو منك جزاء ولا شكوراً ، وإن كنت أتشهى أن تسكب على قبرى دمة يوم أموت ، وسأموت ، فلكل أجل كتاب . تعلمتُ عن لىلى أن الصديق فى حاجة إلى حراسة ، وأستطيع أن أقول إن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء ، ولا يغفل عن حراسة صديقه إلا غافل أو جهول . وقد خلق الله لكل صديق أذنين طويلتين ، وهاتان الأذنان لهما سمع دقيق ، والصديق يحسبك من بعض ما يملك ، فهو يسمع فيك كل قيل ، كما يسمع فى داره أو هام المهندسين ، وكما يجتلب لأملاكه صغار المسّاحين ، وهو يفرح لما يساق إليك من زور وبهتان ، لأنه من بنى آدم ، وابن آدم حيوان ضعيف لم يعيش بفضل القوة كما عاشت الأسود ، ولم يعيش بفضل الجمال كما عاشت الغزلان ، وإنما عاش هذا الحيوان الضعيف بفضل المكر والدهاء .

استمع هذا الدرس يا قارئ هذه المذكرات من الفيلسوف المودّع ، فما فى دنياكم ما يشوقنى يا بنى آدم حتى أستطيع فيها العيش .  
استمع يا غافل يا جهول .

ليس فى أصدقائقك من يسره أن تكون أعظم منه علماً أو جاهاً .  
ليس فيهم والله من يسره أن يكون إخلاصك فى هواه أعظم وأروع .  
فالصديق — وأسفاه — يتشهى أن يثبت لديك أنه أعظم منك فى كل شيء ليتصدق عليك بالعطف والحنان .

الصديق يرضيه أن يقول « أعطيتُ » ويؤذيه أن يقول « أخذتُ » .

والأصدقاء يملكون فى إيدائكم ما لا يملك الأعداء .

العدو متهم — بفتح الهاء — وتجريحه إياك يتلقاه الناس ساخرين .  
أما الصديق فمؤثمن — بفتح الميم — وتجريحه إياك يتلقاه الناس بالقبول وللأصدقاء أساليب  
في تجريح من يصادقون ، ويا ويل من ابتلته المقادير بلكم الأصدقاء ! يترفق الصديق فيقول : أنتم  
تعلمون أنى شديد العطف على فلان لما بيننا من متين الصلات ، وهو والله رجل مفضل لولا  
كيت وكيت !

ويتلطف الصديق فيقول : لا تثوروا على فلان فهو عبقري ، وللعبقريين بكوات !  
وتزداد البلية بالأصدقاء حين تصبح ولك نصيب من المجد ، فالصدقة توهمهم فكرة  
المساواة في الحظوظ والدرجات ، فإن تقدمت وتخلفوا لم يكن معنى ذلك عندهم أنك أخذت  
ما تستحق ، وإنما كان معناه أنك خدعت زمانك فانخدع ، وأن لك وسائل يعفون عنها لأنهم  
على تخلفهم شرفاء !

والصديق لا يصدق أنك تصل إلى منازل المجد بالجهاد وسهر الليل وإقذاء العينين تحت ضوء  
المصباح ، وإنما يتخيل أنك اغتصبت المجد بالتهويل والتضليل ، ولا يرى لك رأياً طريفاً أو فكرة  
عبقرية إلا حدثته النفس بأن يغض منها بالتصغير والترفيف .

وأخطر أعدائنا هم الأصدقاء الأعزاء الذين جاريناهم في ميادين المجد ، فهو لاء لا يتصورون  
أبداً أن ميادين الجهاد فيها سابق ومتخلف . ولعلمهم كانوا يظنون أن من حقهم علينا أن نتخلف  
ليتقدموا . ولو أننا فعلنا طائعين لما ظفروا منهم بكلمة تفصح عن حفظ الجميل ، ويكون فيها  
معنى العزاء ، وإنما تلقى منهم الصلف والاستطالة والكبرياء والعدوان .

والأصدقاء يصنعون بمصايرنا ما تصنع جرائم المرضى المدفون ، فهم يقتلوننا عن طريق  
الاغتيال ، وما نجد في إدانتهم شاهداً واحداً حتى نقدمهم إلى ساحة الجزاء .

وفي الدنيا السخيفة تقاليد تحمي الصديق المخادع من انتصاف الصديق الصدوق ، والتفكير  
في محاسبة الصديق هو في ذاته بلية ، لأنه يفتح الباب لأهل اللغو والفضول ، ويعرضك لما آثم  
الشبهات ومنكرات الأراجيف .

والعدو اللئيم هو في الأصل صديق حميم ... ولكن كيف ؟ كان صديقاً يحب أن تكون في  
خدمته كيف شاء ، وحين يشاء ؛ فلما التويت عليه بفضل مالك من وجود خاص تنكروا وتغير  
ومضى يضع في طريقك الأشواك بلا رحمة ولا إشفاق .

الصديق الحق هو الذي يعتقد أنك أفضل منه وإن كان في الواقع أفضل منك .

هذا هو الصديق ، ولكن أين من يعرف هذا المعنى النبيل ؟

أين الصديق الذى يعرف قيمة التضحية بأهواء النفس ؟  
 أين الصديق الذى لا يريد أن يتخذ من شهرتك لوحة إعلانات ؟  
 أين الصديق الذى يفهم أن من حَقك أن تناضل لتسود ؟  
 أين الصديق الذى يدرك أن المودة كالصلاة يفسدها الرياء ؟  
 أين الصديق الذى يرى عيوبه ويعمى عن عيوبك ؟  
 بل أين الصديق الذى لا تخاف من أن يتزايد عليك ؟  
 وأسفاه لقد انقضت أحلامي وأوهامى . كنت أرى الجمال فى وجوه الناس ، فأصبحت  
 لأراهم إلا وأنا متفرع متخوف كالذى يمس الحية فى غسق الليل . كنت كالطفل يأنس بجميع  
 الوجوه ، ويتسمع لجميع الأصوات ، ويتشوف إلى كل ما فى الوجود ، ثم أمسيت وأشهى  
 مُنأى أن لا يطرق بابى طارق ، وأن لا تقع عيني على مخلوق .  
 كذلك ابتدأت ، وكذلك انتهيت ، وعند الله جزاؤى .

\* \* \*

آه ، ثم آه !  
 ما هذه الخطوط التى أسودّ بها وجه القرطاس ؟  
 هذه الخطوط هى نصيبى من حب ليلي ومن عبث ظمياء .  
 وتلك نهاية من يحسب أن نهار الحب لا يعقبه ليل .  
 تلك نهاية العاشق الغافل الذى قضى الأعوام الطوال فى عبادة الجمال .  
 ولكن ما هذا اللؤم الذى ينحدر إليه قلـمى ؟  
 أمن أجل أيام فى معاناة الصدود أكفر بالصدافة وبالحب ؟  
 أحبك يا ليلي ، أحبك يا ليلـى .  
 أحبك يا مسكينة لأنى من المساكين .  
 أحبك يا شقية لأنى من الأشقياء .  
 أحبك يا ليلي وسأنتح لك صنماً من ضلوعى .  
 أحبك يا ليلي وسأنزف دمي قطرة قطرة ثم أنتخذ من حديده خاتماً أقدمه إليك يوم يحين  
 الفراق ، وما أصعب الفراق !  
 أحبك يا ليلي وسأرقم اسمك الجميل على خد القمر وجبين الشمس .  
 أحبك يا ليلي وسأستعذب فى سبيلك محنتى وعذابى .

أحبك يا لئيمة يا غادرة يا ظلوم ، وأصفح من أجلك عن أهل اللؤم والغدر والظلم  
والجحود .

أحبك يا ليلي ، أحبك ، وما أتصدق عليك بالحب . فأنا أهفو إليك بلا وعى ولا  
إحساس . وقد حاولت مليون مرة أن أتوب من هواك فما صحت لي توبة ولا نفعني عظة ،  
ولا عصمني عقل ، ولا هداني وجدان .

أحبك يا روحى ويا ضناى ، أحبك أصدق الحب ، وأبغضك أعنف البغض ، ولو رأيتك  
في هذه اللحظة لرؤيت روحى بدمك الغالى ، ولكن متى أراك ؟ تلك أوهام وأضاليل .  
لقد نجوت من يدى يا شقية ، فعليك غضبة الله ولعنة الحب !

\*\*\*

أتريد ليلي أن أنتحر ؟

هيات ثم هيات ! فأنا طبيب ، ومن الحمق أن أداوى الناس وأنسى نفسى .  
قرأت « شريعة الحب » فقرة فقره ، وهى مسطورة على قبر الحلاج ، وقد فهمت من  
أسرار الحروف أن الحب له دواء . ودواء الحب أن تخلق لنفسك شواغل جديدة تصرف قلبك  
عن إطالة التفكير فيمن تحب .

وكذلك فعلت فأقبلت على شهود موسم الحفلات في بغداد وهو موسم لا يعرف قيمته إلا  
من يراه .

شهدت بعض الحفلات التمثيلية التى أقيمت في المدارس الثانوية ، فعرفت أن التمثيل سيكون  
له مستقبل في بغداد . ورأيت أهل العراق يخشون ما يخشاه أهل مصر من اختلاط الجنسين ،  
ولكن أهل مصر احترسوا بعض الاحتراس ، فهم يألفون للمدارس روايات تمثيلية تخلو من  
المرأة ، ولت أهل العراق يصنعون مثل هذا الصنيع إلى أن يفصل الزمن في قضية اختلاط  
الجنسين ، فقد رأيتم يمثلون في المدارس روايات فيها المرأة . والمرأة في هذه الحال شاب يلبس  
ملابس النساء . وأنا أرجو زملائي من نظار المدارس في العراق أن يفكروا في هذه القضية :  
فظهر الشباب في ملابس النساء لا يقل قبحاً عن ظهور النساء في ملابس الرجال . وما أقول  
إن الرجل أشرف من المرأة من حيث الجنس : فلكل جنس خصائص ، وإنما أريد أن أقر أن  
شرف الرجل في الرجل وشرف المرأة في الأنوثة ، فالمرأة تجرم حين تلبس ثوب الرجل ،  
والرجل يجرم حين يلبس ثوب المرأة . والإشارة في هذا الموضع الدقيق تكفى للبيان .  
وشهدت حفلة توزيع الجوائز بكلية الحقوق . وكانت حفلة رائعة خطب فيها الدكتور

محمود عزمي خطبة جيدة ، ولكنه لم يزاع براعة المقطع ، فقد ختم الخطبة بإعلان الوفاة ، وفاة أحد المتخرجين . وصح للأستاذ محمود درويش أن يقول : « ما هو خوش مقطع هذا » وعند تلاوة القسم أقسم المتخرجون دفعة واحدة بلا خشوع ، وكان الرأي أن يُقسموا واحداً واحداً . وقد تذكرت القسم الذي أقسمته على يد الأستاذ الدكتور طه حسين يوم ظفرت بالدكتوراه الأخيرة من كلية الآداب ، فقد ترددت وتبّيت ، لأنني كنت أخشى أن يربطني القسم وحدي فلتذكر ذلك أحجار كلية الآداب بالجامعة المصرية ، إن كان للأحجار وجدان .

وألقي الطالب حازم المفتي خطبة فصيحة نوّه فيها بالأوضاع العلمية بين مصر والعراق . وهنا أذكر أن العراق شرف مصر حين ائتمنها على كلية الحقوق ، وهو شرف عظيم جداً ، ومن واجب الأساتذة المصريين أن يتذكروا في كل لحظة قيمة هذه الثقة الغالية ، ومن واجبه أن يفهموا أن من الشرف أن يموتوا في سبيل تلاميذهم في العراق . ومن حسن الحظ أن ذلك الطالب نص على أن مصر تفقّحت على يد الشافعي وقد رحل إليها بعد أن تفقّه في العراق .

ولو كان لي مجال بين الخطباء في ذلك اليوم لأضفت إلى هذا أن علماء مصر ظلوا مئات السنين وهم يتفنون : « قال البصريون وقال الكوفيون » وجصير الأزهر يشهد ، وهو في هذا الباب من أصدق الشاهدين . أعتقد أن العراق أدى حق الأخوة حين وثق بمصر ، ولم يبق إلا أن يؤدي المصريون واجبه في حمل الأمانة وحفظ العهد .

وخطب معالي وزير المعارف خطبة وجيزة جداً أعلن فيها ارتياحه إلى تبادل العطف بين الأساتذة والطلاب . وهو معني شريف .

وبعد توزيع الجوائز وتناول الشاي غنى الأستاذ محمود توفيق مع فرقة الإذاعة أغنية طريفة . ثم غنت المطربة زكية جورج أغنية فيها اسم « ليلي » فاشربأت أعناق الحاضرين للبحث عن مكان ، وصاح سعادة الأستاذ تحسين إبراهيم : « أين الدكتور زكي مبارك ؟ » فتقدمت على استحياء والدمع في عيني ، وشكرت المطربة ورجوتها أن تغني :

« على بلد المحبوب وديني »

فلما وصلت إلى عبارة « وعيني تبقى في عينيك » نظرت إلى وحدّقت بعطف وحنان ، وفهم الحاضرون الإشارة فضجّت . أكفهم بالتصفيق ، ورأيت موقفي صار في غاية من

الخرج ، فانسحبت وحرمت نفسى بقية الأطايب التى وعد بها منهج الاحتفال .  
وبعد أسبوع حضرت حفلة توزيع الجوائز بكلية الطب فرأيت الطلاب فى صف والطالبات  
فى صف ، وراعى أن يكون الطالبات جميعاً من البيض ، فإرباه كيف جعلت ليلالى بالعراق  
سمراء...؟! أحبك يا ليلى وأحب شعاع السُمره وهو يتموج فى أسارير وجهك الجميل !  
وأقسم المتخرجون اليمين واحداً واحداً . وليتهم أقسموا دفعة واحدة ، كالذى وقع فى كلية  
الحقوق ، فقد قضيت نحو ألفى ثانية وأنا أسمع « أقسم أن لا أفشى سرَّ المريض » وأدرك الأستاذ  
مهدى كبة حيرتى وذهولى فقال : « تلك عاقبة من يفشى أسرار مرضاه من الملاح » .

فضحتنى يا ليلى ، شفاك الله وعفا عني !

ولما خرجت من الحفلة مضيت إلى محطة الإذاعة ، مضيت أستجدى الصوت المأثور :  
يقولون ليلى فى العراق مريضه فإيتنى كنت الطبيب المداويا  
ولكن الأستاذ الصفوانى اعتذر عن إذاعة ذلك الصوت لأنه لا يريد أن يحول أهل العراق  
إلى مجانين . ولو تأمل لعرف أن العقل ضرب من الجنون ، وأن الجنون فنٌّ من العقل  
الخصيف .

وخرجت مع الأستاذ إبراهيم حلمى راجياً أن يكون فى سمره الطريف ما يخفف حزنى ، فما  
خف حزنى ولا ترحزح ، ورجعت إلى البيت وأنا مكروب .  
وقمت قبيل الفجر مرتاعاً لطرق الباب ، فتدثرت وخرجت فإذا الجار العزيز يسأل عن  
حالى وفى ذراعه زوجته المصرية النبيلة التى رعت غربتى أكرم رعاية . فقلت : خير ! ما عندك  
يا سيد داود ؟ فأجاب : لقد استيقظت السيدة وهى مرعوبة ، لأنها سمعتك تصرخ : آه ،  
آه ! يا ليلى يا ليل ! وقد حبسناك مريضاً فحضرنا للاطمئنان عليك .

فقلت : أنا بخير كما ترون ، وصوبت بصرى إلى الزوج وقلت : الرفق لا يُستغرب من  
عراقى مثلك . ونظرت إلى الزوجة وقلت : الأزهار المصرية رقيقة الأوراق .  
أنا كنت أقول : آه ، آه ؟ هذا صحيح ، ولكنى ما كنت أقول : « يا ليلى يا ليل » ؛ وإنما  
كنت أقول : « يا ليلى ، يا ليلى » .

فضحتنى يا ليلى عند جيرانى ، وقد شفاك الله ، فمتى يمين على بالشفاء ؟

وفى ظهر ذلك اليوم العنيف مضيت لشهود حفلة الطيران ، وهى حفلة سنوية يستبق إليها  
أهل بغداد من رجال ونساء ، أقيمت الحفلة فى المطار المدنى ، ودامت ثلاث ساعات شهدت  
فيها الأعاجيب وعرفت أن فتيان العراق يعرفون معنى السيطرة على الهواء ، وكان فى المنهج  
( ليلى المريضة فى العراق )

صورة طريفة من التقاط الرسائل ، فألقيت بنفسى فى ساحة المطار وقدمت رسالة إلى الله عز شأنه أدعوه أن يريح الكرب عن أهل فلسطين ، فإن شكاياتهم من الظلم كدرت جميع الناس ، وأذت المنصفين من أحرار اليهود . وأشهد صادقاً أنى رأيت ناساً من بنى إسرائيل يتوجهون لمصير العرب فى فلسطين . وفلسطين الشهيدة لا تدافع اليهود من العزب ، وإنما تدافع اليهود الأجانب الذين يدخلون عليها بلا تسليم ولا استعذان فيغرسون الحقد على سائر اليهود فى الأقطار العربية . وشهدت الطيران القاصف ، طيران الهجوم ، فتمنيت لو ساد السلام وتحول الطيران فى جميع بقاع الأرض إلى وسائل اقتصادية .

وشهدت تشكيلات الأسراب فرأيت كيف تقام الخطوط الهندسية فى أجواز الفضاء ، وفى الناس من يعجز عن إقامة الحدود الهندسية فوق القرطاس !

ورأيت الطيران الأهوج فتمنيت لو سموه طيران القلوب : فليس لأحوال القلوب ميزان ! كانت حفلة الطيران ممتعة من كل جانب . وقد خبلت عقلى فلم أتنبه إلى أن مكاني كان قريباً جداً من مكان جلالة الملك . ولو كنت تنبعت لتشرفت بمصافحته وهنأته بما وصلت إليه القوة الجوية فى العراق .

وبعد أيام شهدت حفلة الكشافة ، وهى تجلُّ عن الوصف ، وهى الشاهد على أن شبان العراق نقلوا إلى بلادهم أقوى مظاهر التمدن الحديث .

وبفضل هذه الحفلة عرفت كيف أنشئ فى دار المعلمين العالية فرعٌ للألعاب الرياضية . كان فى الحفلة كشافون وكشافات ، وكان من تقاليد الكشافين أن يحسُّوا المقصورة الملكية ، فيرة عليهم جلالة الملك بتحية أرقِّ وألطف ، أما الكشافات فكنَّ يمررن على المقصورة الملكية بلا تسليم .

آه ثم آه من دلال الملاح !

\*\*\*

داويت قلبى بهذه الشواغل التى أتاحها موسم الحفلات فى بغداد ، وحسبت أنى نجوت من عقابيل الصبابة العاتية .

ولكن هيات .

ثم لطف الله فحضرت ظمياء .

— إيش لونك يا دكتور ؟

— بخير وعافية يا ظمياء ، لولا الذى تعلمين . وإيش لون ليلى ؟



— ١٦٣ —

- فى عافىة الفرس الجموح .  
— ومتى أراها يا ظمياء ؟  
— لن تراها إلا إذا استغفرت من ذنوبك ؟  
— وهل للأطفال ذنوب ، يا ظمياء ؟  
— اسمع يا دكتور ، إن الدسائس حولك كثيرة جداً ، وليلى توجه إليك تهمة تهمة الجبال .  
— أنا متهم يا ظمياء ؟ متهم فى بغداد ؟ وعند ليلالى ؟ آمنت بالله ، وكفرت بالحب !  
— تشجع واحتمل الصدمات ، فقد عشت دهرك من الشجعان ومن الصابرين .  
— وكيف تهمنى ليلى يا ظمياء ؟  
— هى تهمنى ، ولك أن تدافع عن نفسك إن استطعت !  
— أفصحى يا ظمياء ، فقد طار صواى .  
— اسمع يا دكتور ، إن ليلى توجه إليك التهم الآتية ، وكلها مزعجٌ خفيف .  
أما التهمة الأولى فهى :

( تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى )



زكى مبارك

# ليلة المريضة في العراق

الجزء الثاني

« تاريخ يفصل وقائع ليلي بين القاهرة  
وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨  
ويشرح جوانب من أسرار المجتمع وسرائر  
القلوب » ..

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م

« ... فتتسنى رسائل ليلي المريضة      « لقد ابتكر زكى مبارك فناً  
جديداً حين نقل الغزل والتشبيب  
من الشعر إلى النثر »

على الجارم بك

محمد العشماوى بك

« لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ما شرب لتحوّل إلى أوتار  
وقلوب . فكيف أصمت والدنيا كلها تتأرجح من حولي بأنفاس الأزهار  
والرياحين ، ولى قلب يتشوّف إلى أفنان الجمال تشوّف الشمس إلى أنداء  
الصباح » .

زكى مبارك



## ٢٠

تأهبت « ظمياء » للكلام فاستوقفتها لحظتين لأنظر الأشرطة السينمائية التي يعرضها الشقاء أمام خيالي ، فهالني أن أشهد ألوف المناظر وفيها المفرح والمحزن والأخضر والأسود ، وضجّت في أذني تلك الكلمة الباغية التي قالها أحد الزملاء المصريين وقد ترامت الأخبار بما بيني وبين ليلى من خلاف ، قال ذلك الزميل وهو يلتهم جساء البقلة الحمقاء :

« كان رأيي من أول يوم أن الحكومة المصرية أخطأت في اختيار زكي مبارك لمداواة ليلى المريضة في العراق وهي تعلم أنه عجز عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك » .

أنا عجزت عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك ؟

أنا ما عجزت ، وإنما رأيتها لثيمة لا تحفظ الجميل فضئت عليها بالطب والدواء .

وأخذت أدرس ما صرت إليه في هوى ليلى ، فحب هذه المرأة هو أخطر ما عرفت في حياتي من ظلام وضلال .

وإنما كان كذلك لأنه ابتداء بالعطف : عطف الصحيح على العليل ، والعطف يؤصل جذور الحب ويبني القلب للهيام العصفوف .

كانت ليلى تصحّ على يدي من يوم إلى يوم ، وكان حالي معها حال الجنان الذي يتعهد إحدى الشجرات بالسقى والرعاية فتتبع عواطفه بنموها من حيث لا يعرف ، ثم تصبح الشجرة وهي معبودته من دون البستان .

ورأت ليلى شغفي فلم تفتن إليه ، ولعلها كانت تراه لوناً من ترفق الأطباء ، فمضت تناضلني نضال الصحيح للصحيح ، ولم تدر ما نقل المشراط إلى دمي ، وآه ثم آه مما ينقل المشراط ، فالناس لا يفهمون كيف يعيش العليل وجسمه موبوء بالجراثيم على حين تكون جرثومة واحدة ينقلها المشراط إلى جسم الطبيب وهو صحيح كافية لقتل الطبيب .

الناس لا يفهمون هذه الظاهرة وهي عندهم من الغرائب .

ولكن تعليلها سهل ، وهي أول درس تلقيته بكلية الطب في باريس .

السبب يرجع إلى شعور الطبيب بخطر الجراثيم ، فهو حين يشعر بانتقال العدوى إليه يفعل جسمه كله دفعة واحدة فيصرعه المرض .

وهذا يشبه تمام الشبه ما يقع في عالم الأخلاق ، فالرجل صاحب الوجدان السليم تؤذيه الهفوة الصغيرة فيقضى سائر عمره في استغفار ، وقد يقتله تأنيب الضمير ، ولا كذلك المريض بالجسم والوجدان ، فالأول يعاني العلل المهلكات ثم لا يموت قبل أوان الموت ، والثاني يُجرم نحو نفسه ونحو الإنسانية ثم يعيش وهو مستور الحال ، لأنه يجهل خطر ما يصنع .  
ومن أجل هذه المعاني عشت شقياً في حياتي ، فأنا تلميذ قديم من تلاميذ الغزالي ، وكل شيء يجوز عندي إلا إيذاء الناس ، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن أهجم على خصومي بعنف ، ولكنه عنف مصطنع لأنني أحشو المسدس بغير البارود ، فيثور من حولهم الدخان ، ثم يسلمون لأن القذيفة لم يكن فيها رصاص .

ويصنع خصومي غير ما أصنع ، لأنني غيبي وهم أذكيا !  
هم يحشون المسدسات بالرصاص ثم يقذفون ، وكما يبقى الرمي على النبال ؟  
أولئك أعدائي ، والعداوة الأثيمة تستبيح كل قبيح .  
ولكن ما ذنبي عند ليل حتى تفضحني بين قومي وتضيّع مستقبلتي في مداواة الملاح ؟  
ما ذنبي عند ليل التي هجرت في سبيلها وطني وأهلي ؟  
ما ذنبي عند ليلتي ؟ ما ذنبي عند عيونها السود وخدها الأسيل ؟  
ما ذنبي عند ثناياها العذاب وصوتها الرخيم ؟  
أحبك يا ليلي وأستعذب في هواك كل عذاب .

\*\*\*

— ظمياء ، ظمياء .  
— عيوني ، عيوني .  
— هاتي التهم الثقالة التي تفضلت بها ليلاتي ، انقلبيها بترفق فما أحب أن أموت في بغداد ، فمقابرها مهجورة منسية ، كأنها مقابر المحبين ، وليس فيها مسجد أستروح بأن تصلي عليّ فيه يوم أموت ، فمساجدها تغرف الجمال في القباب ، وتجهل الجمال في المحاريب .  
— أعزني أذنك ، يا دكتور .  
— أعزتك قلبي ، يا ظمياء .  
— أنت متهم عند ليلي بالشيوعية .  
— بالشيوعية ؟ وكيف سكنت عني إذا حكومة العراق ، وبصرها أحد من بصر ليلي ولها عيون تنقل إليها كل شيء ؟

— حكومة العراق تحارب الشيوعية الاقتصادية ، وأنت متهم بالشيوعية الوجدانية ، وليلي تعاقب على ذلك .

— وأين شواهد هذا الاتهام الفظيع ؟

— ما ظلمتك ليلي ؛ وإنما ظلمت نفسك ، فأنت الذى تقول :

أصباك ما خلف الستار وإنما      تحلف الستائر لؤلؤ مكنون  
والناس فى غفلاتهم لم يعلموا      أنى بكل حسانهم مفتون

— ما قلت هذا الشعر يا ظمياء .

— هو فى ديوانك المطبوع .

— هذا شعر دسه السفهاء .

— وكيف سمحت بنشره فى ديوانك ؟

— ما أذكر كيف سمحت ، فقد كنت عضواً فى جمعية أبوللون وأرادت تلك الجمعية أن

تصحح انتسابى إلى الشعراء فلفقت باسمى طائفة من الأشعار وأخرجتها فى ديوان .

— ولكن ليلي تقول إن فى نثرى ما يؤيد هذا المعنى .

— وكيف ؟

— فى بعض ما نشرت فى جريدة البلاغ مقال تقول فيه إن الأطلال تملأ روحك بالمعاني لأنها

تعيد إلى خيالك تاريخها القديم يوم كانت ملاعب تمرح فيها الطباء .

— هذا أيضاً مدسوس .

— وكيف ؟

— كان لى بجريدة البلاغ زميل يعطف على أدبى ، هو الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ،

وكان يؤذيه أن تخلو مقالاتى من المعاني الوجدانية ، فكان يضع اسمى على بعض ما بيدع من صور الوجدان .

— أنت تسمى الدفاع عن نفسك ، يا دكتور .

— دلينى كيف أدافع عن نفسى ، يا ظمياء ؟

— أما تعرف كيف تدافع عن نفسك ! أنا ألقنك الدفاع عن نفسك : قل إنك تعشق جميع

الصور وتهيم بجميع المعاني .

هاتى يدك أقبلها يا ظمياء .

— أعجبك كلامى ؟

— ١٧٠ —

— ما هذا كلاماً ، إن هذا إلا سحرٌ مبين ، فأنا حقاً أعشق جميع الصور وأهيم بجميع المعاني ؛ وظواهر الوجود هي عندي صور شعرية تموج بألوان السحر والفتون . الدنيا يا ظمياء لوحة فنية صاغها بديع الأرض والسموات ، فما فيها من حسنٍ فهو صنُّعُ فنان ، وما فيها من قبح فهو صنُّعُ فنان ، فأنا أدرس المحاسن والمساوئ بذوق واحد . وقد أثفلسف يا ظمياء فأزعم أن خلُقَ الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم . وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم فقد سواهم بعناية ، ثم تلطف فأباحهم التقلب في بقاع الأرض ، وجعل لهم في دولة القبح سلطاناً . فإن لم يشكر هؤلاء القباح خالقهم فسأشكره بالنيابة عنهم ، وسأصدق عليهم بالعطف والحنان .

— دكتور ، أنا أحبك !

— وأنا أبغضك ، يا ظمياء !

— أقول لليلي إنك أحسنت الدفاع عن اتهامك بالشيوعية في الحب ؟

— ما تهمنى ليلي وإنما يهمنى أن أحاسب خالق ليلي .

— احترس يا دكتور ، فهذا كفران .

— سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني ، فما قضيت شباني في دراسة الأدب والفلسفة إلا

لأعرف كيف أناقشه الحساب ، وسوف تنظرون .

— كفرت ، يا دكتور ، كفرت .

— الكفر الحق هو أجمل صورة للإيمان الحق .

— وكيف ؟

— ما تعرفين كيف وأنت وصيفة ليلي وخدينة الدكتور مبارك ؟

— لست خدينتك .

— العفو ! العفو ! يا ظمياء .

— تشتمني ، يا دكتور ؟

— إنما أداعبك ، يا ظمياء ، فاغفرى ذنبي .

— يغفر الله لك .

— ويغفر الحب ؟

— أسأل ليلاك .

— غضبة الله ولعنة الحب على ليلاي !

\*\*\*



- ظمياء !
- عيوني !
- تلك التهمة الأولى ، فأين التهمة الثانية ؟
- ليلي تهتمك بما اتهمت به الضابط عبد الحسيب .
- وكيف اتهمت ذلك المسكين الذى سارت أخبار شقائه مسير الأمثال ؟
- اتهمته بخيانة العروبة .
- وهى تتهمنى بخيانة العروبة وقد أذويت شبائى فى خدمة لغة القرآن ؟؟
- إن ليلي قرأت خطبتك فى نادى المثنى عن العروبة المصرية وقد نشرتها جريدة البلاد .
- وما الذى عابته ليلي على تلك الخطبة ؟
- العيب فى ذلك أنكم فى مصر لا تفرقون بين العروبة وبين الإسلام .
- هذا صحيح ، يا ظمياء .
- وهذه جريمة عربية ، يا دكتور .
- اسمعى ، يا ظمياء ، ثم بلغى ليلي ما أقول : العروبة يا طفلى الغالية فى حاجة إلى أسناد قوية من الصداقة والعطف ، وأسناد العروبة لن تكون فى الممالك الأوروبية ، وإنما ننشدها فى الممالك الإسلامية ؛ والسياسى الحكيم هو الذى يتعب فى خلق الأصدقاء ، والإمبراطورية البريطانية لم تغننا جيوش البر والبحر والهواء عن التفكير فى خلق الأصدقاء . والإسلام قوة يتودد إليها هتلر وموسوليني ، وتشقى روما ولندن وباريس وبرلين فى التعرف إلى مدارج هواه ، وليس فى بلاد الله قوة سياسية إلا وهى تحسب ألف حساب لغضب المصحف ، فما ذنبى عند ليلي إذا أعلنت إسلامى ؟ ما ذنبى عند ليلي وأنا أخلق لقومى وقومها جيوشاً من العواطف والقلوب ؟
- ولكن الإسلام غير العروبة .
- تلك يا ظمياء دسياسة استعمارية ، وهى دسياسة حيكت شباكها لتقويض الإمبراطورية العثمانية ، وقد تقوضت : لأن الأتراك عجزت حيلتهم عن قرض خيوط تلك الدسياسة ، فهم اليوم أمة من الأمم ، وكانوا بفضل الإسلام سادة المشرقين .
- احترس يا دكتور فهذه سياسة ، والسياسة محرمة على الموظف .
- أعترف بأنى موظف فى حكومة العراق ، ولكن لا خوف ، فأنا أتهيب الشر فى كل أرض ، إلا فى العراق ؛ وأعتقد أن حكومة العراق لا تصدر حرية الرأى إلا إذا صدرت عن

المنافقين ، وقد حماني الله من النفاق . وقد عجب ناس من أن تسكت عنى حكومة العراق على كثرة ما قلّبت من وجوه الآراء في الصحف والمجلات . فليفهم الدساسون أن حكومة العراق فوق ما يظنون ، والله من وراء الدساسين محيط ، وسوف يعلمون .  
— إن العراق يثق بك ، ويعطف عليك ، يا دكتور .

— وفي حماية تلك الثقة وذلك العطف أقول : إن أوروبا اللئيمة خلقت فكرة العروبة لتقسم أهل الشرق إلى عرب ومسلمين ، وقد أحسستُ هذا المعنى حين بدأت أتعلم اللغة الفارسية في باريس سنة ١٩٢٧ فقد رأيت معجما فارسياً فرنسياً نُشر منذ أكثر من أربعين سنة وفي مقدمته تحريض صريح على قطع الصلات بين العرب والفرس ؛ وأعتقد أن مقدمة ذلك المعجم هي السبب في ثورة الأتراك والإيرانيين على الحروف العربية .  
— أخطأ الأتراك وسيخطئ الإيرانيون .

— وماذا صنعنا لدفع هذا الخطأ يا ظمياء ؟ لقد تجشمت مشيخة الأزهر ما تجشمت وأنفقت ما أنفقت ، لترسل بعثة من العلماء إلى الهند ، فهل فكرت هذه المشيخة في إرسال بعثة إلى تركيا أو إيران ؟ هل فكرت مشيخة الأزهر في إرسال رجل أو رجلين لتذكير الفرس بماضيهم في خدمة اللغة العربية ؟ هل فكرت في إرسال وفد إلى الغازي مصطفى كمال يذكره بأن الحقد على العرب الذين خذلوا تركيا في الحرب لا يصح أن ينسيه فضل العرب الأبرار الذين نقلوا إلى تركيا بذور الإيمان بالله والرسول ؟

هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك : هَبُوا سيئات الحاضر لحسنات الماضي ؟  
هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران : إن العرب إخوانكم في الله فلا تجرّحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية ؟

لقد قمت بهذا الواجب وحدي فأقنعت وزير إيران في العراق ، وفكرت في الهجرة إلى إيران لأصلح ذات البين بين العرب والفرس . ولكن كيف وأنا رجل يرهقه جدول الدروس وتنهب عافيته دفاتر التلاميذ ؟

لقد زار بغداد منذ أشهر صحفي إيراني ، ودعاني الأستاذ إبراهيم حلمي للتسليم عليه ، فلم أستطع مخاطبته بغير الفرنسية ، مع أنه نشأ في وطن كان أهله لا يعرفون غير العربية ، ولذلك الصحفي جريدة تصدر بلغتين هما الفارسية والفرنسية ، ولو كنا حفظنا العهد لكنت اللغة الثانية عربية لا فرنسية .

— يظهر أنك مؤمن ، يا دكتور .

— ١٧٣ —

- أنا ملحد ، يا ظمياء ، فما يسرنى أبداً أن أحشُر نفسي في زمرة المسلمين الغافلين الذين يفكرون في إصلاح الوثنية الهندية ويغفلون عن هداية النافرين على الإسلام في بلاد كانت من الدرر اللوامع في تاج الإسلام .
- أنت مؤمن ، يا دكتور .
- أنا كافر ، يا ظمياء .
- أعوذ بالله !
- وأنا أعوذ بالشیطان !
- تعوذ بالشیطان ؟ يظهر أنك ملحد حقاً وصدقاً .
- اسمعى ، يا ظمياء ، الشیطان مخلوق شریف لأنه لا ینافق ، فهو یعلن فی كل وقت أنه من الضالین المضلین ، ولو كشف كل إنسان عن سریره كما كشف الشیطان عن سریره لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشیاطین .
- أنت إذا تعبد الشیطان ؟
- أنا أعبد الله ، وأحب الشیطان .
- قف عند هذا الحد ، يا دكتور .

\*\*\*

- ظمياء !
- عیونى !
- أتریننى أحسنت الدفاع عن نفسى ؟
- بعض الإحسان !
- وأنا مكثف بذلك ، فما هى التهمة الثالثة .
- لیلی تتهمك بالخدا ع .
- وكيف ؟
- لا تدرى كيف ، وأنت أعظم مخادع ؟
- آمنت بالله ، وكفرت بالحب ؛ أفصحى يا بلهاء !
- اسمى ظمياء .
- أفصحى يا ظمياء .
- رأئتک لیلی تقول فی کتاب ( الموازنة بين الشعراء ) إن الدمع فی عين العاشق كالسم فی

ناب الشعبان ؛ ثم شرحت رأيك فقلت إن العاشق يخدّر محبوبته بالدمع كما يخدّر الشعبان فريسته بالسم . وتقول ليلى إن هذا هو السبب في أن لا تخلو قصيدة من قصائدك أو رسالة من رسائلك أو كلمة من كلماتك من ذكر الدموع . ولك كتاب اسمه « مدامع العشاق » وأنت في كل يوم تقول : « أكتب والدمع في عيني » أو تقول : « ودّعتُ أحبابي بقلب خافق ، ودمع دافق » أو تقول : « غسّلوني بدموعي يوم أموت » أو تقول : « إن مُلّوحة الدمع أشهى مذاقاً من الشهد » ولك من أمثال هذه التعابير عشرات أو مئات أو ألوف ، فأنت بشهادتك على نفسك بخادع عظيم .

— ظمياء ، هذا دمعى ، فكيف تُرين ؟

— هو السم في ناب الشعبان ، وسنخلع أنيابك فلا تقول إنك ثقت لؤلؤة في بغداد .  
— أنت جاهلة ، يا ظمياء ، وليلى أجهل ، فما تعرف ولا تعرفين أن عرض بغداد هو عرضي ، وأن عرائس بغداد هنّ أخواتي وبناتي . لا تعرف ليلى ولا تعرفين أن كل مكان في بغداد هو عندي محراب ، وحيثما توجهتُ فثمّ وجه التاريخ ، وأهل العراق هم في أنفسنا حُمة الأدب في العصر القديم وأنصار الأدب في العصر الحديث .

والمصري في العراق يرى وجه مصر في كل مكان : يراه في المدارس والمعاهد والمكاتب والملاهي والملاعب والأغاني والأناشيد ، وجرائد مصر ومجلات مصر تُقرأ في بلادكم وكأنها عراقية لا مصرية ، فتثقي يا ظمياء بوفائي وثقي بأدبي ، فسا حفظ ما طوقتم به عنقي من جميل . وقد نظرتُ فرأيت صحبة العراق كانت خيراً لكل من تشرف بها من أهل مصر ؛ وما عاش مصريّ سنة واحدة في العراق إلا أصبح وفي دمه ذخيرة من النار والحديد ، وما رآكم مصريّ واستطاع أن يذكركم بسوء في سر أو علانية .

فماذا تريد ليلى أن تصنع معي يا ظمياء ؟

ماذا تريد ليلى ؟ ماذا تريد ؟

إذا كان دمعى شاهداً على خداعي ، فأين أجد الشاهد على وفائي ؟

إن النّسّاك يتقربون إلى أربابهم بالمدامع ، فكيف لا يتقرب العشاق إلى أحبابهم بالمدامع ؟

أوّاه من مصريّ في هوى ليلى !

سأرجع إلى وطني وأهلى مصدوع القلب ، مفطور الفؤاد وستعيش ليلى بعافية ، وستنسى طيبها الوفيّ الأمين .

وكذلك كان حالى في كل أرض . كنت أغرس العافية في الأرواح والقلوب ، وما عرفنى

إنسان إلا تحوّل من غيّى إلى رشد ، أو من هدى إلى ضلال . كنت أذيع الشُّرك في قلوب  
الموحّدين ، وأذيع التوحيد في صدور المشركين ، كنت ملكًا ، وكنت شيطانًا ، ثم أصبحت  
وأنا مجرد من سماحة الملائكة ، وسفاهة الشياطين .  
أدبتنى ليلي ، وبلائي في ذلك التأديب . أحبك يا ليلي وأهواك .

— وتجنّبي أيضًا ، يا دكتور ؟

— وأحبك أيضًا ، يا ظمياء ، وأحب كل مخلوق في العراق حتى القميط والزوابع  
والأعاصير ، أحب البلد الطيب الذي أرهف قلبي ، وصقل وجداني ، واستطعت بفضل الله  
وبفضله أن أقنع أهلي في مصر بأن لي قلبًا يعرف معاني الشوق والوفاء .

— دكتور !

— ظمياء !

— لقد أحسنت الدفاع عن نفسك في هذه التهم الثلاث ؛ ولكن هناك تهمة رابعة لن  
تستطيع لها دفعًا ، لأنها في خلقتك ، والخلقة لا تغيير لها ولا تبديل .

— فهمتُ ، فهمت . إن الجرائد المصرية تصورني دميم الوجه ولا ينبغي يا ظمياء تصديق  
كل ما تنشر الجرائد .

— لا ، لا ، إن ليلي تراك أجمل مخلوق ، ولكنها تقول إنك أخضر العينين ، وهنا وجه  
الخطر ، فالعيون الخضراء تحتاج الشعابين ، وما رأى شعبان إنسانًا أخضر العينين إلا اغتاظ واحتاج  
واستعد للقتال .

— ومن أجل هذا تنور على هذه الحية الرقطاء ؟؟ اسمعي أيتها الطفلة . اسمعي . إني ورثتُ  
خضرة العينين عن أمي ، سقى قبرها الغيث ، وأمى ورثت خضرة العينين عن جدتي ، وكانت  
تركية الأصل ، فعمن ورثت ليلي سواد عينيها ؟

اسمعي يا ظمياء ، لقد أطلت التودد إلى أهل العراق ، وسأصارهم اليوم بحقيقة لم يتنبه إليها  
أحد سواي . ليس في العراق كله طَرَفٌ كحيلٌ إلا وهو مسروقٌ من عيون الأطباء وجير تكم  
للصحراء هي التي أمكنتكم من هذا الانتهاب القضيع ، ولكن هذه السرقة لن تطول ، فسيأتي  
يوم قريب أو بعيد يشتد فيه ساعد « عصابة الأمم » المقيمة في جنيف ثم تحول بينكم وبين انتهاب  
السواد من عيون الأطباء .

اخرجي يا ظمياء ، ولا ترجعي إلّى بعد اليوم ، فهذا آخر العهد .

خرجت ظمياء محزونة وهى تعتقد أن ليلي جانية وأن العراق كله قد وقع فى سرقة دولية حين انتهب السواد من عيون الظباء .

وبقيت أنا فى كروى وأشجاني ، فأنا فى سريرة نفسى أعتقد أن الظباء هى التى سرقت سواد العيون من أهل العراق ، وقد عاش العراق كريماً فى جميع عهود التاريخ ، فمن حين غوانيه عرف الحمام كيف يسجع ، ومن صيال أبطاله عرف الدهر كيف يصول .  
ولكن كيف أصبح خطأى فأسترد ليلي وأسترجع ظمياء ؟  
كيف ؟ كيف ؟

إن ليلي لن ترجع بسهولة لأنها عراقية ، والعراق مفطور على العناد .  
أحبك يا ليلي ، أحبك يا روحى ، وأشتى أن أحاصرك مرة ثانية تحت ضوء القمر وفى سكون الليل . أحب أن أسامرك مرة ثانية تحت النجوم فى مطلع حُزيران قبل أن أرجع إلى مصر وطن الجفاء والعقوق .

أحبك يا ليلي وأحب ذلك الطبع المتقلب الذى لا يستقر على حال .  
أحب أن أنشدك مرة ثانية قول الشاعر أحمد رامى :  
يا من أخذت فؤادى      أخذ العدو الحبيب  
قلبي لديك فقولى      ما حاله فى القلوب  
أحب أن أصرخ مرة ثانية ، أحب أن أصرخ صرخة الوجد فى رحاب الكاظمية .  
أحب أن أفتق بصراخى قلبك الأغلف وأذنك الصماء .  
أحب وأحب ، ولكن أين السبيل إلى قلبك الظلوم !

\*\*\*

طال شقائى بهجر ليلي ، فماذا أصنع ؟  
إن بغداد تحقد على ويسرها أن يطول فى حب ليلي عذابى .  
فأين شفعاى إلى ليلاي ؟ أين لا أين ؟!  
الحمد لله والحب ! هذا خاطر لطيف قد ينفع بعض النفع ، إن ليلي لها فى الموصل بنات خالات ، وبنات الخالات يقدرن على ما يعجز عنه أبناء الأعمام والأخوال ؛ فلأمض إلى الموصل لأشكو إلى طبيباته جروحي وآلامى .  
إلى الموصل ، إلى الموصل .  
إلى الموصل الجميل أمتطى قطار الصباح بين اليأس والرجاء .

طال بلائى بغضب ليلاي ؛ وتهدم ما كنا رفعنا من صروح الأمانى ، وأمسى الحزن يصهر  
قلبي كلما تمثلت أطياف تلك الصروح .

وطال حنيني إلى كلمة كانت تقولها ليل في لحظات الصفاء ، وهى كلمة « تعال » فكنت  
أهوى إلى صدرها كما بهوى الطفل إلى صدر أمه الرعوم ، وما كان أدبى يسمح بأن أقترح شيئاً  
على ليلاي ؛ وإنما كنت أنتظر عطفها في صمت كما ينتظر العشب جود السحاب .  
وكنت خدعتها فزعمت أن تقاليد الأدب في فرنسا تقضى بأن يقبل الرجل يد المرأة ؛ وقد  
انخدعت فكنت أقبل يديها في كل لقاء ولكنى مع ذلك حفظت وقارى فلم أكن أقبل يديها في  
السهرة الطويلة أكثر من سبعين مرة .

وقد حملنى الطيش في إحدى الليالى على أن أقترح تقبيل خديها فرفضت .  
وعند ذلك أنشدت :

يا غزلاً لى إليه	شافع من مقلتيه
والذى أجلت خدي	ه فقبلت يديه
أنا ضيف وجزاء الضيف	ف إحسان إليه

فقلت بعد تمنع : أقبلك أنا .

فقلت : وما الفرق يا روحى ؟

فقلت : القبله منك حب ، والقبله منى عطف .

فقلت : أقبلك قبله عطف .

فقلت : اجب عمن يصدق دعواك يا فاجر !

ورضيت بالقليل فقبلت ليل قبله كادت تشوى جبنى .

تلك قبله العطف ؛ فكيف تكون قبله الحب ؟

أشهد أن الله قدر ولطف !

ذلك نعيم ضاع ، وما أدري كيف ضاع ؛ فما كانت هفوتى خليقة بأن تصيرنى إلى ما

صرت إليه من الحرمان ؛ ولكن متى طاب زمانى حتى تطيب ليلاي ؟

( ليلى المريضة في العراق )

آه من كيد الزمان ! وآه من غدر الملاح !

\*\*\*

شاع في بغداد أني ذاهب إلى الموصل لأستشفع بالخور العين من قريبات ليلى : فللشقية هناك بنات خالات ، وسمع بذلك أخٌ صادق فقال : خير لك أن تسافر إلى النجف ، فهو أقرب من الموصل ؛ وملاح النجف أرقُّ وأظرف ؛ وهن يعطفن على بلواك ؛ وهذا اليوم أصلح الأيام . وسألت عن السبب ، فعرفت أن أهل النجف يحتفلون بميلاد الرسول في السابع عشر من ربيع الأول ؛ وفي المولد النبوي تزدهم ساحات الحرم الحيدري بالعرائس فأختار من الشفيعات ما أشاء ....

وما هي إلا لحظات حتى عبرت الجسر إلى الكرخ ، الكرخ الذي كان فيه قمر ابن زريق ، والذي سامرث في رحابه قمرًا غادرًا لا يحفظ العهد ، وستفيض مدامعه بالدم يوم يتلفت فلا يراني ، وهل كنت إلا طيفًا زار في السّحر بساتين الكرخ وبغداد ؟ ومن الكرخ ركبت سيارة إلى كربلاء .

وفي الطريق مررت على الإسكندرية وكنت مررت عليها في طريقى إلى الحلة منذ أشهر ، ورجّحت أنها البلدة التي ينسب إليها أبو الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان ؛ ولكني في هذه المرة حاولت أن أعرف مكانها من الماء لأن عيسى بن هشام جعلها من الثغور الأموية ، فاهتديت إلى أصلها بعض الاهتداء ، وقد أصل إلى جوهر الحقيقة بعد حين<sup>(١)</sup> .

لم أقض في كربلاء غير لحظات ، وهي مدينة تحيط بها الخضرة من جميع النواحي ، وفيها قُتل الحسين كما هو معروف ، وللحسين فيها ضريح لم أزره ولكني شهدت قبته العالية ، وهي مكسوة بالذهب الوهاج ، وفي كربلاء ضريح آخر للعباس أخى الحسين ، وهذان الضريحان يُفيضان النور على كربلاء ، وقُتل الحسين كان نعمة على هذه المدينة : فقد أصبحت بفضل مرقدته من مواسم القلوب .

ومن كربلاء أخذت سيارة إلى النجف فأسلمتني إلى صحراء رأيت فيها الضب أول مرة ، فتذكرت ما صنع الشعوبية حين وصموا العرب بأكل الضباب واليرابيع والشعوبية كانوا جماعة من الأدباء لا يعرفون العواقب ، وقد زعزعوا ما كان بين العرب والفرس من متين الصلات ،

(١) صح عندى بعد التأمل أن المراد بالثغور الأموية النص على أنها سنية لا شيعية ، وقد اهتديت إلى هذا المعنى بعد التعمق في درس أحوال العراق .



وسيلقون جزاءهم يوم يقوم الحساب .

وأخذت تلك الصحراء تصنع بخيالي ما صنعت البادية بين دمشق وبغداد فكان فيها ألوان من خداع السراب . وبعد ساعة رأيت في الأفق ذهباً يتوهج ، فحدقت فيه النظر لحظات ولحظات فرأيتة يزداد إشراقاً إلى إشراق ، فصيح عدى أنه ذهب القبة العالية ، قبة ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعطر مثواه .

تم عبرت إلى النجف وادى السلام وهو مقابر طوال عراض عرفت ملايين الناس من سائر الأجناس .

وأهل النجف يعتقدون أن من يُدفن في وادى السلام لا يُسأل في البرزخ ، وهو اعتقاد لطيف ، فمن عزاء الإنسانية أن تعتقد أن لها معتصماً من الحساب ولو إلى حين .

وفي وادى السلام يقول الأستاذ على الشرق :

ثلاثون جيلاً قد ثوث في قرارة	تراحم في عُرب وُفرس وأكراد
ففي الخمسة الأشبار دكّت مدائن	وقد طويث في حُفرة ألف بغداد
عبرت على الوادى وسفت عجاجة	فكم من بلاد في القبار وكم ناد !
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربه	لأرفع تكريماً على الرأس أجدادى

وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام ، أى الموت :

وبحثت عن فندق فكان فندق السلام فتشأمت ، ثم أسلمت نفسى إليه ، لعلمى بأنى صائر

لا محالة إلى السلام ، أى إلى الموت !

ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهاً بأخيه فندق السلام في حى سيدنا الحسين بالقاهرة :

رأيت الناس ينامون زرافات في حُجرة واحدة ، فأخذت أمتعتى وانصرفت ، وذهبت إلى فندق ثان فرأيتة أعجب من الأول ، فمضيت إلى ثالث فرأيتة أغرب من أخويه ، وانتهى إلى المطاف إلى غرفة حقيرة في فندق حقير ، هو أعظم الفنادق بالنجف .

ولعل تلك الفنادق كانت كذلك لقربها من وادى السلام ، فهى تروض المرء على قبول الدفن مع من يعرف ومن لا يعرف ، وتقرب إلى ذهنه صورة المساواة في دنيا الأموات .

\*\*\*

كان غبار السفر الذى دام أكثر من أربع ساعات آذاني ، وكنت أحب أن أصلح من شأنى في الفندق لأستعد لمقابلة البهليل من آل ليلى ، فلم أجد في الفندق ما يسعف ، ولكن لا بأس فسيعلم النجفيون بعد ساعات أنى نزلت في فندق فيغضبون ويقولون ( هذه فضيحة )

وينقلون أمتعتي إلى منزل أحد الأصدقاء .  
وعندئذ أتذكر أن النزول في الفندق كان عند أهل العراق علامة من علامم المسكنة ، يشهد  
بذلك قول الشاعر القديم :

يا أيها السائل عن منزلي      نزلت في الخان على نفسي  
آكل من خبزي ومن كسرتي      حتى لقد أوجعني ضيرسي  
ويشهد بذلك قول شاعر حديث هو الرصافي :

سكنتُ الخان في بلدي كأني      أخو سفر تقاذفهُ الدروبُ  
وأصرخ في وجه النجفيين قائلاً : إن المدينة التي تخلو من فندق نظيف لا تسمى مدينة ،  
والذين عاشوا في أوروبا كما عشتُ لا يستطيعون النزول في منازل الأصدقاء والفندق النظيف هو  
الماوى الطيب للضيف ، والحكومة المصرية لا تُنزل ضيوفها في غير الفنادق ، لأنها تعرف قيمة  
الفنادق ، وكذلك تصنع حكومة العراق حين تستقبل ضيوفها في بغداد .  
فيا أهل النجف : تذكروا أن مدينتكم في حاجة إلى فندق نظيف ، وتذكروا أن مثل ذلك  
الفندق ينقل مدينتكم من حال إلى أحوال .

\*\*\*

خرجت من الفندق أُلِّفْتُ ذات اليمين وذات الشمال لأرى شبهاً ليلى ، شفا الله ليلى  
وشفائي ، ومنحني وإياها العزاء يوم الفراق ، إن كان لنا سبيلٌ إلى التلاقى قبل الفراق .  
وساقتني قدمي ، بل هداى قلبي إلى الحرم الحيدري .  
وقفتُ بصحن الحرم كالأرقم ، والحمد لله على نعمة العافية ، وليته يتفضل بحفظ هذه  
العافية ولو عشر سنين لأداوى جميع المرضى من الملاح .  
وقلت في نفسي : أنا تلميذ الشريف الرضى الذى يقول :  
لو أنها يفناء البيت سائحاً      لصيدتها وابتدعتُ الصيد في الحرم  
فإذا كان الشريف استباح الصيد في الحرم النبوى فأنا أستبيحه في الحرم الحيدري .  
ودرت حول الضريح مرتين ، ثم وقع البصر على فتاة ساجية الطرف مشرقة الجبين فخفق  
القلب .

ثم وقفتُ .

أصاويل عيניה بعيني والهوى      يُشيع الحميا في فؤادى وأعضائى  
وظنت الفتاة أنها أقدر منى على الفتون ، فحاولت قتلى ، ثم لطف الهوى فصرعتها ،

فجمعت ما تبدد من قواها ، وقرت فرار الغزال المطعون .  
 وعدوت لاقتناصها فلم أفلح ، وكيف يعدو النشوان وهو كالمقيد في الشوك !  
 من أى سحر صيغت تلك العيون ؟  
 وإلى أية غاية تسير تلك العيون ؟  
 ولأية حكمة خلقت المقادير تلك العيون ؟  
 لقد أفلح الدساس الظريف الذى نقلنى إلى النجف ، وهو على ظرفه لقيم خبيث .  
 وبالنجف الحار<sup>(١)</sup> إن زرت أهله مَهْمَلَات ما عليهن سائسُ  
 خرجن بحب اللهو في غير رِيبة عفاف ، باغى اللهو منهن آيسُ  
 ثم طفئت بالحرم مرة ثانية ، فوجدت ناساً يقرأون أدعيات وصلوات وحولهم نساء يكيّن  
 ورجال يكيّن ، فوقفت أسمع وأبكي ، وهل في الدنيا بلاءٌ مثل بلائى ؟ أنا العاشق المهجور  
 الذى غدرت به ليلاه ؛ ولو كانت ليلي واحدة لصبرت ، ولكن ليلايات !  
 فيا بديع الملاحات ، ويا فاطر السموات ، كيف ترى حالى !  
 ويا خالق النخيل والأعنان ، كيف سكبت الصهباء في رُوحى ؟  
 ويا مُجرى الدمع في الشئون ، كيف علمتنى وعلمت الحمام الثواح ؟  
 وما الذى أعددت لتكريمى يوم ألقاك وقد سبحت بحمدك فوق أفنان الجمال !  
 وما عندك لسلامتى من الناس ، وقد خاصمتُ فيك جميع الناس !

\* \* \*

وطفتُ بصحن الحرم مرة ثالثة فوجدت ضريح الحبوى الذى يقول :  
 اسقنى كأساً وخذ كأساً إليك فلذيلذ العيش أن نشتركا  
 وإذا جُدت بها من شفتيك فاسقنيها وخذ الأولى لكَا  
 أو فحسبى خمرة من ناظريك أذهبْ نسكى وأضحت منسكا  
 وانهب الوقت ودغ ما سلفا واغتم صفوك قبل الرنق  
 إن صفا العيش فما كان صفا أو تلاقينا فقد لا تلتقى  
 وعند ذلك الضريح طال بكائى ، فهذا شاعر قضى حياته في التغنى بالجمال ، ثم رآه  
 النجفيون صوفياً فدفعوه بجوار أمير المؤمنين ، وأنا أفيت شبابى في التغنى بالجمال ولم أجد غير

(١) الحار نسبة إلى الحيرة على غير قياس ، وفي معجم ياقوت ( الحارى ) وهو تحريف .

العقوق !

فمتى يعرف قومي أنى أصدق تلاميذ ابن الفارض في هذا الزمان ؟  
اللهم لطفك ورحمتك ، فقد طال بلائى بالناس !

\*\*\*

يمسُّ من الصيد في الحرم الحيدري بعد فرار تلك الغزالة ، وبدأتُ أعتب على سيدنا على ابن أبى طالب ، فمثلى لا يُكرّم في رحابه بالماش والجلائش ، وإنما يكرّم مثلى بالهيام في أودية الفتون ، وما كنت في حياتي من الفاسقين ، وإنما كنت مؤمناً يتقرب إلى ربه بعبادة الجمال . وفي حومة هذا العُتب تذكرت أن لى في النجف صديقاً من تلاميذ الأستاذ محمد هاشم عطية هو السيد محمد تقى آل الشيخ راضى ، فقلت ، أذهب إليه عساه يجد السبيل إلى الظبية التي نفرت مني ، ولكنى ما كدت أصل إلى منزله بعد طول البحث حتى وجدته في ارتياح ، فقد علم أن الشرطة في النجف تبحث عني ، لأنى في ظنهم وردت النجف لمطاردة الظباء ، وقد رأى بفطرته السليمة أن ينفى الشبهة فدعا علماء النجف للتسليم على العالم العلامة الدكتور زكى مبارك !

وما هي إلا لحظة حتى كانت الدبار تموج بالغرّ البهاليل من أقطاب النجف . وجلستُ بين القوم جلسة العالم الحق ، وما يصعب على أن أمثل هذا الدور الفظيع ، فانتقدتُ صاحب مجلة « الحضارة » لأنه يدعو إلى تعديل المذاهب القديمة في التعليم ، وقلت إن مذاهب التعليم في النجف كمذاهب التعليم في الأزهر لا ينبغي أن تزول . وعجب القوم من أن يصدر هذا القول عن رجل متخرج في السوربون . ولكنى في الواقع لم أكن مرائياً ، فقد صح عندى أن الأساليب الأزهرية والنجفية أساليب تنفع أجزل النفع في رياضة العقل ، يضاف إلى ذلك أن الأزهر هو الذى حفظ اللغة العربية في عهد المماليك ، وأن النجف هو الذى حفظ اللغة العربية في عهد الأتراك ، ورعاية العهد توجب الإبقاء على تلك الأساليب التى استطاعت أن ترسل النور الوهاج في دياجير الظلمات . وبعد طول الجوار فهمتُ أن في النجف ثورة فكرية تشبه الثورة التى وقعت في الأزهر منذ أكثر من ربع قرن ، وعرفتُ أن طلبة العلم في النجف يريدون أن يغيروا حالهم ليسايروا مناهج التعليم في العصر الحديث .

وقد تأكد ذلك المعنى حين قال الأستاذ الصورى : ما رأيك يا دكتور في أن أخلع عمامتى ؟ فقلت : أنا أبغض المعممين الذين يخلعون عماماتهم ! فقال : هل تعرف ما قلتُ في

العمامة ؟ لقد قلت : إنها منعت رزقي وفسقني !

فابتسمت وقلت : وكيف تعيش يا مسكين بلا رزق ، وبلا فسق ؟ !  
وتقدم الأستاذ البلاغي صاحب مجلة « الاعتدال » قصصاً أحاديث يشيب لها الولدان ،  
ومنها عرفت أن طلبة العلم في النجف يعيشون في بؤس . وقد طفر الدمع من عيني حين سمعت  
أن عالمًا نجفيًا أشرت إليه في كتاب « عبقرية الشريف الرضي » جلس في صحن الحرم  
الحيدري يبيع كتبه ليسد ما عليه من ديون ، ديون لم يجنّها لهو ولا مُجون ، وإنما جناها الخبز  
والماء .

وكان هذا العالم المحقق لقيني في الكاظمية منذ أشهر ، لقيني لقاء المساكين ؛ ولما لقيني في  
النجف تبسم وقال : كنت في الكاظمية غريبًا وأنا اليوم في بلدي ، وأنا حاضر لخدمتك .  
وكنْتُ أحبُّ أن أقبل دعوته الكريمة ، ولكنني وأسفاه كنت عرفت ترجمة حاله منذ  
لحظات ففكرت من كرمه بترفق وتلطّف .

لا تحزن أيها الزميل ؛ فسيكون لي ولك مكان بين الصابرين .  
لا تحزن ، فالدنيا أحقر من أن يكي على نعيمها أحرار الرجال .  
لقد سمعت أنك بعثت دارك بثمان بخس لتسد ديونك . فهل علمت أن لك عُقبى الدار يوم  
يجزى الله الصابرين ؟

\*\*\*

ثم مضيت فطوّفت بالنجف وحول جيش من أهل العلم والأدب والبيان ، وفي أحد  
المنعطفات وقع البصر على طفلة من قريبات ليلى ، فمددت يدي أمسح خدّها الأسيل  
فصرخت ، وتضاحك الرفاق . ولكنني سأرجع بإذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة  
وأخطبها لأحد أبنائي . وبيت أهلها يقع في دربونة متصلة بدربونتين إحداهما توصل إلى الرابطة  
الأديبة ، والثانية توصل إلى الحرم الحيدري ، ولذلك البيت رَوْشَنٌ عليه برّادة ، وبداخله بئر  
وسرداب ، وفوق الروشن حمامتان تسجعان ، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدر مدامع  
العشاق .

يا شبيهة ليلى في حسنها ودلالها ولؤمها وغدرها ! ترفقي بقلبي فقد تركته في الدربونة  
لتدوسه في كل صباح أقدامك الرقاق .  
يا شبيهة « كريمة » الغالية التي تداعب أباه في الأحلام ، تذكري أن طيفًا زارك في النجف  
ولن يعود .

يا أخت « زينب » تذكرى أن الرجل الذى مدَّ يمينه لمسح خدك الأسيل لم يكن فاجراً ، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله فى سبيل العقيدة والوجدان .  
إليك دمعى يا حلوة يا جميلة ، وهو دمعٌ تمرد على الخطوب ، ثم أذنته عيون الملاح .  
أحبك أيتها الطفلة الوسيمة وأشتهى أن أسمع صراخك مرة ثانية ، فما كان وحق الحب إلا صراخ الدلال .

\*\*\*

واستيقظت فى اليوم التالى مبكراً لأرى الكوفة ، ولأقف بأطلالها كما وقف أستاذى ماسينيون ، وكان أكبر همى أن أرى مسجد الكوفة الذى طعن فيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، والذى فار فى زاويته الثُّور لعهد نوح عليه السلام ، والذى صلّى فيه ألف نبي وألف وصى ، والذى فيه عصا موسى ، والذى هلك فيه يغوث ويعوق ، والذى يحشّر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ، وفى وسطه روضة من رياض الجنة .  
كذلك تقول الأساطير .

وما كانت فى عيني وقلبي أساطير ، وإن كنتُ تلميذ منصور فهمى وطه حسين .  
لقد شهدتُ بعيني كيف طعن على بن أبى طالب ورأيت دمه رأى العيان .  
ورأيت المكان الذى خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة ، الحجاج الهائل الذى أصلح العراق ، وأفسد العراق .

ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين ؛ ورأيت كيف يبكى الناس على قبره وكأنما قُتل بالأمس ، فتذكرت أن العراق يحوى ثروة عظيمة جداً من الحماسة الوجدانية ، وتذكرت أن العراق تغلب عليه سرعة الانفعال ، فهو يقتل المصلح بلا ترفق ، ثم يجعل البكاء عليه شريعة من الشرائع .

تذكرت أن العراق كالقوة الكهربائية التى تحيى وتميت ، وهو ينتظر رجلاً فى طغيان الفرات وسماحة النيل .

إن العراق من قوى العروبة والإسلام ؛ ولكن أين من يعرف ؟  
لقد هدانى العراق وأضلنى ، وكان على الدهر مصدر هداية وضلال .

\*\*\*

ثم مضيت أتلثم آثار الخيرة البيضاء ، مضيت أتلثم آثار الخورنق ، فلم أعرف ولم أعرف رفاقى أين الخورنق .

وكان هُيامي بأطلال الحيرة موسمًا من مواسم الشعر والخيال ،  
وفي ذلك الهيام عرفت شيئًا من مدنية العرب في الجاهلية .  
ولو كان لى شيء من الأمر في حكومة العراق لأجريت نهر السدير من جديد لأنقش في وجه  
الزمن ذكريات النعمان .

مضينا إلى أطلال الخورنق مع سائق جهول فقادنا إلى مكان موحش ، فقال الرفاق : ليس  
هذا مكان الخورنق . فقال السائق : أنتم تبحثون عن أحجار ، وهنا أحجار !  
صددت أيها الجهول ، فنحن نبحث عن أحجار ، ولكننا نبحث عن أحجار نواطق !  
عندئذ تذكرت فراعين مصر ، فقد كانوا يدركون أن الزمن لثيم غدار ، وأن التاريخ كلام  
في كلام ، فبنوا أهرامهم وقصورهم بأساليب يعجز عن فهمها الزمان .  
وقد تقوضت آثار الملوك في المشرقين والمغربين وعجز الدهر الغادر عن هدم آثار الفراعين .  
ما أشقاك في دنياك وأخراك أيها النعمان ! أنت قتلت سينمار ليبقى سر الخورنق ، فهل بقى  
الخورنق ؟

ليتك استعنت الجندي المجهول في وادى النيل ! ليتك بنيت هرمًا يعجز اللثام عن نقل  
أحجاره ليتنوا بيوتهم الخاوية !

أيها النعمان ، سلام عليك من شاعر مصرى ييكى لمصيرك في التاريخ !  
أيها النعمان ، أيها الملك العربى العظيم ، أين الخورنق وأين السدير ... ؟  
اعترف أيها الملك بعظمة الشعر والشعراء ، فنحن الذين حفظنا مكانك في التاريخ ، ولولا  
الشعراء لطمس الزمن مكانك في التاريخ .  
وفدت على أطلال قصرِكَ وأنا جائع ظمآن فما تزودت غير الأسى والأين .  
وفدت على أطلال أنكرتها العين ، وعرفها القلب .  
وفدت على أطلال لم يعرفها جيرانك من أهل النجف ، وعرفها شاعرٌ مصرىٌ مظلوم يكره  
أهله ، كما أنكركَ أهلك .  
فيازميلى فى البؤس والشقاء ، سلام عليك .

\*\*\*

ثم مضينا نمتع النظر بطغيان الفرات ، وأين طغيان الفرات من طغيان قلبى !  
هذه الكوفة الإسلامية ، وتلك الحيرة الجاهلية ، وأولئك الغافلون من العرب والمسلمين .  
فيارب الأرباب أنقذ عبدك المسكين من ظلم الجحود والعقوق .

\*\*\*

ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى ، ولكن كيف ؟ إن النجف كله يطارد العاشق  
المساكين الذى ضيع مستقبله فى سبيل هواه .  
ويصمم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكى مبارك فأرفض لأن تلك الحفلة  
كانت توجب أن أتخلف عن دروسى فى دار المعلمين العالية ، وتخلفى عن دروسى أمر  
مستحيل ، وكذلك أقهر علماء النجف وأمتطى السيارة إلى بغداد .

\* \* \*

رجعت فى زى المساكين لأنى لم أجد الشفيع إلى ليلى .  
رجعت ذليلاً مقهوراً ، فماذا أصنع ؟  
آه من حبى وغرامى وبلواى !  
لقد هجرتنى ليلى وصدفت عنى ظمياء .  
فلأذهب إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك .  
إلى الموصل الذى رقدت فى ثراه عظام أبى تمام أمتطى قطار المساء ...

—————



## ٢٢

ليت ليلى تعرف بعض ما ألاقى في ليالى الصد من أهوال !  
 ليت ليلى تعرف كيف ندمتُ على التعرف إلى وجهها الجميل !  
 ليت ليلى تعرف كيف هدّث عزمى وقوضتُ بُنيانى !  
 ليتها تعرف أن هواها أورث جسمى وقلبى أسقاماً وعقائيل ستكدر ما بقى من حياتى !  
 وليتنى أعتبر بما صرت إليه فأَتقى الله فى نفسى وأتصوّن عن الهوى والفتون !  
 ما أشدّ حزنى على ما ضيعت من شبائى فى التغزل بالعيون الزُّرق والعيون السود !  
 ما أشدّ ندمى على الغفلة التى خُحضت أوحالها يوم وثقتُ بعهود الملاح !  
 سيطول بكائى على العافية التى بددتها تبديد المسرفين على أنفسهم وأنا أُنقل من أرض إلى أرض فى سبيل الجَمال .  
 سأكتوى بنار الحقد على الدنيا وعلى الناس كلما تفكرت فيما ردنى الحب إليه من ظلمات .

لم يبق لى رجاء فى غير الله .  
 ومن سوء البخت أن لا أعرف الإيمان إلا فى أيام الضر والبؤس !  
 إليك أرجع يا ربى ، أرجع مقهوراً مدحوراً بعد طول الهيام بأودية الضلال .  
 إليك أرجع ، ولا فضل لى فى هذا الرجوع ، فقد انهك كيانى ، وانشقت مرارتى ، وصار من الموجع أن أحمل إلى فمى كوباً من الماء .  
 إليك أرجع ، فامنحنى من العافية ما أنقل به صُور ذنوبى إلى ألواح خيالى ، عسانى أعرف كيف أستغفر وأنيب .

\*\*\*

لم أجد فى النجف شقيقاً إلى ليلاى ، فقلت أذهب إلى الموصل ، وتلك نهاية المطاف فى البحث عن الشفعاء .

وعقدت العزم على السفر بالقطار الذى يقوم من بغداد فى الساعة التاسعة مساء .  
 ولكن صديقاً موضحاً طرق بابى فى الساعة السادسة وعرف نيتى فى الذهاب إلى الموصل ،  
 فنهاى ، ولما استوضحت السبب قال : إن أهل الموصل يحقدون عليك ، فانزعجت وقلت :  
 كيف ؟ فأجاب : أنت أطلت التشبيب بالعيون السود فغَنِمَتْ عطف أهل البصرة وأهل

بغداد ، وخسیرت مودّة أهل الموصل ، لأن عيونهم شُهِل لا سُود ...  
 فقلت : أتغزل بالعيون الشُّهْل وأتناسى العيون السود .  
 فقال : كان ذلك قبل اليوم !  
 وتركني وانصرف .  
 وكذلك قضيت نحو ثلاث ساعات في كرب وبلاء .

\*\*\*

أشهد أن ذلك الصديق طيب القلب ، فما تعدد يوماً لإيذائي ، ولكنه سيئ التصرف ، فهو يزورني من حين إلى حين ليكدر صفائي ، وهو يجد لذة في تنغيص من يعرف ، ويشعر بارتياح حين يستطيع إلقاء صديقه في أثون العذاب .  
 وقد وصل في إيذائي إلى ما يريد وخرج وهو جَذْلان .  
 وفي غمرة هذا الحزن المظلم دخل موصلي آخر ، موصلي كريم كاد أهله يُنسُوني أهلي ؛ موصلي صيغ قلبه من العطف والحنان ، فشاع الأنس في روحى حين اغتبت بروحه الرفيق . وما هي إلا لحظات حتى كنت في القطار وهو يحملني التحية إلى أقربائه بالموصل الجميل .

\*\*\*

وفي القطار رأيت رجلاً بيده مجلة تسمى « الأندلس الجديدة » وهي فيما أتذكر تصدر في البرازيل ، وفيها رأيت مقالة في تجريح صديقى العزيز الدكتور زكى مبارك ؛ فابتسمت وقلت : جرّحوه كيف شئتم فستطيب الدنيا يوم يصل إلى فؤاد ليلاه !  
 وكان رأسى قد أثقله النعاس ، فلم أعرف شيئاً من معالم الطريق .  
 وصلت إلى كركوك بعد عشر ساعات في القطار ، وكركوك هي ( شهر زور ) في كلام القدماء ، وفيها تشهد العين لأول نظرة مشاعيل اللهب ، لهب النُفط ، فيدرك العقل أن هذا اللهب هو الذى يجذب الفَراش ، الفَراش البغيض الذى يَفد من وراء البحار ليسيطر على ذخائر تلك الأرض . وبعض البلاد تؤذى أهلها بفضل ما فيها من ذخائر وكنوز . والجمال يجنى على أهله في أكثر الأحيان .

ومضيت فسألت عن رئيس البلدية وهو الشيخ حبيب الطالباني فعرفنى بأقربائه ودعانى للتنزه في حديثه الغناء ، وهناك جرى الحديث عن اللغة العربية فعرفت أن أهل كركوك بعضهم من الأكراد وبعضهم من التركمان وأنهم يتكلمون الكردية والتركية بأسهل مما يتكلمون العربية .

وبعد لحظات رجع أبناؤه من المدرسة فدعاهم للتسليم على ، فوقفوا صفّاً في أدب واستحياء ، فسألتهم أن ينشدوا شيئاً مما يحفظون ، فأسمعوني نشيداً عربياً بديعاً دلّنى على أن

أطفال تلك الناحية سيكونون بإذن الله من سواعد العروبة بعد حين .  
وكذلك عرفت أن الحكومة العراقية تستطيع بسهولة أن تؤلف بين عناصر العراق ، وأن  
تجعل منه شعباً موّحد اللغة والتقاليد في زمن قليل . ويؤيد ذلك أن العروبة هي في الواقع فكرة  
لا جنس ، والكردى يتحول بعواطفه إلى العروبة بلا عناء .

ومنظر كركوك جميل ولكن أهلها يشكون قلة المياه ، وفيها اليوم نحو أربعين ألفاً من  
السكان ، ودورها تبلغ ثمانية آلاف ، وبها حديقة للشعب وفيها مكتبة ، ولها ضواحي صالحة  
لأن تكون من مرابع الابتهاج ، لو وجدت من يصلها بأصول التمدن الحديث .  
وفي شهر زور — وهي كركوك — يقول أحد الشعراء :

وعدت بأن تزورى بعد شهر فزورى قد تقضى الشهر زورى  
وموعد بيننا نهر الملقى إلى البلد المسى شهر زور  
فأشهر صدك المحتوم حق ولكن شهر وصلك شهر زور

خطرت ببالي هذه الأبيات وأنا أطوف بكر كوك فحزنت فذلك شاعر كان يشك في صدق  
ليلاه ، كما أشك في صدق ليلاي . ورأيت أن أبحث عن قريبات ليلى هناك ، ولكنني خشيت  
أن يصعب التفاهم باللغة العربية فمضيت إلى إربيل بلد المبارك بن حمد بن المبارك الذي يقول :  
تذكرنيك الريح مرث عليّة على الروض مطلوباً وقد وضع الفجر  
وما بعدت دار ولا شط منزل إذا نحن أدنتنا الأمانى والذكر .  
وصلت إلى إربيل في وقت القيظ فلم أجد من النشاط ما أصد به لرؤية القلعة التي تحدثت  
عنها كتب التواريخ ؛ وإنما اكتفيت بزيارة المسجد وشهود بعض الأسواق ، وراعى أن تقوم  
أكثر المنازل على ربوة عالية تستدرج شياطين الشعر والخيال .

وفكرت في تلقف بعض المعلومات عن إربيل فلم أجد من يسعفني بما أريد ، حتى الشرطي  
حارس الميدان لم يعرف شيئاً عن عدد السكان في إربيل ، ولم يستطع أن يرشدني إلى بعض  
المدارس . وهذا لا يمنع أن يكون في إربيل أدباء نرى آثار أقلامهم في بعض المجلات المصرية من  
حين إلى حين .

\*\*\*

ثم اتجهت نحو الموصل فراعنى أن أرى حقول الجنطة على جانبي الطريق ، وهي تشهد بما  
في تلك البقاع من خيرات ، وراعنى أن أرى السيارة تنتقل من نجاد إلى وهاد ، ومن وهاد إلى  
نجد ، كأننا في جبل لبنان .

\*\*\*

الله أكبر والله الحمد !

هذا مسجد النبي يونس ، وهو فوق هضبة عالية ، وكأنه ( نُور دَام دى لا جارد ) التى تروى من يدخل مرسلينا أول مرة .

وعند الجسر يستوقفنى الشرطى ليسأل عن اسمى فأقول : زكى مبارك ، فيسأل : الدكتور ؟ فأقول : نعم ! فيبتسم ويقول : عرفت أخبارك ، ولكن حدثنى عند من تنزل ؟ فأقول : عند آل ليلي ! فيقول : وهذا وجه الإشكال ! وسأعرف بعد أيام لماذا تهتم الشرطية بمعرفة أسماء من يدخلون كركوك وإربيل والموصل .

\* \* \*

ألقيت أمتعتى فى الفندق وخرجت أدبر الوسائل للبحث عن قريبات ليلي ، واتفق أن جلست لأشرب كوباً من الشاي فى إحدى القهوات ففاجأنى الأستاذ محمد بهجت الأثرى وهو يقول : أتراك تغفلت من يدى يا دكتور ؟ من جاء بك إلى الموصل ؟ أذو نسب أم أنت بالحلى عارف ؟

ونقلنى إلى المدرسة الثانوية للتسليم على الأستاذ بهجت النقيب ، وهنالك طالعنا مجلة الرسالة فقرأنا فقرات من حديث ليلي المريضة فى العراق ، وحددنا موعداً للتلاقى بنادى الجزيرة فى المساء .

ولم تمض ساعات حتى تسامع أهل الموصل بقُدومى على غير ميعاد ، فأقبلوا متفضلين للتسليم على الرجل الذى أحب العراق وأحبه العراق . تحدث أحدهم فقال : هل رأيت المنارة الحدياء ؟ فقلت : لا ، فقال : لقد همَّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها وبعد أن صعد خمسين درجة دار رأسه فنزل .

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية ! وانتقلت إلى مجلس آخر فابتدرنى أحد الأدباء بهذا السؤال : هل رأيت المنارة الحدياء ؟ فقلت : لا ؛ فقال : لقد همَّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ، وبعد أن صعد أربعين درجة داخ فنزل !

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية ! وفى مجلس ثالث تحدث رجل فقال : هل رأيت المنارة الحدياء ؟ فقلت : لا ؛ فقال : لقد همَّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ؛ وبعد أن صعد ثلاثين درجة اضطربت مفاصله فنزل !

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية ! ثم صممت على صعود هذه المنارة ولو كان فى ذلك حتفى ، لأنقذ سمعة الجامعة المصرية ،

على حجراتها وغرفاتها ومدرجاتها أزكى التحيات !

\*\*\*

سميت هذه المنارة حدياء لغلطة هندسية أورثتها الاحديداب ومن أجلها سميت مدينة الموصل « الحدياء » على طريق المجاز المرسل ؛ وباسم الحدياء سُمي نوع من الخمر يستقطره الموصليون ، وكذلك انتقل الاسم من المنارة إلى المدينة إلى الشراب !  
والمنارة الحدياء هي أعظم منارة في أقطار العراق ، ودرجاتها فيما سمعت مائة وثلاث وتسعون درجة ، وهي منارة الجامع الكبير .  
ابتدأت فزرت الجامع ، وهو قديم يرجع تاريخه فيما قيل إلى ثمانمائة سنة ، ولحرايه قبة عالية . وإقامة القباب فوق المحاريب طراز معروف في العراق .  
وبذلك الجامع مقصورة خاصة بالنساء ، ولا تقام فيه الصلوات لهذا العهد إلا في الجمع والأعياد .

وفي أثناء الطواف سمعت هديلاً يسجع بخنين فاجع يذيب لفائف القلوب ، وسجع الحمام مألوف في العراق وقد تحدث عنه مئات الشعراء ، ولكنه في هذه المرة كان حماماً موصلياً يعيش في البلد الذي تُسبب إليه أبو إسحاق .

وقد نظرتُ فرأيت الهديل يسجع وبجانبه ليلاه ، فما الذي كان يصع لو غابت عنه ليلاه !  
ليتني في مثل حالك ، أيها الهديل البكاء !  
ثم توكلت على الله وصعدتُ المنارة بصحبة جماعة من الرفاق يحملون المصابيح ، وآذاني أن أجد درجات المنارة مهتمة ، وأن أعرف أن الصعود فوق تلك الدرجات أمرٌ صعب . ولو أنني حاولت ذلك وأنا في سن أصغر أبنائي لكان الخطب سهلاً ، ولكنني اليوم عالم علامة ، والعلماء العلّامون يصعب عليهم السير في الطريق ، فكيف يصعدون المنارة الحدياء !؟

وبعد أن صعدت نحو سبعين درجة شعرت بالتعب ، فقلت : أنزل !  
وهل يعينني أن أعجز عن صعود منارة عجز عن صعودها الدكتور عزام ؟  
وشجعني على النزول أن الدكتور عزام صديق عزيز ، والمتعالى عليه ينافي الأدب والذوق ، وهو بالتأكيد سينشرح صدره حين يعرف أنني عجزت عن صعود المنارة الحدياء . والضعفاء يعطف بعضهم على بعض !

وبعد أن نزلت درجتين مرّ بالبال خاطرٌ مزعج : وهو أن ليلى قد تسمع بهذه القصة فتعرف أن طبيبها أصبح من الأشياخ !  
وكذلك انطلقت إلى صعود المنارة بعزائم الشياطين .

وقفت فوق المنارة ونظرت إلى الأرض فعرفت خطر ما أصيبت به من أحديداب : فالذي

ينظر إلى الأرض من فوق تلك المنارة يتوهم أنها ستسقط به ، ولكن هذا الوهم لا يجوز على رجل مثلي !

ذلك ما كان من أمر الصعود ، ولكن كيف النزول ؟  
إن النزول بدا لي أمراً خطيراً جداً ؛ ومن كان في ريب من ذلك فليجرب ، وقد خشيت أن تنزل قدمي فأسقط ، لأن دَرَج تلك المنارة أصبح خيالاً في خيال .  
واقترح السيد محسن جوْمُرد أن أضع يدي على كتفه فرفضت : لأن الاعتماد على الغير عند الشدائد هو بداية الانخزال .

\* \* \*

نزلت من المنارة بلا مساعد ولا معين فصَحَّ عندي أن عافيتي لا تزال باقية . وتطلعت إلى الهيام بأرجاء الموصل لأرى ما فيها من بقايا السحر والفتون ، ولأبحث عن الشفيعات إلى ليلاى .

وبدأت فزرت قبر أبى تمام ؛ وكنتُ كتبت كلمة عن إصلاح قبره في جريدة الأفكار منذ ثمانية عشر عاماً ، وكان من رأيي أن تأليف كتاب جيد عن شاعرية أبى تمام أفضل من العناية بإصلاح قبره ، فمتى أشرع في تأليف هذا الكتاب ؟  
كنت مببل الخواطر فلم أقرأ الفاتحة على قبر أبى تمام ، وإنما قرأت على قبر أبى تمام قول أبى تمام :

أَحْبَابُهُ لَمْ تَفْعَلُوا بِقَلْبِهِ      مَا لَيْسَ يَفْعَلُهُ بِهِ أَعْدَاؤُهُ  
وهاج حقدي على ليلاى فوقفت شارد اللب لا أعرف ما أصنع .  
ثم تلفتُ فرأيت جَنِّيَّاتِ الشُّط ، شَط دجلة ، فسألت رفيق :  
— ما بال هؤلاء الملاح يَلْقَيْنَ الشُّط بلا احتشام ؟  
فأجاب :

\_\_\_\_\_

## ٢٣

- تلك تقاليد هذا الشط ، شط دجلة ، يا سيدى الدكتور .
- من تقاليد هذا الشط أن يقف الحسان بلا احتشام ؟
- ومن تقاليده أيضاً أن يتطلع الفتیان إلى اللؤلؤ المنشور فوق حبات الرمال .
- إذن نقف لحظة !
- أو لحظات !
- تكفى لحظة .
- خذ زاد قلبك وعينيك للأيام البواقى .
- سمعت وأطعت ، وليصنع الحب بقلبي ما يشاء .

\* \* \*

لم تكن هذه المناظر غريبة كل الغرابة أمام عيني ، فلى مع جنّيات الشواطئ توارىخ ، وقد  
يثبت يوماً أن فينوس وُلدت على شاطئ النيل بجانب سينتريس .  
وقد عشت دهرى أنظر إلى شواطئ النيل فى الريف نظرة شعرية ؛ فأين من يشاطرنى  
أحزان القلب وأشجان الفؤاد ؟  
نشأت فى حدائثي فلاّحاً ، ولا تزال فى يدى آثار الفأس والحراث ، ولم أعرف السعادة فى  
ظلال العواطف إلا بفضل ذلك العهد ، وقد أنشأت ما أنشأت من الرسائل والقصائد  
والمؤلفات ، فكان أشرف ما خط قلمي سطور قلائل ، إذ قلت فى مطلع الديوان :  
« إلى تلك الفتاة التى خفى لها القلب أول خفقة ، والتى قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت  
عليها أول دمع . إلى تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سينتريس ، إلى بقاياك  
فى التراب يا فاتحة الأمانى وخاتمة الآمال . إليك — يا كل ما كنت أملك فى مطلع الصبأ وفجر  
الشباب — أقدم هذا الديوان .

وأقسم ما قدّمتُ إلا أضالعى      يمزّقها حزنى وينثرها وجدى  
فلا تحسبني بعد أن خانك اليلى      تخونتُ ما بينى وبينك من عهد  
فى أيام حدائثى كانت ستترس لا تعرف « الطلّمبات » فكان الماء يُحمّل إلى المنازل من  
النيل ، أو من السواقى ، فكنت ترى فى الصباح أسراباً من « الصبايا » يحملن جرّات الماء  
وحولهنّ ظلال من الهوى المريح والشباب النشوان .

( ليلى المريضة فى العراق )

في تلك الأيام كان الشاب يخرج لصلاة الصبح ، ثم يفتل مسرعاً إلى داره فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل ويخرج إلى الغيط وهو مسرور جذلان ، لأنه سيشهد أسراب الصبايا في طريقهن إلى السواقي أو النيل . في تلك الأيام كان أبى رحمه الله يعجب كيف أسبقه إلى صلاة الصبح ، وكيف أسرع إلى أداء أعمال الصباح ، فكان يصفنى بالتقوى والنشاط ، وما كان يعلم طيب الله ثراه أنى لا أبكر إلا لأشهد السَّرب الأول من أسراب الملاح .

وكانت تلك المشاهد تتكرر في الصباح وفي الأصيل من كل يوم ، فكان شبان الريف يمشون بقلوب مشبوبة في الغدوات والأصائل ، وكان الشاب لا يغدو ولا يروح إلا بقلب مفتون .

وكان لأبى صديق اسمه حسين قابل ، وكنت أحب ذلك الرجل حباً شديداً ، وكان مفهومًا أنى أحبه لأنه صديق أبى ، فهل أستطيع أن أقول اليوم إنى كنت أحب ذلك الرجل لأنه كان يملك ساقية في ضاحية البلد ، ولأن حوض تلك الساقية كان ملعباً لأقدام الملاح ؟  
ربّاه ! متى تعود أيامى !

وهل تصدقون أنى ما سافرت إلى البلد إلا مررت بأطلال تلك الساقية وسلّمت تسليم المحبين ؟

رحمة الله على تلك الساقية فلم تبق منها غير أطلال ، وكيف تعيش وقد أغنت الطلّمبات عن مائها الممزوج بحبات الرمال ! كيف تعيش تلك الساقية وقد جَنّت عليها المدنية ! كيف تعيش بعد أن حُرِمَتْ من وثبات الأفئدة وخفقات القلوب !

وكان في بلدنا طريق إلى النيل ، طريق ضيق ، ولكن دُمُتْهُ أقدام الظباء فصار تراه أذكى من المسك الفتيت ، وكان لذلك الطريق في قلبى أخيلةً أتمثل بها أرواح الفراديس ، ولم يكن لنا في ذلك الطريق مَعْدَى ولا مَرَّاح ، ولكنى كنت أخلق الأسباب لأمر به مرّ العشاق في الضحى والأصيل ، وفي ذلك الطريق كنت أرسل التحية المخطوفة إلى تلك الفتاة ، حاملة الجرة ، الفتاة الغيداء التى لم يفهم جماها أحدٌ سوى ، والتى ظلت وهى ميتة تشوق قلبى وأنا أعيش نائياً في باريس .

وما زال ذلك الطريق موجوداً إلى اليوم ، ولكن من ذا الذى يفهم سحره من أهل ستريس ؟ أنا الذى أعود إلى بلدى في الأتوبيس فأستوقف السائق وأنزل قبل المحطة لأصل إلى بيتى من ذلك الطريق ، وما هو والله بأقرب الطرق ، ولكنه يذكرنى بتلك المحبوبة الغالية التى كنت أحسب الجرة فوق رأسها هالةً من النور الوهاج .

ماذا صنعت المدنية بالريف الجميل ؟

ماذا صنعت ؟



أنتم لا تعرفون الخطر ، فدعوني أحدثكم عما جنت المدينة .  
كانت تلك المشاهد الجذابة فرصة يعرف فيها الشاب من تصلح لإيناسه في الحياة الزوجية :  
فكان يرجع إلى أمه وفي صدره أحاديث وأحاديث ، وكانت الأم تخلو بابنها في ناحية من الدار  
فيحدثها ابنها العزيز ، وهو أشعر من جميل وأخطب من سحبان ، وتمضى الأحاديث بين الأم  
وابنها في درس ما في الصبايا من محاسن وأخلاق .

فما ترونه اليوم في حياة المدينة من تعرف الفتى إلى الفتاة في الملاهي والملاعب كنا نعرفه نحن  
بالنظرات الثواقب ، وكنا ندركه بأحاسيس القلوب .

قد تقولون : ألم تكن هناك مآثم في شهود أسراب الملاح وهن يغدون ويرخن إلى السواقي  
وإلى النيل كما يرخن إلى شواطئ دجلة وشواطئ الفرات ؟ ألم يكن هناك من تند منه كلمة نائية  
أو يشرد منه لحظ مريب ؟

وأجيب بأن فتیان الريف كانوا في غاية من الأدب والذوق ، وما أذكر أبداً أن فتاة شكت  
إلى أبيها أو أخيها من فضول الشبان . وما أذكر أن من الفتیان من استطاع أن يوجه كلمة نائية  
إلى إحدى الفتيات ، أو يرمقها بنظر أثير .

الأدب كله في الريف ، ولكن أبناء المدينة لا يعلمون .

على أن هناك ناحية من الأدب جنت عليها المدينة يوم دخلت الريف ، هناك الأدب الغذب  
الذي كان يتمثل في مثل هذا الموال :

بالله يا بحر حبي جاش ملاً بدرى

وفي هذا الموال :

يا ساقية الحب دورى وانزجى سكر

ولهذين الموالين نظائر وأشباه كانت نعيم السامرين في سهرات الريف . وهناك أيضاً  
الصُّور الفنية ، صهور الفلاحات المليحات وهن يملأن الجرار من ماء النيل .

ألم تروا صور السيدات الأوربيات في أزياء الفلاحات ؟

ألم تعرفوا أنه كان من الطريف حين يقرن مصري بفتاة أوربية أن يأخذ لها صورة وهي في  
ثياب فلاحية تملأ جرتها من النيل !

ألم تسمعوا أن أفضل تماثيل « مختار » كان صورة للحياة الفطرية على شواطئ النيل ؟  
إن المدينة جنت على الريف أبشع جناية منذ اليوم الذي مكنت فيه كل فلاح من أن تستغنى  
عن السواقي وعن النيل . وأفكار المدينة جنت أيضاً على حياة الريف : فقد فهمت الفتاة الريفية  
أن من حقها أن تمكث في البيت فخر من المنظر الجميل الذي مثله الأستاذ رمزي نظم وهو  
يقول في فتاة يُشرق نورها في الحقول :

شاغله الآن سارح في غيطه واللى مروّح  
جاشت هذه الخواطر في قلبي وأنا أنهبُ بعيني شوارد الحسن الذى سَكَنَ إلى شاطئ دجلة كما  
تسكن الحمام إلى العابئين في حدائق باريس ، وتذكرت أن الشواطئ العراقية لا تزال تعرف  
هذا اللون الجذاب من ألوان الحياة ، وتذكرت الفتاة التى غازلتها على شاطئ الفرات يوم زرت  
الفلوجة ، وهى فتاة طهور لا يؤذيها اللهو المباح ، والجمال كل الجمال في ظرف عقائل  
العراق .

ولو لم يكن قلب ليل قد من الصخر الجلود لقضيت ما بقى من حياقي في صيد السمك  
بالعراق .

ثمّنى أن يرى ليلى يجتمع      ليسكن قلبه بما يُعائى  
فلما أن رآها خوّلته      بعداً فت في عضد الأمانى  
إذا سمح الزمان بها وضئت      على فأى ذنب للزمان

\* \* \*

— خذ زاد قلبك وعينيك للأيام البواقى !  
كذلك هتف رفيقى ونحن نواجه طلائع الحُسن على شاطئ دجلة ، فتذكرت ما بين مصر  
والعراق من الفروق في دقائق الأذواق : فالعراقى لا يسوءه ولا يؤذيه أن يسمع منك حديث  
الوجدان ، أما المصرى فيتحرج ويتلوّم حين يسمع ذلك ، ولن أنسى كيف انتاشتني جرائد  
الفيوم حين كتبت كلمة في جريدة ( بحر يوسف ) أذكر فيها كيف كنت أُنعم في طفولتى بترنيم  
هذه التغريدة :

« يا بحر يوسف ياما فيك كل بلطيّه »

وكيف كنت أفهم أن « البلطية » هى رمزٌ للغادة الحسنة .  
انتاشتني جرائد الفيوم في صيف سنة ١٩٣٦ حين قلت ذلك ، مع أن الفيوم يعرف حلاوة  
العنب وحلاوة التين ، ولم يرق طبعه مع هذا الغذاء الرقيق !  
وقد قلت مرة إن مدينة الحلة تشبه مدينة الفيوم أو مدينة شبين الكوم ، فليكن مفهومنا أن  
هذا تشبيه مع الفارق ، فجرائد الحلة لا تتحدث عنى إلا تحت عنوان « طيب ليل » وأهلها  
مع ذلك يعرفون أنهم يتحدثون عن رجل يتشرف بخدمة العلم والأدب في العراق .  
عفا الله عنك يا ليلى !

كيف تردّينى إلى مصر ، لأصوم عن أحاديث الصباية والحب !  
كيف تردّينى إلى البلد الذى لا يتقدم خطوة إلا ليتأخر قلبى خطوات !

كيف تردىنى إلى البلد الذى يرى أهله أن النعيم كل النعيم فى الماء المرشح ، وهم مع ذلك يعرفون أن أجدادهم الذين جهلوا تقطير الماء لم يعجزوا عن بناء الأهرام ، ولم تعوزهم نعمة العافية ، ولم ينقصهم صفاء الأرواح .

ردُّونا إلى العهد الأول ، وأمكنونا من ذوات الجدائل وهنَّ يتخطرن فى الضحى والأصيل . لقد ماتت حبيبتى الأولى فى الريف ، ولكن ابتها اليوم ترسل السهام المسمومة إلى غافيات القلوب ، فدعوى أصوب صدرى لسهام تلك الغيداء ، دعوى أمث وأنا ساجى الجفنين إلى صدر تلك الطفلة التى شربت من كف أمها أكواب الصفاء .

أتريدون أن تصلحوا الريف ؟

أصلحوا قلبى أولاً ، ثم افعلوا بالريف ما شئتم ، أصلحوا قلبى فأنا الشاعر الذى تعرفون ، وأنا والله أبقى لكم من كل ما أبدع التمدن الحديث .

\*\*\*

طافت هذه الخواطر برأسى وأنا أنظر جيَّات الشاطئ ثم خفتُ أن أفتضح فتكلفتم الرغبة فى أن أعرف تاريخ القنطرة التى تواجه الجسر المصنوع من الحديد ، فقال رفيقى إن الذى بناها مهندس مصرى وقد غلبه التيار فانحرفت القنطرة بعض الانحراف ، فقلت فى نفسى : ولعل جنية من جنيات الشاطئ جنت عليه فأورثته الخبال !

أنا أبحث عن قريبات ليلى ، فأين قريبات ليلى ؟

أُكْتِبَ عَلَى أن أُنحِبَ فى كل ميدان ؟

إن حالى فى العراق حالُ الملِّك الذى نزل من السماء ليلهو أسبوعاً أو أسبوعين فى باريس ، وقد حدثنا أنا طول فرانس أن ذلك الملِّك حين تفقَّد أجنحته ليرجع إلى السماء وجد ريشها قد عُطِبَ فَعَسَّرَ عليه الصعود .

وكذلك دَخَلْتُ العراق وأنا فى أنفُس أهله من كبار العلماء ، فما هى إلا أيام قلائل حتى فضحتنى ليلى وصيرتنى كما قال رامى فى أغاريد أم كلثوم .

« قلبك غدر بى ورمانى وفرج الناس على » .

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

لا بدَّ من التخلُّق بأخلاق العلماء لأستر فضيحتى وأدارى بلائى

— يا با .

— مولاي .

— أنت تعرف أنى أنا ذى من أن يمرَّ وقتى بلا نفع .

— أوقاتك كلها نفع ، يا دكتور .

— ١٩٨ —

— لا ، لا ، أنا أعرف قيمة أيامي بالموصل ، ولا يكفى عندي أن يقيم لي الدكتور عبد الأحد عبد النور وليمة غداء ، وأن يقيم لي الدكتور لويس ليبب وليمة عشاء ، وأن يحتفل بقدمي أعضاء نادى الجزيرة ، فهذه كلها شواهد من اللطف ، ولكنها لا تملأ الفراغ الذى أحسه فى قلبى وعقلى .

— وماذا تقترح ؟

— أقترح التعرف إلى الموصل .

— إيش لون ؟

— أحب أن أعرف كل شئ فى هذه المدينة .

— ذلك مطلبٌ عزيز المنال .

— تعال ننظر إلى الظواهر فهى بابٌ إلى الحقائق .

\*\*\*

دخلتُ المكتبة العامة وهى تسمى « مكتبة غازى » فرأيت فيها أفواجًا من المطالعين هم جميعًا من الطلاب ، ورأيت فريقًا منهم يتخذها مكانًا لمراجعة الواجبات المدرسية فدلّنى ذلك على أن فى شبان الموصل من لا يجد النور والهواء إلا فى مثل ذلك المكان .

والمكتبة فقيرةٌ فقيرًا مُدَقِّعًا ، فليس فيها من الكتب غير ثلاثة آلاف وثلاثمائة وسبعين ، ومعنى ذلك أن مكتبتى الخصوصية بمصر الجديدة أكبر منها ثلاث مرات !

ونظرتُ فى عدد المطالعين فى هذه السنة فوجدتُ من طلبوا الجرائد والمجلات وصلوا إلى ثلاثة آلاف ، ورأيت كتب الأدب طلبها ١٨١٢ والروايات طلبها ١٩١١ وكتب الحقوق طلبها أربعة فقط ، والمعاجم والموسوعات طلبها ١٨٨ .

أما الكتب الاقتصادية والنحوية فلم يطلبها أحد .

وحرصت على أن أعرف ما بأيدي المطالعين حين دخلتُ فوجدتُ من المجلات ( الدنيا ) و ( الفكاهة ) ورأيت من الكتب ( الأجنحة المتكسرة ) و ( النظرات ) و ( مرجريت ) و ( حب ابن أوى ربيعة ) .

ومن واجبى أن أسجل أن هذه المكتبة لا تناسب ماضى الموصل ولا حاضر الموصل ، وما قلت إن مكتبتى الخصوصية أكبر منها ثلاث مرات إلا لأحرض أهل الموصل على إغناء هذه المكتبة بألوف المجلدات ، وسيظهر أثر هذا التحريض بعد قليل .

\*\*\*

خرجتُ من المكتبة فوقفتُ لحظة على شاطئ دجلة ، وما زلتُ فى رحاب المكتبة ،

فوجدت الشاطئ الآخر يزدان بحديقة جميلة توحى الشعر والخيال .

فوثبتُ إليها في لحظتين .

هل أقول إن هذه الحديقة أنشئت سنة ٤٥٠ هـ وهو التاريخ الذى أسس فيه الجامع الكبير ؟

هل أقول إنها أنشئت سنة ١١٥١ هـ وهو تاريخ المنبر بذلك الجامع ؟

لا هذا ولا ذاك : هى حديقة أنشئت بعد استقلال العراق ، ويقال إن الذى فكر فى إنشائها رجل من الإنجليز ، وكانت تسمى باسمه ، ولكنها اليوم تسمى حديقة الشعب ، وفيها مشابه

من حديقة النباتات فى باريس .

وفى طرف من أطراف تلك الحديقة رأيت نبات « الهُغْمُحْمُ » الذى يُذكر فى مقدمات كتب البلاغة ، وقد بلغته تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف !

وعرفت أن الحديقة تنقسم إلى قسمين : قسم لنزهة الرجال ، وقسم لنزهة النساء .

وقد اعترضتُ على هذا التفريق لأول وهلة ، ثم رأيت ما أفتنى بعقل أهل الموصل .

رأيت امرأة ملفوفة فى عباءة فطار صواى ، هى دنيا من الحسن يتموج فى ثنايا ذلك الجلباب ، هى فتنة تنقلها المقادير من شط إلى شط ، ومن جادة إلى جادة ، ومن دربونة إلى دربونة ، إلى أن تكف أذاها عن الناس بوضعها فى بيت مسدود .

وتقدم رفيقى فقال لها فى همس : هل تعلمين أن طبيب ليل فى الموصل ؟

فقلت فى تلهف : ودوئى عليه !

وما كدت أسمع هذا الجواب حتى هربت .

وكيف أصمد لهذه الفتنة المتحركة وأنا رجل خفاق القلب ، مفضوح النظرات ؟

لا أدرى كيف يسكت شعراء الموصل فى هذه السنين .

انطقوا يا عنادل فإن الحسن فى وطنكم يُنطق الجلاميد .

انطقوا ، يا عنادل ، انطقوا .

انطقوا لتسكت الضفادع التى تطيل النقيق فى حديث الحرام والحلال !

\*\*\*

ومضيت فزرت طوائف من مدارس البنين والبنات ، زرتها باسم الدكتور زكى مبارك المفتش فى وزارة المعارف المصرية ، والعجب كل العجب أن أصلح للجد الرزين مع الذى اشتهرت به من الهيام بعيون الطلاب .

لم أدخل مدرسة إلا ألقى فيها بذورا من المبادئ الصّحاح ، وستذكرنى مدارس الموصل بالخير الجزيل ، إن شاء الله ، فهو عز شأنه لا يحبط أعمال القلوب .

حضرتُ حفلة ختامية فى إحدى المدارس ، فرأيت الخطب تنقسم إلى قسمين : قسم باللغة

العربية ، وقسم باللغة الإنجليزية .  
 فعلوث منصّة الخطابة وأعلنث أنه لا يجوز أن تكون الخطب المدرسية بغير اللغة القومية ،  
 وفطن الحاضرون لقيمة هذا النصح فألغوا الخطب الإنجليزية من منهج الاحتفال .  
 وما كان من همى أن أحارب إنجلترا في كل بلد أحلّ فيه ، ولكن كان من همى أن أدل العرب  
 في كل أرض على قيمة العصية القومية ، وهل يسمح الإنجليز في بلادهم أن يكون للغات  
 الأجنبية صوت في الحفلات المدرسية ؟  
 لقد كافحت بمعاهد الليسيه في مصر كفاحاً عنيفاً لأجعل للغة العربية مكاناً في الحفلات  
 المدرسية ، ولولا تلطف المسيودى كومنين لكان الوصول إلى ذلك من المستحيل .  
 فكيف نؤاخذنا لغة أجنبية في مدارسنا العربية ؟ كيف ؟ كيف ؟  
 وقد أزعجنى أن يقع هذا من مدرس مصرى هو من تلاميذى القدماء ، ولكن سرّنى أن  
 يعرف الأستاذ مينا عوض قيمة الصدق في صدر أستاذه القديم فيعترف بالحق .  
 وأذكر بهذه المناسبة أن المصريين يَحْيَوْنَ في الموصل حياة سعيدة ، وهم موضع التكريم  
 هناك .

\*\*\*

وقد وقعت نادرة تستحق التدوين .  
 دخلت إحدى مدارس البنات فوجدت المدرسة في هرج ومرج ، ثم سألت عن السبب  
 فعرفت أن التلميذات تسامعن بقدم الدكتور زكى مبارك فانزعجن أشد الانزعاج لأنهن ظننّ  
 أنه جاء ليقوم بعملية التطعيم ضد التيفود .  
 ولم تهدأ الخواطر إلا حين أعلنت مديرة المدرسة أن الدكتور زكى مبارك طبيب أرواح لا  
 طبيب أبدان .

أنا طبيب أرواح ؟

ليتنى داويت روى !

أنا طبيب أرواح ؟

أنا ؟ أنا ؟

ومن هو العليل الذى يبذر جرائم الفُتُون في كل بلد يحلّ فيه ؟

إنى لأعجب كيف تتسع رحمة الله لرجل في مثل حالى .

كم تأملت ، وكم بكيت ، كلما تذكرت إساءة إلى نفسى وإلى الناس .

لقد جعلت الحديث في الحب شريعة من الشرائع .

هل أحسنث ! هل أسأت ؟ لا أعرف بالضبط ، ولكن قلبى يحدثنى بأنى كنت من

المسرفين .

تمرّنى لحظات أنس ، ولحظات بؤس .  
أتوهم حيناً أنى أخدم لغتى بهذه الأحاديث .  
وأعتقد أحياناً أنى أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث .  
فأين مكان الخطأ ، وأين مظنة الصواب ؟  
ومن العجيب مع هذا كله أن أكون أصدق من شُغل فى هذا العصر بدراسة الأخلاق .  
أحب أن أعرف نفسى ، فهل أستطيع أن أعرف نفسى ؟ هيات ، هيات !!  
ليلى هى السبب فى محتى وشقائى .  
تركت ليلى المريضة فى الزمالك ، فوجدت ليلى المريضة فى العراق ، وكنت وجدت لهما  
أختاً قبل ذلك فى باريس .

فأين المفرّ من العيون العسلية والعيون الزرق والعيون الشَّهل والعيون السود ؟  
أين المفرّ وبينى وبين الجمال أسلاك جواذب من الكهرباء ؟  
ولو كنت رجلاً فاسقاً لعرفت الحدود وانتهيت .  
ولكنى رجلاً عفيف ، وهنا تظهر دقة الإشكال .  
ومن الذى يصدّق أنى رجلاً عفيف وقد ملأْتُ الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات ؟  
إن ليلى هى التى تستطيع أن تشهد بعفاى .  
ولكن هل فى مقدور امرأة أن تقول كلمة الحق ؟  
ما رفعتُ بصرى إلى امرأة إلا مضت تقول فى كل مكان إن بينى وبينها أشياء .  
وينهاى الأدب عن تكذيب الملاح فتسوء سمعتى بلا حساب .  
أشهد أنى سأكون أضعف الناس حُجةً يوم ألقى رى ، وما أظننى سألقاه إلا بدمع دافق ،  
فهل يتفضل عزّ شأنه فيغفر ذنوبى ، كما ستر عيوبى ؟  
إنى لأعجب ثم أعجب ثم أعجب كيف سكت الله عنى عشرين سنة أو تزيد فلم  
يفضحنى ، مع أنى رجلاً مسكين لن يجد فى حسابه حسنة واحدة يوم تُنصّب الموازين .  
وهل رأت العيون أغرب وأعجب من أن يكون لمثل تلاميذ يقبلون يُمناه بجمرة وقوة ؟  
عفا الله عنكم يا تلاميذى ، فأنتم لا تعرفون أن أستاذكم خرب ما بينه وبين الله أشنع  
تخريب .

ثقوا يا تلاميذى بأننى خدعتكم أقبح خداع ، وما سكت الله عنى إلا لأنه رآنى أصغر من  
أن أستحق التأديب ، أو لأنه رأى من حق الأطفال أن يرسموا ما يشاءون من الخطوط فوق  
الرمال .

لَيَ عَذْرٌ وَاحِدٌ يَا تَلامِيذِي ، فَقَدْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَتْرِكَ عَوَاطِفِي تَتَبَدَّدُ فَلَا يَسْجُلُهَا غِنَاءٌ وَلَا أَنْيُنَ ، مَعَ أَنَّهَا أَكْرَمُ مِنَ الذَّهَبِ وَأَثَمَنُ مِنَ الْمَاسِ .

لَوْ شَرِبَ الصَّخْرُ مِنْ رَحِيقِ الْوُجُودِ بَعْضَ مَا شَرِبْتُ لِتَحَوُّلِ إِلَى أَوْتَارِ وَقُلُوبِ ، فَكَيْفَ أَصُمْتُ وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تَتَأَرَّجُ مِنْ حَوْلِي بِأَنْفَاسِ الْأَزْهَارِ وَالرِّيَّاحِينَ ، وَلِي قَلْبٌ يَتَشَوَّفُ إِلَى أَفْنَانِ الْجَمَالِ تَشَوَّفُ الشَّمْسُ إِلَى أَنْدَاءِ الصَّبَاحِ .

لَا تَغْتَرُّوا بِعَفْوِ اللَّهِ يَا تَلامِيذِي كَمَا اغْتَرَّرْتُ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيكُمْ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ عِيُوبَهُمْ كَمَا أَعْرِفُ عِيُوبِي .

وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى سَحْبِ الثِّقَةِ مِنْ أَسْتَاذِكُمُ الْجَهُولِ .  
أَدْعُوكُمْ إِلَى الْيَقِينِ بِأَنَّكُمْ عَرَفْتُمْ رِجَالًا لَا يَسْتَأْهِلُ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَلَوْ حَاسِبْنِي اللَّهَ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ لَمَحَا اسْمِي مَحْوًا مِنْ قَائِمَةِ الْوُجُودِ .

اسْمَعُوا ، يَا تَلامِيذِي ، اسْمَعُوا .  
إِنْ نَاسًا يَعْتَذِرُونَ عَنِّي فَيُضَيِّقُونَنِي إِلَى الصُّوفِيَةِ .  
وَهَذَا حَقٌّ مِنْ جَانِبِ ، فَأَنَا مُتَّصِفٌ بِالْقَوْلِ لَا بِالْفِعْلِ .  
وَلَوْلَا الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ الَّذِي سَتَرَ عِيُوبِي لَفَضَحْتُ نَفْسِي بِلا تَرْفِقْ ، وَأَرَيْتُكُمْ مَبْلَغَ الزُّورِ وَالْبَهْتَانِ فِي سُلُوكِي ، السُّلُوكِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِرَجُلٍ يُوْثِنُ بِفَاطِرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ .  
اسْمَعُوا ، يَا تَلامِيذِي ، اسْمَعُوا .

لَقَدْ فَتَحْتُ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ آفَاقًا مِنَ الضَّلَالِ يَوْمَ أَقْنَعْتُكُمْ بِالْقَلَمِ وَاللِّسَانِ أَنَّكُمْ مَأْمُورُونَ بِالنَّظَرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَعْيُنُكُمْ وَقُلُوبُكُمْ أَنْ تُدْرِكَ الْمَجْهُولَ مِنْ حَقَائِقِ الْوُجُودِ ؟  
إِنْ أَسْتَاذُكُمْ ضَاعَ ثُمَّ ضَاعَ ، لِأَنَّهُ خَاطَبَ النَّاسَ بِمَا لَا يَفْهَمُونَ ، فَاحْذَرُوا أَنْ تَخَاطَبُوا النَّاسَ بِمَا لَا يَفْهَمُونَ .

وَهَلْ تَصَدِّقُونَ أَنَّنِي خَاطَبْتُ نَفْسِي بِمَا لَا تَفْهَمُ نَفْسِي ؟  
هَلْ تَصَدِّقُونَ أَنَّنِي رَأَيْتُ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَأَنَّنِي حَاسِبْتُهُ أَشَدَّ الْحِسَابِ ؟  
أَنَا أَتُهُمُ اللَّهَ أَمَامَكُمْ يَا تَلامِيذِي : فَهُوَ الَّذِي هَدَانِي إِلَى الضَّلَالِ ، وَهُوَ الَّذِي دَعَانِي إِلَى التَّغْرِيدِ فَوْقَ أَفْنَانِ الْجَمَالِ .

هُوَ الَّذِي صَاغَ قَلْبِي مِنَ الرَّفَقِ وَالْعَطْفِ وَالْحَنَانِ .  
هُوَ الَّذِي قَضَى بِأَنْ أَغِيْشَ شَقِيًّا لِأَمُوتَ شَقِيًّا .  
هُوَ الَّذِي اخْتَصَّنَنِي بِهَذَا الرُّوحِ الشَّافِافِ لِأَكُونَ أَضْحُوكةَ الْجَاهِلِينَ وَالسَّفَهَاءِ .  
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لِي لِسَانًا لَا يَتَحَبَّسُ ، وَقَلَمًا لَا يَتَوَقَّفُ ، لِأَعْلَنَ عَنْ سَفَاهَتِي فِي كُلِّ أَرْضٍ ،



— ٢٠٣ —

ولتسير غوايتي سِرَّ المثل الشرود .  
اسمعوا ، يا تلاميذى ، واعقلوا .  
سيموت أستاذكم مقتولاً بسحر العيون .  
وهو يرجوكم أن تخصوه بالدعوات الصالحات ، فى أعقاب الصَّلوات .  
وثقوا يا تلاميذى بأن عطفكم علىّ هو أثمن ما اقتنيت من الذخائر فى حياتي .  
ثقوا بأننى ما ادخرت لنفسى غير حبكم وكرمكم وعطفكم وما أحسبني من الخاسرين .  
سيترك لكم أستاذكم تركةً مُثْقَلَةً بالديون ، فدافعوا عني وأقضوا ديوني .  
وأنت يارب ، ماذا ادخرت لعبدك الأَوَّاب ؟  
أكتبني من المشردين فى حبك ، واجعلني من المضللين فى هواك .

\*\*\*

— دكتور ، دكتور .  
— نعم ، يا سيدي .  
— بقيت فى الموصل أعاجيب ، فهل تحب أن ترى تلك الأعاجيب ؟  
— وما هي تلك الأعاجيب ؟

\_\_\_\_\_

## ٢٤

- نحن ذاهبون إلى دبر مار جيوارجيس .
- وأين ؟
- في ضواحي نينوى .

\* \* \*

. كنت أحب من زمن بعيد أن أشهد نظام الديارات التي صنعت ما صنعت بألباب الشعراء ، ولكنى بلا أسف لن ألهو بها كما لها الشعراء ، فما تركت لى الدنيا مجالا ألهو فيه وألعب ، وإنما أذهب اليوم إلى الدير لأحقق الفروق بين الدير عند الرهبان والزاوية عند الصوفية ، وهو موضوع شغل نفسى بتحقيقه فى كتاب ( التصوف الإسلامى ) .  
والواقع أن نظام الأديرة نشأ فى أقدم عهوده بمصر ، ورهبان الموصل على بعد الدار يعرفون ذلك ، ويقولون إن القديس أنطونيوس المصرى هو أبو الرهبان ، وقد نشأ فى قرية تسمى كوما بالصعيد .

وكذلك يقول الرهبان الذين عرفتهم فى باريس وهم يرجعون الفضل فى وضع نظام الرهبة إلى آباء الصحراء ، الصحراء المصرية ، ولهم فى تأكيد هذا المعنى أبحاث طوال .  
وفى اللغة الكلدانية كتاب عن رهبان مصر يسمى ( فردوس الآباء ) وهو مترجم عن اليونانية .

وسبق مصر إلى نظام الرهبة له سبب معقول ، فمصر — عفا الله عن مصر — تقهر المرأة قهراً على الإيمان بالله وتفرض عليه أن يفر من الناس إلى المغارات والمغارات .  
والمرء لا يعرف ربه إلا عند البأساء ، وما عاش إنسان فى مصر بلا بأساء .  
فى مصر جمال وهاج ، ولكنه أحمق وعرييد .  
وفى مصر أودية تحضر ، ولكنها لا تضمن إلا لمن يملك السلاح .  
فى مصر كل شئ ، وليس فيها شئ !

\* \* \*

دخلت الدير أستلهمه وأستوحيه فاستأنس رهبانه كل الاستئناس ، وتقدم رئيسهم فقال :  
من السيد ؟

فقال الدكتور لويس ليبب : هذا طبيب ليلى شفاها الله !

فابتسم رئيس الرهبان وقال : وشفاه الله !  
ومرّ بالخاطر أن هؤلاء الرهبان كانوا يستقبلون أبناء الدنيا من حين إلى حين ولسانُ حالهم  
يقول : إلى فردوس الصفاء لحظة أو لحظتين يا أبناء الدنيا الغادرة التي تأكل بنيتها قبل أن يفتحوا  
أعينهم على نور الوجود !

— إيش لون ليلي ؟

— بخير وعافية .

— ألا تزال في حبها الغاضب عليك ؟

— ما تزال غَضْبَى ، يا مولاي ، وأنا أطير من أرض إلى أرض لأبحث عن الشفاء .

— هاتها مرة واشرب معها هنا كأساً أو كأسين !

— لو كانت ليلي تشرب الصهباء لوصلتُ إلى قلبها منذ أزمان ، ولكنها لا تشرب الخمر  
أبداً ، ولا تعفو عن الشارين ، وأخشى أن أهمّ بتقبيلها فتشم رائحة الكأس التي كنتُ همت  
بشربها منذ أعوام طوال .

— وأنت تشرب ؟

— أفكر في الكأس من حين إلى حين .

— وتحبُّ ما تبغض ليلاك ؟

— أنا أداعب خيال الشراب ، لأقترب منها بعض الاقتراب ، لأن رُوحها صبيغ من حَبِّ  
الصهباء .

— وأين تقيم ليلاك ؟

— في بغداد .

— في أى محلة ؟

— في شارع العباس بن الأحنف .

— وكانت بينك وبينها أشياء ؟

— نعم ، أشياء ، وأشياء ، توهمتُها مرةً ثُبتُ إلى صدرى وتقبّلنى ، وتوهمتُها مرةً ثانيةً  
تمسح جبينى بترفق ، وتوهمتُها مرةً تسأل عن مكانها من قلبى ، وتوهمتُها مرةً رابعةً تترحم على  
مصريى في هواها ، وتوهمتُها مرةً خامسةً تتوجع لشقائى وسهادى . وأؤكد لك أيها الراهب  
الجليل أنها سمحت لخيالى بأن يطوف بقلبها الخفاق من حين إلى حين ، أؤكد لك وأنا واثق من  
صحة ما أقول أنها رضيت بأن أكون في هواها من الشهداء .

أيها الراهب ، اسمع ثم اسمع ، فما كنت من الكاذبين ، إن ليلي سمحت بأن أرى وجهها في  
القمر حين يَطْلُع ، وأن أشمّ شذاها في الزهر حين يتأرجح ، وأن أرى طغيانها في الفرات حين

— ٢٠٦ —

يَهْدِر ، ولم تكتف بذلك ، أعزها الحب ، بل رضىت بأن أراها في حفيف النسائم ، وهديل الحمام ، واصطخاب الأمواج .

إن ليلي — وما أكذب عليك — تسمح بأن أتوهم أنها ستزورنى في مصر لتقيم بين ذراعى أسبوعاً أو أسبوعين .

إن ليلي ، أيها الراهب ، وعدت بأن تمنحنى نعمة الجنون ، وهى لا تعدد ليخلف .

إن ليلي هى غاية الغايات ونهاية النهايات في السخاء .

فإن كنت في ريب من ذلك فاعلم أنها أباحتنى منذ شهرين أن أعتقد أنها طوقت عنقى بأطواق من الحديد ، وأنها سترقم اسمى في صفحات الخلود .

إن ليلي ، أيها الراهب ، ساجية الجفنين ، أسيلة الخدين ، مُشرقة الجبين .

إن ليلي تحببني ، ولكنها تكتم ، لأن لها هوى في الكتان .

أحبك يا ليلي ، فاصنعى بقلبي ما تشائين .

— يا دكتور مبارك .

— نعم ، أيها الراهب . .

— هل لك أن تحدثنى كيف صفح عنك العراق ؟

— وماذا جئت حتى يمين العراق بالصفح عني ؟

— إن مذهبك في حب ليلي سيقتلها أشنع القتل .

— وكيف ؟ أنا أقتل ليلي ؟ أنا ؟ إن كل همى أن تذكرنى ليلي بالشعر يوم أموت .

— اسمع يا دكتور مبارك ، ما هكذا يكون الهيام بالملاح .

— وكيف يكون الهيام بالملاح ؟

— يكون مزاجاً من الطهر والدنس .

— وهو كذلك ، وهل خلت حياتى في حب ليلي من دُئس ؟ لقد مررتُ بدارها مرة فقبلتُ

الجدران ، وعفرتُ جبيني بالتراب ، وسألت الله أن يحفظ عليها نعمة التأبى والتمنع فلا أعانقها

إلا في رحاب الخيال ، اسمع أيها الراهب ، لقد شفيت نفسى من ليلي فتمثلتها في الأحلام وهى

تُصْدِف عني .

— وكيف عجزت مع هذه الفصاحة أن تسيطر على قلب ليلاك ؟

— قلب ليلي طوعٌ يمينى أسيطر عليه كيف أشاء .

— وما وجه شكواك ؟

— ما وجه شكواى ؟ وجه شكواى أننا لا نجتمع ولا نفرق إلا متخاصمين ، واللييمة

تنوهم أن الشقاء في الحب باب النبوغ والعبقرية ، فهى تريد أن تدفعنى دفعا إلى الخلود ،

— ٢٠٧ —

- والفناء بين ذراعها أحبُّ إلى من الخلود .
- هل وقع بينك وبينها مرة ما يذكر بأحوال العشاق الآثمين ؟
- نعم ، نعم .
- فصل ذلك بعض التفصيل .
- دخلتُ عليها ذات ليلة فوجدتها ...
- امض في حديثك .
- وجدتها ...
- هيه .
- وجدتها ...
- حدثني ماذا وجدت ؟
- وجدتها في انتظارى .
- ثم ماذا ؟
- أتظن أيها الراهب أنى أحدثك بما لو سألتني الله عنه لكتمتُ وأنكرت ؟
- دخلتما معاً فردوس الوجود ؟
- دخلنا معاً فردوس الخلود .
- خبِّلتنى ، خبِّلتنى .
- أغرق نفسك إن شئت في يَمِّ الخيال .
- أنت مزعج ، يا دكتور مبارك .
- إن ليلاى ، أيها الراهب ، فوق الأوهام والظنون
- أليست امرأة كسائر النساء ؟
- هى امرأة ، ولكنها ليست كسائر النساء ، فقد وقعتُ بيننا فتونٌ من الوصل حار في
- فهمها الملائكة فما يدرون أبيضونها في سجل الحسنات أم في سجل السيئات وأنا بحيرة أولئك
- الملائكة فرحَّ جذلان .
- امرأة خيالية ؟
- امرأة حقيقية ، امرأة من لحم ودم وأعصاب ، تأكل القلوب ، وتذرع بغداد وضواحي
- بغداد من الأعظمية إلى الكرادة الشرقية ، ولكن البلاء كل البلاء ، والخطر كل الخطر ، أن
- تسقينى تلك الكأس .
- أى كأس ؟
- كأس الحب ، هل تصدِّق أيها الراهب الجليل أنى لم أعرف بلايا الحب إلا في العراق ؟

هل تصدّق أنّي عشْتُ دهرى ألهو وألعب بألّباب الملاح إلى أن وقعتُ في هوى تلك السمرء ؟

— ليلاك سمرء ؟

— أقول إنّها سمرء .

— هي إذن بيضاء .

— ولكن عيونها سود .

— عرفتُ أن ليلاك بيضاء .

— هي سمرء .

— كنت فهمتُ من كلامك أنّها بيضاء .

— ولكن عيونها سود .

— أهي موصلية ؟

— أبوها بصريّ وأمها مؤصليّة ، ولعلها من الجنّ ، والله أعلم بالصواب .

— يا دكتور مبارك .

— نعم ، أيها الراهب .

— يجب أن تخرج من العراق .

— ولماذا أخرج من العراق ؟

— لأنك من الشياطين .

— وهل كنتُ من الرهبان ؟

— الرهينة في صدرك وإن لم تدخل الدير ، وهل صحّ لرجل قبل اليوم أن يُلبس المرأة ملابس

سماوية ؟

— ليتك رأيت ليلاى ، أيها الراهب ، ليتك رأيته لتعرف كيف يكون الرفق وكيف يكون

الحنان .

— وما شكواك ؟ حدثني ما شكواك ؟

— شكواى أنّي غريقٌ في كوثر الوصال .

— تلك شكاية المجانين .

— وأنا مجنون ، مجنون ، اسمع أيها الراهب ، إنك لا تحب كما أحب ليلاى ، ولو

أحببت ربك كما أحب ليلاى لمشيت فوق الماء . تعال معي إلى بغداد لأريك ليلى فقد يفتح الله

عليك .

— أتريد أن تفتنني ؟

— أنت أيها الراهب أضعف من أن تصلح للفتون .

- أتريد أن تقول إنك أقوى مني .
- نعم ، أنا أقوى منك ومن جميع زملائك ، فقد عانيتُ من سحر ليلي ما يهدُّ الجبال ، ومع ذلك ظللتُ رجلاً محترماً يتولى تثقيف الشبان في بغداد ، وسأفارق بلادكم وأنا برعاية الله مستور الهفوات .
- أنت مغرور !
- المغرور هو من يتوهم أنه نجا لأنه اعتصم بالعزلة في هضبات نينوى .
- أنت جاهل .
- وأنت أجهل مني .
- أنت مصريٌّ مخدوع .
- وأنت موصلِّي أحق ، تعال معي إلى ليلي وانظر كيف يطيش لبك ، وينهدم وقارك .
- لا تنتظر أن يدوم ستر الله عليك .
- إن الفضيحة في حب ليلي هي نعمة من الله الوهاب .
- أنت مُضَيِّع .
- أنت وحدك المضيع .
- رأسي شاب في العبادة فأنا أفضل منك .
- وقلبي ذاب في العشق فأنا أفضل منك .
- أنا نصرانيٌّ وأنت مسلمٌ .
- وأنا مسلمٌ وأنت نصرانيٌّ .
- أنا متبتلٌ وأنت فاجر .
- وأنا فاجر وأنت متبتل ، وستعرف مصري ومصريك .
- اخرج من الدير .
- وإلى أين أخرج وديناي كلها ديرٌ يا قسيس !

\* \* \*

- وهنا تدخَّل الدكتور لويس ليب فقال :
- أمن أجل هذا حضرنا يا دكتور مبارك ؟
- معذرة يا صديقي ، فالرهبان أصدقاؤى ، والمرء لا يطول لسانه إلا حين يظفر بصديق ، وهل يصل إليك الأذى إلا عن طريق الإخوان والأصدقاء ؟
- كان الظن يا دكتور مبارك أن تضع القواعد لدستور جديد .
- من الغدر أن أخرج على طبيعة الأرض التي منها خُلِقنا وإليها نعود .

( ليلي المريضة في العراق )

— ٢١٠ —

— وهذه الأرض توجب السفاهة والحمق ؟  
 — وتوجب الطيش والجنون .  
 — أما استطاع حبٌ ليلي أن يرفعك ؟  
 — بلى ، إنه رفعني فوقكم درجات .  
 — وأين الدليل ؟  
 — الدليل هو أن أستغفر شيخ الرهبان ، وأن أشرب معه كأساً من الخمر التي عصرها بيديه  
 الكريميتين .

\*\*\*

ورجعتُ إلى نفسى لحظة فتوهمت ليلي تعانقني بحضرة الرهبان فطربتُ وانتشيت وطلبتُ  
 كأساً مما عصر الرهبان بأيديهم فوجدتها حلوة المذاق ، وما كان يهمنى أن أشرب كأساً من يد  
 راهب ، ولكنني تذكرت أن الدكتور منصور فهمي كان حدثني بحضرة الدكتور طه حسين  
 أنه شرب كأساً من يد راهب في أحد ديارات اليونان . ونحن أشقى من سَدنة الهياكل وأحوج  
 منهم إلى وادِ الموم في مهاوى الكؤوس .  
 نحن أشقى الناس لأننا عرفنا بعض ما لا يعرفون ، وساءت أحوالنا منذ اليوم الذى تأكدنا  
 فيه أن الرياء سيد الأخلاق . فمن يبيعنى مثقالاً واحداً من الرياء يأخذ من أموالى ما يشاء ؟  
 من يهينى رُبُع مثقال من النفاق لأصلح لأعظم منصب ديني في مصر أو في العراق ؟  
 أنا في أزمة عقلية لو سُلطت على جَبيل راسخ لحوّلته إلى رماد تذروه الرياح ، وأكاد أصعق  
 من الخوف كلما توهمت أنى قد أنهزم في محاربة الرياء والنفاق .  
 ولا أكاد أعرف الطمأنينة إلا حين أتذكر أنني أعلنت آرائى بالتفصيل في كتاب ( التصوف  
 الإسلامى ) ثم استطعت أن أظفر بقبول تلك الآراء من لجنة علمية بالجامعة المصرية .  
 ولكن هل ينفعنى ذلك في حياتي ؟  
 إن رجال الجامعة المصرية لا يرتبطون بالآراء التى يديها طلبة الدرجات العالية ، وإنما  
 يجيزونها لأنها محاولات عقلية تعدّ خطوات في تاريخ الدراسات الأدبية والفلسفية .  
 وهل أستطيع إن قامت ثورة ضد كتاب ( التصوف الإسلامى ) أن أقول إنى أخذت به  
 إجازة عليه أمضاها طه حسين ومصطفى عبد الرازق وأحمد لطفى السيد ومحمد حسين  
 هيكل ؟  
 هل يستطيع هؤلاء الرجال أنفسهم أن يتقدموا ل حمايتي ممن يجهلون قيمة المحاولات  
 العقلية ؟  
 إن الجامعة المصرية تربّى أبناءها بضع سنين ثم ترمى بهم في بحر الظلمات الذى يسمّى



المجتمع ، وتفرض عليهم أن يضطلعوا وحدهم بمقاومة الأمواج .  
وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أكافح الأمواج في بحر الظلمات فما رحمنى راحم ولا أغاثنى  
مغيث .

ويزيد في النكبة أن رجال الجامعة المصرية يعرفون من سياسة الجمهور ما لا أعرف .  
هم جميعاً في نظر الجمهور أطهار أشراف ، وأنا وحدى الفاجر الملحد فيما يزعم  
الجاهلون .

رباه ، لم يبق أمل في غير الالتجاء إلى حماك ، فنجنى من شر الناس لأستطيع تربية أطفالي .

\*\*\*

جلست مع شيخ الرهبان أساجله الحديث ، وهو رجل فاضل يسمى يوسف داد يشوع ،  
وكلمة ( داد ) كلمة كلدانية معناها ( حبيب ) ويشوع هو يسوع يعنى عيسى عليه السلام .  
وقد عجبته حين رأيت هذا « الداد » يتلقى هجومى عليه بالاحتمال ، ويظهر أنه ظننى  
أمزح ، وما كنت من المارحين .

وأردت أن أستخبره عن ماضى نينوى فقال إن سكانها كانوا يبلغون المليون ، فاستكثرت  
ذلك ، فقال إن في التوراة نصاً يشهد بأنهم كانوا يقربون من المليون ، ثم قرأ في التوراة  
بالكلدانية ما ترجمته :

« كان في نينوى مئة وعشرون ألفاً لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم » .

ثم قال إن هؤلاء هم الأطفال الرضع ، والمدينة التى يكون فيها مئة وعشرون ألفاً من الأطفال  
الرضع يقرب عدد سكانها من المليون .

فقلت : أخطأت في التأويل ، أيها القسيس !

فقال : وكيف ؟

فقلت : إن نص التوراة التى بيدك يشهد بأن سكان نينوى كانوا مئة وعشرين ألفاً فقط .

فقال : هذا عدد الأطفال الرضع الذين لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم .

فقلت : إن التوراة لا تريد بعبارة « لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم » أنهم أطفال ، وإنما تريد  
أنهم من أهل الجهل والضلال .

وقد اقتنع الرهبان بصحة هذا التأويل .

\*\*\*

وحين رجعت إلى الفندق عرفت أن مغيثاً مصرية اسمها بُشينة سألت عني فقلت لرفيقي :  
وأين تغنى هذه المصرية ؟ فقال : أنا أعرف أين تغنى ولكنى لا أوافق على ذهابك إلى هناك ،  
لأن أهل الموصل لا يرون حضور الملاحى مما يليق برجال التربية والتعليم .

فقلت : ومن واجب أهل الموصل أن يعرفوا أن لي عدّة شخصيات ، منها شخصية الباحث الذى يؤمن بوجوب النظر فى كل شيء ، وأنا أزعم أنى أديب ، والصلة وثيقة بين الأدب والغناء .

مضيت لأسمع صوت بُثينة فراعنى أن أراه من كرائم الأصوات ، وسرّنى أن أعلم أن هذه الفتاة استطاعت أن تظفر بإعجاب المستمعين فى حلب والموصل وبغداد ، وحدثنى رفيقى أن لها سمعة حسنة وأن الجمهور يتحدث بأنّها تحرص على أداء الفرائض والنوافل وأنها نموذج فى الأدب والأخلاق .

فمن الذى علّم هذه الفتاة أن تحسن السمعة هو أئمن ما يتجلى به المغتربون من أهل الفنون ! أشهد أن هذه الفتاة خلّبت لُبى وهى تغنى ، وأشهد أن الجمهور المصرى يجهل ذخائره الفنية فى أكثر الأحيان .

ولاحظت أن الغناء فى ذلك الملهى أفانين مختلفات : ففيه أغاني عربية ، وأغان كردية ، وأغان تركية ، وهذا التنوع يمثّل ما فى الموصل من اختلاف الأجناس . ولن يمرّ إلا قليل من الزمن حتى تصبح الأغاني كلها عربية ، فالأكراد أنفسهم عرب ، وجدهم الأكبر كانت له قرابة من بعض ملوك العرب فى الجاهلية .

\*\*\*

رجعتُ من الملهى غضبان ، فقد تذكرتُ أن أيامى فى الموصل قد تنتهى قبل أن أصل إلى قريبات ليلى ، وهل قديمُ الموصل لأشغل نفسى بدرس ما فى الموصل من الجوانب العلمية والأدبية والاجتماعية ؟

إن اهتمامى بهذه الشؤون لم يكن إلا وسيلة لصرف الأنظار عن تعقّب غرامياتى ، وقد اقتنع أهل الموصل بأنى لا أعرف غير الجد الرصين ، وتفضل فقهاؤهم فزارونى فى الفندق ودعوني لزيارة المدارس الدينية ، وأطلعوني على ما عندهم من غرائب المخطوطات ، وصحبوني إلى زيارة المساجد والمعابد والمزارات ، وتفضل فريق من أعيان الموصل فأرونى نظام المحاكم وأرونى عين الكبريت ، وتلطف رئيس نادى الجزيرة السيد نجم الدين جيلميران وهو من تلاميذى القدماء فدعا أهل الموصل لسماع محاضرة ألقياها عن صلبة الأدب بالحياة ، وأعلن أن الدكتور زكى مبارك هو أجمل هدية قدمتها مصر إلى العراق .

كلّ هذا جميل .

ولكن أين أنا من الغرض الذى زُرْتُ من أجله هذه المدينة الحداث ؟ كنت أستطيع أن أكون من جهابذة العلماء لو خلّثت حياتى من الغرام والفنون .

وأين الذى يملك مثل ما أملك من الألقاب العلمية ؟  
وأين العالم الذى يستطيع أن يجاربنى فى ميدان التأليف ؟  
ولكن ما قيمة المجد فى حياة تَمُرُّ بلا حب ؟  
لو أن قلبى كان نَحْلا من الحب لَخَلَقْتُهُ خَلْقًا لَأَسْتَطِيعَ فِهم الحقائق فى العوالم الوجدانية  
والنفسانية ، فكيف أطرِد الحب وهو رفيق لم يفارقنى من عهد الحداثة إلى اليوم ؟  
كيف أطرِد هذا المَلِكَ المحبوب وبه عرفت دقائق الوجود ؟  
كيف أرضى بأن تخلو حياتى من الصبوات وفى بعض الآثار أن الله يعجب من شاب تخلو  
حياته من صبوات ؟  
وهل يسرُّنى أن يعجب الله منى ؟  
أنا أعرف فضل الحب على ، فبفضل الحب تفوقتُ فى اللغة الفرنسية التى كانت الححر  
الأول فى بناء حياتى الأدبية ، وهل تفوقتُ فى لغة لامتريّن إلا بفضل الصحبة الطويلة لطيبات  
باريس ؟  
إن كَلَّ كلمة فى اللغة الفرنسية لها فى قلبى تاريخ ، لأنها موصولة بمئات وألوف من عذاب  
الذكريات .

ربّاه ! متى تعود أيامى !  
ولكن ما الذى سأجنيه من حب ليلي المريضة فى العراق ؟  
إن عندى من التجارب النفسانية والوجدانية ما يملأ عشرات المجلدات ، فما قيمة الغرام  
بهذه الحمقاء ؟  
ليلى حمقاء ؟  
معاذ الأدب والدوق .  
أنا أعرف أن ليلي قليلة المحصول الأدبى والعقلى ، ولكن فطرتها سليمة جدًا ، وبفضل تلك  
الفطرة السليمة صنعتُ بقلبى ما لم تصنع حسان باريس .  
وما كان يعوزنى العلم بعد أن قضيتُ عشرين سنة فى الحياة الجامعية ، وإنما كان يعوزنى أن  
أتصل بروح سماوية تجلو الصدا عن قلبى وجناتى ، وقد رَدَّتْنى ليلي إلى حياة الطهر والنبل ، فأنا  
اليوم من أصحاب المعانى وأرباب الأذواق ، أنا اليوم روحٌ لطيف ضيغ جوهره من عبق  
الرحيق .

ومن الذى يصدّق أن زكى مبارك المشاغب صار بفضل ليلي مثلاً عاليًا فى اللطف والرفق ؟  
من الذى يصدّق أن زكى مبارك راضه الحب بعد الجموح فصار من نماذج الدوق ؟  
كانت ليلي قرأتُ فى بعض ما كتبتُ أنى ما رميتُ سهمًا فطاش .

فقلت ذات ليلة وهى غاضبة : هل تعرف أن سهمك طاش فى هذه المرة ؟  
 فابتسمتُ وقلت : أسدّد السهم مرة ثانية عساه يصيب .  
 وعندئذ شاع الأنس فى أسارير وجهها الحزين ، ومدّت يَمَناها فقبلتها بلهفة وشوق .  
 ليلَى نبيلةُ الطبع ، ولكنى أحق .  
 ما الذى كان يوجب أن نختصم فنفترق ؟  
 كانت كلمة واحدة تكفى لتبديد ما فى صدرها من الوسواس ، ولكنى لسوء البخت  
 أوغلتُ فى غيابات العناد .  
 واليوم ماذا أصنع ؟  
 إن ليلي غاضبة ، ما فى ذلك شك ولا ريب .  
 وقد طوّفتُ بأرجاء العراق للبحث عن الشفاء ، وآخر بلد هو الموصل ، فأين أذهب ؟  
 أين أذهب ؟ أين أذهب ؟  
 إن خِبتُ فى الموصل فلن أفلح بعد ذلك .  
 هذه خريطة العراق بين يديّ ، وقد زرتُ من الحواضر والديساكر ما لم يزره الشريف  
 الرضى الذى كان يهدّد خلفاء بنى العباس بأن له فى مصر أصدقاء ، وفى الخريطة قُطُرٌ يسمّى  
 العمارة وهو مشهور بالشعر والجَمال ، ومن المؤكّد أن فيه ليليات يستطعن نُقع غليل الفؤاد  
 بإصلاح ما بينى وبين ليلاي ، ولكن يصدنى عن زيارة العمارة شىء ، تصدّنى الخطابات التى  
 تلقيتها من الصابئين هناك ، وهم يؤكّدون أن فى مقدورهم أن يكتبوا لى تميمة تشفىنى من حب  
 ليلي فى مثل لمح البصر حين أشاء ، وقد علمتُ أنهم أقدر على السّحر من صابئة بغداد ، وأنا  
 أخشى أن أزور العمارة وأنا فى هذه الحال من اليأس فأستكتب التميمة وينتهى الحب .  
 أنا أعرف السبيل إلى الشفاء ، ولكنى لا أريد .  
 وكيف أَرْضى أن تخرج ليلي من حياتى ؟  
 كيف أحرم نفسى من نعيم الشقاء ؟  
 كيف أقضى ليلائى محروماً من الهيام بليلى بنت ليل ؟  
 إيش لون يصير ؟  
 أحبك يا ليلي ، وأحب فيك عذابى وشقائى وبلائى .  
 أحبك ، وأدعوك إلى الاحتراس منى .  
 أنتِ استطعتِ أن تقهرينى على الطواف بأرجاء العراق لأبحث عن الشفاء ، فاعلمى أنى  
 سأقهرك على الطواف بجميع بقاع الأرض للبحث عن الشفاء .  
 سنفترق يا ليلي بعد أسابيع ، وسوف تعلمين .

— ٢١٥ —

سأترك قلبك في فضاءٍ مُوحشٍ تعجز عن إيناسه ملايين الأرواح .  
أتحداك يا ليلي ، أتحداك أن تفتلي من يدي وأن تسلمي من هواي .  
يخدعك الوهم يا لئيمة حين تظنين أنك تملكين من زمامك ما لا أملك .  
وسوف تعلمين عواقب هذا الخداع .

\* \* \*

أضاليلُ يُزجها خيالي وأثنى إلى غاية مطموسة الأنس جرداءٍ  
أفي الحق أني أملك من زمام ليلي ما لا تملك ؟  
وهل استطاع كبار المهندسين المصريين أن يملكوا زمام دجلة أو الفرات ؟  
ليلي لطيفةٌ جدًا ، ولكنها تنفر مني ، لأن عيوني تُحضر عيونها سود .  
فمن هو اللثيم السفية الذي حدثها بأن العيون الخضرة تهيج الحيات والثعابين ؟  
وهل كانت ليلي حية رقطاء حتى تخاف من عيوني ؟  
أنا رجل لطيف وأعدائي في مصر لا يزيدون عن عشرة آلاف ، فكيف تتخوف ليلي من  
عدواني ؟

سأترك الموصل وأنا محزون .  
ومن سوء الطالع أن أزور الموصل بعد جفاف الأعشاب .  
وأخشى أن لا يسمح الدهر بزيارة الموصل بعد اليوم .  
ومن الذي يضمن أن ترضى ليلي عني فأرجع لزيارة العراق في الأعوام المقبلة ؟  
ولكن يعزيني أن أعرف أن ليلي لن تنساني ولن ترى وجه البصديق بعد فراق .

\* \* \*

ما هذا ؟ ما هذا ؟  
دعوة من نرجس ، ودعوة من ثماضر .  
أتكون هذه الدعوات تباشير للوصول إلى الشفعاء ؟  
لم يبق بيني وبين الصبح غير لحظات ، وسأنتظر ما تجود به نسيمات الصباح .

—

هجع السامرون في الموصل وبقى سهران أعذ النجوم وأحصى ذنوب الحب .  
 فماذا صنعت في اليوم الذي ذهب إلى غير معاد ؟  
 هذا اليوم الخامس من أيامي في الموصل ، وهي أطول مدة قضيتها في البعد عن بغداد ،  
 وأعتقد أنني أخطأت التقدير ، فلو كنت قضيت مثل هذه المدة في البصرة أو في الحلة أو في  
 النجف لكان من المؤكد أن أنجح في اجتذاب الشفعاء ، ولكن الحظ رماني بمدينة فيها مشابه من  
 بيروت ودمهور ودمياط وأسوط .  
 الموصل مدينة جميلة ، ولكن الغريب لا يصل منها إلى شيء ، وهي البلد الوحيد في العراق  
 الذي يعيش فيه اليهود فقراء !  
 وجسر الموصل نفسه يوصى بالبخل ، فهو يكاد يجبس ماء دجلة : فلا يخلص منه الماء إلا  
 في خريف يشبه الصوت المبحوح .  
 وشوارع الموصل تقفر من السابلة في مطلع الليل ، كأن المدينة تهجع عمداً لتستعد  
 لاستئناف الكفاح في الصباح .  
 فما عسى أن أصيب من كرم هذه المدينة ؟  
 إن الشح من شمائل الرجال في الموصل ، فكيف يكون النساء ؟  
 كيف يكون النساء وأدب العرب يوجب الشح في النساء ؟  
 لو كنت من رجال الاقتصاد لأثنت على أهل الموصل فالإقتصاد هو الخلق الوحيد الذي  
 ينقص العرب ، ولو كان المسلمون اختصموا في سبيل المذاهب الاقتصادية كما اختصموا في  
 سبيل المذاهب الدينية لانفرست فيهم عواطف الحرص على الثروة فعاشوا سعداء وأقوياء .  
 لو كنت رجلاً عاقلاً لأثنت على أهل الموصل ، ولكن الحب أضافني إلى المجانين .  
 لقد عرفت بعد فوات الوقت أنني لم أعد العدة للحب فأنا أتوسل إلى قلوب الملاح بوسائل  
 لا تُغني ولا تنفع ، أتوسل بالعواطف والمدامع ، وهي شيء رخيص في القرن العشرين ، ولو  
 كنت أنفقت شبلي في جمع المال ولم أضيّعه في التعليم والتأليف لكانت إشارة واحدة تكفي  
 لتسخير من أشاء من الليليات .  
 ويزعجني أن أعرف أنني لن أستطيع إصلاح ما أفسدت من حياتي .  
 وهل يصلح الرجل لتغيير مذهب في العيش بعد الأربعين ؟

لم يبق إلا أن أكفى بالسلاح المفلول في ميدان الحب : سلاح الغزل والاستبكاء .  
ولكن ما الموجب لهذا التحسر ؟

إن أصدق الناس جميعاً هو الشاعر الذى قال :

إني امرؤ سأموت إن لم أقتل

فأنا لن أخلد إلا في عالم الفكر ، إن كان في الدنيا خلود ، وقد صانني الله تباركت أسماؤه  
عن الفسق والفجور والدنس ، وليس لي من أهل الجمال إلا مأرب واحد هو درس الطبائع  
والغرائز والميول ، لأخرج من ذلك بمحصول فلسفى قد ينفع بعض النفع في إذكاء الدراسات  
الأدبية والفلسفية .

وخيتي في الحب تضر من جانب وتنفع من جوانب ، فلتصنع الأقدار ما تشاء .  
أكتب هذا الكلام لأوهم نفسي أنى لم أضيع في الموصل ، والمهزوم هو الذى يتفلسف  
ليوهم نفسه ويوهم الناس أنه من المنتصرين !  
على أنى واثق بأنى لم أضيع تمام التضيق ، أليست التجارب من جملة المغامم ؟  
بلى ، هى من جملة المغامم ، وربما كانت أعظم المغامم .

وما قيمة ذلك وقد عجزت عن اجتذاب الشفعاء ؟  
إن ليلي ستفر من يدى ، إن لم تكن فرث بالفعل ، ولعلها تقضى هذه الليالى في السمر المتع  
مع جاراتها الرفيقات ، ولن يطيب لها السمر إلا على حسانى ، وأنا مع ذلك :

أحب التى صددت وقالت ليربها دعيه الثريا منه أقرب من وصل  
أحب المرأة التى تشمت في حيرتى وعذائى ، وتحذث من تعرف ومن لا تعرف بأنها  
حكمت على شاعر ستريس بأن يهيم على وجهه في مجاهل العراق .  
إن كان عذائى يسرك يا ليلي فأنا ذاهب بفضل الحب إلى الجحيم .

ولكن يؤذنى خاطر واحد ، فأنا أخشى أن ينتهى التجنى إلى القطيعة ، وهل كان الحب إلا  
شجرة مدللة لا تحتل العواصف ولا الأعاصير ؟

لقد صبر زميل قيس بن الملووح على ليلاه ، لأنه كان يعيش في البادية ، والبادية تقل فيها  
المفاتن والمغريات ، والشرك بالحب في البادية يمتعه المجتمع البدوى ويعاقب عليه .

أما أنا فحضرى له أحوال وأحوال ، والغدر من أهل الحضر خلق مقبول ، والأحق في  
شريعة اليوم هو من يقف قلبه على هوى واحد .

فاحرسينى يا ليلي قبل أن أضيع من يدك ، احرسينى يا محبوبتى الغالية ، احرسينى ولا  
تكونى حمقاء فإن السيطرة على قلب مثل قلبى غرض عزيز المنال .  
احرسينى يا ليلي وأدينى بأدبك العالى .

احرسيني لتخلقى منى شاعرًا يتحدث عن عواطف وأهواء لا يعرفها أهل مصر ولا أهل العراق .

احرسيني لأحقق فكرة الجنون في الحب ، فالجنون في الحب هو المصدر الأصيل لعقيدة التوحيد .

احرسيني لأنظم في العام قصيدة أو قصيدتين .

احرسيني فأنا شاعرٌ هجر الشعر لأن قلبه لم يعد يصدق أن في الدنيا معاني تستحق سهر الليل في صَوغ القصيد . أنا يا ليلي ، مسكين ، مسكين ، مسكين .  
وأنت مسكنة أبشع وأفظع من خراب القلب ؟

لقد حملتُ قلبى من أرض إلى أرض عسانى أجد المواسين ، وضاعت آمالى في القاهرة والإسكندرية وليون وباريس ، لأن تلك المدائن يباع فيها الحب كما تباع الملابس ، وكان الظن .  
وقد وصلتُ إلى العراق أن أجد حبًا لا يشتري ولا يباع .  
وحبك يا ليلي لا يشتري ولا يباع ، وهو ما أتمناه وأنشاه .  
ولكن أين أنا مما أريد ؟

كنتُ أنشد :

إذا كان هذا الدمع يجرى صباةً على غير ليلي فهو دمعٌ مضئعٌ  
ودمعى لا يجرى على غير ليلي فهو غير مضئع .

ولكننى أشعر بأننى فى هوى ليلي مضئع .

ما الذى كان يوجب أن أشهد ما شهدت اليوم فى الموصل ؟  
وما قيمة الحبيب الذى يحتاج إلى شفيع ؟

ما قيمة الحبيب الذى لا يكون أحنَّ عليك من قلبك ؟

ما قيمة الحبيب الذى لا يكون أساك أوجع عليه من أساه ؟

ما قيمة الحبيب الذى يعذبك ليعلم عن جماله الفانى ؟

إن الحب فى جميع أحواله أنفَس من المحبوب ، لأن الحب يقدم عواطف صبيغت من الرفق والحنان ، أما المحبوب فلا يقدم غير أزهار سريعة الذبول .

وما كان يهمنى أن أظفر من ليل بالمتاع التافه الذى يظفر به من يقضى ليله فى مخاصرة الملاح .

ولمّا كان يهمنى أن يكون لها قلب .

وهل شقيتُ إلا فى البحث عن محبوب له قلب ؟

إن التقينا يا ليلي — والأحياء قد يتلاقون — فسأحدثك بالتفصيل عما عانيت فى هذا اليوم .



والإيك يا معبودتي جُملة الحديث .  
خرجتُ في الصباح لزيارة نرجس وثُماضر ، فماذا رأيت ؟  
قادتني رفيقي إلى بيت نرجس .  
فكيف رأيت نرجس ؟  
دخلتُ على طفلةٍ وهي تقول :  
— إيش لون ليلى ؟  
— بخير وعافية ، يا طفلتى الغالية ، وما اسمك يا حُلوة ؟  
— اسمي نرجس .  
آلمتني هذه الألوبة الموصلية ، وهل تستطيع طفلة في سن السابعة أن تصلح ما بيني وبين امرأة في سن الأربعين ؟  
إن الرجل قد يتفق مع امرأة في غير سنه ، وربما كان الأوفق أن يكون الرجل والمرأة في سنين مختلفتين ، وهل يتفق الرجل مع المرأة إلا في حال الاختلاف في الجسم والعقل ؟  
ذلك درس تعلمته في باريس يوم كنتُ أدرس أحوال العشاق ، فقد كنت أرى الصفاء لا يتم إلا بين امرأة قصيرة ورجل طويل ، أو بالعكس ، وكنت أرى العاشقين من جنسين مختلفين يأتلان أكثر مما يأتل العاشقان من جنس واحد ، وكذلك أحب ليلى المريضة في العراق أكثر مما أحب ليلى المريضة في الزمالك أو ليلى الصحيحة في حُلوان ، وإن لم يكن الاختلاف إلا في بُعد الدارين .  
الرجل والمرأة يتفقان مع اختلاف الأسنان .  
ولكن المرأة لا تتفق مع المرأة إلا إذا اقتربت الأسنان .  
فكيف تصلح طفلة في سن السابعة لإصلاح امرأة في سن الأربعين ؟  
ولكن لا بأس بما وقع ، فنرجس تشبه كريمة ، تشبهها في السداجة ، وجلادة الطبع ، وتشبهها في الحنان .  
كانت ابتى كريمة — برك الله في حياتها الغالية — تلقاني حين أدخل البيت بأرق مظاهر العطف والرفق ، وكذلك فعلت نرجس فهجمت عليّ بالعناق والتقبيل ، وسألتني أن أنقلها إلى أبيها في بغداد .  
سأُنقلك يا حُلوة إلى بغداد .  
وقدّمت المائدة فلم أُنل منها غير قليل ، لأنني استيأست من وجود الشفاء .  
والطعام لا يسوغ في حلق الموجه الحزين .  
— ما هذه الألوبة يا رفيقي ؟

— ٢٢٠ —

— ليست العوبة ، وإنما أردت أن أريك عُذوبة الأطفال في الموصل ، وسينشرح صدرك حين ترى تماضر ، وبفضل براعتها في الحديث ستصل إلى قلب ليلاك .

\* \* \*

لأهل تماضر مكان في ظاهر المدينة يستقبلون فيه الضيفان على الطريقة البدوية ، وإليه قصدنا بعد الغروب .

دخلنا في مكان تحيط به مرابط الخيل ، مكان جذّاب يواجه السماء في ليالي الصيف . وجاءت تماضر وهي تقول :

كيف حال ليلاك ، يا مولاي ؟

فالتفت فإذا صبيّة عذبة في الثانية عشرة ، مشرقة الوجه مصقولة الجبين .

وجلست تماضر تطارحنى الأشعار والأحاديث . ومُدّ السمّاط فأكلنا جميعاً بشهية .

وعند انصرام الهزيع الأول من الليل التفت إلى أبيها وقلت : هل في بيتك أن تصحبنا إلى بغداد ؟ أم ترى أن تترك تماضر في رعايتي ؟

فابتسم وقال : إن تماضر أصغر من أن تسوس امرأة تقيم في بغداد !!

\* \* \*

أنا أعرف مصري في الحب .

ولكن المهم أن أرجع سليماً إلى بغداد .

وأهم من ذلك أن أرجع سليماً إلى القاهرة ، فقد يُخَيَّل إليّ أني سأموت في العراق .

وهل أنسى كيف قطعت الطريق من بغداد إلى كركوك ؟

قضيت مدة طويلة في القطار وأنا أهتف بهذا البيت .

إذا شاب الغرابُ رأيت أهلي وصار القارُ كاللبن الحليب

وإنما كان ذلك لأنني ظلمت نفسي في العراق ، فقد قضيت الشهور الطوال وأنا مُرهف الأعصاب والخوَّاس ، وما مرّ نهراً ولا ليل بدون محاولات ومصاولات ، ولا انقضى أسبوع بدون متاعب أسجلها في الجرائد والمجلات ، وما كان يجب عليّ شيء من ذلك ، ولكنني توهمت أني مسئول عن إيقاظ الحياة الأدبية في العراق .

وهل أنسى المسافة بين كركوك والموصل ؟

إن الطريق مقيم بين هاتين المدينتين ، ولكنه مزعج بسبب ما فيه من الوهاد والنّجاد ، والسيارات التي تنقل الركاب في ذلك الطريق محطمة بالية ، فهي تعلو وتسقط ثم تعلو وتسقط ، حتى لتكاد تمزّق الأحشاء .

والله يعلم كيف أرجع بعافية إلى بغداد !  
أيتها الموصل !

صدق من سمّك حذباء !

سأفارق الموصل في الصباح ، ولكنني لن أفارقها إلا بالدمع .  
سأفارق فيها روحاً شفافاً يعرف كيف يكون أنس الروح بالروح .  
سأفارق فيها روحاً لو أطعته لدخلت قبل الميعاد إلى فردوس الصفاء .  
فهل يعرف ذلك الروح أني سأشتاق إليه ؟

هل يعرف ذلك الروح أني ظلمت نفسي بالكتمان ليجهل أني أهواه ؟  
وأين ذلك الروح ؟

ستبدّل الأرض غير الأرض والسموات قبل أن تعرف الملائكة مقرّ ذلك الروح .  
فإن لم يكسّ نذ من التعريف بملاحمه السامية فأنا أصرّح بأنه روحانية علوية تفيض على أزهار  
الموصل بالعطر والأريج .

أيها الروح النبيل .

أغلب الظن أني سأرحل عن الموصل قبل أن أراك .

فإن فاتني أن أسأل عنك فلا تعيب ولا تغضب ، فما لي قدرة على مواجهتك يوم الرحيل .  
أيها الروح النبيل .

تذكّر أني كلّفت تبليغ التحية إلى سجن الموصل ، لأنه كان آوى روحاً أنست به في بغداد ،  
ثم فاتني أن أزور ذلك السجن المحبوب ، فأرجوك بالله أن تزور ذلك السجن غير مسئول يوم  
تفكر في المحب الذي زار الموصل ليرى الأزهار في خديك قبل أن يراها في الرياض .

أيها الروح النبيل .

تذكّر أن في عنقك أمانة غالية هي أن تحب مصر كما أحب العراق .

وسلام الله والحب على مصر والعراق .

ربّاه !

لِمَ وهبتني هذا القلب الحثان ؟!

٢٦

- اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان .
- اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان .
- اليوم يوم الدموع ، دموع الرفق والحنان .

رجعتُ من الموصل حيران ، ولم يخف كربي برؤية الصديق الذى انتظرني على محطة الباب الشرق والذى ألحّ وألحّ في أن أمرّ على الأسرة البابلية بحجة أنها تنتظر أن أتناول عندها العشاء ، وكان يهمنى أن أمرّ على ذلك البيت لأرى الغادة السمراء التى عَنّاها من يقول :

يا أمّ العباية زينه عَبَايَكُ يا سَمْرَا هَوَايَه زينه صِفَايَكُ  
الغادة الحُلوة العَذبة المثلوجة الرائ التى تغار من ليلي ومن ظمياء

وكيف أمرّ على ذلك البيت والغبار فوق ثيابي والسواد فوق فؤادى !

ما أشد شوقى إلى ذلك البيت !

كنت أزوره على غفلة فأرى الأطفال قد ناموا قبل غياب الشفق .

و كنت حين أزوره على موعد أرى الأطفال ينتظرون قدومى إلى نصف الليل .

فهل يعرف عبد السلام أن له أُنحاً في بغداد ؟

هل يعرف عبد السلام أن في بغداد طفلاً يقع على صدرى ويقبّلنى بحرارة وشوق ، كما كان

يقع على صدرى ويقبّلنى بحرارة وشوق ؟

متى أراك يا عبد السلام ؟ متى أراك ؟

ولماذا ينتظر الأطفال قدومى إلى نصف الليل وكانوا ينامون قبل غياب الشفق ؟

تلك عاطفة تلقوها عن السيدة النبيلة التى كانت تقدّم إلى العشاء مهما تأخرت ، فإذا

حلفت لها أنى تعيشت لم يقنعها ذلك وهتفت تقول :

« ما أقدر ، أغاقى »

كنت أصل إلى تلك الدار بعد اجتياز دُرُوب وعطفات يأنس بجفوتها قلبى ، فأنا أعرف أن سكان تلك المحلات الجافية قاوموا الحوادث والخطوب ، واستطاعوا أن يحفظوا لأنفسهم وجوداً ملحوظاً بالرغم من تصاريق الزمان .

وأنا أحب تلك الدار الجافية ، ففى أمثالها من دور بغداد والبصرة والنجف والموصل خلقت

عواطف وأحاسيس وأهواء ، وفي أمثالها من دور الحيلة وكربلاء نبغ شعراء وصفوا الحب والليل .

كل شيء في العراق رقيق إلا قلب ليلى .  
غَضْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا لَيْلى وَعَلَى الْحُبِّ !

\*\*\*

ركبتُ عربية ومضيتُ إلى منزلى بالرغم من اللطف الذى كان ينتظرني في تلك الدار ، وما كدت آوى إلى سريري حتى غلبنى النوم ؛ وليته كان نوم الموت فقد كدّرت ليلى حياتي !

\*\*\*

استيقظتُ مع الشروق ، استيقظتُ مهموماً تعبان .  
وخطوتُ إلى الحمام عسانى أجدد نشاطى فرأيت خلف النافذة حمامتين تشتجران شجراً  
كلهُ رِفَقٌ وعطف : كانتا تقتتلان بالأجنحة والمناقير قتلاً طريفاً لم أشهد مثله من قبل .  
ليت حظى مع ليلى كان شبيهاً يحظ هذين الأليفين المتخاصمين !

\*\*\*

وقضيتُ ساعات الصباح في تصحيح ما تأخر تصحيحه من فروض الطلبة بدار المعلمين العالية ، وفي الساعة العاشرة خرجتُ لأروح عن نفسى بشهود الغادين والرائحين في جادة الرشيد ، فوقع بصرى على جماعة مطربشين جاءوا حديثاً من القاهرة ليقوموا ببعض الخدمات لشركة مصر للطيران ، وهم يبحثون عن مكان يحولون فيه النقود المصرية إلى نقود عراقية ، فقدّتهم إلى بنك إيسترن ، ثم تبين أن هذا البنك لا يشغل نفسه بأمثال هذه العملية ، فخرجت معهم لأبحث عن مكان آخر تصرف فيه النقود .  
وعلى باب البنك وقعت الواقعة :

فقد رأيت فتاة فينانة الجسم تواجهنى بعينين دامعتين وهى تقول :

أما تعرف يا دكتور أن أبى مات في مثل هذا اليوم ؟

ورجعت إلى نفسى في مثل لمح البصر فعرفت أن أبى رحمه الله كان مات في مثل ذلك اليوم .  
وانطلقتُ معها إلى رحاب البنك بدون أن أشعر أنى تركت جماعة من المصريين الضالين في بغداد !

\*\*\*

وقفت الفتاة تبكى ، ووقفت أبكى .

هى تبكى على أبيها وأنا أبكى على أبى وعلى حظى الأسود فى هوى لىلى .  
ونظرتُ فرأيتُ الحزن أنسى الفتاة واجبها فى مراعاة الأدب اللائق فسقطَ عن جسمها

الفيضان بعضُ التّصيف..، وجُنّ جنونى لذلك المنظر الأتّخاذاً فرّق إحساسى وطاب بكائى ، وراع الفتاة أن يسعدها دمعى فانتقلت من البكاء إلى الشهيق .

وماذا أملك فى مواساة تلك الفتاة ؟

كنت أقبل يدها مرة ، وذراعها مرتين ، وجبينها مرات .

وكان العراقيون القساة القلوب يرون هذا المشهد ، فلا يعترضون .

ومن ذا الذى يعترض على رجلٍ بالكِ يقبل فتاةً باكية ؟

واستمرت هذه المأساة الرائعة ساعتين .

وخرجنا من البنك وأهل بغداد يحسبوننا ليلاي ولو كان ليلى قلبٌ مثل قلب تلك الفتاة لعرفتُ نعيم الوجود .

وفى الميدان الذى يواجه الشُّورجه وجادة الرشيد وشارع السموءل ، فى الميدان الذى يسمى ميدان الساعة جذبتُ تلك الفتاة إلى صدرى وقلتُ :

— اسمعى ، إن المرأة أجمل ما تكون وهى حزينة .

وعرفتُ أنى سأقبلها علانيةً أمام الشرطى وأمام الجمهور فصرختُ :

— أتحسب أننا فى باريس ؟

وما هى إلا لحظة حتى عرفتُ أننا فى بغداد التى سبقت باريس إلى الحرية الشخصية بأزمان ! قبلتُ الفتاة من خديها قبلتين عميقتين وشربتُ ما على خديها من دموع .

وما أعدب مُلوحة الدمع فى خدود الملاح !

أنا فى بغداد ؟

أنا فى باريس ؟

لا أعرف بالضبط أين كنتُ حين شربتُ دموع تلك الباكية السمراء على عيون أهل بغداد .

\*\*\*

كان فى نيتى أن أتغدى بعد ذلك ، ثم رأيت الجوع ذهب إلى غير رجعة ، فمضيتُ إلى منزلى أناجى خيال ما ظفرتُ به فى ذلك اليوم .

وما كدتُ أستقرّ فى المنزل لحظات حتى سمعت طرّقاً على الباب ، وما كان من عادى أن أفتح الباب للطارقين ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن لأهل بغداد عادة جميلة هى السؤال عن ضيوفهم من وقت إلى وقت ، وهذه العادة على جمالها لا توافقنى لأنها تضيق أوقات فراغى وتشغلنى عن البحث والتأليف ، وليس فى حياتى شىءٌ مُثمّرٌ غير الغرام بالبحث والتأليف . ولكن الأنامل التى تطرق الباب هذه المرة تذكّر بأنامل ظمياء ، وقد اشتقتُ إلى ظمياء التى

— ٢٢٥ —

طردتها من بيتي بعنف ، وكنت في ذلك من الظالمين .

\*\*\*

خائن !

خائن !

خائن !

ذلك ما سمعته حين فتحت الباب .

والصوت في هذه المرة صوت ليل لا صوت ظمياء .

\*\*\*

هذه ليلي في منزلي ، فماذا أصنع ؟

ليتني أعرف ماذا أصنع !

\*\*\*

مضينا صامتتين إلى غرفة المكتب فجلست على أريكة وجلست على أريكة .  
كنت لحظتني في دشدشة ، دشدشة مصرية تسمى في بلدنا جَلْبِيَّة ، وقد هممتُ  
بارتداء الردنجوت لأصلح لمحادثة ليلي ، ولكنها أشارت إلي أنها تحب أن تراني كذلك ،  
فسمعتُ وأطعت .

— خائن ، خائن ، خائن !!!

— أنا ؟ أنا خائن ؟

— إذن ما هذا الذي يتحدث به أهل بغداد ؟

— وماذا يقول أهل بغداد ؟

— يقولون : إنك ناجيت فتاة في البنك ساعتين كاملتين ؟

— هي فتاة حزينة مات أبوها في مثل هذا اليوم .

— وهل أنت مسئول عن مواساة كل فتاة تبكي أباه في هذا اليوم أو غير هذا اليوم ؟

— أؤكد لمولائي أنها فتاة طاهرة القلب .

— ولكنك لست طاهر القلب .

— عفا الله عنك يا ليلي ، المثلي يوجّه هذا الملام العنيف ؟

— أنا أعرف أسرارك ، فهذه فتاة كُردية ...

— ليست كُردية .

— هي كُردية .

— وماذا تصنعين إذا كان هواي عند الكرديات المليحات ؟

( ليلي المريضة في العراق )

— ٢٢٦ —

— لك هوى في العراق غير هوى ؟

— ومن قال إني أهواك ؟

— أنت لا تهواني يا دكتور !

— لا أهواك .

— لا تهواني ؟

— لا أهواك .

— لا تهواني ؟ لا تهواني ؟ لا تهواني ؟

— ومن أهوى يا ليلي إذا كنت لا أهواك ؟ سلى عني نُجوم الليل ، سلى القمر ، سلى السحر ، سلى منارات بغداد ، سلى نخلات البصرة ، سلى سمكات الفرات ، سلى الأرض الصماء التي يدوسها العشاق بالكرادة والأعظمية والكاظمية ، سلى العيون الشَّهْل والعيون السود بأرجاء العراق ، سلى الصابئين في بغداد وفي العمارة ، سليهم فقد اقترحوا أن يكتبوا إلى تيممة أنجو بها من هواك ، نعم كتب إلى الصابئون في بغداد وفي العمارة مرة ومرتين ومرات ، واقترحوا أن يكتبوا إلى بالجمان تيممة شافية أنجو بها إلى الأبد من هواك العصفوف ، فأبيت كل الإباء ، وكيف أرضى النجاة من هواك يا ليلي ؟ كيف ؟ كيف ؟

— تحبني ؟

— أبغضك أشد البغض ، أتذكرين ما وقع منك منذ أيام ؟

— وما الذي كان وقع ؟

— دخلتُ عليك على حين غفلة وأنت في شعار رقيق يُفصح عن تقاسيم جسمك الجميل ، ففرت كالظبية المذعورة ولبست العباءة ، يا ليممة ، فلما رجوتك أن تظلي بلبسة المتفضل قلت بعبارة صارمة « إيش لون يصير ؟ » فما كان ضرك يا ليممة لو بقيت أمام عيني لحظة أو لحظتين في ذلك الشعار الرقيق ؟

— أما آن أن تعقل يا فاجر ؟

— أنت الفاجرة !

— أهذه أخلاق الأطباء في مصر ؟

— انتهى عهد الطب ، وجاء عهد الجنون .

— وماذا تريد ؟

— أريد أن أعرف ماذا نجاء بك في هذه الساعة ؟

— جئتُ أسأل عن صباياتك في بغداد .

— ليس لي صبايات في بغداد .



— ٢٢٧ —

— والتقبيلُ علانيةً في البنك وفي ميدان الساعة ؟  
— هو علامة عطف على فتاة مات أبوها في مثل هذا اليوم .  
— وهل تعرف يا فاجر أن ليلاك مات أبوها وماتت أمها في مثل هذا اليوم ؟  
— .....  
— .....

\* \* \*

أخذت ليلي تبكي بكاءً أحرَّ من بكاء الأطفال ، وكانت تنتظر — ولا ريب — أن أشرب  
دموعها كما شربت دموع الباكية السمرء .  
ولكنني تخوفت العواقب ، وأنا أعقل في بعض الأحيان .  
— من أى صخرة قُدَّ قلبك يا دكتور ؟  
— إن قلبي قُدَّ من الجلاميد التى صيغَ منها قلبك الرقيق !  
— وما الذى أنكرت علىّ حتى تهمنى بالقساوة ؟  
— يسوؤنى أن لا أظفر منك بما يظفر به الكلاب من ساداتهم ، فالكلب يعبر عن عواطفه  
باللحس والعصّ .

— تريد أن تلحسنى وتعضنى ؟  
— أريد أن ألهمك مرةً واحدة ليصير كيائك كله نقطة من دمي .  
— ثم ماذا ؟  
— ثم أصير أشعر الشعراء .  
— كُنْ إن شئت أشعر الشعراء .

\* \* \*

كنتُ أستطيع أن أفترس ليلي في ذلك اليوم .  
كنتُ أستطيع .  
كنتُ أستطيع .  
ولكنني خشيتُ أن ترانى ليلي حيوانًا كسائر أنواع الحيوان .  
خشيتُ أن يكون ما بينى وبين ليلي مُتعةً جسديةً تُشبه ما كان بين آدم وحواء .  
خشيتُ أن نعود إلى سيرة الحيوان الجهول الذى تمثل في فتنة قابيل وهابيل .  
خشيتُ أن ألوث تاريخى فى العراق بلحظةٍ أثيمة تلاحقنى آثارها السود حيث توجهت .

— ٢٢٨ —

خشيتُ أن أُوذَى سُمعة مصر في العراق .  
وكانت ليلي خليقةً بأن تغفر ذنوبي ، وتستريح عيوني ، لو جهلت .  
ولكن عزّ عليّ أن أعرضها لهذا الاختبار الأليم

\* \* \*

- دكتور .
- مولاتي !
- ماذا تريد مني .
- وماذا تريد مني ؟
- أريد أن تصبح سيد الشعراء .
- صرتُ بهذا العطف سيد الشعراء .
- بقي أن تصبح سيد ليلي .
- أنا عبد ليلي .
- والعبد يطيع مولاه .
- الأدب أفضل من الامتثال
- الأمتثال أفضل من الأدب .
- الأدب أفضل من الامتثال .
- الامتثال هو في جوهره أدبٌ رائع ، ولكنك أحمق وجهول .
- أنتِ الجاهلة وأنتِ الحمقاء .
- وفي أقل من لمح البصر خرجت ليلي وتركتني لعمومي وأحزاني .
- لقد كنتُ في مصر شقيّاً فما الذي ستَجْنين يا بغدادُ من وصالِ إشقائي

\_\_\_\_\_ .

## ٢٧

وقفتُ بالرُّستمية منذ أيام ألقى قصيدة :  
 « من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعي الوجد في بغداد »  
 وقد طرب لها أعضاء « نادى القلم » وصرح معالى الرئيس بأنها من غرائب الشعر الحديث . وفى تلك القصيدة هذا البيت :  
 أبغدادُ هذا آخر العهد فاذكُرْى مدامعَ مفطورٍ على الحب بكُءِ  
 وقد التفت الدكتور فؤاد عقراوى وكيل دار المعلمين العالية لمغزى هذا البيت فأسّر في أذنى بعد أن فرغتُ من إنشاد القصيدة : لماذا تقول هذا آخر العهد ؟  
 فقلت : هذا من تحبُّى المحبين ، والمحبون يهددون بالقطيعة في كل وقت ليستثيروا عطف الأحباب .  
 والواقع أنى لم أرد غير التخلص من ذلك العُتب الرقيق الذى يصدر من زميل كريم كانت أيامى فى صحبته من أيام السُّعود .  
 الواقع المؤلم أنى سأفارق بغداد ، سأفارقها باكياً كما قلتُ لزملائى بكلية الحقوق منذ أيام .  
 ولهذا الفراق أسباب يجب تدوينها فى هذه المذكرات :  
 لم يكن فى نيتى أن حضر لخدمة العلم بالعراق فى هذه السنة بالذات ، فقد كان بينى وبين وزارة المعارف المصرية حسابٌ يجب تصفيته ، وهو حساب بسيط ولكن عقده الإهمال ، كنتُ رجوت أن أظفر بترقية بعد الدكتوراه الثالثة التى نلتها من الجامعة المصرية ، الدكتوراه التى نلتها من كلية الآداب البخيلة الشحيحة الضئيلة التى لم تمنح إجازة الدكتوراه فى مدى اثنتى عشر عاماً لغير رجلين اثنين : هما عبد الوهاب عزام وزكى مبارك ، كنت رجوت أن أنتفع بهذه الدكتوراه التى ظفرتُ بها بعد كفاح دام أكثر من سبع سنين فى إعداد كتاب « التصوف الإسلامى » .  
 ولما كلمنى الأستاذ فهم بك فى السفر إلى العراق ترددت ثم اعتذرت لأرتب شؤونى فى وزارة المعارف ، ولكنى بعد ذلك تلقيت خطاباً من المفوضية العراقية يقول فيه نائب القنصل :



رقم: ١٤٠٦/٧

تاريخ: ٧ أكتوبر ١٩٣٧

حضرة الاستاذ الدكتور فكري مبارك المحترم

تحية واحتراماً

يسرني جداً لو تفصلتم بمنارة الطوسية باقرب فرصة لديكم  
للبحث في مسألة انتدابكم للتدريس في العراق بناء على شدة رغبة وزارة المعارف العراقية  
في ذلك

وتفضلوا بقبول فائق تحياتي ووالتر احترامي

نائب القنصل  
بالموسمية الملكية العراقية

فكان من الأدب والذوق أن أجيب هذه الدعوة الكريمة الصادرة من أمة عربية لها في خدمة العلم والحضارة ماضٍ مجيد .

وكان مفهوماً عندي أن وزارة المعارف المصرية ستُنجز ما وعدت من إنصافٍ وأنا بعيدٌ لتشجعتني على الاطمئنان إلى عملي بالعراق .

ثم عرفتُ مع الأسف أن ما رجوته من وزارة المعارف لم يتحقق وأن قراراً صدر في اليوم الحادى عشر من نيسان يرجىء تقدير الدكتوراه الجديدة إلى أن أطبع الرسالة التي قدمتها للامتحان ، وهذا القرار استند إلى كلمة في ذيل الخطاب الذي تلقيته من عميد كلية الآداب : الخطاب الذي سجل فيه أن مجلس الجامعة المصرية منحني إجازة الدكتوراه برتبة الشرف .

والدكتور طه حسين يلاحقني بكرمه وبره حيثما توجهت ، حفظه الله ورعاه !

وما هي الكلمة التي ذُئِلَ بها سعادة العميد خطابه الكريم ؟

هي كلمة تنص على أن الجامعة لا تسلمني الإجازة إلا بعد أن أقدم إليها بخمسين نسخة

مطبوعة من رسالة الامتحان .

فهل معنى ذلك أن الامتحان معلق على تقديم تلك النسخ وإن أعلنت نتيجة الفوز في الجريدة الرسمية ؟

أعترف بأن الجامعة على حق في وضع هذا القيد لأنها تريد أن تسوق أبناءها إلى ميادين النشر والتأليف ، وهى فى ذلك مسبقة بالجامعات الأوربية التى توجب طبع رسائل الدكتوراه قبل الامتحان .

ولكن الحال هنا غير الحال هناك .

والجامعة المصرية راعت ذلك فأباحت أن يؤدى الامتحان قبل طبع الرسائل ، وهى بالتأكيد يسرها أن يلقي أبنائها خير الجزاء على جهودهم فى تأليف الرسائل التى لا تصلح لامتحان الدكتوراه إلا إذا ثبت أنها تؤدى للعلم فائدة محققة ، وقد استطعت بحمد الله أن أظفر بهذه الشهادة من الجامعة المصرية .

لو كنت أعلم الغيب لصنعت غير الذى صنعت ، فأنا الذى قدمت بيدي خطاب العميد إلى وزارة المعارف وفيه ذلك النص ، وكان فى مقدورى أن آخذ من الكلية شهادة بالدكتوراه الجديدة ، فقد صرح العميد بأن ذلك ممكن بعد جوار دار حول الموضوع نفسه فى منزل سعادة الأستاذ محمود بسيونى يوم جمع بيننا بمحضر عمداء الكليات وأساتذة الامتحان ليزيل ما كان وقع بينى وبين الدكتور ظه من جفاء دأب بضغ سنين .

لو كنت أعلم الغيب لأخذت تلك الشهادة من الكلية وأرحت نفسى من الخطاب المقيد الذى بنت الوزارة على أساسه قرارها اللطيف فى نيسان شهر الزيادة والنقصان !

وهل كان يخطر ببالي أن ألقى هذا « اللطف » من وزارة المعارف التى أوفدتنى إلى العراق ؟ إننى آخذ مرتبى من الحكومة العراقية ، وترقيتى لا تعود على الحكومة المصرية إلا بغرم ضئيل هو فرق المكافأة التى تمنحها لمن توفدهم لمهمات علمية .

وحالى فى مصر حال عجيب فقد عشت دهري مظلوماً وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت تلك الدكتوراه من أنياب الأسود .

وكان الظن أيضاً أن يكون نجاحى فى العراق تركية جديدة تنفعنى عند وزارة المعارف المصرية .

فما هذه المضجرات التى تواجهنى فى كل يوم ؟

إن الرسالة التى نلت بها الدكتوراه الجديدة كلفتني أموالاً كثيرة حين أعددت منها خمس نسخ خطية ، فكيف أطبعها وأنا فقير الجيب ؟ ومن هو الناشر الذى يُقدم على طبع كتاب « التصوف الاسلامى » وفيه مئات ومئات من الصفحات ؟

وهل أستطيع أن أطلب معونة الجامعة المصرية على طبع هذه الرسالة وهي التي خذلتني في سنة ١٩٣٠ حين رجوتها أن تقرضني مئة دينار قرضاً حسناً لأطبع الرسالة التي أقدمها إلى جامعة باريس ؟

لقد استنجدت يومئذ بمدير الجامعة وعميد كلية الآداب فلم يستجب مجيب ، مع أن الجامعة المصرية كانت في ذلك العهد تعطى المئات بسخاء للمحاضرين الذين يمرون بمصر مرور الطيف !

طافت برأسي هذه الخواطر السود بعد أن أجيئت دعوة المفوضية المصرية في بغداد لتُطلعني على ما قرره وزارة المعارف بالقاهرة ، ومنه عرفت أن مصيري معلق على طبع كتاب « التصوف الإسلامي » .

فما الذي أصنع ؟

إن مكاني في بغداد محفوظ لو أردت ، فقد نجاني الله من المكاره التي يتعرض لها بعض الناس في العراق ، وكفاحي في خدمة الحياة الأدبية قابلته العراقيون بالإعجاب ، وجو العراق أذكى نشاطي وأوحى إلي قلمي ألواناً كثيرة من الصور الشعرية ، وما أشعر بالضجر إلا في حالين اثنين : بلائي بحب ليلي ، وشوقي إلى أبنائي . أما حب ليلي فخطبته سهل ، لأنني أستطيع التخلص منه حين أشاء بتميمة يكتبها أحد الصابئين .

وأبنائي يمكن استقدامهم إلى بغداد .

ولكني مع ذلك أشعر بأن حياتي ستظل مكدرة ما دام كتاب التصوف الإسلامي محبوساً بين جدران الجامعة المصرية .

متى يُطبع هذا الكتاب ؟ متى يطبع ؟ متى يطبع ؟

إن أصول هذا الكتاب نُجّت بيتي من الحريق بضع سنين : فقد كنت لا آوى إلى فراشي إلا بعد أن أتعب أعقاب السجائر لئلا تمتد شرارة فتحرق أصول ذلك الكتاب الذي بدد قوتي وسحق شبابي .

وتزيد قيمة هذا الكتاب في نظري كلما تذكرت أنه محصول أعوام طوال انتفعت فيها بآراء الأساتذة الكبار في الجامعة المصرية وجامعة باريس .

وهل أنسى أنني انتزعت به إجازة الدكتوراه من كلية الآداب وأنا في خصومة عنيفة مع عميد كلية الآداب ؟

هل أنسى أنه كان الشاهد على أن أحجار الجامعة المصرية قد تنطق ؟

إن دار المعلمين العالية تسألني عن مناهج العام المقبل وتطلب رأيي في تجديد العقد ، فما الذي أصنع ؟

ليتني أبقى في بغداد طول حياتي !  
ليت ثم ليت ، وهل ينفع شيئاً ليت ؟  
يجب أن يُطبع كتاب التصوف الإسلامي لأنال الترقية المشودة في وزارة المعارف المصرية .  
يجب أن يطبع كتاب التصوف الإسلامي ليرى النور قبل أن أموت .  
وفي سبيل كتاب التصوف الإسلامي أقدم الجواب الآتي إلى إدارة المعهد الذي أظنني .  
ورباني :

حضرة الأستاذ وكيل دار المعلمين العالية .  
« أقدم إليك أصدق التحيات ، وأذكر أنك تلفتت فكيتت تسألني عن استعدادي لمواصلة العمل بدار المعلمين العالية في العام المقبل ، وأجيب بأن نسيم الحياة العلمية والأدبية في هذا المعهد العالي خليق بأن يجذبني إلى بلدكم الطيب الجميل .  
ولكني لا أكتمك أن عندي مشروعاً أدبيا سيحرمني التشرف بصحبتكم في العام المقبل ، وهو طبع كتاب ( التصوف الإسلامي ) الذي نلت به الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية برتبة الشرف ، وطبع هذا الكتاب لا يتيسر في بغداد لأسباب فنية ، وتأجيل طبعه يزعجني ، لأبني أراه أعظم عمل قمت به في حياتي ، وأحب أن يرى النور قبل أن أموت .  
ولما اقتضت على هذا السبب في تخلفي عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية لأنه سبب علمي تقدره أنت ويقدره العراق الذي يعرف قيمة الحرص على آثار العقول .  
وأؤكد لك ، أيها الزميل الكريم ، أنني أشعر شعوراً صادقاً بأني مقبل على تضحية خطيرة في سبيل ذلك الكتاب : هي الحرمان من الجو الأدبي الذي تنسّم هواءه في صحبتكم وصحبة زملاء الأماجد الذين أحاطوني بأشرف معاني الوداد ، ولوشئت لنصصت على مودة الدكتور فاضل الجمالي الذي احتمل معنا مشاق الكفاح في رفع قواعد دار المعلمين العالية ، وكان اشتراكه في التدريس من أشرف معاني الصدق في الجهاد .

أما تلاميذي فليس بيني وبينهم ما يوجب العتاب ، فقد قدّمت إليهم جميع ما أملك من المعارف الأدبية والعلمية والفلسفية ، وسيصبرون بإذن الله من أشرف خدام العراق ، وإن كان فيهم من يعتب أو يلوم لأنني أثقلت كاهله بالواجبات فسيعرف بعد حين أن الرجل لا يذوق معنى السعادة إلا بإقضاء العينين تحت ضوء المصباح .

— ٢٣٤ —

ذلك اعتذارى أقدمه إليك ، أيها الزميل الكريم ، وليتك تعرف كيف أفارق بلدًا يكون فيه وزير المعارف شاعرًا مثل معالي الأستاذ محمد رضا الشيبى ، ويكون فيه مدير المعارف العام أديبًا مثل سعادة الأستاذ طه الراوى .

جعلنى الله وإياكم من تُحَدِّم العلوم والآداب والفنون ، والسلام :

من المخلص

محمد زكى عبد السلام مبارك

\*\*\*

. تلقى الدكتور عقراوى هذا الخطاب بالدهشة والاستغراب ، وأخذ يناقش العذر الذى سجلته فى الخطاب وقد عجب من أن يكون طبع كتاب التصوف الإسلامى موجبًا لأن أترك عملى فى بغداد مع أن أكثر العراقيين يطبعون مؤلفاتهم فى القاهرة بدون أن يحشمهم ذلك ترك أعمالهم فى العراق .

وكانت حجتي ضعيفة فى مناقشة هذا الزميل العزيز الذى أصفانى أصدق الوداد . وكانت هناك حجة مقبولة ، ولكننى طويتها عنه ، وهل يستطيع رجلٌ مثلى أن يغتاب وطنه فى بغداد ؟

هل أستطيع أن أحدثه بقصة الأوراق التى أمضيتها اليوم فى المفوضية المصرية ؟ هل أستطيع أن أخبره بأن وزارة المعارف فى مصر قدّرت لى مرتبًا لا يكفى أن يكون مصروف جيب ؟ ولمن ؟ لرجلٍ متهم بالغنى لا يُصبح ولا يُمسى إلا وهو مطوّق بأغلال من التكاليف !

آه ثم آه من حالى فى دنياى !  
كرر الدكتور عقراوى رغبته فى أن أسحب هذا الخطاب ولكننى رفضت وأكدت الرفض .

\*\*\*

مضت ثلاثة أيام قضيتها فى أحزان لفراق بغداد . ويظهر أن الدكتور عقراوى حدّث بعض زملائه عن خطاب الاستقالة فطار الخبر إلى وزارة المعارف ، وما كنت أحب أن يصل الخبر إلى وزارة المعارف ، فهناك رجلٌ يؤذيه أن أفارق بغداد هو الوزير محمد رضا الشيبى ، الرجل العظيم حقًا وصدقًا ، الرجل الذى شرفنى بحضور أول محاضرة ألقيتها على الجمهور فى كلية الحقوق ، الرجل الذى اتسع صدره لكل ما نشرته



في جرائد القاهرة وبغداد من النقد الصريح أو الملفوف لوزارة المعارف العراقية ، الرجل الذي انشرح صدره حين رأى أنكلم في المؤتمر الطبى باسم العراق .

\* \* \*

في صباح اليوم وهو الثامن من حُزيران مرّ على أخّ صادق فقال إن سعادة الأستاذ باقر الشيبى يرجو أن تتفضل بشرب الشاي معه في منزله بالزوية في الساعة الخامسة بعد ظهر الغد ، فقلت : هل عنده حفلة ؟

فقال : عنده كلام يخصك . فقلت : هل تعرف نوع هذا الكلام ؟

فقال : سيدعوك إلى سحب الاستقالة .

فقلت : لن أسحب الاستقالة . فقال : ولكن يجب أن تجيب الدعوة .

\* \* \*

وصلتُ إلى الزوية في الأصل فجلستُ على شاطئ دجلة فوق الأعشاب في مكانٍ أوحى ما أوحى إلى شعراء بغداد ، وطوّفنا بشجون من الأحاديث ، ثم استطرد الأستاذ باقر الشيبى فقال : بلغنى أنكم حين استفتيتم في تجديد العقد للعمل في العام المقبل اعتذرتم ، فقلت : هذا وقع ، فأظهر أسفه لذلك ودعاني إلى أن أقبل تجديد العقد فأكدت له أنى لا أملك العودة إلا إذا اطمأنت على مصير كتاب التصوف الإسلامى . وقد تأثر جين قلت له إنى أخشى أن أموت قبل أن يظهر هذا الكتاب .

فهل يظهر هذا الكتاب قبل أن أموت ؟

إننى أحب مؤلفاتى أكثر مما أحب أطفالى .

انتهت المحادثة في جوّ لطيف ، ولن أنسى تأثر الأستاذ باقر وهو يقول : إن انقطاعك عن العمل في بغداد خسارة عظيمة للعراق .

\* \* \*

سأل عنى سعادة الأستاذ طه الراوى مرات كثيرة في هذه الأيام فلما لقينى قال : أنت تهرب منى ؟

واستصحبنى إلى منزله وسألنى عن الأسباب الحقيقية للاستقالة لأنه استبعد أن تكون مقصورة على طبع كتاب التصوف الإسلامى وقال إنه مستعدٌّ لترضىتى ، وأسرف في التلطف فقال : نستطيع أن نعفيك من الدروس إن كانت أتعبتك ويكفى أن تقيم في بغداد لأنك أحدثت مَوْجَةً في العراق ، وقد استقدمنا الأستاذ الثعالبي قبل ذلك لثل هذا الغرض .

— ٢٣٦ —

وقد رأيت أن أصل إلى قلب هذا الرجل فأنشدته قول الشاعر :  
تناسيتُ في مصرَ الجديدةَ صبيبةً      همُّ الزَّهرِ الظَّمآنُ في جوفِ بيداءِ  
يناجون في الأحلامِ أطيفاءَ والدٍ      لعهدِ بنيسه والبُنياتِ نساءِ  
وأبو هاشم يعرف صدق اللوعة في مثل هذا الحنين .

\* \* \*

سأفارق بغداد .

سأفارق بغداد .

ويا لوعة القلب من فراق بغداد !

---

كان هذا اليوم من أعجب الأيام التي شهدتها في بغداد .

وتفصيل الحديث أني تلقيت دعوة من دار المعلمين العالية لشهود الحفلة الختامية ، فرأيت في ذلك فرصة لمصافحة تلاميذي ، التلاميذ الأوفياء الذين يسألون كل يوم عن منهج العام المقبل ، ويتحرقون شوقاً إلى معرفة ما سيصير إليه أستاذهم في العام المقبل ، فهل كانت تحدثهم ضمائر القلوب بأني سأجنيح إلى إيثار المهجر الجميل !

والواقع أن تلاميذي في بغداد أحبوني أصدق الحب ، وكنت أستأهل هذا الحب ، فقد خلعت عليهم كل ما أملك من المعارف الأدبية والفلسفية ، وعودتهم عادات حسنة هي الاعتماد على النفس ، واقتحام أخطر الموضوعات ومواجهة أصعب المعضلات ، وكنت أدعوهم إلى إخراجي إن استطاعوا بأدق الأسئلة الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية ، وممر العام الدراسي بدون أن يشهدوا على أستاذهم علامة من علامات الضعف في تكوينه الأدبي والفلسفي ، وساعدني هذا الفوز على إقناعهم بأن الأستاذ الحق هو الذي يملك مادته ملكاً تاماً بحيث لا يطمع في إخراج أحده ، وأن مصايرهم في مهنة التدريس مرهونة بهذا التفوق إن أرادوا أن يكونوا من أعلام الرجال .

وما أزعجني أن أيامي مع هؤلاء الطلبة مرث كلها في سلام وصفاء ، فقد اشتبكوا معي مرة أو مرتين ، وكان الخلاف يرجع إلى أني أردت أن أعاملهم كما كان يعاملني أساتذتي في الجامعة المصرية وجامعة باريس ، فقد فرضت أن يكتب كل طالب رسالة ضافية في موضوع لم يكتب فيه من قبل ، ليتعود البحث ويتمرن على التأليف . وقد ثاروا على هذا المذهب في التعليم ، ثم اطمأنوا إليه فأتوا بالأعاجيب ، وستظهر مواهبهم بإذن الله بعد قليل .

وكنت في هذا الكفاح سياسياً خطيراً ، فقد ساءني أن أخيب في الطب وفي التعليم ، فضلاً عن خيبتني في الحب ، وقد شاء الله أن أفوز في التعليم بعد الخيبة في الحب والطب . أعاذنا الله من الخيبة فإنها مرة المذاق .

ولكن هذه السياسة تحولت إلى مبدأ من حيث لا أشعر ولا أحتسب ، فقد شغلت بتلاميذي شغلاً جدياً ، ورأيت أن أحيطهم بجو أدبي يملأ فراغ عقولهم وقلوبهم ونفوسهم ، فملاأت أرجاء العراق بالجدل والصَّحَب والضجيج ، فما كانوا يُصبحون أو يُمسون إلا على مقال منشور أو حديث مُذاع .

وانتهيت من ذلك كله إلى إلقاءهم في أثون الحياة الأدبية والعقلية ، وهو جهاد هدم أعصابي ، وضعضع كياني ، ولكنه على كل حال جهاد محمود ، وسيظهر أثره بإذن الله في الأعوام المقبلة .

\*\*\*

مضيت إلى دار المعلمين العالية لأشهد الحفلة الختامية فرأيت هناك معالي الأستاذ محمد رضا الشيبى وزير المعارف ، وسعادة الأستاذ طه الراوى مدير المعارف العام ، وسعادة الدكتور فاضل الجمالى مدير التربية والتعليم ، وكان معنى ذلك أن الحفلة لبست حلة رسمية . لم يكن في نيتي أن ألقى خطبة في ذلك الاحتفال ، ولكن الدكتور فؤاد عقرأوى أسر في أذنى أن من الواجب أن ألقى كلمة بوصف أئى أستاذ الأدب العربى في المعهد . وإلقاء الخطب لم يعد يشوقنى ، لأن شهوة الكلام ضعفت عندى بعد البلاء الذى عانيتة في الخطابة أيام الثورة المصرية ، وبعد البلاء بمهنة التدريس عددًا من السنين ، وهى مهنة تقوم على الكلام والحديث ، يضاف إلى ذلك أنى أكتب في كل يوم نحو عشر صفحات ، والتعبير عن خواطر النفس بالكتابة يُضعف شهوة الكلام عند من يعقل ، ولا أزال فيما أزعم من العقلاء !

اعتذرت عن إلقاء كلمة ، ولكن الدكتور عقرأوى أصرّ على أن أتكلم فقبلت . كانت كلمة الطلبة للأديب شاكرا الجودى ، وهو شاب مرجو الخيال ، وقد قرب من نفسى أشد القرب ، لأنه كان يرحب بالملام والتأنيب كلما جدّ موجب لذلك ، وقد غضبت مرة على سوء النظام المتبع في دفاتر التلاميذ بالعراق : لأنى رأيت من طلبة دار المعلمين العالية من يكتب فروضه في كراريس الأطفال ، وكانت لحظات غصّب فيها الطلبة وثاروا ، إلا شاكرا الجودى ، فقد قدّم إلى كراسه لأتخذ منه شاهدًا على تقصير زملائه حين أشاء . وقف شاكرا يلقي خطبته بنبرات تُشعر بأنه تلميذ زكى مبارك ، فتأثرت ، ثم اندفع فقال إنه يخشى أن يكون موقفه موقف التوديع لبعض أساتذته الفضلاء .

ولم تكن كلمة « التوديع » أو « الوداع » تؤذى أحدًا غيرى ، أنا الطائر الغريب الذى زار في السحر بساتين الكرخ وبغداد .

وما كدت أسمع كلمة « الوداع » حتى ثارت دموعى .

وما أخطر دموع الرجال !

ونظرتُ فرأيت تلاميذى مكرويين لمنظر أستاذهم المرتاع ، ورأيت إحدى تلميذاتى

— ٢٣٩ —

تنأهب للبكاء ، ولو كان اسمها ليلي لخف حزني ولكنها تسمى وطفاء .  
متى أسمع أن تلميذاً في بغداد صرّ من فضائل المعلمات ؟  
اللهم حقق أملى في أولئك الفتيات المهذبات .

\*\*\*

وقفت لأخطب ، ولكن كيف ؟  
لقد هجم الحزن هجمة عنيفة ، وهجم الدمع هجمة أعنف .  
والتفت إلى الدكتور فاضل الجمالي أسأله عن أبيات أبي تمام في الفراق .  
ثم انهدت قواي فجلست وأنا دامع العين مفطور الفؤاد .

\*\*\*

وهس الدكتور الجمالي في أذني يقول : هذه أعظم خطبة سمعتها في حياتي !  
وكانت أول مرة عرفت فيها أن من البيان أن تعجز عن البيان .  
وخيم الحزن على الأستاذ طه الراوى فلم ينطق في مواساتي بحرف .

\*\*\*

وجاء دور معالي الأستاذ الشيبى فالتفت إلي وقال : ما هذا الذى صنعت في كتاب  
« المدائح النبوية في الأدب العربى » ؟  
فقلت : وما ذاك ؟

فقال : هل تعلم أن كتابك هذا حبسنى على قراءته ثلاث ساعات ، وهو حظ لم يظفر به  
منى كتاب حديث منذ أعوام طوال ؟

ثم ساق فكاهة وردت في كتاب المدائح النبوية فطابت نفسى وابتسمت .  
وبعد لحظات قمت فألقيت خطبة الوداع .  
وآه ثم آه من الوداع !

وما انتهت الحفلة حتى كان الطلبة يهتفون :

« يحيا الدكتور زكى مبارك يا ، يحيا الدكتور زكى مبارك يا »

\*\*\*

وسألنى الدكتور الجمالي أين أذهب ؟ فقلت : إلى التسليم على إخوانى بكلية الحقوق .  
نمضى معى إلى هناك ، وقد فرح الأستاذ محمود عزمى بزيارته أشد الفرح : لأنه عدّه هذه  
الزيارة تصفية لحساب كان تعقد بينهما منذ أسابيع .

— ٢٤٠ —

وفُتِحَ بابٌ خرج منه صديقٌ هو الدكتور سيف فأقبل يعانقني بحرارة شديدة وهو يقول :  
كيف تنسانا وأنت عميدنا في بغداد !  
فقلت وأنا أبتسم : لقد تركتكم في رعاية الشيطان ( وأشرتُ إلى الأستاذ محمود عزمي ) !

\*\*\*

وأراد الدكتور فاضل الجمالي أن يَحْمِلَنِي على الذهاب لرؤية الأشبال ، وهو يسمى أبناءه  
بأسماء الأسود، وكان يسرني أن أُجِيب لأرى زوجته الغالية، وهي سيدة أمريكية تشهد شمائلها  
بأن الأمريكيان لم يسودوا من باب المصادفات ، هي سيدة جميلة جدًا ، ولكنها مع جمالتها توحى  
الاحترام قبل أن توحى الحب ، وسيكون لها ولأمثالها تأثير شديد في الحياة الاجتماعية بالعراق ،  
لأن المرأة المصونة تفرض على الناس الاقتناع بأن السفور أفضل من الحجاب .  
والدكتور الجمالي وزوجته من أعاجيب الحياة في المجتمع العراقي ، وهما أشبه الأشياء  
بالأزهار في الصحراء ، وهما يقضيان النهار مفترقين ، هو في حياة التربة والتدريس من الصباح  
إلى المساء ، وهي في خدمة أطفالها وأطفال الفقراء من الصباح إلى المساء .  
وكم تمنيت أن أقبلَ يَدَيِ هذه السيدة قبلَ إعزاز واحترام ، ولكن شهرقي بالكلام في الحب  
صرفتني عن هذا الحظ السعيد . وعفا الله عن ليلى فقد فضحتني !

\*\*\*

اعتذرتُ عن ضحبة الدكتور الجمالي ، ومضيت وحدي أستمع بضوء القمر في ضواحي  
بغداد ، و ما هي إلا لحظة حتى رأيت سيدة تعترض طريقي ، فنظرتُ فإذا هي ليلى حرسها  
الحب .

أبعد هذا الحجر الطويل تسأل عني ليلى وتعترض طريقي ؟

— ليلى !

— عيوني ! .

— هل أنا في حُلُم ؟

— أنت في يقظة وأنا ليلاك

— كان ذلك قبل اليوم !

— أنا إلك ، أنا إلك !

— أنا مفارقٌ يا ليلى .

— ومن أجل ذلك جئتُ أقضى ديونك !

— وأين تُقضى الديون ؟

— في حانوت الوراق !

« وحانوت الوراق هو منزلى الذى وصفته جريدة الكلام ، وكان فيه خمسمائة كتاب وضعتها فوق الأرض لئلا تسقط فوقى فتقتلنى كما سقطت كتب الجاحظ فوقه فقتلته بلا ترفق » .

— عَرَبَانِجى ، يَمَك ، عَرَبَانِجى !  
كذلك هتفت ليلى ، ولكنى رفضت أن أركب مع ليلى عربانة فى جادة الرشيد ، لئلا تأكلنا العيون .

وجذبته من ذراعها لنركب سيارة عمومية ، وبعد لحظات عرفت أن السائق سكران ، فدعوتهما للنزول لئلا نموت علانية فى جادة الرشيد ، وليتنى مَثُ مع ليلى فى جادة الرشيد ، ولكنى حميتها من الفضيحة العلنية فى شوارع بغداد .

ليلى .

أحبك يا ليلى .

ومضينا راجلين إلى حانوت الوراق ، وهو منزل صديقنا الدكتور زكى مبارك .  
وصعدنا إلى سطح المنزل لنرى معاً أضواء بغداد .  
وهُمْتُ ليلى بمعانفتى فتأيت وتمنعت .

\*\*\*

كنت أبيع العمر كله بلحظة صفاء مع ليلى المريضة فى العراق .  
ولكنى خَشِيتُ ثم خَشِيت وأردتُ ثم أردت .  
خَشِيتُ أن تُفَجِّع ليلى فى عفاى .  
وأردتُ أن تشهد بأنى رجل نبيل وأن تقضى حياتها فى الدفاع عنى .  
وهل كنت أملك أن أضيع صيام تسعة أشهر بلحظة أثيمة تفسد صيامى ؟ يكفينى من الحظ أن تكون ليلى مدت ذراعها إلئى ، وهو فضل سأذكره ما حييت .  
أحبك يا ليلى ، فاذكرينى بالشعر يوم أموت .  
وخرجنا من المنزل صامتين .

— إيش بيك يا دكتور ؟

— لا شىء ، يا مولاتى !

— ألا تزال غضبان ؟

— أنا راض كل الرضا يا سمكة الفُرات !

— هات يدك أقبلها .

— لن يكون ذلك !

( ليلى المريضة فى العراق )

— ٢٤٢ —

« وأهوت ليلى على يدى فقبتها بالرغم منى » .

— دكتور !

— مولاتى !

— ليتنى كنت أعرف أنك على هذه الأخلاق !

— وليتنى كنت أعرف أنك على هذه الأخلاق !

— دكتور !

— مولاتى !

— إن المفارق يقول ما يشاء

— أحبك وأهالك .

— أشكرك ، أشكرك .

\* \* \*

— دكتور !

— مولاتى !

— سيتغير كل شيء فى العام المقبل !

— فى العام المقبل ؟

— نعم ، فى العام المقبل .

— فى العام المقبل سيجف عودى !

— إن لم ترجع إلى بغداد فسأزورك فى مصر الجديدة لأقضى بين ذراعيك أسبوعًا أو

أسبوعين .

— وإن لم تجدنى فى مصر الجديا

— سأسأل عن قبرك لأموت بجانبك ولنكون صلة الوصل بين مصر والعراق .

— من حقى إذن أن أموت حين أشاء .

---



قضيتُ ليلي كله نَشْوَان ، بعد أن رأيتُ ما رأيتُ وشهدتُ ما شهدتُ من عطف ليلاي .  
وفي الليلة التالية حضرتُ سهرةً أقامها السيد عبد الأمير لتوديعي ، سهرة باسمه فوق سطح  
الفندق ، فُنِدَقُ العالم العربي ؛ غَنَى فيها الأستاذ محمد القومباجي وأطرب حتى احتاج ما في  
دجلة من سمكات ، ثم وقف الشاعر عبد الرحمن البناء وأنشد هذا القصيد :

زكّى النفس بَعْدَكَ لا جليسُ	يروق لناظري ولا أنيسُ
ألفْتُكَ صادقاً حراً أيّاماً	أخا بُبِلَ له أدبٌ نفيسُ
لك الأسماع تُنصِتُ مُرهفاتٍ	وتَهْطِطُ إن خطبتُ لك الرؤوسُ
تَقْرُ إذا رأتك السعين تمشي	وترغب أن تطير لك النفوسُ
وإنك أوسع الأدياء صدراً	وفارسهم إذا حَمَى الوطيسُ
لقد أخرجت في الآداب كُتُباً	تضئ بها المدارس والدروسُ
عكفت على صياغتها مكباً	كما عكفت بمعبدها القسوسُ
بلغت من البلاغة كل معنى	وجُدُّكَ في العلوم هو الرئيسُ

\*\*\*

عرفنا للوفاء بك احتفاظاً	تضيق به الصحائف والطروسُ
فكم ليل قطعناه بأنسٍ	تطوف به علينا الخندريسُ
فغب أو لا تغب ما شئت عنا	فإنك بيننا أبداً جليسُ
تذكرنا الحميماً منك لُطْفاً	ونحن على موائدها جلوسُ
فما ننسك ما طلعت بدورٌ	ولا ننسك ما طلعت شموسُ
فيومٍ لقائنا يومٌ ضحوكٌ	ويوم فراقنا يومٌ عبوسُ
فبَعْدَكَ لا تُسَلِّينا مُدام	إذا قُرِعَتْ بِمجلسنا الكؤوسُ

\*\*\*

لَبَّعْدَكَ كابدت بغداد حُزْناً	وإن فرحت بقربك سيّتريسُ
يُزِفُ إليك « بناءً » القوافي	مُحَجَّلَةً كما زُفَتْ عروسُ
ونسأل منك صفحاً عن قصور	أقى منا به الحظ التعيسُ
فمثلك من يدوم السعد فيه	ومثلك من تزول به النجوسُ

ومثلك من تعزّ به بلادٌ ومثلك من تطول به السّروسُ  
وأنشد السيد عبد الحسين ملاً أحمد قصيدة أذكر منها هذه الأبيات :

لم أذق لذة السرور يـومٍ غير يومٍ صفا بلقياسك أنسى  
يا زكّى الفِعال أصغر إلها تلك ليلى تشكو إليك بهمس  
داوها ما استطعت فالدهاء منها قد تعاصى على أطباء نُطس  
أنت تشفى النفوس من علل الجهد مل وتبرى العقول من كل مس  
فابعث النّشء فى العراق ليجنى من ثمار الآداب أطيب غرس  
لا يصدّئك عن مداواة ليلى جاهلٌ لو يُباع بِعِ بَقْلَس  
وإذا فى غدٍ رجعت لمصرٍ خُذفُوادى فثمّ مهبط نفسى  
وأنت ليلاك بالزمالك صبحاً وتفقد نبض الفتاة بجس  
فلعل الخلاف راع حشاها فأصيبت بعد الشفاء بنكس

ومددت يدى فخطفت القصيدتين ودسستهما فى جيبى فابتسم السيد عبد الأمير وقال :  
ما معنى ذلك ؟ فقلت : لا تؤاخذنى يا مولاي فقد جُنتُ ، فأنا أول مصرى أثنى عليه شعراء  
العراق فى أكثر من عشرين قصيدة ، وخُبرْتُ فى العطف عليه عشرات الخطب والمقالات ،  
ولولا خوف الفتنة لجمعت ذلك فى كتاب يكون ذخيرةً تذكرنى بها ليلاي فى الزمالك ،  
وليلاي فى العراق .

وبعد انقضاء السهرة رجعت إلى بيتى فتوضأت وصلّيت العشاء وحمدت الله على نعمة  
التوفيق .

\*\*\*

وفى الصباح بكرت إلى منزل ليلى لا نَعَم بالنظر إليها لحظة أو لحظتين ، ولأحدثها عما  
خَصَنى به قومها الأكرمون ، فراعنى أن أراها فى عبوس وقُطوب .  
— ليلاي .

— لست ليلاك .

— ما الذى جدّ فى دُنيا الوصل ؟

— عصفت بها العواصف .

— هل أستطيع أن أعرف من أين هبّت تلك العواصف ؟

— من فندق العالم العربى .

— وكيف ؟

— لأن سهرتك هناك أمّدت الوصف الذى نَعَتَكَ به أحد الأدباء فى إحدى المجلات

المصرية .

- وما هو ذلك الوصف ؟
- هم يُسمُّونك في مصر « زعيم الفتون » .
- وما الذى وقع في تلك السهرة حتى يصح ذلك الوصف ؟
- ما الذى وقع ؟ أتُنسى أنك أنسيت إلى ناس يطيبُ لهم أن يجمعوا بين الشعر والغناء والشراب ؟
- وما العيب في أن يجمع ناس بين الشعر والغناء والشراب ؟
- ما في ذلك عيب ؟
- أبداً ، يا مولاتى .

- أحب أن أعرف مذهبك فقد حيرنى أمرُك ، أبعد السيرة العطرة التى تأرجحت في العراق بالخطب النفيسة التى نقلها عنك المذيع ، الخطب التى جعلتك في الصف الأول بين رجال الأخلاق ، أبعد أن ملأت المحافل والأندية بنفائس الأحاديث والمحاضرات ، أبعد خطابك الرائع « في ضيافة القرآن » أبعد ذلك كله تُحبطُ أعمالك بالجلوس فوق سطح الفندق مع جماعة يلهون بالقصائد والأغاني والكؤوس ؟ واحسرتى عليك ! واحسرتى عليك !
- إن ما وقع منى في حضور ذلك المجلس الشائق يضاف إلى حسناتى ، لو تفقهين .
- يضاف إلى حسناتك ؟ أشهد أن التضييل لا يعظم عليك !
- اسمعى ، أيتها الطفلة ، شرح ما لم تفهميه .
- محاضرة جديدة في الأخلاق ؟

- نعم ، محاضرة في الأخلاق ، ومن الذى يحق له أن يتكلم في الأخلاق إذا صحت لك السخرية من أن أتكلم في الأخلاق ؟ أنا يا لىلى متخرج في جامعة باريس ، وقد شربت الخمر مع كبار الأساتذة في أروقة السوربون ، وشربت مع المسيو هريو في باريس يوم كان إليه الأمر في تهذيب الأخلاق ، وما يصح في ذهنى أبداً أن يحرم على قضاء سهرة شائقة مع جماعة من أدباء بغداد ، وبأى حق أدعى أن أخلاقى أرفع من أخلاق الأدباء في بغداد ؟ وفي أى شريعة من شرائع الذوق جاء النص على أن الدكاترة لا يليق بهم أن يسامروا أكرام الشعراء ؟ إن التبعة في الشراب يُسأل عنها من خلق النخيل والأعناب .
- ما هذا الكفر الموبق ؟

- الخروج على الأدب مع الله أسلم عاقبة من الخروج على ما وضع بنو آدم من أصناف الشرائع والقوانين ، فالله عز شأنه لا يحرم الكافرين من نعمة الشمس والهواء والماء ، ولا يمنع أرضهم من أن تُخرج أطيب الثمرات . وأكثر الحكومات الإسلامية تبيح استقطار ثمرات

— ٢٤٦ —

النخيل والأعناب وتعطى رخصة رسمية بفتح الحانات ثم تبت العيون والأرصاء لتحصى ذنوب الشارين ، فما هذا الوضع المقلوب في عقول بنى آدم ؟ رضينا بقضاء الله وقدره حين رأيناه ينهى عن بعض الطيبات ، وهو الذى خلق تلك الطيبات .

— هل ترى الخمر من الطيبات ؟

— لا تقاطعيني يا ليلي ، ودعيني أكمل حديثي .

— إعتزف بأنك مضلل أئيم .

— وما وجه الإثم والتضليل ؟

— أنت تقول إن الخمر من الطيبات .

— ما قلت ذلك .

— قلت إن الله ينهى عن بعض الطيبات وهو الذى خلق تلك الطيبات ، وسياق الحديث

يُشعر بأنك ترى الخمر من الطيبات .

— اعقلي ، يا ليلي ، إن القرآن يصريح بأن في الخمر منافع .

— قال إن فيها إثمًا ومنافع ولكنه عقب على ذلك بأن الإثم فيها أكبر من المنافع .

— ما أنكرت ذلك ، وإنما أريد أن أقول ...

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أقول إن الله يخلق الشيء لحكمة ، ثم ينهى عنه لحكمة ، ولكنى أنكر أن يتخلق الحكم

بأخلاق الله في هذا الباب .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أقول إن الحكومات الإسلامية تقع في تناقض معيب حين تُبيح فتح الحانات ثم يجعل

الذهاب إليها مما يغض من كرامات الرجال .

— إنها تفتح الحانات لحالات الناس .

— ومن الذى قال إن الحكومات الإسلامية غير مسبولة عن وقاية جميع الطبقات من آثام

المسكرات ؟ إن من تسمينهم حثالات هم أحوج الناس إلى الرعاية والحفظ ، لأنهم في الأغلب

من الطبقات الفقيرة ، والطبقات الفقيرة يتكون منها العمال والصناع والزراع وعليها يقوم

الأساس في تكوين الجيوش البرية والبحرية ، والتفريط في تقويمهم وتهذيبهم يمضى بالأثم إلى

الضياع والانحلال .

— في هذا الكلام نفحات من الصدق ، ولكنك لست له بأهل .

— اسمعى ، يا ليلي ، اسمعى كلام الرجل المسكين الذى ألقاه تناقض المجتمع في أثون

الخبال ، لقد جئت إليكم من مصر ، من البلد الذى يقول إنه شيخ الإسلام والمسلمين ، البلد

الذى يزدان بمنازل الأزهر الشريف . ومصر يا طفلى الغالية ...

— لست طفلك !

— اسمعى يا أمى !

— يظهر أنك سخيف .

— أنت أسخف منى .

— أهذا أدب الدكاترة ؟

— أستغفر الله والحب ، اسمعى يا لىلى ، إن الناس فى مصر لا يجعلون مناط التَّبعة فى ذات الشراب ، وإنما يجعلونه فى ظرف المكان : فالذى يغضُّ من قدر الموظف فى مصر هو أن يشرب فى مكان يغشاه سواد الناس ، ولا عيب عليه إن شرب فى سان جيمس أو الكونتينتال ، وربما كان غشيان تلك الحانات الأريستوقراطية باباً إلى الترفيع<sup>(١)</sup> وما يقع فى مصر يقع مثله فى العراق ، فما يعاب على الموظف أن يقضى أوقات الفراغ كيف يشاء فى الفنادق الكبيرة أمثال زياً وتايجرس ومود ، ولكن من المحرم عليه أن يقضى سهرة فى الفنادق الشعبية . وقد هالنى أن أرى الناس فى العراق تختلف أقدارهم باختلاف أنواع الشراب : فالويسكى والبيرة والفيرموت أشربة مدنية متحضرة لا تلطخ سمعة شاربيها بالسواد ، أما العرق وهو الشراب المستقطر من ثمر العراق فهو فى العرف السائد شرابٌ مُستقبَّحٌ مردول ، ولو عقل الرأى العام لعرف أن الأمر يجب أن يكون بالعكس ، فالأشربة الأوربية منافعها للسادة الأوربيين ، وكل كأس من الويسكى يسبب الجوع لعشرة أو عشرين من العمال فى العراق .

— هذا كلام فى الاقتصاد ، ونحن نتكلم فى الأخلاق .

— من الجهل الفاشى فى الشرق أن لا يعرف الناس أن الاقتصاد قوام الأخلاق ، ومن واجبى أن أشرح هذه النقطة بالتفصيل .

— لأنك فيلسوف !

— اتركى المطايات فى أوقات الجد ، يا حمقاء .

— تكلم ، أستاذى ، تكلم .

— اسمعى يا لىلى ، إن أساس الخلق السليم هو النفع ، والأخلاق تحسن أو تقبح وفقاً لقربها أو بعدها من المنافع ، فالخلق الذى يعطل على صاحبه منافع الحياة هو خلقٌ ذميمٌ وإن تخلق به العباد والنسك ، والأم حين تضعف تحتل أمامها موازين الأخلاق ، ومن هنا كثرت الوسوس الأخلاقية فى الأمم الإسلامية ، لأن المسلمين حين ضعفوا كثر عندهم القيل والقال حول ما

---

(١) الترفيع هو الترقية فى اصطلاح أهل العراق .

يباح وما لا يباح ، ومثلهم في ذلك مثل المرضي من الناس ، فالمرضى هو الذى يُكثر التفكير فيما يضر وما ينفع من ألوان الطعام والشراب ، أما السليم فلا يشغل نفسه بغير عظام الأعمال .

— أين هذا الكلام مما نحن فيه ؟

— وأين نحن ؟

— نحن في ربط الأخلاق بالاقتصاد .

— صحيح ، صحيح ، ويظهر أني انحرفت عن الموضوع بعض الانحراف .

— أنت تنحرف أحياناً من حيث لا تشعر .

— ما انحرفت ، ولكنك لا تفهمين ، اسمعى يا حمقاء .

— أنت وحدك الأحمق !

— وهو كذلك ، اسمعى ، الأمم الإسلامية تبيع فتح الحانات ثم تعاقب الشاربين ، وذلك

تناقضٌ ممقوت ، وهى مع هذا التناقض لا تجعل مناط التبعة في ذات الشراب وإنما تجعله في ظرف المكان ، وأقبح من ذلك أن تجعل الويسكى أشرف من العرق .

— أنت إذن تبيع شرب العرق .

— لم تفهمى كلامى ، يا بلهاء ، أنا أبغض الخمر أشد البغض ، ولعنة الله على الصديق الذى

شربت معه أول كأس ، ولكنى سأفصح الحكومات الإسلامية التى تبيع فتح الحانات ثم تعاقب الشاربين ، سأفصح تلك الحكومات فى كل أرض حتى تختار واحداً من اثنين : أن تمنع استقطار ثمرات النخيل والأعناب وتغلق جميع الحانات ، وتمنع استيراد الخمر ويبيع منعاً صارماً ، فإن لم تستطع ذلك — وهى تستطيع — فلتجعل حكم الخمر حكم الماء وتوفر على الناس مشقة الابتلاء بالنفاق والرياء .

— وهناك طريقٌ ثالث ؟

— ما هو ؟

— هو التنفير من الخمر وتحقير الشاربين حتى يتوب الناس عن الشراب .

— ذلك ما صنعه المسلمون منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ولم يظفروا بغير انحلال الأخلاق .

— النهى عن الخمر يسبب انحلال الأخلاق ؟

— نعم ، النهى عن الخمر يسبب انحلال الأخلاق ، فالخمر يشربها النصرانى ويظل سليم

الأخلاق ، ويشربها المسلم فيصير ضعيف الأخلاق .

— خبِّلتنى ، خبِّلتنى .

— اسمعى ، يا لىلى ، واعقل .

— ٢٤٩ —

— سَأَسْمَعُ ، إِنْ كُنْتُ أَبْقَيْتَ لِي رُشْدًا أَسْمَعُ بِهِ وَأَعْقِلُ .  
— اِسْمَعِي ، يَا سَمَكَةَ الْفَرَاتِ ، وَاعْقِلِي ، إِنْ الْأَوْرَى يَشْرَبُ الْكَأْسَ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ  
إِلَّا أَمَامَ مُحْكَمَةِ الْأَعْصَابِ وَالْأَمْعَاءِ ، فَهُوَ يَشْرَبُ بِحَسَابِ ، وَتَظَلُّ شَخْصِيَّتُهُ الْخُلُقِيَّةُ سَلِيمَةٌ ،  
لَأَنَّهُ مُقْتَنِعٌ بِأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَلَى الْعُرْفِ وَلَا عَلَى الْقَانُونِ ، أَمَّا الْمُسْلِمُ فَيَعْرِفُ فِي سَرِيرَةِ نَفْسِهِ أَنَّهُ  
يَخْرُجُ عَلَى الدِّينِ وَالتَّقَالِيدِ حِينَ يَشْرَبُ ، فَهُوَ يَسْرِفُ فِي الشَّرَابِ عَنَادًا وَمُكَابَرَةً فَتَنْحَلِّ  
شَخْصِيَّتُهُ الْخُلُقِيَّةُ أَبْشَعَ انْخِلَالٍ .

— وَمَاذَا تَشِيرُ ؟

— أَشِيرُ بِأَنْ يَكُونَ الْحِسَابُ مَعَ اللَّهِ لَا مَعَ النَّاسِ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَخْجَلُ مِنْ أَنْ يَعَانِدَ اللَّهَ كَمَا يَعَانِدُ  
النَّاسَ .

— وَتَكْفُفُ الْحُكُومَاتُ أَيْدِيهَا عَنْ مَعَاقِبَةِ الْأَثَمِينَ ؟

— الْحُكُومَاتُ ؟ الْحُكُومَاتُ ؟ هَذَا كَلَامُ مُضْحَكٍ ، وَأَيْنَ الْحُكَّامُ الَّذِينَ يَزْهَدُونَ فِي  
الشَّرَابِ ؟

— فِي الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ حُكَّامٌ كَثِيرُونَ لَا يَشْرَبُونَ .

— وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَشْرَبُونَ يُمَضُّونَ بِأَيْدِيهِمُ الطَّاهِرَةَ جَوَازَاتِ الْفَتْحِ !

— أَيْ فَتْحِ ؟

— فَتْحُ الْحَانَاتِ وَالذَّنَانِ !

— هَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ مِنْ هَذَا الْجَوَارِ أَنْكَ تَبْغِضُ الشَّرَابَ ؟

— أَبْغِضُهُ أَشَدَّ الْبَغْضِ .

— وَلِمَاذَا شَرِبْتَ فِي بَهْوِ أَمَانَةِ الْعَاصِمَةِ ؟

— شَرِبْتُ لِأَنِّي وَجَدْتُ أَكْوَابَ الصُّهْبَاءِ ، وَلِأَنِّي رَأَيْتُ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ يَشْرَبُونَ ، وَلَسْتُ

أَعْظَمُ مِنَ الْوُزَرَاءِ فِي مِيَادِينِ الْحَزْمِ وَالْعَقْلِ ، وَلَوْ وَجَدْتُ أَكْوَابَ الْحَامِضِ لَا كَتَفَيْتُ بِهَا  
وَشَرِبْتُ حَتَّى ارْتَوَيْتُ .

— مَنْطِقٌ غَرِيبٌ !

— وَمَا وَجْهُ الْغَرَابَةِ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ ؟

— كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يَتِمَّ الْإِنْسِجَامُ بَيْنَ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ .

— ذَلِكَ تَمَامُ الْإِنْسِجَامِ .

— خَبِّلْتَنِي ، خَبِّلْتَنِي !!

— اِسْمَعِي ، يَا لَيْلِي ، أَتَدْرِينَ مِنْ أَيْنَ جَاءَ الْبَلَاءُ ؟

— أَحَبُّ أَنْ أَعْرِفَ !

— جاء البلاء من أنى أديب .

— والأدب يوجب هذه الموبقات ؟

— والأدب فنٌّ داعرٌ أئيم ، ولولا الأدب لكنت اليوم إماماً من أئمة المسلمين : فقد كنت من نوابغ الطلبة بالأزهر الشريف . الأدب هو الذى يوجب أن أرى جميع الأشياء ، وأن أعرف جميع الناس : فأنا أشرب المرَّ من عصير الحياة لأحيله إلى شراب سائح للشاربين ، وقد كوتنى الحياة يا ليلي بميسم متقد فشَوْتُ وجداني وجناني ، أنا الفاتن المفتون الذى تلسعه العقارب وتلدغه الحيات فى اليقظة والنمام ، وبلائي يا ليلي لم يقع إلا من حيث أردت النفع .

— إيش لون ؟

— توهمتُ يا ليلي أن من واجبي أن أخدم اللغة العربية وقد نظرت فرأيت اللغة العربية لا تُخدم إلا بالمحاولة الأثيمة التى توجب أن يكون أدبها صورة صادقة لما عليه العرب من أخلاق وآداب وأوهام وأضاليل ، فأنا أتسلَّل إلى كل بيعة ، وأتغلغل فى كل مجتمع ، لأرى كيف يعيش الحيوان الناطق الذى يرى نفسه سيد المخلوقات ، وهى دعوى أعرض من الصحراء ! ومن العجب أن يكون هذا مبدئى ولا أظفر منك بنظرة عطف ، أتذكرين يا ليلي ؟ أتذكرين ؟

— ماذا أذكر ؟

— أتذكرين أنكِ عبتِ على أن أحضر الحفلات الساهرة فى بهو أمانة العاصمة ؟

— أذكر ذلك .

— فاعرفى الآن أنكِ كنتِ على ضلال ، فتلك الحفلات التى تقام بأموال الدولة لا تقام إلا لحكمة عالية ، فالدولة تعرف أن هناك رجالاً مكدودين محزونين سُدَّتْ فى وجوههم أبواب الملاهى الشعبية ، لأنهم يقومون بأعمال رسمية ، وأمثال هؤلاء الرجال فى حاجة إلى حماية من فضول المجتمع ، وهم لا يُحْمَوْنَ من فضول المجتمع إلا بأقامة أمثال تلك الحفلات التى لا يحضرها إلا من يستطيعون لبس « الفراك » .

— وما هو الفراك ؟

— هو ثوب يُلبَس فى الحفلات الرسمية ويُلبَس يوم الموت !

— إيش لون ؟

— من عادات الأوربيين أن يكفّنوا موتاهم بلباس الفراك ، وشربُ الخمر ومخاصرة النساء فى سهرة راقصة قريب من الحياة وقريب من الموت ، وفى تاريخ بغداد أن رجالاً كانوا يموتون فى أعقاب هذه السهرات .

— أنت حزين يا دكتور .

— وما لحليق الحزن إلا لقلبي ، ولأمثال هذا القلب كان الخليفة هرون الرشيد يقيم حفلات الغناء والشراب ، وقد أراد ناس أن يبرّثوا سمعة هرون الرشيد من استباحة الشراب والغناء ،



— ٢٥١ —

ولكنهم كاذبون وجاهلون .

— يظهر أنك تحنُّ إلى تلك الإنجليزية الحسنة !

— وأحب أن أقبلَ يدها مرةً ثانية على مرأى من النواب والأعيان والوزراء .

— فأتك ، فأتك !!

— لن يكونَ قلبي أفتك من هذه العيون السود !

— وتخوض مع تلاميذك في أمثال هذه الأحاديث ؟

— ذلك هو ما يهتك ويهتُّ السفهاء من أعدائي ، أليس كذلك ؟ إن تلاميذى ليسوا

بأطفال ، وهم لا ينتظرون أن أخوض معهم في أمثال هذه الأحاديث ، فلي ولهم شواغل أعمق

وأشرف ، وهم يعرفون أن أستاذهم نموذجٌ للرجل الصالح ويرعونونه في المحضر وفي المغيب .

— والرجل الصالح يسامر شعراء بغداد !

— ويشرفه أن يسامر شعراء بغداد .

— ويأكل السمك المسقوف فوق سطح الفندق !

— ويداعب السمك الحى في أبهاء الفندق .

— ويقول : إن الأمم التى تشرب الخمر هى الأمم التى تسيطر على العالم ، وإن الأمم التى

لا تشرب هى التى تعانى بلأيا الاستعباد .

— ما قلت ذلك .

— قلته ليلة سهرت بالجزرة .

— ما سهرت بالجزرة .

— سهرت بالجزرة ، وقلت ذلك القول المجرم ، وعليك شهود .

— من هم هؤلاء الشهود ؟

— قلت ذلك أمام السيدة ( م ) والآنسة ( ب ) والسيدة ( ف ) .

— لا تُقبل شهادة لأصحاب العيون السود .

— لك مُطلق الحرية فى أدبك وفى أخلاقك .

— أجب أن أشرح ...

— كفى ، كفى .

\*\*\*

كانت العبارة الأخيرة إيذاناً بوجوب الانصراف ، فانصرفت وأنا أعرف أن هذه آخر مرة أرى فيها ذلك الوجه الجميل ، وجه المرأة البتول التى صهرت قلبى وأرهفت بينائى ، وجه لىلى ذات العيون السود .

انصرفت وأنا أدمدمُ بهذا البيت :  
لقد زعمتُ ليلي بأننى فاجرٌ      لنفسي ثَقَاها أو عليها فُجورها

\*\*\*

يا صاحبَ الإسم الزكِيَّ وصاحبَ اللقبِ المَبَارِكِ  
يَرْثِيكَ أَنَدَى لَيْلٍ فِي تَمْرِ بَصَّةِ لَيْلَى بِالمُشَارِكِ  
وَمَنَّا لَطْلُكَ فِي غَيْهِ : يَنْهِي الدُّطْبَاءُ اقْتِدَارَكَ  
وَعُغْهُ وَيُثَبِّتُكَ دَارَهَا      أَوْ يَمِيلُ المَجْبُودِ دَارَكَ  
مَنْ لَوْ رَأَى لَطْلُكَ فِي الضُّحَى      شَمْسُ الضُّحَى قَالَتْ : تَبَارَكَ  
لَدَكَّةَ رَثَّ بِالْقَدَرِ لَيْسَ لَكَ يَا وَفِيٍّ وَلَدَ فَرَارَكَ

أضى العزيز الكفور زكى مبارك

أله أخبار كلغة بليلي ، أعزها الله ، كادت تذيب  
صخر المقطم وتنطو أسماك النيل أشفاقا عليك  
فارجو أنه تطلع صابحة وحبك على هذه الدبيات  
عماها تعرف أنه قومك يسرهم أنه يسموا برضاها  
عندك وعطفك عليك والسدم المخلص  
القاهرة ١١/٦/٤١ هـ

### ٣٠

على روحى أنا الجانى .  
على روحى أنا الجانى !  
على روحى أنا الجانى !

\* \* \*

ما أحسب أنى سأرجع لزيارة ليلى بعد اليوم ، فقد تأذيت من لجاجتها وتألّمت ، وأحسب  
أنى شبعث منها وشبعث منى .

وكيف أغفر لها أن تراقبنى إلى هذا الحد البغيض ؟  
أقبل فتاةً فى بنك لا يسترن فتسمع بالقبلة بعد لحظاتٍ قصار ، وتحضر بنفسها لمعاتبى .  
وأسمر مع جماعة من الشعراء يشربون ويطربون فيصل إليها الخبر قبل نصف الليل .

\* \* \*

من حق ليلى أن تراقبنى ، ولكنى أكره هذه الرقابة الأرضية التى تعاقب بلا إمهال ، وكنت  
أتمنى أن تكون فيها نفحة سماوية تراقب ثم تمهل عامًا أو عامين ، كنت أتمنى أن تتخلق ليلى  
بأخلاق الله ذى العزة والجبروت ، فتعطى المذنب فرصًا كثيرة عساه يستغفر ويتوب .  
ولو أن الله تباركت أسماؤه عاملنى كما تحب ليلى أن تعاملنى لزلزلت الأرض تحت قدمى منذ  
أعوام طوال فلم يبق لى خبرٌ فى شرق أو فى غرب .

تباركت يا رنى وتعاليت !  
فما مرّت لحظة بلا شاهد يدل على عظمتك السامية .  
أنت تغفر لأنك عظيم .

وبنو آدم لا يغفرون لأنهم صغار .  
كم أقمّت الدلائل يا رنى على أنك تطّلع على كل شىء وإن دقّ وهان ، وكم نظرت إلّى كما ينظر  
الأب الرحيم إلى طفله الصغير ، ولولا الأدب معك يا رنى لقلتُ إنى صافحتك يدي أكثر من  
ألف مرة .

نعم ، صافحتك ، ثم صافحتك ، وأنا أراك حيثما توجهتُ :  
أنا راضٍ عنك يا رنى ، فهل أنت راضٍ عنى ؟

أحبك يا ربي فهل أنت شافعي إلى سرحة في شط دجلة زهراء  
رأيت فنائى فيك حين رأيته تحاول إضلالى وتشنش إفنائى  
ومن أنت يا ربي؟ أجبني فإننى رأيتك بين الحسن والزهر والماء

\* \* \*

أنا الآن في غرفتي ، وحيداً شريداً ، أعانى غضب ليلي وبلاء الحب .  
وأغلب الظن أن لن يسأل عني أحدٌ في هذا المساء .  
ومن الذى يسأل عني وقد أقنعت أصدقائى في بغداد بأنى لا أحب أن يزورنى أحدٌ في  
البيت ؟  
ويشتد بلائى كلما تذكرت أنى كنت في حضرة ليلي معقود اللسان فلم أحسن الدفاع عن  
نفسى .

كنت بين أمرين : الأول أن أنكر أن مجلسى مع شعراء بغداد لم يكن فيه شراب ، ويظهر  
أن الشاعر عبد الرحمن البناء كان من الملمهين ، فقد وقف عند هذا البيت :  
فكم ليل قطعناه بأنسٍ تدور به علينا الخندريس  
ثم قال : أنا مستعدٌ لحذف هذا البيت إن كان فيه زحمةٌ عليك<sup>(١)</sup> .  
فقلت : الصديق أبقى وأنفع ، وما أحبُّ أن أكون من الكاذبين .  
الأمر الثانى هو الدفاع بقوة الحجة وقوة المنطق ، ويظهر أنى عنجزت في حضرة ليلي عن  
الحجة والمنطق .

وهل تنفع الحجة أو ينفع المنطق في الدفاع عن الشراب ؟  
الواقع أن الخمر أم الخبائث ، ولا يدعو إليها إلا رجلٌ مخبول .  
ولكننى كنتُ أملك إحراج ليلي لو شئت .  
كنت أستطيع أن أضع أوزار الخمر فوق رأس العراق ثم أنجو بنفسى .  
كنتُ أستطيع أن أقول إن فقهاء العراق هم الذين تفردوا بتفصيل أحوال الخمر فجعلوا منها  
ما يحرّم وما يباح .

وكنت أستطيع أن أقول إن شعراء العراق هم الذين زينوا الخمر للشاربين ، فما تحدّث  
شاعر عن الخمر في مشرق أو في مغرب إلا وقد وسوس شيطانٌ من شعراء العراق .  
ولكن عزّ على أن أعرض لأسلافنا من فقهاء العراق بسوء : فهؤلاء رجال راعوا الأدب مع  
الشرع فحرّموا ما حرّم وأباحوا ما أباح ، وهل كان أبو حنيفة من الفجار حين حلل النبيذ ؟

(١) الزحمة في لغة أهل بغداد معناها المشقة ، وهى كذلك في اللغة التركية .

ما كان أبو حنيفة فاجراً وإن تجنّى عليه الشعراء الذين عرفوه في صباه ، وإنما كان رجلاً يؤذيه أن يكذب على الشرع لتحسن حاله عند النساك .  
وعزّ على أن أغتاب شعراء العراق ، ففهم أبو نواس وكان أبو نواس فيما يظهر من الفاسقين ، ولكن أبو نواس على فجوره له في تاريخ الأدب العربي منزلة عالية ، وقد صرح الدكتور طه حسين مرة بأنه لا يقلّ عظمتاً عن أكبر شاعر أنجبته اليونان .  
وكنت أحسب الدكتور طه يمزح ، لأنه في أكثر أحكامه الأدبية من المازحين .  
فلما رجعتُ إلى خمریات أبى نواس رأيته من الأعاجيب وهل استطاع شاعر أن ينظم في المعنى الواحد أكثر من خمسين مرة ثم يتفوق في كل مرة غير أبى نواس ؟  
كنتُ أستطيع أن أخرج ليلي لتسكت عني ولو فعلتُ لنجوتُ من الهزيمة .  
ولكن لا بأس ، فالهزيمة قد تكون أشرف من النصر في بعض الأحيان .  
وما الذي يمنع من أن أنهزم لتنتصر ليلي ؟  
إن ليلي مريضة ، والمريض حين ينتصر — ولو جديلاً — يُحسُّ روح العافية .  
شفاك الله يا ليلي وهدائي !

\*\*\*

أنا محزون ، محزون ، محزون .  
كيف فاتني أن أنافق في زمن لا يسود فيه غير أهل النفاق ؟  
لعل السبب في هذه البلية أبى أول دكتور في الفلسفة من الجامعة المصرية .  
وهذه الأولية في الدراسات الفلسفية أذنتي أخطر إيداء ، فقد توهمت أبى مسئول عن درس جميع المزالق الأخلاقية لأكون أعظم مؤلف في الأخلاق .  
وقد صرّْتُ بالفعل أعظم مؤلف في الأخلاق ، ولكنني وأأسفاه أصبحت مزعزع الأخلاق .  
صرّْتُ كالطبيب الذي يشرّح الأجسام ليستفيد العلم فيخسر الخلق من الوجهة الشكلية .  
وهل من الخلق أن تهين أجسام الأموات ؟  
أنا أسامر الشاربين لأدرس النفس الإنسانية ثم تكون النتيجة أن أفتضح مع الشاربين .  
كنتُ أشرب لأدرس الناس فصرتُ أشرب لأدرس نفسي .  
فمتى أخلص من شر نفسي ؟ ومتى أخلص من شر الناس ؟  
وقد انتهيت من التجارب الأليمة إلى أن الأخلاق لا رباط لها من العقائد الأزلية ، وإنما تختلف باختلاف الشعوب ، وهل أنسى ما وقع لي في جامعة باريس سنة ١٩٣١ وما وقع لي في الجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ ؟

ففى سنة ١٩٣١ أقام لى فريق من أساتذة السوربون حفلة تكريم فى بهو السوربون بمناسبة نجاحى فى امتحان الدكتوراه فى الآداب ، وكان من حظى أن أتناول كأساً من الخمر قدّمتها لى حرم المسيو ديموبين ، وحاولت أن أرفض تلك الكأس ، ولكن تلك السيدة قالت : « أنت المنتصر ، ومن حق المنتصر أن يشرب أول كأس » .

أسعد الله أوقاتك يا مدام ديموبين !

وفى سنة ١٩٣٥ كنت أراقب الامتحانات فى الجامعة المصرية فسألتنى الأنسة أمينة السعيد أن أسمح لها بتدخين سجارة قبلت ، ثم وجدت من الزملاء من ينكر ذلك . وكنت مرة أراقب الامتحانات فى معهد اللبسيه مع زميلى الأستاذ فرنسيس العتر فأرسلت إلينا إدارة اللبسيه زجاجتين من البيرة لندفع بهما وقدة القيظ ، ثم عزّ على أن أشرب البيرة أمام التلاميذ وفيهم مسلمون ، فشرب العتر الزجاجتين فى نفس واحد !

وفى سنة ١٩١٩ زرت الشيخ الجيزاوى مع جماعة من الفرنسيين فعُدّ ذلك من الهذيان ! وفى سنة ١٩٣٢ زرت الشيخ المراغى مع جماعة من الفرنسيين فرأى ذلك علامة تفوّق . والمسلم يرى من الأدب مع ربه أن يغطى رأسه عند الصلاة ، والنصرانى يرى من الأدب مع ربه أن يكشف رأسه عند الصلاة .

فما هى الحدود الصحيحة لمكارم الأخلاق ؟

ليتنى أعرف !

ليتنى أعرف !

أتكون للشرق أخلاق وللغرب أخلاق ؟

وهو كذلك !

ولكن أين الشرق ؟ وأين الغرب ؟

أليست مصر من الشرق ؟

بلى ، هى من الشرق .

فما بال جماعة من الوزراء لا يقضون سهراتهم إلا فى سان جيمس والكونتيننتال ؟ وكيف يتفق أن يكون أعظم ما تغنم الجمارك المصرية من مكوس الشراب ، وفى مصر شيخ عظيم يسمونه شيخ الإسلام ؟

أنا أرجو أن يُتسبىء الله أجلى حتى أفضح هذا النفاق السمج الممقوت .

الحق أن مصر لا تزال كما وصفها حافظ إبراهيم فى كتاب « ليالى سطيح » .

فالمصريون يستبيحون شرب الخمر ، ولكنهم يأنفون من فتح الحانات ، فعليهم الإثم ولغيرهم الغنم .

والعراق أعقل من مصر في هذا الباب .  
 المصريون يشربون الخمر من أيدي الأفاكين الذين تلفظهم بلادهم الشحيحة .  
 أما العراقيون فيشربون الخمر من أيدي ناس هم في الأغلب من نصارى العراق .  
 وقد أخذت درسًا عن أحد الواغلين في مصر لن أنساه ما حييت :  
 دخلت أشرب في إحدى الحانات فلاحظتُ أن الساق في غاية من الصحو والعافية ،  
 فدعوته إلى كأس فرفض ، وكانت حجته أنه يلتزم الصحو ليراقب الشاربين .  
 أنت تراقبني ، أيها الوغد اللئيم !  
 وقد انتفعتُ بهذا الدرس فصدفْتُ عن غشيان الحانات منذ ذلك اليوم .  
 والله المستول أن يحفظني من السفه والحمق فلا أبذد مالى في إغناء الحمقى والسفهاء .  
 كيف يجوز لى باسم المدنية أن أهين نفسى في مصر أو في العراق ؟  
 يجب أن أعرف ما أعرض له من الخطر إذا انتشيتُ .  
 يجب أن أعرف أن التفلسف لا ينفعنى إذا فتكت بى سورة الصهباء .  
 يجب أن أتذكر أنى قد أصبح قدوة سيئة لأبنائى إذا ارتضيتُ الأنس بالشراب .  
 يجب أن أوجه نشاطى إلى محاربة الإثم والرجس والغواية والمجون .  
 وما قيمة القلم إن لم أستخدمه فى الدعوة إلى الفضيلة لأصل به إلى نعيم الفردوس ؟  
 وهل نحمل القلم لنعقُ الفضيلة ونفسد أخلاق الناس ؟  
 هل نحمل القلم لنزئُ البغى والفسوق ؟  
 إن مياه البحار قد تعجز عن تطهير ما جنيث من فتون فليكن من همى أن أحارب الغواية  
 بقلمى عامًا أو عامين لألقى الله بوجه أبيض وقلب سليم .  
 إن فقهاء العراق اتفقوا على أن الخمر لا تحرم إلا إذا عُصِرَتْ من العنب وُخِمِرَتْ حتى تغذف  
 بالزبد ، وهم يتساحون فيما استَقَطِرَ من التمر ، وأنا قد جربت المستَقَطِرَ من التمر وهو العرق  
 فوجدته سيئ العواقب ، وقد شربت منه كأسين فى إحدى الليالى ثم زرت ليلى فكدت أقتلها  
 لأشرب دمها بمحضر من الرقباء .  
 وليتنى فعلتُ لأتشرف بالفضيحة بالعراق !  
 أعترف بأن ليلى على هدى وأنتى على ضلال .  
 ولكن من يردُّنى إلى ليلى ؟  
 لن أرجع إليها بعد اليوم .  
 أنا أرجع إلى ليلى ؟

( ليلى المريضة فى العراق )

إيش لون يصير !  
لو كانت ليلى من أرباب الوجدان لهجرت فراشها في هذه اللحظة وجمحت إلى فراشي .  
لو كانت ليلى من أصحاب القلوب لعزّ عليها أن آيت مؤرق الجفن محزون الفؤاد .  
لو كانت ليلى من أهل الذوق لساءها أن أمسى بلا رفيق ولا أنيس .  
أنا آيت في كرب وتبيت ليلى في عافية ؟  
سأنتقم ، سأنتقم ، سأنتقم .  
سأقول في كل أرض إن أنكر الأصوات هو الصوت الرحيم ، وإن أبغض الأشياء هو  
الطرف الكحيل .  
وسأقول إن أقبح الناس هم اليتامى لأن ليلى يتيمة .  
سأقول إن أخبث الناس هم الملاح لأن ليلى مليحة .  
سأقول إن الشجرة الملعونة هي العراق لأن ليلى في العراق .  
سأقول إن الأدب نقمة لأن ليلى تعرف أسرار الأدب الرفيع .  
سأقتل ليلى قتلاً .  
وسيعلم آل ليلى كيف يدوي صوقي في العراق .  
وإني لو اتقّ بأن لن تنوح حمامة بعد اليوم إلا وقد سرقّت نواحي ، ولن يطغى الفرات إلا  
غضباً لشكايتي وبلائي .  
ستعرف الشقية كيف أجزيها لؤماً بلّوّم ، وإيداءً بإيداء .  
سألقاك يا ليلى في كل حين .  
سألقاك حين تطلع الشمس ، وحين يُشرق الزهر ، وحين يفيض الفرات .  
سألقاك في هطول الأمطار ، وهبوب الرياح ، وهجوم القيظ .  
سألقاك حين تبسمين ، وحين تعبسين .  
سأكون أقرب إليك من خيال العمل السيئ في ذهن الآثم المرتاب .  
سأطوّقك بطوق من حديد وفُتون كما طوقتنى بطوق من حرير وجُحود .  
أستغفر الله والحب .  
فلن أقف يا ليلى إلا حيث تحبين .  
سأقضى دهرى كله في الطواف حول ذكرياتك الغالية .  
وسأذكر الليلة التي اختفين فيها من القمر تحت الأشجار البواسق .  
سأذكر أنك دعوتني إلى أن أفتضح في هوائك النبيل .



— ٢٥٩ —

وليتنى افتضحت ، ليتنى افتضحت !!  
آه ، ثم آه .

لو كنتُ أعلم أن آخر عهدكم يوم « العتاب » فعلتُ ما لم أفعل  
والحمد لله على أن لم أفعل ، فسمعتك هي أئمن ما أحرص عليه في حياتي .  
ليلي ، أحبك وأهواك ، فاذا كرني بالشعر والدمع يوم أموت .

\* \* \*

انتصف الليل ، ولم يُعد لي في زيارة ليلى أمل ولا رجاء .  
وسأرجع إلى مصر — حيّا الله مصر — لأعاقِر الحب مع ليلى المريضة في الزمالك .  
ولكن ما الذي أرجوه من ليلى المريضة في الزمالك ؟  
سأعود إليها جسمًا بلا روح ، وما الفائدة من جسم بلا روح !  
وهل أضمن السعادة مع ليلى المريضة في الزمالك ؟  
لي مع تلك الشقية تاريخ وتواريخ .  
ولو كان لي بحث لما قضت الأقدار بأن أستجير من الرمضاء بالنار فأنقل من هوى ليلى  
المريضة بالعراق إلى هوى ليلى المريضة بالزمالك .  
إن ليلى المريضة بالعراق تصدّق في التّهم الصحائح ، أما ليلى المريضة في الزمالك فتصدّق  
في التّهم الكواذب .

ليلى المريضة في العراق تذكر جميع حسناي وبعض سيئاتي .  
أما ليلى المريضة في الزمالك فتذكر جميع سيئاتي ولا تذكر بعض حسناي .  
زرتها مرة في ليلة عيد الميلاد فقالت : وهل نحن من النصارى حتى تحتصني بالزيارة في ليلة  
عيد الميلاد ؟

فقلت : لذلك معني يا معبودتي .

فقالت : وما معنى ذلك ؟

فقلت : جئت لزيارتك في ليلة مولد الرسول الذي أحاطت به الشبهات يوم مات ، إن  
عيسى يا معبودتي الغالية استقبل الدنيا بالكدر والغم ، ثم ودع الدنيا بالكدر والغم ، وقضى  
عمره كله في كدر وغم ، ومصير عيسى في دنياه هو الشاهد على أن غدر الأصدقاء سيمة أصيلة  
من سيمات الوجود ، ولولا غدر الصديق لما اتفق لعيسى أن يفارق دنياه وهو مصلوب .

فقالت : وهل ترى أن عيسى مات مصلوبًا ؟

فقلت : مات عيسى مصلوبًا في رؤية العين ثم رفعه الله ، وأنا عندك مصلوبٌ بفضل الوشايات  
وسيرفعني الله .

فقلت : وترى منرتك كمنزلة الأنبياء ؟  
فقلت : أنا أحوج إلى كرم الله من الأنبياء : لأنهم أقوياء بفضل النبوة ، وأنا ضعيف بفضل الحب .

فقلت : وهل الحب ضَعَف ؟  
فقلت : وأين مظاهر الضعف إن لم تتوفر في رجل عارم تذله امرأة مكسرة الجفون ؟  
وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى مدّت الشقية يدها فلطمتني .  
وأسرعت قبضت على يدها وقبلتها عشر مرات .  
وأنا رجل يخافه الأسود ويطمع فيه الملاح .

\* \* \*

سأرجع صاغراً إلى ليلى المريضة في الزمالك بعد أن أهانتني ليلى المريضة في العراق .  
ومن يدرى قلعل ليلى المريضة في الزمالك تصهر روجي بفضل ما تسمع في من الوشايات  
فأصير كالمسيح عليه السلام ، المسيح الذي أسرف في الدعوة إلى الصفح والغفران .  
وهل دعا المسيح إلى الصفح والغفران إلا بفضل ما عانى من أراجيف الناس وظلم الناس ؟  
سأرجع إلى ليلى المريضة في الزمالك ، وأمرى إلى الله لا إلى الهوى .  
سأرجع إلى شارع فؤاد الذي يعبر الزمالك مرة ، ويعبر النيل مرتين  
سأرجع إلى مصر التي تتألق في صياغة الغدر والجحود .  
سأرجع إلى مصر لأعرف كيف تكون وقدة الشوق إلى العراق .  
فياليت شعري متى يعرفني أهل مصر ، ومتى يعرفني أهل العراق .  
إلى الله أشكو لؤم دهري وصرفه وعند الإله البرّ أودع حوبائي

أفي الحق أن ما بيني وبين ليلي انتهى بالقطيعة ؟  
هو ذلك ، فكيف أخادع نفسي بانتظار الصفح الجميل !  
آفة الآفات في عامي هذا هي العزلة التي اخترتها لنفسي منذ أول يوم دخلت فيه بغداد ،  
وقد أصبحت هذه العزلة طبيعة ثانية لا يمكن منها الخلاص .

وقد درست نفسي مرات كثيرة حين أتصل بالناس فرأيتني لا أستفيد ولا أفيد إلا في قليل  
من الأحيان ، وكان ذلك لأني حين ألقى الناس أظل وحدي محبوساً بين أحزاني وأشجاني ،  
وقد رأيت أن أخفف عن نفسي بعض التخفيف فلم أستطع : لأن ليلي ملأت أقطار ذهني  
وعقلي بالأفكار والمعاني . وقصتي معها قصة خطيرة قد تجرني إلى الخلف أو تجعلني ملهاة  
السامرين في القاهرة وبغداد ، والله المستول أن يقيني شماتة الأعداء والحاسدين .

وكان حالي مع ليلي محتملاً بعض الاحتمال إلى أن حلّ شهر حزيران واشتدت زفرات  
القيظ ، ففي هذه الأسابيع ظهرت غرائز ليلي واضحة صريحة : فهي تارة زهرٌ يتنفس وتارة  
جحيماً يتسعر . ويظهر أن ليلي أعدتني فتعرقُ : فأنا تارة مثال اللطف ، وتارة مثال العنف .  
وأنا فيما بيني وبين نفسي أعتب على ليلي أشد العتب .

هي تراني عبدها المطيع .  
وهو كذلك ، وهل السعادة إلا أن يطعم في كرمك من تهواه ؟  
ولكنها تنسى أني ضيف ، والضيف مرهف الإحساس يتألم أحياناً بلا سبب مُبين .  
هل تعرف ليلي بعض ما قاسيتُ من عتابها الأليم يوم زارتني في داري على غير ميعاد ؟  
وهل تعرف ليلي أني أكاد أتميز من الغيظ كلما تذكرتُ أن الدهر قد يضمن بهواني في دارها  
مرة ثانية ؟

هل تعرف ليلي أننا قد نفرق إلى غير معاد ؟  
ما هذه القسوة يا محبوبتي الغالية ؟  
إن العمر وإن طال قصير ، فكيف نضيّعه في التلؤم والتعُتب !

\* \* \*

ما لي ولهذا التوسل ؟ إن الصخر أرق من قلب ليلي وأعطف .  
المهم أن لا تضيع هذه الفرصة ، فرصة التعقيب على ما وقع بيني وبين ليلي من خلاف .

يجب أن أدون بعض ما يجيش في صدرى من المعانى ، فمن الحزم أن لا نترك الأفكار تتبخر وتبيد . والأديب الحق هو الذى يقتنص الخواطر عند فورة العواطف والأحاسيس .  
إن هيامى بليلى هيام مضيق ، فما أحسب الدهر سيسمح بأن نعيش عروسين فى مصر أو فى العراق ، وما بقى لى من ليلى غير هذه القطة الروحية والعقلية التى تلهب قلمى وبيانى ، فمن واجبى أن أسارع إلى تقييد ما يجول فى الخاطر قبل أن يصنع الفراق ما يصنع فيخمد روحى ويتعثر قلمى .

سنفترق ؟ سنفترق ؟

كيف يكون ذلك وقد تغلغل حب ليلى فى شِعَاب القلب والروح ؟  
وكيف أعيش بعد فراق ليلالى ؟  
وكيف يصح أن تبحث ليلى فلا ترائى وتسأل فلا أجيب ؟ وهل تسمح يا رنى بذلك ؟  
أنا كنتُ السبب فى هذه القطيعة الباغية ، ولم تكن أول مرة أجنى فيها على نفسى .  
أنا الذى أثرتُ ليلى ومهدتُ لها السبيل إلى البغى والعدوان والعقوق .  
كانت ليلى تجلس أمامى جلسة الأدب والخشوع بطرف متكسر وقلبٍ مطلول .  
وكانت ليلى تعجب لجمودى فى بعض الأحيان فتترقق وتتلفظ عساها تُدخل الأنس إلى روحى .

فهل حفظتُ هذا الجميل ؟

ما حفظتُ شيئاً ، وإنما مضيتُ أعتسف حتى كدرتُ الموارد العذاب .  
أعطيتُ مُلكاً فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلفه  
أنا المذنب ، فلينتقم منى الحب كيف شاء .

\* \* \*

ماذا أريد أن أقول ؟ ماذا أريد ؟

وهل تركتُ لى ليلى عقلاً أعرف به ما أعنى ؟  
أريد أن أبحث أسباب الخلاف حول الشراب .  
ولكن ما الموجب لهذه الوسوسة الخلقية ؟  
وهل كنتُ أول من شرب الخمر من المسلمين ؟  
يجب أن أعترف بكل شئ رعية ليلى وإنصافاً للتاريخ .  
أنا نشأت نشأة صالحة ، فى بيت يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، وكان أبى رحمه الله من أصحاب الأذواق ، ولكنه لم يشرب الخمر أبداً ، وإن كان عرف أن له خالين فى القاهرة يعاقران الصهباء ، أحدهما من كبار الموظفين ، وثانيهما من كبار المحامين .

وفي المدة التي أقمتها بالأزهر الشريف لم أسمع أن من العلماء من يشرب الإثم ، وإن كنت سمعت بعد ذلك أن الأستاذ فلان كان يشرب مع الشاعر فلان ، وكنا من أقطاب الزمان ، فكان الأول إمام العلماء ، وكان الثاني أمير الشعراء .

ومنزلاً في سنتريس لم تدخل فيه الخمر ، لأن أي رحمه الله لم يكن يتصور أن ذلك من الممكنات ، وسيصان منزلنا في سنتريس عن الخمر تكريماً لذلك الروح النبيل .

ولن أنسى أني دعوت جماعة من كبار الموظفين لتناول العشاء هناك ، وكان بعضهم من المدمنين ، فلم أقدم إليهم غير الماء القراح مراعاةً لخاطر أي طيب الله ثراه ونفعني بدعوته الصالحات .

وهذه النشأة الطيبة كان لها تأثير فيما صرث إليه ، فأنا أشعر بأني سفية مجرم حين أشرب الخمر ، ومن أجل ذلك تكثر وساوسي الخلقية فيما يتصل بهذا المعنى .

وقد فكرت مرة في إقامة منزل على شاطئ النيل في سنتريس لأدعو إليه أصدقائي حين أشاء ، ثم خطر بالبال أن ذلك قد يساعد على قضاء بعض الليالي الساهرات ، فأهملت المشروع تكريماً للروح النبيل ، روح الأب العزيز الذي لم يلوث فاه بلعاب الخندريس ، وهو أخطر من لعاب الأفاعي والصلال .

ولكن الأدب الذي تلقيته عن أبي لم يعصمني كل العصمة من الزيف .

وكيف أنجو وأنا أعيش في القاهرة ، وفي القرن العشرين ؟

شربت الخمر أول مرة بعد أن اجتزت امتحانات الليسانس في العلوم الفلسفية والأدبية سنة ١٩٢١ ، شربتها مع صديق سخي لا يستحق أن أغضب من أجله صاحب العزة والجبروت ، شربتها مع مخلوق رقيق يتوهم أن شرب الخمر من علامات المدنية .

وأعترف بأني كنت أعرق منه في الرقاعة والسخف ، فقد توهمت أني محتاج إلى خلع الصبغة الأزهرية لأساير التمدن الحديث . والأزهرى بين حالين اثنين : الفجور أو العفاف ، ولا يوجد على ظهر الأرض أسخف من الأزهرى حين يتظرف ويختال .

ثم لطف الله بحالي حين وصلت إلى باريس في سنة ١٩٢٧ ، فقد كنت أظن أن من واجب أهل باريس أن يشربوا « الأبيريتيف » وهو شراب ملعون ، ولاحظ ذلك المسيو بلانشو حفظه الله ، فنبهني إلى أن « الأبيريتيف » لا يواظب عليه من أهل باريس غير الأوغاد ، وأن أحرار باريس لا يشربون غير البيرة والنيذ .

والواقع أنه لا يوجد في باريس الماجنة العابثة رجل يشرب معشار ما يشرب الرجل المتظرف في القاهرة أو في بغداد .

الرجل الباريسي يطلب نصف كأس من البيرة ، أو نصفين حين يسرف ، ويطلب على

المائدة رُبِع لِتَر من النبذ ، ولا يتجاوز ذلك إلا الأوباش .

أما المتظرفون من أهل مصر والشام والعراق فلهم حساب تفضل فيه الملائكة والشياطين .  
والحقُّ أني مَدِينٌ للتصون الذي خصني به الله في مطلع حياتي ، فأنا لم أقترف كبيرة ولا  
صغيرة قبل الثلاثين ، وما أذكر أني فرطت في الفرائض أو النوافل قبل الثلاثين ، ولعل هذا هو  
السبب في أني بقيت شابَّ العقل والعاطفة والإحساس بعد الأربعين .

ولو أن الله عز شأنه كان تداركني برعايته السامية فحفظ حياتي من جميع الشوائب لكان  
من الممكن أن تصل مؤلفاتي إلى أعظم ما وصلت إليه ، ودليل ذلك أني لم أذق قطرة من الخمر  
في الأوقات التي ألفت فيها كتاب النثر الفني وكتاب التصوف الإسلامي ، بغض النظر عن  
العيب الذي كنتُ أَقترفُهُ في لحظات الفراغ .

يضاف إلى هذا أن من رجال العصر الحاضر من وصلوا إلى منزلة سامية في التفكير مع  
التصون والعفاف أمثال مصطفى عبد الرازق ومحمد جاد المولى وعبد المجيد اللبان ومنصور  
فهمي وأحمد أمين .

وقد ألفت كتاب ( الأخلاق عند الغزالي ) في زمن لا أعرف فيه من المنبهات غير الشاي  
والبرتقال ، ومع ذلك ظل هذا الكتاب أعظم ما ألفتُ في مطلع شبابي ، وقد انتفع به كثير من  
الباحثين ، وكان أساساً لكل ما كُتِبَ عن الغزالي بعد ذلك .

وهل كان الغزالي يشرب الخمر وهو يؤلف كتاب إحياء علوم الدين ؟

هيهات ، هيهات !!

إن من المؤكد أن نبي الإسلام لم يشرب الخمر أبداً ، ولم يَفْسُقْ أبداً .

ومع هذه الصيانة صلح لتلقى القرآن عند قوم ، ولتأليف القرآن عند قوم .

وهو في كلتا الحالتين من أعظم العظماء .

وهل كان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب يشربان الخمر وهما من نوادر الرجال ؟

فما هي الشبهة السخيفة التي تجعل الخمر والمجون من علامم العبقريّة ؟

إن للخمر فضلاً واحداً هو أنها كدرت حياتي ، ولو كان الله نجاني من هذا الإثم لكنت اليوم

من كبار الوزراء واستغنيت عن اللجاجة مع ليلي وظمياء .

وكيف يطيب العيش بدون ليلي وظمياء ؟

صدق والله شوق حين قال :

سَيَطْرَ الحُبُّ على دنياكمُ كل شيءٍ ما خلا الحُبَّ عَبَثٌ

إن ليلى من همى وإن أنكرتنى .  
أحبك يا ليلى ، وليتنى أعرف كيف تكونين ساعة الصفاء .  
إيش لون يصير !  
آه ، ثم آه ، منك يا شقية !  
أتعرفين عواقب ما تجنين ؟  
أتريدين أن تحولينى إلى ملك ؟  
وأين أنا من هذا المطلب العالى ؟  
أنا مخلوق أرضى يتسامى إلى معشوقة سماوية ، إن شاء لك الوفاء أن تكونى سماوية الطباع .  
أنا الرجل الذى تعرفين : الرجل الذى أهانك بقبلة أئيمة فى رحاب الكاظمية .  
لم تنفرين منى ، أيتها الغزالة الدعجاء ؟ لم تنفرين منى وأنا أؤمن ما ملكت يمينك ؟  
وما ذنبى حتى أجازى بالقطيعة وأنا غريب ؟  
أنا غريب ، يا ليلى ، غريب .  
غريب مفارق سيشرب كأس اللوعة بعد أيام ثم لا يجد السبيل إلى التداوى برشفة من ماء  
الفرات .  
غريب لا يعرف متى يرجع إلى العراق .  
غريب سيطل فى كروب وأشجان إلى أن يغرق فى دجلة أو فى النيل .  
أيؤذيك أن أشرب كأساً من الخمر ، ويدى هى التى عنها جددك الشريف الرضى حين  
يقول :  
فلا عار أن تستجد الكأس راحةً أضرب بها حمل الجراز المصمم  
لم أكن لاهياً يا ليلى ، ولو كنت لاهياً لما استطعت أن ألقاك ولى مؤلفات تغد بالعشرات ،  
ومقالات ورسائل تعد بالمئات أو بالألوف .  
أنت التى تنكرين الكأس ؟  
آمنت بالله وكفرت بالحلب !  
وما عسى أن تكون الكأس بجانب ما شربت من عينيك الناعستين ؟  
ألا تذكرين ؟ ألا تذكرين ؟  
ألا تذكرين يا لئيمة ما صنعت بقلبي يوم التقينا بالكرادة الشرقية ؟

— ٢٦٦ —

ألا تذكرين يوم غضبتُ عليك أمام خالتك الرفيقة ، فلما عاتبْتُكِ على مكايدتي قلتِ بعنفٍ  
وغطرسة « خَلِّيه يولِّي » .  
أنا أولِّي ؟ أنا ؟ أنا أولِّي يا ليلي ؟ وإلى أين وقد صيرتِ الدنيا أمام عيني أضيق من سَمِّ  
الخياط ؟

ستعرفين عواقب ذلك يا شقية يوم تياسين من رجوعي إلى العراق .  
بأى حق يجوز لك أيتها الآثمة الجانية أن تقتليني بعينيك الناعستين وأنا غريب ؟  
غريبٌ دعاه الشوق واقتاده الهوى كما قيَّدَ عَوْدُ بالزمام أديبُ  
ليلي . اسمعي يا ليلي .  
كان هُيامي بسحرك الغلاب من أغرب ما أضمرت الأقدار لسفير العروبة المصرية في العراق  
كما وصفتنى جرائد لبنان .  
وحسبي من الشرف أن أكون .  
« سفير العروبة المصرية في العراق »



## حضرة الاستاذ الفاضل الدكتور الرزقي المهارك

انت الرزقي الذي لم  
بشقي مثلهم غبارك  
فقت الانام بخلق  
بمثابه لم تشارك  
بارك في الخلق فوبا  
من لطفه قد اعادك  
ان عز بالناس جبار  
فانت اعزرت جارك  
وانها ركت نفسا  
اذا الرزقي مبارك

سلام اسنى ونجدة حسنى لك منى ايها الراح الذي احببته والله قبل ان اراه  
وكنت امينى بملافاته واحمدته على تلك الصنفه الطيبه التي صفقت منها  
في النسيب بالاخ الاستاذ وجدت فيه الفضله في الصدوق المشهود وعلى  
ان تلك الجليله وان لم تطل فقد كشفت لي عن نفسيه الاستاذ التي تيف  
عن لطفها ذلك المحي الرقيق

انجي رزقك مرين في النزل فوجدتك مستريحاً نائماً فلم احب ان عاينت  
كيف وانا اتمنى لك كل راحة وهناء والذنب مني لاني نزلتكم في الساعه  
الثالثه بينا كان وعدمكم في المني مسه التي كنت فيها مشغولاً  
لعلي الاقيت عم قريب ان شاء الله واسألك عن لبالي بغداد امين هي من  
لبالي سنتريس او لبالي باريس وعلى كل فاني ارجو لك ان تكون مستريحاً  
ناعماً البناي هادئاً كحوس بالرضى اذا هيات لك شقه منزل تنفلك  
عن تاكيس بالاس وعن ضوضائه وغلاء اثمانه ورضى مثواه  
وعلى اي حال فالأمل انني اذ زررتك للمرة الثانيه اجدك مستريحاً بعد  
الظفر مرجباً فومك الى الدين زادك الله هناء وراحه وسلام لك ايها  
الراح وللكنور عفاؤي وارجوه ان يسمعك نصيدي في ابطاء العراق  
فاته معجب بها وسعجك ايها ودم بخير لخصك الخالص

ظهر كتاب ( عبقرية الشريف الرضى ) منذ أسابيع ، وقد استقبله العراقيون أكّرم استقبال .

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب وطبعه فرصة للراحة والاستجمام ، وأين يستجم مثلّ ويستريح ؟ إن بغداد ضيقة وليلى تبث حولى العيون والأرصاد ، فلم يبق إلا الطواف بأروقة وزارة المعارف لمناوشة من هناك من الموظفين أمثال السادة محمد حسين الشيبى ومحمد بهجة الأثرى وسلمان الصفوانى ومحمد صادق الوكيل ومن يختلف إليهم من حملة الأقلام في بغداد . أما السيد محمد حسين الشيبى فقد ألفتة مدة ثم صدفت ، لأنه كان يريد أن يهينى داراً أقيم بها فى الكرادة الشرقية ، وذلك باب من الكرم واللفظ ، ولكنى خشيت أن يكون أراد إبعادى عن ظمياء .

وأما السيد محمد بهجة الأثرى فكان حالى معه من الأعاجيب : كان جنيّاً يرانى ولا أراه ! وتعليل ذلك سهل : فقد كانت حجرته مظلمة وكانت نوافذها مغطاة بشبكات من الأسلاك « ومن فى النور لا يرى من فى الظلام » وكذلك كان يرانى حين أمر بالدهليز ولا أراه فيدعونى حين يشاء ، ويتناسانى حين يشاء . وأغلب الظن أنه لا يدعونى إلا حين يشاق إلى من يفهم أسرار البلاغة فى قصائد الجياد .

لم يبق إلا مكتب السيد سلمان الصفوانى ، وقد انجذبت إليه نفسى كل الانجذاب ، والأشرار يأنس بعضهم إلى بعض .

يضاف إلى ذلك أن السيد صادق الوكيل كان يجاور الصفوانى . وصادق الوكيل شاب مهذب ، ولا يعاب عليه إلا جاذبية خفيفة توجب أن يتطلع القلب إلى لقائه من حين إلى حين .

\* \* \*

أنا أذهب إلى وزارة المعارف كل يوم لأرى هؤلاء الرفاق ، ولأتناول الغداء مع صادق الوكيل حين يجوع ، وهو يجوع فى كل وقت .

والحق أن صادق الوكيل تحفة ، وهو نموذج للصديق النافع : فهو يحضر كل ما يهمنى الاطلاع عليه من نادر المؤلفات ، ويتسخ أو يستنسخ ما أحتاج إليه من الوثائق والأسانيد .

وأنسى بأولئك الرفاق الأوفياء كان نعمة ساقتها إليّ المقادير ، فلولاً الأُنس بهم لقتلتني الوحشة من غضب ليلي ، ليلي التي تغضب من كل شيء ولا ترضى عن شيء .  
أحبك يا ليلي ، أحبك يا غادرة ، أحبك يا ظلوم .

\*\*\*

زاد أنسى بوزارة المعارف ، وأصبح لي فيها أصدقاء يتطلعون إلى لقائي في كل صباح .  
ولكن ما بال وزارة المعارف تُفْرِغني في هذا اليوم ؟  
دخلتُ في الساعة العاشرة فوجدتُ جماعة من طلبة الحقوق متجمهرين أمام حُجرة الوزير ، وما كادوا يلمحونني حتى سارعوا إليّ غاضبين صاخبين .  
وما شأنِي بطلبة الحقوق ؟

ما شأنِي ! ألم يكونوا يرونني كل يوم مع أساتذة كلية الحقوق ؟  
ابتدروني أحدهم فقال : هل تتحمل الحكومة المصرية تبعه أعمال محمود عزمي ؟  
فقلت : إن الحكومة المصرية لم ترسل إليكم الأستاذ محمود عزمي وإنما اختارته حكومة العراق لأنه كان ولا يزال من أصدقاء العراق .

وصاح طالب آخر : هل تظن أن محمود عزمي سيجدد عقده ليرجع في العام المقبل ؟  
فقلت : ذلك في ضمير الغيب . وما كنت أنتظر أن أسمع مثل هذا الاستفهام الطريف !  
وصرخ طالب ثالث : هل يجوز للأستاذ أن يُفهم تلاميذه أثناء تأدية الامتحان أنهم سيرسبون في الامتحان ؟

فقلت : هذا غير معقول .  
فقالوا : هذا ما صنعه سيف .  
فقلت : اسمحوا لي أن أتهمكم بالتزيد ، فما يستطيع الدكتور سيف أن يقع في مثل هذا الغلط .

فقالوا : عندنا شهود .

وبعد نقاش دام بيني وبينهم بضع دقائق تخلصت منهم وانصرفت .

\*\*\*

يظهر أن محمود عزمي مُقبِلٌ على أخطار ، فما هو تاريخ هذا الرجل في العراق ؟  
إن ذهني مشرّدٌ في هذه الأيام ، وحوادث هذا اليوم آذت أعصابي ، وزادتني تعباً إلى تعب ، وقد فكرتُ في مقابلة معالي الأستاذ الشيببي بعد النقاش الذي دار بيني وبين طلبة الحقوق ، ولكنني لم أعرف بالضبط ماذا يجب أن أقول ، فأمثال هذه البدوات ليست غريبة من الطلاب ، وهي تقع في مصر كما تقع في العراق ، ولعلها تنتهي بسلام .

يهمنى أن أدون في هذه المذكرات كلمة عن حياة محمود عزمى في العراق .

ولكن هل تسعفى الذاكرة بما أريد ؟

لقد انقضت الأشهر الماضية والدنيا تموج بالحقائق والأباطيل ، ومع ذلك كان اسم مصر يعطر الأندية والمجالس في سائر أرجاء العراق .

ونحن في اليوم التاسع عشر من شهر حُزيران وسنرجع إلى مصر في اليوم الثالث والعشرين ، فليس أمامنا للإقامة في بغداد غير ثلاثة أيام ، ثم لا يكون بيننا وبين أهل العراق غير الذكرى . على أننى مطمئن إلى حُسن الخاتمة ، فالطلبة الذين يثورون اليوم كانوا منذ أشهر أمثلة من الأدب والذوق ، وكانوا يحيطون عزمى وسيف بأصدق عواطف التبجيل ، وإنى لو اتق بأن كلمة لطيفة يفوه بها أحد الأساتذة تكفى لتهدئة هذه الثورة العصفوف .

وشاهد ذلك تحت يدي ، فقد شكنا إلى جماعة من الطلبة بعض ما ساءهم من محمود عزمى ، ودعوني للتوسط ، فأشرت عليهم بأن يتوجهوا إليه بلا وسيط ، وكان ما رجوت أن يكون ، فقد استطاع محمود عزمى بلطفه ولباقة أن يستل من صدورهم دفائن الغضب والغيط ، وهو رجل معسول الحديث .

أنا مطمئن إلى حُسن الخاتمة ، ولكن مظاهرة الطلبة بوزارة المعارف قد تتكرر وقد تكون لها عواقب : فهم يعيشون في جحيم القرن العشرين وهم يسمعون أن مصاير الكليات في مصر ليست في أيدي الأساتذة وإنما هي في أيدي الطلاب .

ولا يخفىنى إلا هذه الأيام القصار ، الأيام الثلاثة التى بقيت من أيامنا الطوال في بغداد ، أما العام المقبل فهو في ضمان الله ، ولن يظل الطلبة غاضبين ، فستجد لهم في الصيف شؤون تنسيهم متاعب السنة الدراسية ، وسيدكرون أساتذتهم بالخير حين يتمثلون ما كان بينهم وبين أساتذتهم من معاني المودة والعطف ، وهم على كل حال قريو عهد بحياة الطفولة البريئة التى لا تتأصل في صدرها الضغائن والحقود .

وأين الطالب الذى قد قلبه من الصخر فلا يذكر ما عانى أساتذته في تربيته وثقيفه ؟

لقد وقع لى مع الأستاذ إسماعيل بك رأفت رحمه الله حادث يشبه هذه الحوادث ، فقد كان أسقطنى في امتحانات الجغرافيا ووصف الشعوب مرتين حين كنت طالباً بالجامعة المصرية ، وحملنى الغضب والغيط على أن أولف كتاباً في ثلثه وتجريحه ، ثم هدأت نفسى حين تذكرت أنه لم يكن يريد غير الخير ، فرجعت عن غيى وطويت الكتاب ، وكنتُ أصدق من بكى عليه ورثاه يوم مات .

ومحمود عزمى في هذه الأيام وصل إلى حال تشبه أحوال المساكين ، فقد هدّه التعب وظهرت عليه الشيخوخة حتى ليكاد يُنكره من يراه ، فمن البعيد أن لا يذكر تلاميذه أن الأدب

يوجب أن ينظروا إليه بعين العطف والرفق .  
أنا مطمئنٌ إلى حُسن الخاتمة ، ولكنى مع ذلك قَلْتُ مُرتاع .

\*\*\*

أحب أن أكتب كلمة عن تاريخ محمود عزمى فى العراق ، كلمة قصيرة فى حدود ما يسمح به هذا الجوُّ القاطظ الذى يفرض على الحمام أن تنوح صباح مساء .  
والله يعلم أنى أكتب ما أكتب وأنا مكروِبٌ مكدود : فما سناغ لى طعام ولا شراب منذ يومين ، وإن كنت ألقى إخوانى فى بغداد بوجه ضاحكٍ جدلان ، ولعل همومى تخفّ أو تزول حين تَسْمُر فى مساء الغد بمنزل الدكتور الجمالى ، فسيكون معنا الدكتور عزمى ، وقد تسنح الفرصة للمداولة فى حلّ المشكلات التى تعترض طلبة الحقوق فيغمر السلام ما بقى من أيامنا فى بغداد .

\*\*\*

أحب أن أقول كلمة عن حياة محمود عزمى فى العراق ، كلمة قصيرة يوجبها نظام هذه المذكرات ، وهى تشرح بعض الشرح ما أدّى إلى حوادث هذا اليوم ، فلكل نتيجة مقدمات .  
ولكن ما الموجب لعناء الكتابة فى هذا القبط ؟

ومن الذى يطالبنى بذلك ؟

وما قيمة السُّخف الذى يسمونه التاريخ ؟

أفى الحق أن الإنسانية تستفيد من تقييد الحوادث التاريخية ؟

لو كان ذلك ينفع كما يزعم الزاعمون لما تكررت مآسى التاريخ .

ولكن هل أكون أول عاقل فى الوجود ؟

لو كنت عاقلاً لبدأت بنفسى فجنبتُها مكاره الحب ، ولو أنى فعلتُ لنجوتُ من بلايا كثيرة أخفُّها ألم المرارة الذى يعاودنى من حين إلى حين بفضل ما عانيت من اللواعج والشجون .  
إن ضياع الوقت فى تاريخ محمود عزمى فى العراق قد ينفع بعض النفع ، فهو سيسغلنى ساعة أو ساعتين عن التفكير فى مصيرى مع ليلالى ، التى تقضى هذه الساعة القاطظة فى هُجودٍ مُريح بعد تناول غداها الخفيف من الفاكهة واللبن المثلوج .

ومن المؤكد أنها تنام الآن بلا شِعار ولا غطاء ، وهى أحلى ما تكون حين تُسلم نفسها عاريةً إلى سريرها الأمين .

لو كنت أراها فى هذه اللحظة !

لو كنت أخرج فأطير إليها لأرى كيف تُناغى الأحلام فى هذا الوقت ! إيش لون يصير !

ياقيمة ، ماذا تريدن متى ؟

أعفي خيالي من ذكراك لحظة واحدة لأدوّن هذا التاريخ .  
أخرجني من دنيائ لحظة واحدة لأرى أن في الدنيا أشياء غير لواعج الصباية والحب .  
أتركيني لحظة أو لحظتين .  
إرحميني ، يا ليلي ، فلي في دنيائ هموم غير هموم الصباية والحب .  
ليلي ، ليلاي .  
كيف تكونين في هذه اللحظه ؟  
أنا أعرف كيف تكونين ، وأكاد أقبل الطلائع من صدرك الجميل .

\*\*\*

ما هو تاريخ محمود عزمي في العراق ؟  
في مطلع الربيع من السنة الماضية دعانا الأستاذ محمد علي الطاهر إلى حفلة شاي لمصافحة  
الأستاذ محمود عزمي قبل رحيله إلى العراق ، وكانت حفلة خفيفة الروح تبادلنا فيها الكلمات  
الطيبات ، وألقى الأستاذ إبراهيم الدباغ خطاباً قال فيه « إن الأستاذ محمود عزمي متهم بضعف  
العقيدة وليت المؤمنين كانوا في أخلاق هذا الملحد الذي يعرف كيف يواسي إخوانه حين تجب  
المواساة » .

وخطبت أنا أيضاً ولكنني لا أذكر ما قلت يومذاك ، ولما وقف محمود عزمي ليلقي كلمته  
علّق على عبارة رُقِشت في صدر بطاقة الدعوة وهي « لا تُخطب ولا قصائد » فترجمها إلى  
الفرنسية بعبارة :  
NI FLEURES , NI COURONNES

وقد ابتسم الحاضرون لهذه العبارة ، أما أنا فقد تشاءمت لأن هذه العبارة في أصلها الفرنسي  
كانت تُكتب في ورقة لإعلام الوفاة ، الإعلام الذي يرسله أهل الميت إلى المعارف والأصدقاء ،  
وما أنكر أن هذه العبارة تطورت فصار يراد بها الدعوة إلى رفع التكليف ، ولكنها مع ذلك  
وقعت من نفسي أسوأ موقع وقد خفت أن تكون نذيراً بموت محمود عزمي في بغداد .

وبعد انصراف المدعوين جلس بعض الإخوان يسمعون ، ودار الحديث حول ما يُتظَر أن  
يصير إليه محمود عزمي في العراق ، واتفقت كلمتنا على أن محمود عزمي رجلٌ يمتاز بثقافة  
واسعة وتفكير دقيق ، ولكن ما ضيه في حياته الأدبية والسياسية يشهد بأنه في احتياج إلى أن  
يرزق حُبّ المُكوف على عمل واحد والبعد عن مناوشات الأحزاب .

وفي صباح اليوم التالي نشر الأستاذ أحمد الصاوي كلمة في جريدة الأهرام أشاد فيها بفضل  
العراق ، وأعلن أسفه الموجه على أن تضيق مصر في وجه رجل مثل الدكتور محمود عزمي ،  
ثم حمد الله على أن يكون لأمثاله مجال في خدمة العراق .

\*\*\*

دخلتُ بغداد في صباح اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول ، ومضيتُ فسلمتُ على معالي وزير المعارف وفخامة رئيس الوزراء وقيدتُ اسمي في قصر جلالة الملك ، وانطلقتُ فألقيتُ الدرس الأول بدار المعلمين العالية ، وكنت لا أزال بغبار الطريق ، ورجعتُ إلى الفندق فاسترحت قليلا ، ثم أخذتُ عربة وذهبتُ إلى جريدة البلاد لأسأل عن مقر الأستاذ محمود عزمي فطلبه السيد زعرور بالتليفون ، وكانت دهشتي عظيمة حين عرفتُ أنه يقيم بالفندق الذي نزلت فيه .

فرحتُ جدًا بلقاء الأستاذ محمود عزمي ، فنحن أصدقاء برغم ما كان وقع بيني وبينه في باريس ، وتفضل فدعاني للعشاء .

ثم دار الحديث ونحن على المائدة فعرفتُ أن مركز الأساتذة المصريين في العراق كان تعرّض للعواصف في السنة الماضية بسبب مناوشة صحفية ثارت حول الدكتور علي عبد الواحد الذي انتدب من الجامعة المصرية مفتشًا للغة العربية بمدارس العراق .

وأصل الحكاية أن أحد المدرسين السوريين سمع من الدكتور علي عبد الواحد ما لا يرضيه فهجم عليه ذلك المدرس في إحدى الجرائد وادّعى أنه خال من المؤهلات العلمية وأنه في مصر من التكرات .

ومن الواضح أن مثل هذا الهجوم لا يقوم على أساس ، وما كان يمكن أن يلتفت إليه أحد من أهل العراق ، ولكن الدكتور علي عبد الواحد ضعيف الأعصاب إلى حدٍّ مزرعج ، وقد اشتجرت معه مرةً يوم كنا طالبين في جامعة باريس ، ولولا لطف الله لتضاربنا علانيةً في أحد المطاعم ، ومن كان في مثل هذه الحال من ضعف الأعصاب لا يبعد أن يقع منه ما وقع ، فقد ساءه أن يُشتم في جريدة عراقية فامتطى طيارة ورجع إلى مصر بدون أن يستأذن رؤسائه في بغداد .

وفهمتُ من الأستاذ محمود عزمي أن مشكلة الأستاذ علي عبد الواحد لم تكن المشكلة الوحيدة التي صادفت المصريين في بغداد ، فهناك أستاذ ثانٍ ترك عمله قبل أن تنتهي السنة الدراسية ، وهو الأستاذ عبده حسن الزيات ، وأستاذ ثالث وقع بينه وبين بعض رجال المعارف خلاف ، وتحديث عنه بعض صحف بغداد بما لا يحب فترك عمله في العراق قبل أن تنتهي مدة العقد .

وقد آذاني ما سمعتُ فقضيتُ أول ليلة في بغداد وأنا محزون .

\*\*\*

وفي صباح اليوم التالي حضر لتحتي شابٌ يرأس السياسة الأسبوعية هو السيد فخرى شهاب ، وهو من المعجبين بالأستاذ محمود عزمي كل الإعجاب ، وقد قصَّ عليّ نادرةً يحسُنُ

( ليلي المريضة في العراق )

تدوينها في هذه المذكرات ، لأن لها نظائر سائير إليها فيما بعد .  
حدثني أن الأستاذ عزمي دخل إحدى المدارس فقال للتلاميذ : هل تعرفون أن اختلاف  
السنة والشريعة أضرب بالعراق ؟  
قالوا : نعم .

فقال : وكيف السبيل إلى الخلاص ؟  
قالوا : ذلك داءٌ حار فيه الأطباء .  
فقال : الداء يرجع إلى الأساس الذي قام عليه هذا الخلاف .  
قالوا : وما هو ذلك الأساس ؟  
فقال : هو الإسلام ، ولو خرج العراقيون من دينهم ورجعوا إلى الفطرة لزالَّت أسباب هذا  
الخلاف .  
قال الراوي : فتدخل مدرّس الديانة باللوم والاعتراض ، وكان لهذه المحاورَة صدى في  
أندية بغداد .

\* \* \*

والحكاية غريبة ولكن وقوعها من الأستاذ عزمي غير مستحيل .  
فلهذا الرجل سوابق من هذا النوع ، وهو الكاتب الوحيد الذي اعترض على أن يُنصَّ في  
الدستور على أن دين الدولة المصرية هو الإسلام ، وكان يسميه « النص المشثوم » في كلمات  
نشرها بجريدة الأهرام وجريدة الاستقلال .  
وهناك سابقة ثالثة وقعت منه يوم كنا في باريس ، فقد أثنى عليه الدكتور بشر فارس في أحد  
المحافل وقال : إنه يريد أن يكون الإسلام إسلامًا ، فاعترض الأستاذ عزمي قائلاً : أنا ما يهمني  
أن يكون الإسلام إسلامًا !  
والواقع أن الأستاذ عزمي صحيح العقيدة وإسلامه غير ضعيف ، ولكن بعض خصومه  
أسرفوا في اتهامه بالزندقة والإلحاد ، فقابل الإسراف ولسان حاله يقول : لكم دينكم ولّي  
دين .

وهذا الصنف من المثقفين كثير الوجود ، وهو يحتمل في كثير من الأحيان ، لأنه في الواقع  
لا يكفر بالله وإنما يثور على أوام الناس .

ولكن من يظن أن هذه البدوات العقلية تمرُّ بلا جزاء في كل مكان ؟  
إن أهل العراق كسائر المسلمين لا يُرضيهم أن يتعرض إنسان بسوء لأصول الدين الحنيف .  
لم يكن عزمي أول من أشار بالارتداد عن الإسلام لتنقية الفطرة من أوام المخرفين من أتباع  
الدين ، فقد سبقه إلى ذلك الأستاذ محمد فريد وجدي ، ولكن فريد وجدي يُقبل منه كل



شيء ، لأنه قضى حياته في الدفاع عن الشريعة الإسلامية ، أما محمود عزمي فرجل يعلن أن إيمانه مقصور على الحقائق التي يؤيدها العلم الحديث ، ومن أجل هذا يقع هجومه على الإسلام موقعاً غير مقبول .

رأيت من واجبي أن أتصل بالمصريين المقيمين في العراق عسانا نتعاون على تبديد الشبهات التي خلقتها حوادث السنة الماضية ، فكنت أزور زملائي بكلية الحقوق في كل يوم ، وساعدني على ذلك أن كانت كلية الحقوق بجوار دار المعلمين العالية ، وأن كانت هيئة التدريس مكونة من مصريين وعراقيين على جانب عظيم من أدب النفس ، فمن المصريين الأستاذ محمود عزمي وهو في قلبي صديق محبوب وقد طوّق عنقي بجميل لا أنساه وهو الخطاب الذي ألقاه في الحفلة التي أقيمت لتكريمي في بغداد ، ومنهم الأستاذ محمود سعد الدين الشريف ، وهو شابٌ حلّو الشمائل طاهر القلب ، ومنهم الأستاذ حسن سيف أبو السعود وهو فتى عذب الحديث لا تفوته النكتة الإسكندرانية ، ومنهم الأستاذ أحمد فهمي وهو إنسان راجح العقل ، ومنهم الأستاذ عبد العزيز محمد وهو مثال عالٍ من التكوين الفقهي ، وقد ظلّ مرضياً عنه إلى آخر لحظة قضائها في بغداد .

ومن العراقيين الأستاذ منير القاضي وهو من عيون أهل الفضل في الحياة الفقهية ، والأستاذ مكّي الأورفي لي وهو رجلٌ سَمَحٌ ولأسرته مكانٌ مرموقٌ في بغداد .

\*\*\*

ولتنسّم الهواء في هذه البيئة العلمية كنتُ أزور كلية الحقوق في كل يوم بعد أن تنتهي دروسي بدار المعلمين العالية .

وفي خلال ذلك كانت تقع بيني وبين الأستاذ عزمي مداعبات في الأندية والمحافل يتناقلها السامرون من أهل العراق<sup>(١)</sup> .

ونشط الأساتذة المصريون فزحوا المطابع بأطايب المؤلفات وأصبح نشاطهم مضرب الأمثال .

وما حان موعد العطلة الربيعية حتى كان المصريون استردّوا ما كان ضاع منهم في السنة الماضية ، وحتى كان محمود عزمي في طليعة الموقّفين بفضل انقطاعه لأعمال كلية الحقوق وعُكوفه على الواجب صباح مساء ، وهذا الرجل إذا انقطع لعملٍ بَلَغَ من الاجادة فيه أبعد الحدود .

\*\*\*

---

(١) تجد شواهد هذه المداعبات في كتاب « وحى بغداد » .

وبحلول العطلة الربيعية بدأت المتاعب .  
سافر محمود عزمى إلى مصر وكنتُ اتفقْتُ معه على أن يبقى في العراق ليقى نفسه شراً ما  
في مصر من فتن سياسية ، وليته سمع نُصح الصديق .  
وما كان عليه من عيب في أن يسافر إلى مصر ، فقد كنتُ أنا أيضاً أحب أن أقضى تلك  
الإجازة بين أهلى ، لولا انشغالى بالمؤتمر الطبى العربى الذى عُقد في بغداد ليعيننى على مداواة ليلي  
المريضة في العراق .

ما كان على محمود عزمى من عيب في أن يقضى العطلة الربيعية في مصر ، ولكنى سمعت  
بأذنى تعليقات تحدث بها أهل بغداد ، وهم في الأغلب لا يتحدثون مازحين ، فقد قيل إن  
محمود عزمى سافر إلى مصر ليحسّ النبض ، أى نبض ؟ نبض الحكومة الجديدة التى أُلْتُ بعد  
إقالة الحكومة النحاسية ، ومعنى ذلك أنه يريد أن يبحث عن عمل في الحكومة المصرية يغنيه  
عن العمل بحكومة العراق .

وقد قوى هذه الشبهة أن المجلات المصرية أخذت تتحدث عن منصب قيل إنه سيُسند إلى  
الأستاذ محمود عزمى وهو رياسة قلم المطبوعات .

ومن حق الأستاذ محمود عزمى أن يعين في الحكومة المصرية بعد أن أصبح أقطابها من  
أصدقائه القدماء ، ولكن أهل العراق يؤذيه أن لا يعرفهم الناس إلا في أيام البؤس ، فقد كان  
حين استقدموه للعمل بالعراق مغضوباً عليه من الحكومة المصرية لذلك العهد .

\*\*\*

وقد رجع محمود عزمى إلى العراق ، ولكن كيف ؟ رجع وفي يده ثلاث نسخ من أول عدد  
من جريدة الدستور وفيه مقال بقلمه الرشيق ، وكان معنى ذلك عند أهل بغداد أنه ستركهم  
بعد أيام .

\*\*\*

وهناك مسلك لم يسترح إليه العراقيون وإن جهله محمود عزمى ، فقد كان بغريزته السياسية  
— وهى غريزة تأصلت فيه — كان بتلك الغريزة مشغولاً بحضور جلسات مجلس النواب  
العراقى ، وكانت تلك الجلسات مثاراً للجدال والصيال من حين إلى حين ، وكان محمود عزمى  
يستبيح التعليق على ما يدور في تلك الجلسات ، يستبيحه علانية في الأندية والمعاهد ، وكان  
يؤهم محدثيه بأنه على اتصال بالمقامات السياسية العالية !

وهذا المسلك يراه العراقيون من الفضول ، فهؤلاء الرجال يحبون أن يعتمدوا على الأساتذة  
المصريين في توجيه الدراسات العلمية والأدبية ، ولكنهم يكرهون من يتدخل في شؤونهم  
السياسية . وقد أشار الأستاذ سامى الكيالى في مجلة الحديث إلى أن الأساتذة السوريين لن يطول

بقاؤهم في العراق إلا إذا انصرفوا انصرافاً تاماً عن التدخل في الشؤون السياسية وعرفوا أنهم يُستَقَدَمون لعمل أنفع من خدمة الأحزاب .

\* \* \*

يضاف إلى هذا أن نجاح محمود عزمي في العراق سهّل عليه أن يمزح كيف يشاء ، وفي العراقيين شيء كثير من حِدَّة الطبع ، وقد يرون في المزاح شيئاً من السخرية فيغضبون . وهو نفسه قد حدثني أنه كلّف أحد طلبة الحقوق بدرس من دروس التمرين ، فلما وقف الطالب يتكلم لاحظ عليه أنه يؤدّي مخارج الحروف تأدية قوية فيغنّ ويمدّ ويفخّم ويرقق وفقاً لأصول التجويد ، فابتسم ابتسامة السخرية وقال : انت كنت في الأزهر ؟ فقال أحد الطلبة : لقد جاء من النجف !

وكانت نكتة ضحك لها فريق وتأمّل منها فريق . وإنما تأمّل من هذه النكتة من تأمّل لأسباب يعرفها من يتذكّر أن التعليم في النجف كالتعليم في الأزهر ، فهو في ذاته تعليم متين ، ولكن تقاليد العصر الحديث لا ترتاح إليه كل الارتياح ، ونحن في مصر نعرف أن السخرية من الأزهرين لا تقابل بالقبول في كل حين ، فكيف يتلقاها النجفيون بالقبول ؟

على أن السخرية من الأزهر غير السخرية من النجف ، فالنضال بين الأزهرين وغير الأزهرين نضال بين مذهبين في التعليم ، وهو نضال لا يثير فتنة ، أما النضال بين النجفيين وغير النجفيين فهو نضال بين عقيدتين ، وهو نضال يتحاماها العقلاء .

\* \* \*

رجع محمود عزمي إلى بغداد بعد أن استقر في الأذهان أنه ستركها بعد قليل . وكنت أحب أن أراه بعد رجوعه من القاهرة وأن نستأنف سهراتنا في فندق مُود وأحاديثنا في كلية الحقوق ، ولكن الشواغل صرفتني عما أريد ، فقد كانت ليلى تمرّد على كلّ التمرد ، ومضيتُ أبحث عن الشفعاء في الحواضر العراقية بلا جَدْوَى ولا عَناء . وكان يزيد في تُفرق من الاتصال بزملائي في كلية الحقوق عِرفاني بأنهم عاتبون ، أو حاسدون ، فقد ساءهم أن يكون لي مع ليلى كل ذلك التاريخ .

وأحيل في ليلى لقومٍ ضغينةً وتُحمَل في ليلى على الضغائن

\* \* \*

وفي تلك الأثناء كانت تصل إلى سمعي أنباء مزعجة عن كلية الحقوق ، فقد سمعتُ أن الدكتور سيف اضطرّ إلى أن يخرج من حجرة الدرس مرة أو مرات . والفرار من حجرة الدرس كالفرار من ساحة القتال . وسمعتُ أن الدكتور عزمي يسأل الطلبة عن مذاهبهم الدينية

وأنه يتلقى منهم خطابات تهديد ، وأن بعضهم واجهه بكلمات لا تخلو من عنف ، وأن ذلك البعض قُصِّل من الكلية بأمر وزير المعارف محافظةً على مركز وكيل العميد ، فمضى الطالب وهو في ثورة الانفعال فألف رسالة في شتم محمود عزمي ، وقد أمرت الحكومة العراقية بمصادرة تلك الرسالة ومنعها من الوصول إلى أيدي الناس ، ولكن ذلك لم يمنع من أن أسمع وأنا في الموصل أنها وصلت إلى هناك ، ولعلها وصلت إلى غير الموصل من البلاد العراقية . والقليل من الشر كالقليل من النار يحسب له العاقل ألف حساب .

وحملتني هذه الأنباء المزعجة على أن أسحب من جريدة الكلام مقالاً كنت كتبت في نقد النظام المتبع في كلية الحقوق العراقية ، نظام الاكتفاء بالمذكرات ، وكنت أرى أن تكون مراجع الطلاب العراقيين في المؤلفات العظيمة التي يخرجها أساتذة كلية الحقوق بالجامعة المصرية .

ولما سحبْتُ ذلك المقال لأني خشيت أن يزداد مركز الأستاذ عزمي حَرَجًا إلى حَرَج . وأنا أراعي الظروف في قليل من الأحيان . والحوادث قد تُصير الطائشين حكماء .

\*\*\*

كنتُ أفهم ما يحيط بالأستاذ عزمي من المضجرات فرأيت من واجبي أن أبُد ما يثور حوله من أقاويل ، من حيث لا يعرف . والصديق الحق هو الذي يرعى صديقه في المغيب . وزاد خوفي عليه حين لاحظتُ أن بعض من أصطفهم من أدباء العراق لم يعودوا يتحدثون عنه كما كانوا يصنعون ، فما الذي يخفون عني من أخبار هذا الصديق ؟

\*\*\*

وفي ذات يوم نشرت جرائد بغداد أن الحكومة العراقية رفعت الأستاذ محمود عزمي فجعلت مرتبةً خمسة وسبعين دينارًا ، وهو خبر لطيف ، ولكن تلك الجرائد سكنت عن التعليق على ذلك الترفيع ، وكان يُنتظر أن تخصه في مثل هذا الظرف بكلمة ثناء ، وهذا السكوت له مدلول عند من يفهم أنه مقصود ، والسكوت المقصود أخطر من الإفصاح . وتفردت جريدة الرأي العام بالتعليق فقالت إنها ترجو أن يكون هذا الترفيعُ فرصة يراجع فيها محمود عزمي نفسه فيكف عن شتم أهل العراق !

محمود عزمي يشتم أهل العراق ؟ وكيف يقع ذلك ؟

هذا مستحيل ، هذا مستحيل ، ولكن :

قد قيل ما قيل إن صدقًا وإن كذبًا فما اعتذارك من قول إذا إقلا

ومضيتُ أبحث عن صديق عراقي يعرف محرر جريدة الرأي العام فاهتديت إلى السيد عبد الجليل الراوي فأخذته من يده وقلت : إن هذه الكلمة قد تثير الطلبة على الأستاذ محمود

عزى ، ومركزه في هذه الأيام دقيق ، فتعال معى نقابل محرر جريدة الرأى العام ، ونرجوه أن يراعى مقتضيات الأحوال .

مضينا إلى إدارة الجريدة بشارع المتنبى ، ولكنى رأيت الأنسب أن يدخل وحده ، وانتظرته على الباب ، فلما أنهى مهمته رجع يقول : يظهر أن بعض خصوم الأستاذ محمود عزى أشاعوا أنه يتحدث في مجالسه بسوء عن أهل العراق .

فقلت : هذا مستحيل ، وأنا أعرف محمود عزى كما أعرف نفسى ، ولا يصح في ذهنى أبداً أن يُنذ من لسانه كلمة تؤذى أهل العراق .

ولم يمنعنى ذلك من الاعتراف بأن هذه الاشاعة الكاذبة قد تُفتح لها الآذان فتكدر بها القلوب ، والعراقيون يؤذيهم أن يسمعو أن من ضيوفهم من يذكرهم بالسوء ، والإشاعة كاذبة بالتأكيد ، ولكن اضطراب كلية الحقوق يؤهم من لا يدقق أنها خبر صحيح . ولو كان الناس يتبينون كل ما يسمعون لتغير وجه التاريخ .

\*\*\*

نحن في آخر السنة الدراسية ، والقيظ شديد ، وأعصاب الطلبة في تهالك وضعف ، وقد شاع وذاع أن الأستاذ محمود عزى أعلن الطلبة بأن مستوى التعليم في كلية الحقوق قد انحط ، وأنه لا بد من التشديد الصارم في الامتحان حتى يرتفع مستوى التعليم في الكلية . وهذا كلام لطيف ، ولكن قواعد التربية تأباه كل الإباء .

يضاف إلى ذلك أن الأستاذ محمود عزى كتب خطاباً إلى إحدى الجرائد يقول فيه : « إن الذى ينفع العراق هو الإقبال على قسم العلوم المالية » وقد فهم الطلبة أنه يريد أن يخرب كلية الحقوق ليعمر قسم العلوم المالية ، فهو الذى أنشأ ذلك القسم ومنصبه فيه منصب الرئيس ، أما منصبه في كلية الحقوق فهو منصب الوكيل .

\*\*\*

أين وجه الحق فيما شاع وذاع ؟  
ومن ذا الذى يُنقد كل ما يسمع ؟ ومن ذا الذى يفترض أن وجه الحق قد يغيب عنه في بعض المستور من الشؤون ؟

هؤلاء طلاب يعيشون في سنة ١٩٣٨ وهم يقرأون في المجلات المصرية تفاصيل ما يقع من اعتداء الطلبة على الأساتذة والعمداء ، وعذوى الشر تمشى في القلوب مشى النار في الهشيم .

\*\*\*

ما أصعب حالى في هذه الأيام !  
لقد وقّدتى حب ليل وأضرعتنى ، وأنا من ليل في بلاء جديد كل يوم ، فكيف تشاء المقادير

— ٢٨٠ —

أن أحمل مع هموم الحب أحمالاً ثقالاً هي الأحزان لمصاير زملائى فى كلية الحقوق

\* \* \*

أين محمود عزمى ؟

أين ؟ أين ؟

لقد بحثتُ عنه فى كل مكان لأنذره بهبوب العاصفة ، ولكنى لم أهتمد إليه .

فلتصنع المقادير ما تشاء .

آه من ليلى ومن زمانى !

---

أزعجتني مظاهرة الطلبة ضدّ عزمي وسيف ، وقد دوّنتها ودوّنت ما توهمت من أسبابها  
ظهر اليوم .

وحاولت أن أسترخ قليلاً فلم أستطع ، وكيف يسترخ من يشهد هذه المزعجات ؟  
ويظهر أن غرامي بتدوين ما أرى وما أسمع سيجعلني أسخف الناس أو أعقل الناس . والحدّ  
بين السخف والعقل أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف .

ويظهر أيضاً أني سأقتل نفسي في بغداد ، وإن لم يكن بيني وبين فراقها غير أيام ، فهذا  
الغرام بالكتابة ينقل أعصابي من ضعف إلى ضعف ، وأنا مازلت أتذكر بلأني بنفسى يوم  
رجعت من الموصل ، وهل لي عدو غير نفسي ؟

إن الحكومة المصرية أخطأت كل الخطأ حين أرسلتني إلى بغداد ، فأنا في الواقع مريض  
بالخلدقة السخيفة في تصوير الأشياء والأشخاص ، وهذا التصوير كان ينفع لو كنت من أدباء  
باريس أو برلين ، ولكنى — رضىت أو كرهت — من أدباء القاهرة أو بغداد ، وجزائى على  
الصراحة في التصوير قد يصير عند الجامدين أقبح جزاء .

لقد تأديت من الحال الذى صرث إليه في العراق ، ويجب أن أسجل أنى وقعت في أبشع  
ضروب الإسراف ، فمنذ ثمانية أشهر أو تزيد وأنا أطلع الجمهور العراق بمقالات وخطب  
وأقوال وأحاديث تضر أكثر مما تنفع ، لأنها تفتح أمام الناس باباً من الجدل هم عنه أغنياء .

وأعتقد أن مصبرى إن انتهى إلى السوء فلن يسأل عنه غير رجلين : عبد الرحمن عزام وزير  
مصر المفوض في العراق فقد شكاني المصريون إليه مرّات ومرّات وقالوا إن أحاديثى وخطبى  
ومقالاتى تعرّضهم لألوان من المكاره أمام الجمهور العراقى ، لأن فيها إشارات كثيرة تحتاج إلى  
تفسير وتأويل . وأما الشيبى وزير المعارف العراقية فقد سمعت أن ناساً شكوى إليه وانتظروا  
أن ينذرني لأكف عن مراسلة الجرائد ، ولو أنه فعل لأراح واستراح ، فالقانون في العراق  
صریح في أن الموظفين لا يجوز لهم أن يرأسوا الجرائد أو يعرضوا الجمهور للإكثار من القال  
والقليل .

والإنصاف يوجب أن أدون في هذه المذكرات أن سعادة عبد الرحمن عزام اعتذر عني لمن  
شكوى إليه ، وأكد لمحيثه أن زكى مبارك قد أفلح في إيقاظ الحياة الأدبية في العراق وأنه لذلك  
جدير بالتشجيع .

وأما الوزير محمد رضا الشبيبي فقد شهد لي شهادة لم يشهد بمثلها لأحد من قبل ، إذ قال في حضرة الأستاذين على الجارم وأحمد السكندري ما نصه بالحرف : « لقد جاء كثير من فضلاء المصريين للتدريس بالعراق ، ولكن لم يستطع أحد أن يُدخل البهجة على تلاميذه ويغرس فيهم الشوق إلى الأدب غير الدكتور زكي مبارك » فقال الجارم : « وأنتم حرمتونا منه » وقال السكندري : « لقد أخذتم منا روضة » .

وقد علمت فيما بعد أن ناساً شكوني إلى الأستاذ الشبيبي وأظهروا عجبهم من أن يتركني أتحدث كيف أشاء ، فأجاب : « زكي مبارك أستاذ نافع وهو فوق ذلك من أشرف أصدقاء العراق » .

والواقع أن شهادة هذين الرجلين آذنتي أشد الإيذاء ، لأنها دفعتنني دفعا إلى الطريق المخوف ، فقد مضيتُ أكتب وأخطب بلا تحرز ولا تهيب ، وأخشى أن يزل قلمي زلة سخيقة فيشمت أعدائي في مصر والعراق .

أنا مسكين ، مسكين ، مسكين .  
والعجيب أن لا تقوم ضدي مظاهرة كالمظاهرة التي قامت صباح اليوم ضد عزمي وسيف .

ولكن لماذا أظلم نفسي بهذه التصريحات ؟  
وما الذي جنيت حتى يثور عليّ العراقيون ؟  
كل ذنبي عند فريق من أهل العراق أني قدمت الشريف الرضي على المتنبي .  
ومن هو المتنبي حتى يُقَرَّن بالشريف الرضي ؟ وأين شاعرية المتنبي من شاعرية الشريف ؟  
إن كان هذا هو ذنبي عند فريق من أهل العراق فلن أتوب ولن أبوب ولن أتوب .  
وأنا مع ذلك خطيئ ، فلي مقال عن المتنبي يجعله سيد الشعراء ، فما الذي كان يمنع من نشر هذا المقال مرة ثانية في بغداد ؟

يمنعني العنادُ السخيف الذي آذاني في مصر وسيؤذيني في العراق .  
ولكن هل يحتاج المتنبي إلى من يُشيد بذكره وقد طبقت شهرته آفاق الأرض ؟  
إن الذي يحتاج إلى ذلك هو الشاعر المظلوم الذي تناساه الناس عامدين أو جاهلين ، هو الشريف الرضي الذي يعدُّ أصدق شاعر تنسم هواء العراق .  
أنا أعرف أن ناساً رَضُوا عني حين رأوني أتعصب للشريف الرضي ، ولكن هؤلاء لا يهتمون لأن مودتهم للشريف ليست بالمغنم الجديد ، وأما الذي يهمني هو أن أخلق للشريف صداقات جديدة عند من يتجاهلون قدره عامدين .

ومن هم الذين يتجاهلون قدر الشريف ؟



هم فيما سمعتُ أهل السنة في العراق .  
ولكن هل كان المتنبي سنيًا ؟ هو شيعي أيضًا ، ولكن يظهر أن تشيع الشريف كان أقوى  
وأعنف ، لأنه صاحب الوثيقة المشهورة في سيناد التشيع وهو تصنيف كتاب ( نهج البلاغة )  
المنسوب إلى أمير المؤمنين .

آه ، ثم آه ، ثم آه !!!

إن مذهب أهل السنة هو أسمح المذاهب الإسلامية لأنه يحترم جميع الخلفاء ، وهو من هذه  
الناحية أرحبُ. صدرًا من التشيع ، فكيف يعيبُ ناس على رجلٍ مثلي أن يهتَمَّ بالشريف  
الرضي ، مع أن في هذا الاهتمام تعزيرًا لما يدعوا إليه أهل السنة من التسامح والرفق ؟  
أحب أن أعرف كيف يستبيح ناسٌ إيدائي في العراق من أجل الشريف ، وهم يعرفون أن  
المصريين لا يقيمون لهذه الخلافات المذهبية أى ميزان ؟

نحن في مصر لا نعرف شيئًا من هذه الخلافات على الإطلاق ، ولو سُئِلَ إنسانٌ في القاهرة  
عن مذهبه أشيعي هو أم سنيٌ لدَهِشَ وعجز عن الجواب .  
فمن واجب أهل العراق أن يراعوا ذلك .

من واجهم أن يذكروا أن المصريين لا يلتفتون أبدًا إلى هذه الشؤون .  
ولكن لا موجب للتخوف من عواقب هذا الخلاف .

فأنا اليوم في أمان بعد ظهور كتاب ( عبقرية الشريف الرضي ) الكتاب الذي سيجعلني  
صديقًا لجميع أهل العراق .

وأهل العراق يُظلمون أقبح الظلم حين يُتهمون بالطائفية ، فقد كان في تلاميذ شابٍّ لا  
يشهد المحاضرات التي ألقيتها في كلية الحقوق عن عبقرية الشريف الرضي ، فلما سمع محاضرتي  
في الإذاعة اللاسلكية عن العلأ والمعالى في شعر الشريف جاء فقُبِّلَ يدي وأقسم أنه بكى حين  
سمع أشعار الشريف في الفتوة وأخلاق الفتيان .

ليس في العراق تعصُّبٌ عند من يتأمل ويدقق .

أهل العراق يعيشون على الفطرة ولا يثورون إلا على من يتوسمون فيه سوء النية .  
ويستطيع الرجل المخلص أن يعيش عمره كله في العراق بدون أن تُقرع أذنه كلمةٌ فيها إذاء .  
ولكن هل أعيش عمرى كله في العراق ؟

ليتني أستطيع ! ليتني أستطيع !

وكيف أستطيع وأنا رجلٌ أحقُّ يخاطب الناس كل يوم بما لا يفهمون ؟  
وهل من العقل أن أتكلم في أطلال الحيرة بالأسلوب الذي أتكلم به في باريس ؟  
وما الذي عانيتُ في الحيرة وفي النجف ؟

لقد رأى أولئك الناس منى ما لا يحبون ، لأنى رفضت أن أقيم فى بلدهم غير ليلة واحدة ،  
ومع ذلك صبروا على واستقدموني مرة ثانية ، واحتفلوا بتكريمى أعظم احتفال .  
وهل أنسى لطف الرجال الذين لقيتهم فى كربلاء ؟  
هل أنسى كيف تنسمت الحياة فى يوم قائظ فى البلد الذى تشرف برفات الحسين ؟

\* \* \*

ما لى ولهذا الحديث الذى أدور به حول نفسى ؟  
أنا أريد أن أسجل ما شهدت بعد ظهر اليوم فيما يتصل بالزميلين : عزمى وسيف .  
ذهبت لمقابلة الشاعر عبد الرحمن البناء فى قهوة الشَّهيندر فرأيت اثنين من طلبة كلية  
الحقوق ، أحدهما كاتب يشغل نفسه بالمسائل الاقتصادية ، وثانيهما شاب مهذب لا أحسبه  
يعرف غير الأدب الجميل .  
أعطيت أذنى اليمين للشاعر عبد الرحمن وأعطيت أذنى الشمال لـهذين الشابين ، وكانا  
يتحاوران فى همسٍ خافتٍ ملفوف .  
أما عبد الرحمن فتكلم فى الشعر والخيال .  
وأما هذان الشابان فتكلمما فى نتائج الامتحان بكلية الحقوق .  
لا أذكر ما قال البناء فقد شُغِلْتُ عنه بحديث هذين الشابين : لأن له صلة بالمظاهرة التى  
قامت صباح اليوم فى فناء وزارة المعارف ضدَّ الزميلين : عزمى وسيف .  
فما الذى كان من حديث هذين الشابين ؟  
كان الحديث يصل إلى أذنى مقطَّع الأوصال ، ولكنى فهمتُ أن مكان الناجح الأول فى  
أحد الصفوف احتلته إحدى الطالبات . والنص على هذه المظاهرة فى ذلك الحديث له مدلول ،  
ومعناه أن الطلبة استنكروا أن تظفر إحدى الطالبات بالسبق .

فما العيب فى ذلك ؟

الحق أن الأساتذة فى كل أرض يترفقون بالفتيات فى الامتحان ، وقواعد التربية لا تأبى  
ذلك ، لأننا نحاسب كل طالب وَفَّق مظهره ومخبره ، وما يجوز عندنا أن يستوى القوى  
والضعيف ، فالقوى له امتحان ، والضعيف له امتحان .

وقد وقع لى حادث من هذا النوع يوم كنت مدرسًا بالجامعة المصرية .  
كنت فى لجنة مع الأستاذ أحمد أمين وكنت معروفًا باللطف وكان أحمد أمين معروفًا  
بالعنف .

وكانت هناك فتاة تخاف من جهامة أحمد أمين ، فانتظرت طول الصباح عساه ينصرف  
ويتركنى أمتحن الطلاب وحدى ، ولكنه لم ينصرف ، فلما خرجنا عند الظهر للغداء تعقبتنى

تلك الفتاة ثم سلّمت وقالت : يا دكتور ، أنا خائفة من الأستاذ أحمد أمين !  
فابتسمت وقلت : أنا والأستاذ أحمد أمين سنتغذى في منازلنا بمصر الجديدة ثم نرجع في  
الساعة الرابعة ، وسأحرص على الحضور في الموعد بالضبط لأمتحنك قبل أن يرجع .

فقلت : وكيف أضمن أن لا يرجع في الساعة الرابعة بالضبط ؟  
فقلت : أنت تعرفين يا طفلي أنه رجل وقور ، وللو قارِ مشيئة ثقيلة توجب أن يتأخر الرجل  
عن الموعد نحو عشرين دقيقة في مثل هذا اليوم الصائف ، وهذه المدة تكفي لامتحانك .  
وفي الساعة الرابعة حضرتُ قبل أن يحضر الأستاذ أحمد أمين .  
وجلست الفتاة تؤدي الامتحان في طمأنينة وأمان .

وبعد دقيقتين اثنتين حضر الأستاذ أحمد أمين ، فنظرتُ إليّ الفتاة نظرة استنجاد !  
فالتفتُ إلى الأستاذ أحمد أمين وقلت : يهمني يا حضرة الأستاذ أن أخبرك أني اتفقت مع  
هذه الفتاة على أن أمتحنها وحدي !

فقال في تلطف : ويهمني أن أخبرك أني ذاهب إلى المقصف لأشرب فنجان قهوة ثم أرجع !  
تلك أخلاقنا في مراعاة الذوق بالجامعة المصرية ، وما كنا بذلك من المتهاونين .

ولكن من يخبر طلبة الحقوق في العراق بهذه الحقائق ؟  
من يخبرهم أن الأساتذة يقومون مقام الآباء ؟  
من يخبرهم أن الأب الرحيم يترفق بالبنات أكثر مما يترفق بالأبناء ؟  
لو كان محمود عزمي من أهل الفُجور لعذرت هؤلاء الشبان في ثورتهم عليه ، ولكن محمود  
عزمي فيما أعتقد سليمٌ من هذه الناحية ، واهتمامه بالتلطف مع الفتيات قد يرجع إلى رغبته في  
الظهور بمظهر الحرص على تشجيع الحركة النسوية ، ليكون من زعماء التجديد .  
بقي حسن سيف ، وهو شاب يغلب عليه المزاج ، ولكنني أستبعد كل الاستبعاد أن ينطوي  
صدره على غرض غير شريف .

فما الذي يُغضب طلبة الحقوق من أن تكون إحدى الفتيات أول الناجحين في صف من  
الصفوف ؟

أعتقد أن سوء النتيجة هو الذي خلق هذا الروح المتمرد الحانق .  
وأعتقد أن التعليم المختلط قد يجرنا إلى ويلات ، لأنه لن ينجح إلا بعد أن تستقر قواعد  
الذوق .

لن ينجح التعليم المختلط إلا يوم يفهم الشبان أن التنافس لا يقع بين فتى وفتاة ، وإنما يقع بين  
فتيتين أو بين فتاتين .

لن ينجح التعليم المختلط إلا يوم يفهم الشبان أن الطالبات أخوات لا منافسات .

لن ينجح التعليم المختلط إلا حين تُصبح كأهل أوروبا وأمريكا من جميع النواحي ، فالتعليم المختلط نبات نقلناه من هناك ، ولن يعيش إلا إذا خلقنا له جوًّا يشبه الجو الذي كان يعيش فيه . ولن أنسى أنني اعترضتُ مرةً على أن يوكل أمر الطالبات بكلية الآداب في القاهرة إلى سيدة أوربية فقلت : وما الذي يمنع من أن تقوم بذلك سيدة مصرية ؟ فقال الأستاذ عباس محمود : يمنع من ذلك أن تسلم عليها مرةً فيقول أهل الفضل إنها عشيقه الدكتور زكى مبارك !

آه ! ثم آه !  
إننا نسيء بأنفسنا الظنون ، ونرى الأجانب أفضل منا في جميع الأحوال ، وذلك داء عضال .

لو كانت التُّهم الصحيحة هي كل ما نخشاه لخُف الأمر وهان ، فلنا ذنوبٌ وآثام هي ألوانٌ مما ابتليت به الإنسانية من ذنوب وآثام ، والإنسان معرض للضعف ، وأدعاء العصمة عملٌ ممقوت ، ولكن الذي نخشاه هو التُّهم الكواذب التي تُساق إلينا بلا حساب . والذي يؤذينا هو تلك التهم الكواذب : لأن المفترين لا يفهمون أن نكون ناسًا مذنبين ، وإنما يحاولون أن يجعلونا ذئابًا فاتكين .

وكان الأمر في الشرق كذلك لأن الشرق نهض في ظلال دعوة خُلقيه كانت في الأصل نوعًا من ردِّ الفعل .

الشرق قام على التوحيد الذي يحارب الوثنية ، والوثنية كانت تمجّد الشهوات ، فرأى الشرق الموحد أن يحارب الشهوات بقوة وعنف ليتفرد بالدعوة إلى مكارم الأخلاق . ونجح الشرق الموحد يوم دعا تلك الدعوة أول مرة ، لأنه احتاط كل الاحتياط ، فلم ينه عن الشهوات جملةً واحدة ، وإنما لَوَّن ونوَّع وفصَّل ، فبين ما يباح وما لا يباح ، وتظهر آثار ذلك في تحريم الخمر وتحريم الرِّق ، فالخمر تحرم في حال وتباح في حال ، باختلاف الجنس والنوع ، والرِّق تلطّف فيه الشرع الموحد فدعا إلى الخروج من آثامه بحكمة ورفق . وكذلك استطاع الشرق لأول عهده بالتوحيد أن يجمع بين عناصر الحلم والجهل فصحت له الحياة .

ثم أراد أن يندمج في صفوف الملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون فوقع في هاوية الانحطاط .

يا ابن آدم ، أنت من لحم ودم وأعصاب .  
وأخلاقك لن تصلح إلا إذا فهمت أنك من لحم ودم وأعصاب .  
فما هذا الغرور الذي يوهمك أنك تستطيع أن تلحق بملائكة السماء ؟  
ومن أنت حتى تصير ملكًا يا جهول ؟

— ٢٨٧ —

مَنْ أَنْتَ ، وَمِنْ الْأَرْضِ تُخْلِقُ وَإِلَى الْأَرْضِ تَعُودُ ؟  
إِنْ قَوْلُكَ هِيَ فِي الْإِعْتِرَافِ بِأَنَّكَ مَخْلُوقٌ ضَعِيفٌ .  
إِنْ قَوْلُكَ هِيَ فِي الْبُكَاءِ عَلَى آثَامِكَ ، فَابْكِي مَا طَابَ لَكَ الْبُكَاءُ لِيَصْفَحَ عَنْكَ غَفَارُ الذُّنُوبِ .

\* \* \*

مَالِي وَلِهَذَا التَّفَكُّيرُ الْمَزْعُوجُ ؟  
أَنَا أَحَبُّ أَنْ أَعْرِفَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرُ مُحَمَّدٍ عَزَمِي وَحَسَنُ سَيْفٍ .  
لَقَدْ بَحِثْتُ الْيَوْمَ عَنْ مُحَمَّدٍ عَزَمِي فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَيْهِ ، فَهَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَلْقَاهُ فِي  
الصَّبَاحِ ؟

---

## ٣٤

أين أنا وكيف حالي ؟ .

أنا بين جدران الغرفة التي كتبتُ فيها ألوف الصفحات في أشهر معدودات ، الغرفة التي دوّنت فيها ما عرفتُ من أسرار المجتمع وسرائر القلوب ، والتي ألّفت فيها كتاب ( عبقرية الشريف الرضى ) وكتاب ( وحى بغداد ) وكتاب ( ؟؟؟ ) وقد كتبتُ وأنا مبهجٌ جذلان ، فما الذى سأكتب في هذا المساء ، مساء اليوم العصيب ، اليوم العشرين من شهر حزيران سنة

١٩٣٨ ؟

ماذا أكتب في الغرفة التي كانت أحبّ مكان في بغداد إلى قلب ليلي وقلب ظمياء ؟  
أكذلك تتحول دنياى من أفراح إلى أحزان بسرعة لا تخطر في بال مخلوق ؟

\*\*\*

خرجتُ صباح اليوم للبحث عن محمود عزمى وكان في النية أن أحدثه عما ترامى إليّ من أخبار كلية الحقوق ، وكان ذلك قبيل الساعة الحادية عشرة فقد منعنى التعب من التكبير لرؤية ذلك الزميل ، ثم بدا لي أن أمرّ على دار المعلمين العالية لمراجعة بعض الشؤون ، فما كدت أجتاز عتبة الدار حتى واجهنى الدكتور عقراوى وهو مذعور : وقع اعتداء على الدكتور عزمى ! وأسرع إلى التليفون يستنجد برئيس الشرطة في بغداد .  
أما أنا فقد عدوّتُ عدوّاً لأتدارك ذلك الاعتداء .

هل أستطيع وصف ما رأيت ؟

وجدت مدخل الكلية ملوثاً بالدماء : فالتحلى قلبي ، وطاف بالخاطر أن محمود عزمى قد يكون ضُرب بالرصاص في هذا اليوم . وما هى إلا لحظة حتى عاد صواي : فقد رأيت محمود عزمى حياً وإن كان في صُفرة الأموات . ومددتُ يدي أصافحه وأواسيه فظهرت عليه أمارات التأثر لقدومى في ذلك الوقت ، ولم تكن على ميعاد . وفي تلك اللحظات سمعتُ صرخة أليمة فالتفتُ فإذا رجلٌ ممدّد في غرفة العميد وهو مضرّج بالدماء .

من هذا الذى يصرخ ؟

لقد أخفى الدم معالم وجهه فلم أعرف هويّته إلا حين عاود الصراخ : عرف أنه الصديق العزيز الدكتور حسن سيف .  
وكذلك فهمت كيف شاءت المقادير أن يُختم عامنا في بغداد .

وجاء شرطى يهز رأس الدكتور سيف وهو يقول : من ضربك ؟ من ضربك ؟  
ولكن سيف لا يجيب .

وهل يستطيع من قَد الرصاصُ رأسه أن يجيب !  
وبعد لحظات نُقِل سيف إلى المستشفى وبقى مع محمود عزمى أواسيه .  
وما هى المواساة فى مثل هذه الحال ؟

قدمت إليه سجارة فرفض .  
فقلت هى تلهية تزجى بها الوقت إلى أن ينتهى هذا الاستجواب ( وكان بعض الضباط أخذ  
يسأله عن تفاصيل الصورة التى وقع بها الاعتداء ) .  
وراعنى أن يمدَّ محمود عزمى فاه لا يده لأخذ السجارة فعرفت أنه مطعون .  
فقلت : تجلّد ، يا دكتور .

فأجاب : ما كانت تخيفنى هذه الطعنة لو لم أكن مريضاً بالبول السكرى ، وأنا أخشى أن  
تكون ضربة قاضية .

وأسرعتُ فأحضرت عربة ونقلته إلى المستشفى .  
وبعد لحظة قدّمتُ إليه إحدى المضمّدت كاساً من الكونياك .  
أخذ رشفةً من الكأس ، ثم عاف الكأس .  
فقلت : اشرب يا سيّكر !  
فابتسم .

وأردت أن أنسيه أحزانه فذكرته بما كان وقع فى فندق مؤد منذ أشهر طوال ، فقد طلب  
كأساً من الفيرموت ، فلما ذاق الشراب رفضه بحجة أنه ليس بفرموت ، فقال الغلام : كيف  
تكذبى وأنا أخدم فى الحانات منذ ثلاثين سنة ؟ فقال محمود عزمى : وكيف تراجعنى وأنا  
أعاقرك الكؤوس منذ خمسين سنة وأعرف جميع أنواع الشراب بالشّم قبل الذوق ؟  
وعند تذكره بهذه القصة قال : إنما أرفض هذا الكونياك لأنه ممزوج بالسكر .  
فأسرعت المضمّدة وأحضرت إليه كأساً من الكونياك الصّرف .  
وجاء الدكتور صائب شوكت يشخص الجرح ، فبدأ لى أنه أخطأ التشخيص ، ولكنى لم  
أعترض ، فقد شاع فى بغداد أنى طبيب أرواح لا طبيب أبدان .

وفى تلك اللحظة بكى محمود عزمى ، بكى الرجل الشّهم الذى لم يعرف البكاء قبل اليوم ،  
بكى الرجل الضحّاك البسام الذى كان وجهه زينة المحافل والمتديات ، بكى العالم الجّهّذ  
الذى طوّف بالشرق والغرب وملأ رأسه بالأوهام والحقائق .

وبالغث فى التجلد فحبست دمعى ، وإن كنتُ أحسستُ الدموع تتفجر من قلبى ،

( ليل المريضة فى العراق )

والقلوب تبكى كما تبكى العيون .

وجاء طبيب انجليزى فوجه إلى محمود عزمى دعابة نقلته من البكاء إلى الابتسام .  
ثم نُقل محمود عزمى بالنقالة إلى إحدى الحُجرات ، وكان عجزه عن المشى دليلاً على  
الكرب الذى يعانيه .

\*\*\*

ونظرت فرأيت معالى الأستاذ محمد رضا الشيبى وأصحاب السعادة طه الراوى وفاضل  
الجمالى ويوسف عز الدين ، فجلسنا ننتظر رأى الأطباء فى نهاية الدكتور سيف .  
وقد أبدى معالى الأستاذ الشيبى دهشته من أن يرانى فى ذلك الوقت، فقلت: كذلك شاءت  
المقادير أن أشهد هذا المصرع الأليم .

ولم يكن بُد من ترجية الوقت بكلام يتصل بالتربية والتعليم ، فاقترحتُ نقل مواعيد  
الامتحان من الصيف إلى الشتاء ، وقلت : إن هذا رأى قدمته إلى وزارة المعارف المصرية منذ  
سنتين ، وحجتى أن القىظ يضعف الأعصاب وهو السبب فى حوادث انتحار الطلبة فى مصر  
وفى العراق .

ثم جاء الأطباء فأخبرونا أن الدكتور سيف قد لا يعيش ، فانصرفنا مكرويين .

\*\*\*

جلسنا فى مكتب الأستاذ طه الراوى ومعنا الدكتور الجمالى والأستاذ الألوسى .

جلسنا ندرس أسباب هذا الاعتداء ونفكر فى مصير كلية الحقوق .

واتفقت كلمتنا على وجوب نقل مواعيد الامتحان من الصيف إلى الشتاء .

وحين هممنا بالانصراف احتجزنى الأستاذ طه الراوى بلطف ثم قال : أنا أعرف يا دكتور  
أنك تهرب منى ، ولكنك تجهل أنى معنى القلب بسبب التقصير فى حقك ، وكنت أظن أن  
هذا التقصير هو أشد ما سألانى ، ثم فاجأتنا المقادير بما رأيت .

« واندفع الأستاذ طه الراوى يبكى بكاءً أليماً » .

فأقبلتُ عليه وأوسيد فكفكف من دمعة ثم قال : إن الشبان لا يعرفون ما نصنع من أجلهم ،  
نحن شعب كان له تاريخ ، وصنعت به الحوادث ما صنعت ، وكلُّ همنّا أن نجاهد ليكون للعراق  
تاريخ فى رعاية العلوم والآداب ، واعتمادنا على مصر هو الشاهد على صدق تلك النية ، ولولا  
ثقتنا بأخوتكم لما وكلنا تثقيف شبابنا إليكم ، فانظر كيف نجزع حين نرى هذا المصير لبعض  
من استقدمناهم من العلماء المصريين ؟ انظر كيف ندافع عن أنفسنا فى عصر يكثر فيه القول  
على الأمم والشعوب ؟ أنت تعلم يا دكتور أن هذه الحادثة قد يؤوّلها رجل مثلك بأنها من  
جنايات القىظ ، فأين من يحلل المقدمات والنتائج على هذا الأسلوب ؟ وهل تظن أن المصريين



وهم إخوان أشقاء سيلتمسون لهذه المأساة أبواباً من التخفيف ؟ أنا حزين يا دكتور ، ومتوجّع لما وقع ، ويزداد حزني حين أتذكر أن سيوجد في مصر من يقول « لقد خاب الظن في سماحة أهل العراق » .

وانهزم الأستاذ طه الراوى أمام الدمع مرة ثانية .  
فتوجعْتُ لكربه وأساه .

فالتفت إليّ وقال : أنت عرفت العراق وعواطف أهل العراق ، فهل أستطيع أن أثق بأن هذه الفاجعة لا تتغير رأيك في سماحة أهل العراق ؟  
فصوبت بصرى إلى الأستاذ طه الراوى وقلت : تلك أقدار ، ولا يثور على الأقدار إلا غافل أو جهول .

\* \* \*

خرجت من مكتب الأستاذ الراوى لأعود إلى المستشفى عسانى أعرف ما صار إليه محمود عزمى بعد ذلك الإعياء ، فعرفت أن الدخول عليه ممنوع .  
ثم التفتُ فرأيت جماعة من الرجال والنساء يصرخون فمضيت إليهم فرأيت الشاب المسكين الذى أطلق الرصاص على محمود عزمى وحسن سيف .  
وأى شاب ؟

مخلوق هزيل هدته الأمراض والأحزان ثم أنقذه الموت .  
مخلوق تنطق معارف وجهه وهو ميت بأنه لم يكن يدرى عواقب ما يصنع .  
مخلوق أفسدته الأنظمة الحديثة التى توجب أن يكون بأيدي الشبان إجازات وألقاب .  
وما قيمة الإجازات والألقاب بجانب هذا المصير الفاجع ؟  
ما قيمة الكليات والجامعات بجانب الأزلية التى تفرض أن يعيش الناس سعداء ؟  
وكان بين الباكين شاباً من تلاميذى بدار المعلمين العالية فاستفهمت منه عن أشياء تتصل بذلك الشاب الصريع فأخبرنى أنهم وجدوا في جيبه أوراقاً تشهد بأنه كان يعانى بين أهله ضرراً من الغم والكرب ، وأنه ترك في جيبه دينارين ليقدماً إلى أحد دائنيه من الشبان ، وأنه أوصى بأن لا يذرف عليه أخوه دمعاً حين يموت ، وأنه يكتفى بما صادف من « العطف » في دنياه !!  
وما كدت أسمع هذا الكلام حتى غلبنى الحزن ، فقد تذكرت أن نظام الأسرة في بلادنا نظام مضطرب وأن من النادر أن يعيش شاب بين أهله عيش النضرة والنعيم وتذكرت الشاب الذى انتحر بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٦ وكنتُ أنا والدكتور طه حسين من المسؤولين عن انتحار

ذلك المسكين : فقد شكّا إلينا أن أهله سيقطعون عنه المرتب إن رسب في الامتحان ، ورجانا أن نتوسط له عند عميد كلية العلوم ليمنّ عليه بأربع درجات حتى لا يعرض نفسه للقتل . وقد ظنناه يمزح فلم نفكر في أمره ، ثم علمنا فيما بعد أنه شرب السم ليتخلص من شماتة الأهل والأقرباء !

تذكرت أن الشبان في بلادنا أشقياء ، وأنهم لا يتعلمون ليسعدوا ، وإنما يتعلمون ليحسوا معاني الشقاء .

وتقدم أحد أقرباء ذلك الشاب فقال : لطفاً يا دكتور فما كان هذا الشاب لئيمًا ولا أحق ، وإنما قضى الله ما قضاه ، والبقية في حياة الدكتور عزمي والدكتور سيف ! ورأيت من المروءة أن أنتظر حتى أشيع جنازة ذلك الشهيد . وهل في الدنيا ميتٌ أحقُّ بالرحمة ممن يستشهد في سبيل النظام السخيف ، نظام المدرسة ونظام البيت ؟

\*\*\*

ورجعت إلى داري مكروباً محزوناً ، ثم طرق الباب طارقاً ومعه خطابٌ ينتظر الجواب ، فقرأت الخطاب مرات ومرات فلم أفهم شيئاً ، وهل أستطيع في مثل هذه الحال أن أقرأ أفهم ؟ أمرى إلى الله .

وبعد العصر قرأت الخطاب من جديد فعرفت أنه من الأستاذ محمود فهمي درويش وهو يقول إنه علم أنى سأفارق بغداد وهو يرجو أن أقدم إليه صورتي تذكراً لأيامنا في بغداد . اطمئن ، أيها الصديق ، فلن أنساك ولن أنسى بغداد !

\*\*\*

وقبيل الغروب رجعت إلى المستشفى لأعرف شيئاً من أحوال محمود عزمي وحسن سيف ، فرأيت رئيس الوزراء هناك فواساني بكلمة لطيفة سأذكرها ما حييت .

\*\*\*

وكنيت على موعد مع سعادة الأستاذ طه الراوى بوزارة المعارف فمضيت إليه فعرفت أن هناك جلسة برئاسة الوزير للنظر في مصير الدكتور سيف ، وهم يفكرون في نقله بطيارة إلى أحد المستشفيات في القاهرة أو باريس ، ثم عرفت مع الأسف الموجه أن رئيس المستشفى قرر أن نقله قد يعرضه إلى الموت .

وخرج معالى الأستاذ الشيبى من الجلسة ومعه الدكتور الجمالى فالتفت لى الوزير وقال :

كنّا نريد أن نصنع المستحيل في سبيل إنقاذ حياة الدكتور سيف ولكن إدارة المستشفى تعارض ترفقاً بالمريض .

وقال الدكتور الجمالى : من العزيز علينا أن تُراق قطرة من الدم المصرى في بغداد .  
فقلت : تلك أقدار ، تلك أقدار ، تلك أقدار ، والحمد لله على السَّراء والضَّراء .  
ومضيت مع الأستاذ طه الراوى إلى منزله لندرس مصاير هذا الحادث الأليم .  
ثم رجعت إلى منزلى لأستريح ، ولأسجل حوادث اليوم ، فماذا في صباح الغد ؟  
سأنتظر ما يأتى به الصباح .

---

ماذا صنعتُ في هذا اليوم من الصالحات ؟  
أعتقد أن روحى لم يرتفع كما ارتفع في هذا اليوم .  
خرجت مبكراً للسؤال عن حالة الدكتور سيف فعلمت أنه قضى نحبه في منتصف الليل ،  
وأن وزارة المعارف تستعد لتشيع جنازه بصفة رسمية ، وأنها قررت أن يشترك في تشييعه مُدراء  
المدارس والأساتذة والتلاميذ<sup>(١)</sup> .

وعندئذ مرّ بالخاطر أن هذه المفاجعة قد تفسد الصلات بين مصر والعراق ، فرجعت إلى  
دارى بسرعة وكتبت مقالاً يبيّن فيه أن الحادثة فردية وأنها لن تعكر ما بيننا وبين العراق من  
صلات ، وكان روحى قوياً جداً عند كتابة ذلك المقال ، وأعتقد أنه أفضل ما كتبت في  
حياتى ، ثم أرسلته بالبريد الجوى إلى جريدة الأهرام ، وأغلب الظن أنه سينشر في أحسن مكان  
وسيكون له في مصر أحسن وَقَع<sup>(٢)</sup> .

وهل لمصر مصلحة في أن يذاع خطأ أن أبناءها يؤذون عمداً في العراق ؟  
وبعد أن وضعتُ الخطاب في البريد شعرت بأنى بذلت من الجهد في إنشاء ذلك المقال ما  
ضعضع بنيانى ، فرجعت إلى المنزل لأستريح .  
ثم سمعت الباب يُطرق طرْقاً عنيفاً فلم ألتفت إليه لأنى كنت في حال من التعب لا تسمح  
بمقابلة أى إنسان .

ونظرت فرأيت الطارق دسّ ورقة تحت الباب وانصرف .  
وجذبت الورقة فرأيت الدكتور عقراوى يقول إنه جاء ليبلغنى أن الدكتور الجمالى طلب  
منه أن يخبرنى « بأنه يرغب كثيراً أن أواجهه في وزارة المعارف » .  
فمضيت لأنظر ما يريد الدكتور الجمالى فلم أجده هناك .  
وحدثتُ أحد أصفياه عن هذه الدعوة فقال : يجب أن تراه لأنه يريد أن تسحب  
استقالته ، ففي مساء هذا اليوم ستنظر الوزارة في تجديد عقود الأساتذة الأجانب ، وما يمكن  
أن يجدد عقداً وأنت مستقيل .

فقلت : وما أريد أن أرجع إلى العراق ما دام يرانى من الأجانب !

(١) أهل العراق يجمعون مدير على مدرء (٢) تجد هذا المقال في كتاب ( وحي بغداد ) .

فقال وهو يتنسم : هذه أمور شكلية لا تخفى على فطنتك ، والحكومات لا تقيس الجنسيات بالعواطف وإنما تقيسها بشهادة الميلاد ، وأنت من مواليد مصر لا من مواليد العراق .

فقلت : هذا حق ، ولكنى على كل حال لن أسحب استقالتي ، لأن الظروف توجب أن يكون لكم صديق في مصر ، وسأكون ذلك الصديق .

\*\*\*

في هذا اليوم نشرت جريدة الأخبار مقالاً للأستاذ عزمى وقالت إنه أرسله إليها قبل حادث الاعتداء ، والمقال صريح في أن كلية الحقوق كانت انشطرت شطرين وأنه كان يقاسى لواجع من الامتعاض .

وفي هذا اليوم تلقى محمود عزمى برقية من الدكتور هيكل ، وهى برقية دبلوماسية ، فقد نص فيها على أنه يحمّد لحكومة العراق عطفها على المصائب وقيامها بما يوجب الإخاء بين الشقيقين . وقد فرح محمود عزمى بالبرقية وقدمها بسرعة إلى مندوبى الجرائد . ثم أخبرنى حين عُدت أنه لم يقدمها لمندوبى الصحف إلا حين رآها مذيلة بعبارة « وزير المعارف » فلها معنى أكثر من المواصلة الشخصية .

\*\*\*

وقع اليوم حادث مضحك للأستاذ عزمى ، وهو فكاهة تستحق التدوين . ذهب رجل لزيارته باسم صديق القنصل فظنه قرأشاً بالمفوضية المصرية وسمح له بالدخول ، ثم هاله أن يراه منسجراً لا مطربشاً ، وجلس الرجل يتحدث فى شؤون مختلفات ومحمود عزمى يتكلف الاصغاء ، وبعد لحظة مدّ الرجل يده إلى خاصرته ليهرش فظن محمود عزمى أنه يبحث فى جيب بنطلونه عن مُسدّس .

فصرخ صراخ الفزع : إيه يا شيخ ؟ إيه يا شيخ ؟ أتريد أن تقتلنى ؟

وانزعج الرجل من فزع محمود عزمى فخرج !

وكانت أول مرة ضحكنا فيها بعد أن اكتابنا يومين كاملين .

عُوفى محمود عزمى أو كاد ، وسياسف بالطيارة فى يوم الخميس — فى طيارة غير الطيارة التى تحمل جثمان المرحوم سيف — ومن حسن الحظ للأستاذ عزمى أن يعافى بهذه السرعة وأن يسافر فى الموعد الذى كان محدداً لسفره من قبل .

\*\*\*

بغداد كلها فى جزع لما وقع فى كلية الحقوق ، وبالرغم من التأويلات الكثيرة التى أوّلت بها أسباب هذه الفاجعة الأليمة فقد ظهر العراق بمظهر الشهامة والنبيل ، وأعلن أساه لمصرع

— ٢٩٦ —

الدكتور سيف ، وجميع الصحف أنكرت الاعتداء وتمنت أن لا يكون بداية قطيعة بين مصر والعراق .

وإني لأرجو أن تكون هذه الفاجعة أول وآخر ما يقع من هذا الضرب في بغداد ، فالسُّمعة الحسنة هي أثمن ما تحرص عليه الشعوب .

\*\*\*

هذه الفاجعة أليمة جدًا .

ولكنني أحسب أنها ثمن النجاح الذى صادفته مصر هذا العام في العراق .  
وأغلب الظن أن العراق لم يعرف مصر كما عرفها في هذه السنة التى نُخِمت بهذه النهاية الدامية .

فهل أعتقد أن العين حق ؟

هل يصح القول بأن الأوهام القديمة فيها شيء من الصدق ؟  
كانت مصر عنوان العروبة في هذه السنة ، وكان صوتها يرن في جميع أرجاء الشرق .  
كانت مؤلفات المصريين تزحم مطابع بغداد ، وكانت أصواتهم تملأ أندية بغداد .  
وكان انعقاد المؤتمر الطبى العربى في مدينة الرشيد فرصة طيبة للتنويه بالمواهب المصرية ، فقد استطاع أطباؤنا أن يؤلفوا بين الأطباء في سائر الأقطار العربية ، وأن يكونوا منهم رابطة شرقية ستقوى على الزمان .

\*\*\*

كان قلبى يحدثنى بأننا نسرع الخطوات أكثر مما يجب وأن ذلك قد يجرنا إلى مزالق .  
وهل أنسى ألى دَوَّنت في هذه المذكرات منذ شهرين كلمات تشير بأن قد يقع بعض الذى وقع ؟

ألم أقل في التعقيب على حفلة توزيع الجوائز في كلية الحقوق إن من واجب الأساتذة المصريين أن يرجحوا بالموت في سبيل تلاميذهم بالعراق ؟  
إن فاجعة الأمس تشرف مصر ، إن كان في مصر من يفهم قيمة هذا التشريف ، وهل كُتِبَ القتل إلا على الرجال ؟

كل ما أخشاه أن ينزعج المصريون لهذه الفاجعة ويتهبوا الاتصال بالشرق .  
كل ما أخشاه أن تكون هذه الفاجعة وقودًا جديدًا للدسائس الأجنبية .  
ألم تقل إحدى الجرائد الانجليزية : إن اعتماد العراق على الأساتذة المصريين يدل على أن الروابط العربية قد اصططغت بصبغة جديدة ؟  
هذا كلام نقلته جريدة الأهرام في صباح اليوم الذى هاجرت فيه إلى بغداد ، ولا يزال

محفوظًا بين أوراق ، وما يسوغ في ذهني أن تمرّ هذه الصلوات بدون أن تُحدث رَجَّةً مُخِّيةً في رؤوس أهل الغرب .

ولكن من الذى يفهم أن هذه الصلوات يجب أن يكون لها بين أبناء العرب شهداء ؟  
إن الكلمة التافهة قد تجد من ينقلها من أرض إلى أرض ، فكيف يفرط المفسدون في استغلال حادث سالت فيه الدماء ؟  
أعتقد أن هذه تجربة قضت بها الأقدار ، وسنعرف إلى أى درجة وصلنا في التربية القومية ، وأخشى أن يثبت أننا لا نزال في بداية الطريق .

\* \* \*

‘ اتصلتُ اليوم بمراسلى الجرائد المصرية في بغداد ورجوتهم أن ينقلوا إلى مصر عواطف أهل العراق .

\* \* \*

لا أزال محزونًا أشد الحزن مما رأيت وسمعت .  
فقد آذاني وآلني أن يحتاج العراق إلى من يدفع عنه قالة السوء بعد أن أقام ألوف الشواهد على أنه من أقوى الحصون للأخوة العربية .  
وأهل العراق في هذين اليومين لم يكن لهم إلا حديث واحد هو التخوف من صدّى هذا الحادث في الأندية المصرية .

ومن واجب العراق أن يتخوف عواقب القيل والقال .  
فمتى أرى إخوانى في مصر لأهُون في أنفسهم وقع هذا الحادث الأليم ؟  
إن المقال الذى أرسلته إلى جريدة الأهرام قد ينفع بعض النفع إذا وجد من يركّبه من العقلاء ، وذلك ما أرجوه ، فالصحافة المصرية قد شبت عن الطوق ، وهى في الأغلب لا تنشر شيئًا إلا بعد تأمل وزوّة .  
أنا أعانى من الضجر ما يهد الجبال ، ويخيل إلى أنى سأموت قبل أن أرى أطفالى ، لا قدر الله ولا سمح !

ومن العجائب أن هذه الفاجعة زادتني حبًا في العراق ، ولا أعرف لذلك تعليلًا واضحًا من الوجهة النفسية ، إلا أن يكون اشتباك الأحزان يزيد الألفة بين القلوب .  
لم نكن تجارًا حين قَدِمْنَا العراق ، وإنما كنا طُلابَ مجد ، وللمجد تكاليف منها الدم ، فلنصبر إن كنا صادقين ، فلنصبر إن كنا صادقين .  
وسلام الله على شهداء العلم والوطنية !

ليتني أستطيع أن أفصح في تصوير ما طاف بقلبي من الخواطر في هذا المساء !  
ليت ! ليت !

كان عليّ أن أجيب دعوتين : الأولى دعوة الرفاق رافائيل بطني ومنشئ زعرور وحسين تيمور ، والثانية دعوة الجار العزيز الذي يزدان بيته بسيدة مصرية .  
أما الدعوة الأولى فيرجع تاريخها إلى أسبوع يوم كانت الدنيا هادئة ، ويوم كان القمر في غنفوان الشباب ، وكان أولئك الرفاق يريدون أن نقضى سهرة طريفة أرى فيها ملاعب بغداد قبل أن أفارق بغداد .

ثم تغير منهج الدعوة مرة واحدة ، تغير لأن الناس في بغداد لا يتحدثون في هذه الليلة إلا عن نظام الجنازة التي ستشيع في صباح الغد من المستشفى الملكي إلى المطار المدني : جنازة الدكتور سيف .

ولو وجدنا الشهوة إلى ارتياد الملاعب في هذا المساء لصعدنا الذوق .  
وكيف أهو ذات اليمين أو ذات الشمال وما رأي عابر سبيل إلا عزائي في الدكتور سيف ؟  
كذلك شاءت المقادير أن تكون الليلة الأخيرة من ليالي في بغداد ليلة تحزن وتوجع واكتئاب .

والحق أني كنت أحب أن أقضى سهرة سعيدة مع هؤلاء الرفاق ، فأولهم وهو رافائيل بطني صديق قديم عرفته في الإسكندرية سنة ١٩٣٢ ولما وفدت على بغداد رأيته في حال لا تخلو من انزعاج بسبب مسلكه في الحياة السياسية ، ولكن أبت نفسي أن ألتفت إلى هذا الجانب لأنني صديق ، ولأنني ضيف ، والصديق يُدَّخَر لأوقات الشدائد ، والضيف لا يحق له التدخل في الأمور المحلية .

وثانيهم منشئ زعرور ، وهو أول أديب عرفته في بغداد ، وبما أذكر أني لاحظت عليه شيئاً يُعاب .

أما حسين تيمور فهو تحفة : لأن الابتسام لا يفارق شفثيه ، ولأنه يحفظ أشياء كثيرة من غزل الأعراب .

وكان في نيتي أن لا أستجيب لهذه الدعوة فراراً من هذا الظرف العصيب .  
كان في نيتي أن أقضى مساء هذا اليوم في منزل السيدة التي ترجّ الأرض والسماوات حين



تقول :

« قلبى مات ! قلبى مات ! »

السيدة التى يذكّرني وجهها بوجه أمى رحمها الله ، السيدة التى وُلدت فى مدينة ... والتى تشبه فى كرمها ولطفها ملاح السيدة ... والدّة الصديق العزيز ... ليتنى ما رأيت بغداد ، ولا عرفت عواطف النساء فى بغداد !

\*\*\*

طوّفتُ عصر اليوم بمنازل أصدقائى وقبّلتُ أيدي آبائهم وأمهاتهم ، وضممتُ الطفل الذى يشبه عبد السلام إلى صدرى فطبع على جبينى قبّلتين .

متى أراك يا عبد السلام ؟ متى أراك ؟

وأهديتُ إلى صور كثيرة ، وسأزق بعض تلك الصور بالرغم منى ، حتى لا تثور زوجتى . وهل فى الدنيا امرأة تصدق أن زوجها إنما يعشق الصباحة والجمال ليزداد إيمانه بخالق الصباحة والجمال ؟ تلك معان تعلقو على أفهام النساء .

ومن بين تلك الصور صورة الفتاة التى قالت فى دلال : أنا أجملُ من السيدة البصرية التى طلبت أن تراك وحدك يوم زرت البصرة ؟

وقد صرخ أخوها فى وجهها وقال : ما هذه القحة ( وشدّد الحاء ) .

فقلت : أنت تخطئ فى الألفاظ لأنك تخطئ فى المعانى !

\*\*\*

طوّفتُ بجميع شوارع بغداد إلا شارع العباس بن الأحنف .

وما الموجب لذلك ؟ لقد اختصمتُ مع ليلى وبلغتُ لجاجة الخصومة أبعد الحدود .

ولكنى — ولا أكذب نفسى — أستأهل التأديب .

كنتُ أستطيع أن أظفر بليلى ظفراً أبدياً لو رُزقتُ مرونة التعبير وسهولة الترفق ، ولكن غرامى بالدراسات الفلسفية كدّر أمامى جميع الموارد : فقد كنتُ أستثير غضبها من وقت إلى وقت لأعرف الدقائق من غرائز المرأة ، وقد عرفتُ من ليلى كل مجهول ، ولكنها ضاعت من يدي .

اليوم أبكى على قلبى وأندبتهُ قلبٌ ألح عليه الحبُ فانصدعا

وقد أعلل نفسى فأقول : هذا درسٌ ينفع فى الأيام المقبلة .

هاها ، هاها !!

وهل ينفعنى شيءٌ بعد أن أُحرِمَ عطف ليلى فى العراق ؟

هى الغاية القصوى فإن فات نيلها فكلُّ متنى الدنيا على حرام

— ٣٠٠ —

ومتى يسمح الدهر بأن أرى امرأة تحبني بمثل هذا الصدق ؟ متى أرى امرأة تُدير عينيها  
الناعستين وهي تغني .

يا تَبَعَةَ الرَّيْحَانِ حِنِّي على السُّوْهَانِ  
سأخرج من أحلامي كما خرج آدم من الفردوس .  
وسأذكر العراق إلى أن أموت : لأن ليلى هدتني في رحابه وأضلتني .  
سأذكر العراق بكل خير ، فهل يذكرني بالشعر يوم أموت ؟  
لو كنت أعرف أن ليلى تبغضني لانتفيت وسلوت .  
ولكن ليلى تحبني ، تحبني ، تحبني .  
وما وقع مني ما وقع إلا لأنني أحقق .  
ولا وقع منها ما وقع إلا لأنها حمقاء .  
ولن أعقل وتعقل إلا بعد الفراق .

\* \* \*

ما أنت يا دنيا أرؤيا نائم أم ليلى عرس أم بساط سلاف  
كانت ليلى تتوهم أني سأقضي بقية العمر في بغداد ، وكنت أتوهم أني سأقضي بقية العمر  
في بغداد .

ومن هنا كان الحمق الذي تردينا فيه .  
فلو كنت أعرف أن أيامنا في بغداد إلى زوال لسرتني أن أفتضح في هوى ليلى أشنع افتضاح .  
ولو كانت تعرف أننا قد نفترق لأرغممتني على ترك الأدب والحياة .  
غدا ينتهي حلم الحب فلا أرى ليلى ولا تراني .  
غدا يشمت المقيمون بشارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغواني .  
غدا يكثر الباكون منا ومنكم وتزداد داري من دياركم بعدا  
غدا تهتف ليلى فلا يستجيب مجيب .

وهل كنت إلا طيفاً زار في السحر بساتين الكرخ وبعداد ؟  
غدا أذكر أيامي بالعراق ، أذكرها بالدم القاني ، وأذكر الصديق الذي قال : ليتني أعرف  
من الذي أشار باستقدام الدكتور زكي مبارك إلى العراق !  
لا تذكروا الرجل الذي أشار بأن أعرف العراق ، فما أحسبه كان يجهل أنه سيرميني في  
أتون العذاب ، وسأعادي ذلك الرجل ما حييت .  
وماذا غنمت من العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم صبحاح القلوب ، وأعود إلى وطني بقلب ممزق لم تبقي منه غير

أطيايف من الأتلاء .

لو بقيت ليلى بجانبى تحرسنى وترعانى ليلة الفراق !

لو برّث ليلى بالوعد !

ألم تكن وعدت أن نبست معتنقين ليلة الوداع ؟

سأفارق بغداد ، فهل تمدّ القاهرة ذراعها لعناقى يوم أعود ؟

وكيف والقلب يحدّثنى بأننى سأخاصم القاهرة فى سبيل بغداد ؟

آه من ليلى ومن زمانى !

ما أدرى كيف أعجز فى هذه اللحظة عن دفع الذكريات التى تنهال على قلبى .

أنا تعبّان ، وأحب أن أستريح : فقد كتبت فى أيام قصار ما كانت تعجز عنه الأسابيع

الطوال .

ولكن الخواطر تهجم على ذهنى بلا ترفق ، وأشتاق إلى صحبة القلم أشد الاشتياق ،

وأخشى إن دفعْتُ هذه الخواطر أن لأجدها بعد اليوم ، وهل يسمح الدهر مرة ثانية بأن أقضى

ليلةً فى توديع بغداد وأنا محزون ؟

إن من الناس من يخال على الخواطر الشعرية ليلون بها آثاره الأدبية .

وأنا أرى الخواطر الشعرية تنثال انثيالاً على قلمى ولسانى ، فما الذى يمنع من التهجّد فى هذه

الليلة لأدوّن حسرتى على فراق بغداد ؟

دخلت هذه المدينة وأنا خائف أترقب ، فقد كنتُ أخشى أن أطيع فطرتى فى الجدل

والمنافرة فأبتلى بعداوات يعجز عن حملها كاهل الرجل الغريب .

والواقع أن مواطنى فى مصر آذونى ، فقد أجمعوا على أنى رجل غير مصقول ، وقد كنت

اطمأننت إلى أنهم على حق ، فكففت عن الكتابة فى الجرائد بعد أن عُيِّنت مفتشاً بوزارة

المعارف المصرية .

وما هى قدرتى حتى أعادى الحكومة وأعادى الناس ؟

لقد كانت جماهير كثيرة ترتاح إلى مصاولاتى فى الجرائد والمجلات وترانى أمدُّ الحياة الأدبية

بالنار والوقود .

ولكن هذه الجماهير كانت تقف موقف المتفرج حين ترى جنابة قلمى على معاشى .

وقد تحمست الأندية الأدبية فى مصر والإسكندرية لظهور كتاب « الثر الفنى » فأقاموا

لى حفلات التكريم مشكورين ، وطوّقوا عنقى بكرام الخطب وجياد القصائد .

ولكنى لم أفهم أن من حقى أن أنتظر حماسة هؤلاء الرجال فى كل وقت ، وأن أتخذ منهم

ظهيراً أدفع به شر الحاقدين ، وهل يستطيع إبراهيم المازنى أن يعادى الناس من أجل كل يوم ؟

أقول إنى دخلت بغداد وقد تأدبت بأدب الزمان فصممت على أن لا أعرف شيئاً غير دروسى وتلاميذى ، ونزلت أولاً فى فندق تايجرس ، ولكنى عرفت منذ أول يوم أن من تقاليد أهل العراق أن يسألوا عن ضيوفهم فى كل وقت ، وصعّب عليّ أن أعلن زهدى فى لقاء من يسأل عنى ، فانتقلت إلى منزل مجهول وأعلنت فى الجرائد أنى لا أستطيع مقابلة أحد إلا فى مساء يوم الخميس وفى نادى المعلمين .

كذلك احتجبت عن أهل بغداد .

ولكن من الذى يستطيع أن يفرّ إلى الأبد من نور الشمس ؟

لقد تعقبنى أهل بغداد وعرفوا أين أقيم بفضل ثرثرة ظمياء .

وبعد شهرين اثنين كنت على صلوات وثيقة بأكثر من ثلاثين داراً فى بغداد .

فكيف اتفق ذلك ؟ وكيف وثق بى كل من عرفت فى مدينة الرشيد ؟

كنت أدخل تلك الدور كما أدخل المحراب ، وأهل العراق يحبون الرجل الأمين ويستريحون إليه . وأغلب الظن أنهم لم يروا ضيفاً فى مثل أدنى وأمانتى .

وما أدري كيف اتفق لى أن أصوم عن الشبهات فى أيامى بالعراق مع أنى أعرف فيما بينى وبين نفسى أننى لست من الصالحين .

ولعلها دعوة استجيبت من دعوات أبى وأمى فحمتنى من الآثام والمهلكات .

ولكن الثقة التى خصنى بها أهل بغداد كدرت حياقي فى بغداد بعض التكدير ، وأين الصفاء المطلق فى هذا الوجود ؟

كان لى صديق يحب أن يعرف أسرارى وكان يتوهم بفضل ما فطر عليه من الشيطنة أننى لا أدخل فى بغداد من صَبَّوات .

وكان هذا الصديق يطرق بابى فى لحظات يعرف هو أنها لحظات الأُنس فى بغداد .

كان يطرق الباب فى النهار وفى الليل حتى تدمى كفّاه ، ثم اضطّر إلى الاشفاق عليه فأفتح الباب فيقول قبل إلقاء السلام : شكّو عندك ؟ شكّو عندك ؟

فأجيب وأنا أبتسم : ماكو ، ماكو !!

فيقول : بلى ، بلى ، أكو ليلى ، أكو ظمياء .

وأفتح أمامه جميع الغرف فلا يرى ليلى ولا ظمياء .

وما صدّقته القول ولا هدّته عيناه : فقد كانت ليلى فى قلبى ، وكانت ظمياء فى فؤادى ،

وما عشت فى بغداد لحظة واحدة إلا وأنا معمور القلب بغطرسة ليلى ولطف ظمياء .

والحق أنى كنت أغلق بابى فى أوجه الزائرين لسبيين .

السبب الأول : أن بيتى فى بغداد أضحوكة الأضحاك فهو عبارة عن مكتبة بلا رفوف ،

وكل غرفة من غرفه تحتوى على بساطٍ مغطى بالكتب والدفاتر ، وقد آذاني أن يزورنى بعض الصحفيين فيكتب فى جريدته أنى أقيم فى حانوت ورّاق !  
ومع لطف هذا الوصف فإنى أذكر أنه آذاني أشد الأيذاء .  
السبب الثانى : أن حياتى فى بغداد كانت مملوءة بالأفكار والعواطف ، وما مرّ نهار ولا ليل بدون أن آنس بالدواة والقلم والقرطاس .

وكان الظن أن أطرب للصلات التى عقدتها مع بيوت كثيرة فى بغداد .  
ولكن هذه الصلات ساعدت على شقائى .  
كان البغداديون يُطلعوننى على أشياء من ذوات أنفسهم تُقضى مضجعى وتشرد نومى ،  
وكانوا يستريحون بإزاحة الستار أمام قلبى عن سرائر قلوبهم ، وما يعلمون أنهم يخاطبون شاعراً  
يتوجّع لآلام القلوب .

وكثُرَت هذه المآسى أمام خواطرى فعرفتُ أحزان بغداد من الكاظمية إلى الكرادة  
الشرقية ، وصرتُ لا أرى نخلة تداعب النسيم إلا سألتُ : كيف تجددين الحياة يا بنت بغداد !  
وكنت أول الأمر أتوهم أن كل من يركب عربة فى المساء يتوجه إلى موعد غرام ، فأُسيئتُ  
أوقنُ أن الناس لا ركوب العربات بعد الغروب إلا ليصلوا بسرعة إلى أودية الشجون !  
وطغى الحزن والكرب حين عرفت أن مشكلات المعاش فى بغداد تشتبك بمعضلات  
العواطف ، فليس فيمن عرفتُ بهذه المدينة من خلّت دنياه من هموم الجيب وهموم القلب .  
وقد استطعت أن أنقذ خمسة بيوت من الخراب ، أنقذتها بالترفق لا بالمال ، لأن أهل بغداد  
يتسامون عن قبول الهدايا من الضيف .

ومن الغريب أن يتم هذا كله بدون أن يفطن إليه أهل بغداد ، فالأسرة التى عرفتها بالكاظمية  
تجهل كل الجهل أننى موصول القلب بأسرة بالأعظمية ، وأهل الأعظمية لا يتوهمون أن لى  
صلات بأهل البتاوين ، والدار المحبوبة فى الباب الشرقى لا تعرف أنى متصل بالدار التى كان فيها  
قمر ابن زُرَيْق ، وسمكات دجلة لا تصدّق أننى مشغوفٌ بسمكات الفرات ، وأتباع على بن  
أبى طالب لا يخطر فى بالهم أنى أحب أشياع عمر بن الخطاب ، وليل نفسها تجهل أننى أحب  
ظلمياء .

ليت أيامى طالت فى مكايده ليل ومداعبة ظلمياء !  
وزاد البلاء حين عرفتُ أن من أهل بغداد من لا يزال يذكر كتاب « الأخلاق عند الغزالي »  
والغريب أن يكون من الشيعة بالعراق من يغضب للغزالي ، مع أنه من أقطاب أهل السنة ،  
وهذا جانبٌ متين من الجوانب العقلية فى العراق .  
وهل آذيت الغزالي حتى يحلف ناس بالعراق أن لا يصافحونى من أجل الغزالي ؟

اتقوا الله يا فقهاء العراق إن لم تتقوا الذوق ، فالإسلام هو دين الفكر ودين العقل ، وأنا ما خاصمت الغزالي إلا باسم الفكر والعقل .

ولم تكن هذه المحرجات كل ما عانيت في بغداد ، فقد كان أطفالي يكتبون إلي في كل أسبوع مرتين ، ولم تكن رسائلهم مما يُطمئن في كل مرة ، وكان خصومي في مصر لا يزالون يذكرونني بما لا أحب في الجرائد والمجلات ، فضلاً عن المناوشات التي كانت تصوب إلي في بعض صحف لبنان .

وكنْتُ إلى هذا كله مسئولاً أمام وزارة المعارف العراقية ومسئولاً أمام وزارة المعارف المصرية ، بغض النظر عن المسؤولية الخطيرة أمام تلاميذي بدار المعلمين العالية ، وبغض النظر عن المسؤولية أمام المصريين الذين يشتغلون بالطب والهندسة والتعليم في العراق .

كنت أمشي بشارع الرشيد مشرّداً الذهن فيصدمني أحد المصريين وهو يقول :

هية ، أنت متوئس في بغداد !

وليتني كنت متوئساً في بغداد !

وهل أنست في بغداد. بغير سواد المداد وسواد الليل ؟

تلك شهوّر طوال قضيتها في بغداد بثغرٍ باسمٍ وقلبٍ محزون .

وهذا القمر الشاحب الذي يعانى البؤس في الرابعة والعشرين من ربيع الثاني يعرف كيف أدارى بلأى .

هذا القمر الذي حيته ألف مرة وهو يُطلّ على منارة جامع مرجان يعرف كيف كان يعيش الروح الحزين في بغداد .

هذا القمر يعرف من أخبارى كل شيء ، ويشهد بأننى لم أتوئس في بغداد .

هذا القمر يؤمن بأنه لم ير الصبر على السهاد قبل أن يرانى .

وأيامى في بغداد ستكون الفيصل بين شيخوختى وشبابى .

فاللهم عوثك على ما قدّرت من المكاره لأحرار الرجال .

أين أنا مما ابتدأت ؟

كنت أحب أن أتكلم عن آخر سهرة قضيتها في بغداد .

كنت أحب أن أقول إننى ذهبت للملاقة إخوانى في جريدة الأخبار .

فماذا صنعنا بعد ذلك ؟

ذهبنا للعشاء في أحد المطاعم بشارع الرشيد ، وكنا نعرف أننا سنذهب في صباح الغد

لتشييع جنازة الدكتور سيف .

رحمك الله يا سيف ، وجعل في الجنة مثواك !

— ٣٠٥ —

انطفأت الأنوار ثلاث مرات في المطعم الذي اخترناه .  
وكان طعامنا شبيهاً بالسم الزعاف .  
هي ليلة كدّر لا تصلح لشيء ، والله المستعان على غدر الزمان .

\*\*\*

وفي الساعة العاشرة مضيت إلى الجار العزيز أحييه وأحيى زوجته الغالية .  
فماذا رأيت ؟  
رأيت الأطفال يشوسوا من قدومي فناموا .  
والذنبُ ذنبي ، فأنا الذي لم أراع عواطف هؤلاء الأصدقاء اللطاف .  
وأى أصدقاء ؟  
هم أطفال يحسّون بفطرتهم أني رجل كريم الطبع ، خفّاق الفؤاد .

\*\*\*

لقد تنفّس الصبح أو كاد .  
ومن واجبي أن أوى إلى فراشي لأستريح لحظات عساني أستطيع في صباح اليوم أن  
أودّع جثمان الدكتور سيف .  
بغداد .

الوداع ، الوداع ، الوداع !!!

يارا هلين

يارا هلين قفولي كي اودعكم

وداع صبتاق لا يرهو البقاء عندا

وكيف ابقى وخلي لدين فارقم

وهل ربت بلو قلب بتي احدا

صبيته الوضيه

ليلي المريضة بالعراق

٢٨/٦/٨٠

( ليلي المريضة في العراق )





زكى مبارك

# ليلى المريضة في العراف

« تاريخ يفصل وقائع ليلى بين القاهرة

وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨

ويشرح جوانب من أسرار المجتمع وسرائر

القلوب » .

الجزء الثالث

« ... فتتني رسائل ليلى المريضة      « لقد ابتكر زكى مبارك فئسا  
في العراق ... »      جديداً حين نقل العزل والتشبيب من  
محمد العشماوى بك      الشعر إلى النثر » على الجارم بك

« لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ما شرب لتحوّل إلى أوتار  
وقلوب . فكيف أصمت والدنيا كلها تتأرجح من حولي بأنفاس الأزهار  
والرياحين ؛ ولى قلب يتشوّف إلى أفنان الجمال تشوّف الشمس إلى أنداء  
الصباح » .

زكى مبارك

أراك قد كثرت خصومك والفتى      من كان حسّاداً له وتحصّوم  
ما ضرّ فضلك ناقداً أو جاحداً      فلطالما جحد الجميل لئيم  
كُنْ حيث شئت بمصر أو في غيرها      فجميل ذكرك في العراق مقيم  
اليحقوني



أنا في دمشق وطن ...

وطن مَنْ ؟

لا أريد أن أفصح نفسي وقد سترني علام العيوب . .

أكتب هذا في الساعة الثانية من صباح اليوم الخامس والعشرين من حُزيران بعد سهرة قضيتها مع الموسيقار محمد عبد الوهاب .

فما الذي وقع بعد أن أغفيتُ في صباح الخميس يوم فراق بغداد .

استيقظت في الساعة التاسعة ثعبان ، فعرفتُ أني حُرمتُ نعمة الثواب في تشييع جنازة الدكتور سيف .

والتفتُ إلى أمتعتي أحزيمُها بعناية لأستعدَّ للرحيل .

وكنت أنتظر أن أستقبل في صباح ذلك اليوم ليلى أو ظمياء ، فلم تحضُر ليلى ولا ظمياء . وفي الساعة العاشرة طرَّق الباب طارقٌ فإذا هو رسولٌ من قِبَل السيد جواد أبو الثَّمَن يسأل

عن كتاب ( يتيمة الدهر ) فقلتُ إنني سلمته للسيد فخرى شهاب .

وبعد لحظة طرَّق الباب طارقٌ آخر فإذا هو رسولٌ من قِبَل الدكتور شريف عُسَيْرَان يسأل عن كتاب ( أمراء الشعر في العصر العباسي ) فقلتُ إنني سلمته للسيد صادق الخفاف .

ولم أستقبل غير هذين السائلين يوم فراق بغداد .

وماذا يهمني من زيارة الزائرين بعد أن ضنَّتُ ليلى ، وبخلتُ ظمياء ؟

أهذا جزائي في العراق وحُبِّي أهذا جزائي في رَواحِي وإسرائي

\*\*\*

ورأيتُ أن أودَّع بغداد ، وإن لم تودَّعني بغداد ، فخرجتُ لزيارة السيد محمود فهمي درويش الذي طلب صورتي منذ يومين ، فلم أجده في الدائرة ، وإنما وجدت السيد جعفر خياط مدير دار المعلمين الريفية ، فأظهر أسفه الصادق لفراق ونقلني بسيارته إلى منزلي ، المنزل الذي فارقه وأنا مفطور الفؤاد .

وكان عليَّ أن أمرَّ على معالي وزير المعارف وفخامة رئيس الوزراء : لأؤدى واجب التحية قبل الرحيل ، ولكنني قدَّرت أن انشغال الوزراء بتشيع جنازة الدكتور سيف جعل الجوّ مشوّباً بالكدر والانقباض .

انتظرت في المنزل ساعتين في قيظٍ فاتكٍ خائق ، ولم أجد شهيةً لتناول الغداء ، وتذكرني الجار العزيز فأرسل ماعونًا من البطيخ المثلوج فاستروحت نفسي بعض الاسترواح وصلت إلى المطار المدني في جوٍّ محرق لا ينتظر فيه صديق لقاءً صديق ، ومع ذلك رأيت في انتظاري جماعة من عيون أهل الفضل في بغداد فسلموا تسليم الشوق ورجوني أن أعفو عن تقصيرهم في واجبات المجاملة والوداد

ونظر أحدهم فرأى الطربوش فوق رأسي فقال : ما هذا ؟  
فقلت : لأصبح نسبتي إلى مصر بعد أن جعلتني ليلي من صميم أهل العراق .  
وقفنا نتحدث في شؤون مختلفات منها جنازة الدكتور سيف ، وقد أجمعوا على أنها كانت أروع منظر شهدته بغداد . والموتى يُغَبِّطون في بعض الأحيان !  
وقبيل قيام السيارة بلحظات حضر شابٌّ من أقارب ظمياء هو ابن عمها عبد المجيد فتجلدث وتماسكت . ولكنه عرف كيف يغزو قلبي حين قال : أهذه آخر مرة ترى فيها بغداد ؟

نعم ، يا مجيد ، هي آخر مرة أرى فيها بغداد ، وهذا جزء من يثق بعهود الملاح  
سيسأل قومٌ من زكّى مباركٍ وجسمي مدفونٌ بصحراء صماء  
فإن سألوا عنى ففى مصر مرقدى وفوق ثرى بغداد ترحُّ أهوائى

\*\*\*

كنا في السيارة السريعة من سيارات نيون ، وكانت معى الغادة الموسوية التي شربت من يديها أكواب الشهد في إحدى ليالي بغداد ، الغادة التي أوحث إلى قلبي ما أوحث وإن لم أنعم بلقائها غير مرتين ، الغادة التي ذهبت تصطاف في دمشق لأن محبوبها في دمشق .  
ركبت السيارة بقلبي مقتول ، وركبت بوجدٍ مشبوب ، وقد هممت بمواساتي وهممت بمواساتها ، ولكن هيات ، وكيف تستطيع أو أستطيع وقد وقَدنا البرد بعد ساعتين ؟  
فما هي قصة ذلك البرد ؟

كان مفهومًا أن الحر سيؤذينا في الصحراء فاخترنا السيارة السريعة لأنها مزودة بالمراوح وما أعنف ما قاسيتُ من تلك المراوح !

كنتُ نسييت مع الأسف أنى عرفتُ وجع المفاصل بسبب الليلة التي بثها في النجف أول مرة ، فلما ركبت تلك السيارة أخذتُ أشعر بالبرد يتمشى في أوصالي ، ونظرتُ فرأيت الغادة ممددة فوق مقعد مستطيل وهي تتلوى من الألم ، وهل كنت أستطيع ومعنا عشرون من الركاب أن أتمدّد بجانبها عسانا نفيق ؟

ثم نزلنا بالرمادى فقضينا دقائق في المقصف

— ٣١١ —

شربت هي فنجانا من الشاي ، وأكلت أنا قطعة من الدجاج نزلت بالسّم بسبب النظرات  
التي صوّبت إليّ من الأطفال الجياع الذين يحيطون بأسوار ذلك المقصف  
ثم رجعنا إلى السيارة وقد اجتمعت برودة المراوح مع برودة الليل في البداء  
وما هي إلا لحظات حتى تيقنت أن مفاصلي مُرّقت أعنف تمزيق  
هل أصرخ من الألم بين أولئك الناس وعلى مسمع من تلك الحسنة ؟

وهل أبقى الدهر مجالاً للدمع والصّراخ ؟  
شوتني خطوب الدهر شيئاً فلم تدع لمعتسف حُلماً إذا رام إيكائي  
لم يبق عندي شكٌ ساعثني في أن مفاصلي مُرّقت ، ولكن كيف ، ذلك أمرٌ يحار فيه العقل  
ثم خطر بالبال أن ذلك قد يكون رجعة لصدمة الروماتيزم التي عرفتها بالنجف فهتفت :  
— يا غلام ، هات كأساً من الكونياك

— ليس عندنا كونياك

— وماذا عندك ؟

عندي ويسكي

— هات كأساً من الويسكي

وما كدت آخذ من الويسكي رشفتين حتى شعرت بأن مفاصلي لا تزال سليمة وأن الذي  
وقع لم يكن إلا صدمة بُرد ، فحمدت الله على نعمة السلامة وعرفت أن لي بقية من العافية  
أرشف بها صهباء الرّضاب

وصلت إلى دمشق هادم الجسم ، خامد الروح ، فلم أسأل الغادة أين تلتقي في المساء  
فوهاً كيف تجمعنا الليالي وأهـا مسن تفرّقتنا وآهـا  
كان أحد أصدقائي في بغداد عيّـن لي فندقاً أنزل فيه بهذه المدينة وقال إنه أرسل برقية إلى  
الشاعر أحمد الصافي النجفي ليلقاني بذلك الفندق

ولكن وقع ما لم أكن أنتظر ، فقد لقيت بالمحطة رجلاً يتلطف في نقل أمتعتي إلى فندق  
داماسكوس ، وكنت تُعبان فلم أراجعته في نقلي إلى هذا الفندق  
وبعد أن استرحت لحظات خرجت أسأل عن مكتبة العلوم والآداب ، مكتبة فرحات  
وهاشمي ، لأقدم إليها النسخ التي اشتركت فيها من كتاب « عبقرية الشريف الرضي » فرأيت  
دمشق تتحدث بقدوم الموسيقار محمد عبد الوهاب

محمد عبد الوهاب ؟

ومن الذي يسمع باسم محمد عبد الوهاب ويفكر في أحمد الصافي ؟

أين عبد الوهاب ؟

أين ؟ أين ؟

ها نحن أولاءٍ نعتق بعد فراقٍ أرمضَ الأحشاء وأوجعَ القلوب .  
ها نحن أولاءٍ نستعيد الذكريات العذاب لأيامنا في القاهرة وباريس .  
ها نحن أولاءٍ نذكر الأصائل والعشيات على ضفاف النيل .  
ها نحن أولاءٍ نتشاكى ونتباكى ونذكر مصايرنا في الحب ، ونتوجع للنعيم الذى ضاع في غيابات الليالى .

نظرتُ إلى عبد الوهاب وأنا أدُ مَدِم :

« يا زَرْع بلدى ، عليك يا وعدى »

وتذكرتُ موقفنا عند بحيرة أنجان ، وتذكرت القصيدة التى نظمناها في الشوق إليه وأنا في قطار ليون إذ أقول :

يا أَمِيرَ الغِناء تَفديكَ رُوحى	من صُرُوف الهوى وجُور الغرامِ
أذبلتُ عُودَكَ الصبابة حتى	عُدتُ مثل الخيال في الأحلامِ
وغدا صوتك القويُّ أُنينا	باكى اللحن شاكى الأنعامِ
تُخذ دموعى فَنُح بها يا هَزارا	ذاب من قسوة الجوى والهيامِ

\*\*\*

صدّيتُ عن لقاءك فيضُ حنينى	لبلاد النخيل والآطامِ
قد دعنتى مصرُ فطار صواى	وتناسيتُ مُلهمسى وإمامسى
وتجاهلتُ واجبى يوم تكريمِ	سمك بين الأمائل الأعلامِ
أنا بالروح والفؤادِ صفى	فتقبَّل تحينسى وسلامسى

\*\*\*

عانقتُ عبد الوهاب حين لا قيته عناقاً ضجَّ له من رآه من صبايا دمشق ، فالتفت إليهن وقال : نحن عُشّاق !

نعم ، عشاق ، عشاق ، عشاق .

وهل في الدنيا عشقٌ أنضر وأروع من أنس الأرواح بالأرواح ؟  
وأى قلب لا يتشرف بأن يحقق شوقاً إلى محمد عبد الوهاب ؟  
أى قلب لا يستهويه أن يكون له وجدٌ بهذا الروح الطاهر النبيل الذى يُحسن الإفصاح عن سرائر القلوب ؟

إن محمد عبد الوهاب من أكرم الذخائر في الوطن الذى تنسم هواءه محمود البارودى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي .

إن محمد عبد الوهاب هو الشاهد على أن مصر من بساتين الشعر والخيال .  
حرسك الله يا عبد الوهاب وزاد روحك صفاءً إلى صفاء .

\* \* \*

ومضيت مع هذا الروح اللطيف أزور من يعرف من عيون دمشق ، فراغني أن أرى صورته  
مرسومة فوق كثير من الأرائك : أرائك المنازل الأمانة التي تثق بهذا الروح الأمين .  
وإني لأعتقد أن عبد الوهاب أعجوبة بين أهل الفنون فهو شاب مهذب اللفظ ، شريف  
الوجدان ، وما اتصل به أحد إلا بآهه ما فيه من سمو الأدب ودقة الذوق .  
وكيف كانت ليلتي في صحبة عبد الوهاب ؟  
قضينا لحظات في شهود « فلم يحيا الحب » ثم أمضينا بقية السهرة في منزل الدكتور رمزي  
فردوس .

وما كدّر هذه السهرة إلا لحظات صمت كانت تعتاد عبد الوهاب من حين إلى حين .  
وهذا الفتى لا يتصنع الوقار كما يتوهم من لا يفقهون ، وإنما يعانى لحظات من الغيبة حين  
تمسّه أطيايف التلحين ، وهو يخلو إلى نفسه من وقت إلى وقت من حيث لا يحتسب ولا يريد ،  
هو يتلقى وحى التلحين كما يتلقى الشاعر وحى الخيال .  
دخلت عليه ليلة في منزله بالعباسية فوجدته في نشوة روحية فقلت : أشتى الآن أن  
تغنى ؟ فقال : أنا حين أطرب أشتى ألحن .  
وأيامي في صحبة هذا الروح بالقاهرة وباريس دلتني على معاني كثيرة من شمائل نفسه العالية  
وقلبه الخفاق .

وقد درست هذا الفتى دراسةً وافية لأعرف السبب في نجاحه فرأيت أنه يتناول  
جميع الأمور بطريقة جدية ، حتى الحب يراه عبد الوهاب لوئاً من ألوان الجدد الرزين ، وهو لا  
يعاقر كأس الحب إلا ليواجه أسرار الوجود .  
وعبد الوهاب مؤمن بعظمته الفنية ويتسامى إلى الخلود في عالم الفنون ، وهو من أجل ذلك  
يحرص على سلامة صوته أشد الحرص ، فهو الفنان الوحيد الذي لا يدخن ولا يشرب  
الخندريس .

والناس يقولون إن شوقي وجّهه في مطلع حياته الفنية ، وهذا حق ، ولكن من الحق أيضاً  
أن عبد الوهاب وجّه شوقي إلى أفانين من البيان : فعبد الوهاب صاحب الفضل في إقبال شوقي  
في أعوامه الأخيرة على الأناشيد الغنائية ، وقد هتف شوقي باسمه عند الموت .

\* \* \*

وليس في عبد الوهاب إلا عيب واحد : هو التقصير في تلحين الشعر الفصيح .

وقد حاول ذلك فنجاح في قصائد معدودات ، ولو أنه صبر على هذا الفن لأتى بالأعاجيب .  
أقام عبد الوهاب في العراق نحو أربعة أسابيع ، وكانت هذه المدة كافية لأن ينقل إنشاد الشعر  
عن أهل العراق ، ولكنى علمت أنه لم يعرف دار ليلي ولم يمرّ بشارع العباس بن الأحنف ،  
فكان مصيره مصير بعض المصريين الغافلين الذين يزورون بغداد ولا يستوحون ليلي المريضة  
في العراق .

وماذا يحسن العراقيون في التغنى بالشعر الفصيح ؟  
الحق أنى لم أفهم قيمة الأخبار الموثقة في كتاب الأغاني إلا بعد أن زرت العراق .  
وإذا كان المغنون المصريون لم يستطيعوا أن يعيدوا عهد مَعْبَد والغريض في إنشاد الشعر  
الفصيح فأهل الفن بالعراق لا يزالون قادرين على إحياء ذلك الفن الجميل .  
سهرت ليلة في منزل السيد عبد الوهاب الأمين مع جماعة من الرفاق منهم السيد يوسف  
رُجَيْب وكان معنا رفيق نسيت اسمه مع الأسف ، ولعله يسمى عبد الله ، وفي نهاية السهرة  
انطلق ذلك الرفيق يتغنى بالشعر الفصيح غناءً يبعث الغافيات من سرائر القلوب ، وخرج ذلك  
الرفيق معي فركبنا سيارة عمومية وهو يغنى ، فنسى السائق الطريق وأخذ يدور ذات اليمين  
وذاة الشمال في أضاليل الرصافة ، سقاها الحب ، ودام الحال كذلك نحو ساعتين حتى  
خشيت أن يُقتل ذلك الرفيق وهو في حومة الغناء .  
وفي تلك اللحظات تذكرت المغنى محمد عبد الوهاب الذى عجز عن تلحين قصيدة :

### « ساعة حُب »

وهي القصيدة التي يقول فيها شاعر سنترس :

يا مَلِيكَ الحُسْنِ عَزَّتْ دَوْلَتُكَ . وَرَعَتْ آلَهُ الحُبِّ صَبَاكَ  
شِرْعَةُ الإِسْعَادِ فِينَا شِرْعَتُكَ وَهَدَى الإِشْفَاقِ وَالْعَطْفِ هُدَاكَ

\*\*\*

أَلَّتْ أَنْقَذَتْ فَوَادِي مِنْ جَوَاهِ . وَسَقَيْتِ الرُّوحَ أَكْوَابَ الصَّبَا  
آنَ أَنْ يَنْسَى فَوَادِي مَا شَجَاهُ . نَسَخَ الإِقْبَالَ أَيَّامَ الشَّقَا

\*\*\*

سَاعَةٌ مَرَّتْ وَفِي القلبِ هَوَاكَ . سَاحَرَ النُّعْمَةِ خَفَاقَ الجَنَاحِ  
يَرشُفُ اللَّثْمَةَ مِنْ كَأْسِ لَمَاكَ . فِي ظِلَالِ الأَنْسْرِ وَالصَّبْفِ الْمُتَاخِ

\*\*\*



— ٣١٥ —

سَكَبَتْ نَجْوَاكَ فِي الرُّوحِ الْأَمَانِ وَأَرَانِي الْوَصْلَ أُسْرَارَ جَمَالِكَ  
فَتَمَثَّلْتَ فِرَادَيْسَ الْجَنَانِ وَرَأَيْتُ الْخُلْدَ مَنْضُورَ وَصَالِكَ

\*\*\*

وَقَفَ النَّجْمُ وَالْقَمَى بِأَلْهِ وَبَعْدَ اللَّمَحِ مِنْ قَلْبِي وَقَلْبِكَ  
وَيَحْ هَذَا النَّجْمُ مِمَّا هَالَهُ فِي ضَمِيرِ اللَّيْلِ مِنْ حُبِّي وَحُبِّكَ

\*\*\*

غَارَتْ الْأَنْجُمُ مِنْ قَلْبِي الطَّرُوبُ مَا يَقُولُ النَّاسُ لَوْ شَاءُوا غِرَامِي ؟  
أَنَا بِالْأَفْنَانِ فَتَاكَ لَعُوبُ يَزْدَهِنِي الْعُثَى فِي تِيهِ هِيَامِي

\*\*\*

شُبُهَةٌ فِي قَلْبِكَ الْبُكْرُ يُلُوحُ طَيْفُهَا الْمِرْتَابُ فِي إِنْسَانٍ غَيْبِكَ  
أَنَا يَا مَوْلَايَ لَوْ تَعْلَمُ رُوحُ يَهْصِرُ الْمَطْلُولُ مِنْ مَائِدِ غُصْنِكَ

\*\*\*

تَنْظُرُ السَّاعَةَ مِنْ حِينٍ لِحِينٍ لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَسْتَعْجِلُكَ  
إِنَّ هَذَا الْوَصْلَ أَحْلَامُ سِينِينَ فَاتَّقِ الْحُبَّ وَدَعْ مَا يَشْعَلُكَ

\*\*\*

ومع تقصير محمد عبد الوهاب في تلحين الشعر الفصيح فأنا أعطف عليه أكرم العطف ،  
وأذكر بالحمد والثناء أنه رفع الفن المصري في الأقطار العربية والإسلامية .  
ولو كانت أم كلثوم تملك ما يملك عبد الوهاب من القدرة على التلحين لأغنت الشعر  
الفصيح بن دلال هذا الصديق العزيز .  
أكتب هذا وصوت أم كلثوم يملأ أجواز الفضاء في دمشق ، ولعله يصنع مثل ذلك في  
بيروت والقدس وبغداد والبصرة والموصل وتونس ومراكش والجزائر والخرطوم .  
أكتب هذا وبجانب الفندق الذي أقضى فيه هذه الليلة دار يغتبق أهلها بصوت أم كلثوم بعد  
نصف الليل .

وماذا أقول في أم كلثوم ؟

إن مصر — حيا الله مصر — لم يُدْع اسمها كاتب ولا شاعر كما صنع صوت أم كلثوم .  
وهذا كلام قد لا يرضاه الأستاذ محمد خالد الذي عتب علي حين سمعني أحطب يوم ظهر  
فلم ( الغندورة ) للسيدة منيرة المهدي ، فقد راعه أن أقول : إن الفنانين المصريين يذيعون  
محامد القومية المصرية .

فهل يكتب الله لمثل هذا الصديق أن يشرق أو يغرب ليرى الخدمات التي يؤديها صوت

أم كلثوم للأمة المصرية ؟

هل يكتب الله لمثل هذا الصديق أن يزور بغداد ليرى أن أهل العراق يرون أن النشيد القومي المصري يجب أن يكون « نشيد الجامعة » الذي لحنه الفنان رياض السنباطي وغنّته الحماة الموصلية أم كلثوم ؟

\* \* \*

وماذا لقي الفنانون عندنا من عناية النقد الأدبي والفني ؟  
كل ما غنموه أن يقال إنهم يذيعون ثقافة البكاء والأنين !  
فهل يفهم النقاد أن النفس الإنسانية لها مآسٍ وأشجان ، وأنها في حاجة إلى مواسين من صوت أم كلثوم وعبد الوهاب ؟

هل يفهم النقاد أن الفنانين المصريين أفصحوا عن عواطف يحسها الناس في كل مكان ؟  
هل يفهم النقاد أن الحزن علامة قوة لا علامة ضعف ؟  
هل يفهمون أن الحزن هو الشاهد على أننا نفهم قيمة ما نفقد ؟  
اعرفوا هذا ، أيها النقاد ، لتقدروا حزني على فراق ليلاى .  
اعرفوا هذا لترحموني يوم يطول إلى ليلٍ حنيني .  
وكيف أستجديكم العطف وأنتم غلّف القلوب ؟  
كيف أستجديكم الرفق وقد حرمكم الله نعمة الضلال في هوى العيون السود ؟

\* \* \*

أنا في دمشق وطن ...

وطن من ؟

لا أريد أن أفضح نفسي أكثر مما افتضحت .

فأين تعيش الإنسانية التي ذهبت إلى بغداد وفي جيبيها مسدّس لتقتل ليلاى في العراق ؟

أين تعيش ؟ وفوق أى سرير تنام ؟

لقد هدّدني زوجها بالقتل إن سألت عن بيته حين أمرُ بدمشق .

وكنت أستطيع أن أدخل دمشق ومعى جيش من قومي في العراق ، ولكنى صفحت

وغفرت .

حسبتم هذه الدنيا	تضيّق برحبها عنا
فصرتم كلما جئنا	نفرّتم جَهرةً منا
أسأتم إذ تبرمتم	بهذا المُغرّم المُضنى
وجُرتم حين غيرتم	بصدق ولائه الظنا

— ٣١٧ —

ولو أنصفتُم قلتم : أديبٌ يعبدُ الحسنَا  
فما ذنبى عندكم يا بنى دماشق بن قافى بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح ؟  
ما ذنبى عندكم وقد أذعتُ محاسن الشام فى بغداد ؟  
ما ذنبى عند صاحبة العينين ولم أشرب على وجهها غير مرة واحدة فى قطار الحلة ؟  
أىكون ذنبى عند زوجها أن تفرح بلاقائى يوم سُدّة الهندية ؟  
لا تغضبوا ولا تعتبوا ، يا بنى دماشق ، فلم أبت فى مدينتكم غير ليلتين ، وقد أفارقها إلى  
غير معاد .

وهل يسمح الدهر لرجل مثلى أن يستوحى العيون فى دمشق حين يشاء ؟  
إن أهل دمشق يحترسون منى كما يحترس أهل بيروت .  
وهو كذلك .

ولكنكم ستجنّون عواقب ذلك بعد حين .  
ستطلبون وتُلحّون أن أرجع إلى اجتلاء المحاسن فى هذه البلاد .  
وهل ترونى أقلّ من حسان بن ثابت الذى رَقَم اسم بَرْدَى على جبين الزمان ؟  
نحن الشعراء ، يا بنى دماشق ، وعداوة الشعراء بمس المقتنى ، كما قال المتنبي .  
فكيف تجنّون على أنفسكم بمكايدى ؟  
أمثلى يمرّ على دمشق وبيروت ثم يخرج سليم القلب ؟  
ستندمون ، ثم ستندمون !!

\*\*\*

آه ، ثم آه !!  
دخلت دمشق وأنا محزون ، وسأفارقها وأنا محزون .  
ولكن لا بأس فسأسافر بإذن الله إلى السودان .  
ألم أتلّق فى بغداد عشرات الخطابات من ليليات السودان ؟  
إن أهل السودان من عيون العروبة وفيهم شمائل من النبل والكرم والذوق ، وهم من قراء  
مؤلفاتى ، المؤلفات التى نظمتها من حَبّات قلبى .  
فإن تجنّت على الوجوه الشقر والبيض فسأنعم بإذن الهوى فى ظلال الوجوه السمر  
والسود .  
سأذهب إلى قومي فى السودان ، السودان الذى تناسيانه ونحن آثمون .  
سأذهب إلى البلاد التى فيها منابع النيل .  
سأذهب إلى الخرطوم التى خلّدها صاحب « ليلالى سَطِيح » الخرطوم التى تنسم هواءها

حافظ إبراهيم أظرف رجل رآته عيناى .  
 سأذهب إلى الخرطوم التى عزّ عليها أن أقصر هوائى على القاهرة وباريس وبغداد .  
 سأزور الأمّاجد من أهل السودان الذين كانوا ولا يزالون أصدق الحافظين لعهد القرآن .  
 سأبنى بيتاً فى دارفور لأستطيع أن أقول إني وفيتُ بالعهد للعروبة المصرية .  
 سأكتوى بقيظ السودان كما اكتويت بقيظ العراق .  
 سأنشر كتاباً عن « ذكريات الخرطوم » كما نشرت كتاباً عن « ذكريات باريس » .

\* \* \*

غداً أفارق دمشق ، ويا لوعة القلب من فراق دمشق !  
 وبكنت أحب أن أمرّ على بيروت مرةً ثانية ، ولكنى أخشى أن أواجه الأدباء هناك بما لا  
 يحبون ، وهم قومٌ ليس فيهم إلا فضيلة واحدة : هى أنهم يشتموننى باللغة العربية !  
 وما ذنبى حتى أشتمّ باللغة العربية أو اللغة الفرنسية ؟  
 ما ذنبى وأنا أذيع المحامد العربية فى كل بلدٍ أُحل فيه ؟  
 لقد قضيتُ فى بيروت ليلة واحدة ، فكانت تلك الليلة فرصةً لِهيام الأقلام فى شهورٍ  
 طوال ؟

إن كان مثلى يُشتمّ فى بيروت فغضبهُ الله والجب على بيروت !

\* \* \*

غداً أفارق دمشق ، لأمرّ بفلسطين وأجيب دعوة الأستاذ إبراهيم طوقان فى مناجاة ليلي فوق  
 منبر الإذاعة اللاسلكية بالقدس الشريف .  
 إلى القدس ، إلى القدس .  
 إلى وطن العيون التى أسرتني فى غرة وفى اللد وفى ....

—

أنا في حيفا وقد شرعت في كتابة هذه الكلمات قبل منتصف الليل : لأشعر أني استوحيت فلسطين .

فما هي قصتي مع فلسطين ؟

قبل أن أسافر إلى العراق نصحنى الناصحون بأن أسافر في الطائرة من مصر الجديدة إلى بغداد . فإن لم يرقني ذلك فلا أسافر بالبحر من الإسكندرية إلى بيروت . ثم أمتطي سيارة إلى دمشق ثم إلى بغداد ، ونهاى أولئك الناصحون عن عبور فلسطين : لأن الثورة كانت جُنَتْ ، وكان تُسْفُ القطارات من بعض ما يصنع الثائرون .

ولكنني رفضت ذلك النصح الجميل وأبيت إلا عبور فلسطين لأرى اللد التي وردت في أبيات رواها صاحب الأمالي ، ولأرى عَزَّة التي قال أحد شعرائها القدماء :

قالوا تركت الشعرَ قلتُ ضرورةً باب البواعث والدواعي مُغْلَقُ

لم يبق في الدنيا كريمٌ يُرْتَجَى منه النوال ولا مليحٌ يُعَشَّقُ

ومن البلية أنه لا يُقْتَنَى ويُخَانُ فيه مع الكساد ويُسَرَقُ

وكذلك تخوف المصريون الذاهبون إلى العراق من عبور فلسطين ، وتفردت بعبور فلسطين في لحظات تموج بالدماء ، ولطف الله فلم يُصب القطار الذي امتطيته مكروه . وغنمت إمتاع عيني برؤية البلاد التي يحترِبُ في سبيلها العرب واليهود .

وبعد أن أديت واجبي في العراق وفكرت في الرجوع إلى وطني وأبنائي كانت سبقتني دعوة من الأستاذ إبراهيم طوقان لالقاء محاضرة في الإذاعة الفلسطينية في الأسبوع الأخير من حزيران ، وحدثت الدكتور الجمالي بذلك فنهاني عن عبور فلسطين ، وكانت الثورة زادت بلاءً إلى بلاء .

ولكن هل ينتصح رجلٌ مثلي حين ينهاه الناصحون ؟

هيهات ! هيهات !

\*\*\*

ومضيت لأخذ تذكرة من شركة تيرن فطلبوا جواز السفر فقدمته ، فلما نظروا فيه أعلموني أنه يحتاج إلى تجديد لدخول دمشق ، ولم أكن تأملت ما كُتِبَ فيه بالفرنسية ، فأعطيتهم ما طلبوا ليجددوه .

وبعد أن بُثَّ في دمشق ليلةً كان من واجبي في صباح اليوم التالي أن أمرُّ على مكتبة ( فرحات وهاشمي ) لأقدم إليهم النسخ التي اشتركوها من كتاب ( عبقرية الشريف الرضى ) فتلقاني أصحاب المكتبة بالترحيب ، وتفضل شابٌ مهذب اسمه شفيق بالتطوع لمصاحبتى إلى أن أبرح دمشق — ولم يكن بينى وبين مبارحتها غير ساعات — وما كدت أبدأ الحديث مع ذلك الشاب المهذب حتى قال : هل جددت جواز السفر لعبور فلسطين ، يا دكتور ؟

فتذكرت ما وجب عليّ في بغداد من تجديد جواز السفر لدخول دمشق ، وأسرعنا إلى المفوضية الإنجليزية .

فماذا صنعنا هناك ؟

انتظرنا ساعتين أو ثلاث ساعات كانت أثقل على قلبي من الجبال ، ولم يخفف تلك الساعات إلا الأنس بمحدث فتى من فلسطين اسمه بهاء الدين بيبي ، شقيق تلميذى القديم رشاد بيبي ، و ( بيبي ) نسبة إلى الباب إحدى قرى حلب ، وإليها ينسب البابى الحلبي ، وتلك فائدة لغوية تستحق التدوين .

وبعد ذلك الانتظار الذى لم يخفف من ثقله غير صُحبة شفيق وبهاء الدين عرفتُ أن جواز السفر لا يحتاج إلى تجديد .

وعندئذ تذكرت خطر العناد الفظيع الذى حرمنى تعلّم اللغة الإنجليزية ، فقد كنتُ أحب أن أشهد أهل المشارق والمغرب على أن المصرى يستطيع أن يكون في وطنه أعظم الرجال بدون أن يتعلم الإنجليزية ، لتسقط حجة الإنجليز حين يزعمون في أوروبا أن لغة المصريين هي الإنجليزية « ١٩ » .

ولو كنتُ أعرف لغة الإنجليز لنجوتُ من مرارة الانتظار في تلك الساعات الثقالة ، ولرحتُ شاباً مثل شفيق من أن يعانى في صحبتي تلك الساعات المضجرة في وقت قائط عصيب .

اطمأننتُ إلى أن جواز السفر ييسحنى حق عبور فلسطين فامتطيت سيارة إلى حيفا ، بعد أن زودت نفسى بألوان من الفواكه الشامية .

وما كدت أخرج من الشام وأدخل فلسطين حتى رأيتنى مسئولاً عن جواز السفر في محطة تسمى « بنات يعقوب » وطلب المراقبُ الإنجليزى جواز السفر ليخبره ثم رجع بعد لحظة فأفهمنى أنه يحتاج إلى تجديد وأنه لا مندوحة من رجوعى إلى دمشق لتصادق عليه المفوضية الإنجليزية .

كلمت ذلك المراقب بالفرنسية وأفهمته أنى قضيت بالمفوضية الإنجليزية ثلاث ساعات إلى أن أفهمونى أن الجواز لا يحتاج إلى تجديد ، وأكدت له أن رجوعى إلى عاصمة الشام غير

يمكن ، لأن جيبي خلا من المال ولا أستطيع الاتفاق مع السائق على أجر جديد .  
فتردد المراقب الإنجليزي لحظة ثم قال : انتظر حتى أحاطب المحطة المقبلة بالتليفون ، ثم  
رجع فقال : دبر أمورك مع المحطة التالية !  
وفي المحطة التالية وقفت وقدمت الجواز ، فاختره الموظفون هناك ورأوا أنه لا يحتاج إلى  
تجديد .

أشهد أن بنى آدم بلا عقول !  
وأشهد أن الإنجليزي ناس كسائر الناس قد يقرأون فلا يفقهون !  
وأشهد أنى جنيت على نفسى حين اكتفيت بمعرفة اللغة الفرنسية ، وكان فى مقدورى أن  
أتعلم الإنجليزية بجانب الفرنسية لأستطيع التفاهم مع جميع « أصدقائنا » فى الشرق .  
ولا تحب المصائب ، إلا من الحبايب !  
لم يكن لى مارت من زيارة فلسطين إلا تنسم هواء البلاد التى مكنت الإنجليز من أن يكونوا  
دواهي السياسة فى العصر الحديث .  
فأنا أعتقد أن معضلة فلسطين ليست إلا فخاً ينصبه الإنجليز ليبلبلوا الأمم العربية  
والإسلامية ، وإلا فمن الذى يصدق أن الإنجليز يعجزون عن إقرار الأمن فى بلاد لا يزيد  
سكانها عن بضعة مئات من الألوف ؟  
أنا أعتقد أن الإنجليز يصانعون العرب ويصانعون اليهود ليشغلوا الأمم العربية والإسلامية  
بشاغل لطيف يصرفهم عن التفكير فى شواغلهم المحلية .  
وهذا الكلام يعد كفرة فى نظر المغفلين الذين لا يدركون مرامى السياسة الإنجليزية .  
وما أحب أن أزيد !

\* \* \*

وصلت إلى حيفا فسألت عن الأستاذ عبد الكريم الكرمى فلم يعرفه أحد .  
ثم سألت عن الأستاذ أبى سلمى فعرفه الجميع !  
وهناك ندمت على الوقت الذى ضيعته فى دراسة « الكنية » يوم كنت مشغولاً بتأليف  
كتاب « النثر الفنى » فلو أنى كنت زرت العراق أو فلسطين قبل ذلك لاستغنيت عن تلك  
الأبحاث الطوال .

الكنية هى أساس التعريف فى العراق : فأبو هاشم هو طه الراوى ، وأبوليث هو فاضل  
الجمالى ، وأبو صباح هو نورى السعيد ، وأبو مفيد هو إبراهيم حلمى ، وأبوليل هو زكى مبارك !  
أحبك يا ليلى وسأهتف باسمك فى كل مكان .  
أحبك يا ليلى ؛ وسأذكر أنى خرجت من دارك غضبان .

( ليلى المريضة فى العراق )

أحبك يا ليلي ، وأعترف بأنني أستحق وأستأهل كل ما طوقتنى به المقادير .  
 ألم تكوني بين يدي ؟ ألم أكن أملك من أمرك كل شيء ؟  
 ألم يكن زمامك في يدي لو كنت أحسن التصرف فيما أملك ؟  
 ليلي ، ليلاي .

لم يكن طبيبك من الغافلين ، وإنما كان من الأمناء .  
 لقد قبلت يدي مرة أو مرتين أو مرات ، وكان في ذلك إيذاناً بأن من حقني أن أقبل جبينك  
 المشرق وخذك الأسيل .  
 فهل ترينني فهمت أو عقلت ؟  
 ليلي ، ليلاي .

سيطول ندمي على ما ضيعت من الفرص السوانح ، وسيطول بلائي كلما تذكرت أن  
 غرامي في بغداد لم يكن إلا حُلماً تبدد وأملاً ضاع .  
 لقد نصبت الشباك لاقتناصي ألف مرة ، ثم نجوئ من تلك الشباك ، فوا كرباه من تلك  
 النجاة !

جئت على الليالي غير ظالمة إلى لأهل لما ألقاه من زمني  
 توهمت يا محبوبتي الغالية أن من واجبي أن أصونك عن جميع الشبهات .  
 توهمت أن من واجبي أن أتصورك لفحة روحانية تعز على إدراك الناس .  
 وأنت والله كذلك ، وإن تبدلت طائفة في هواي .  
 اذكرني يا ليلي أني صنتك صيانة كريمة ، وأنى رأيتك فوق الشهوات والأهواء ، فلم أمسك  
 بسوء ، مع أني من العارمين

اذكرني يا ليلي أنك اقترحت أن تعينيني على ليل بغداد فرفضت .  
 اذكرني يا ليلي أنك اقترحت أن تكوني نور بيتي فأبيت .  
 اذكرني يا ليلي أني من أجلك عشت عذري الهوى في بغداد .  
 اذكرني يا ليلي أن بلدكم لم يعرف قلباً أشرف من قلبي وإن كثر المدعون .  
 اذكرني يا ليلي هيامنا الطاهر النبيل في ضواحي بغداد .  
 اذكرني يا ليلي أني خرجت من دارك غضبان ، ولن أعود  
 إيش لون يصير ؟

ما أدرى كيف أصبر على فراق بلد أنت نوره الواج !  
 ما أدرى كيف أهجر العراق إلى غير معاد !  
 ومن يضمن أن تذكريني بالخير بعد الفراق ؟



كان العذال يقولون ... ويقولون ... ويقولون ...  
 فهل يعرف العذال أنك ستمضغين عِرضي كما يمضغ الطيُّ عود الأراك ؟  
 إن سمعتي بين يديك يا محبوبتي الغالية ، فاصنعي بها ما تشائين .  
 كوني سِنَادِي ، يا ليلي ، يوم يتقوّل المرجفون .  
 كوني سِنَادِي ، يا ليلي ، يوم يُرجف المتقولون .  
 قولي الحق ، يا ليلي ، هل شهدت على محبوبك الغالي ما يُعاب ؟  
 هل رأيت منه غير الكرم والصدق والتُّبَل ؟  
 أنا أعرف ما جنيت على نفسي يوم تعففت وتَصَوَّنْتُ .  
 ولكن من الظلم أن يكون العفاف باباً إلى الخسران .  
 قولي في كل شيء ، إلا تهمة الإثم والفسوق .  
 وما أشد ندمي على أن أسلم في هوائك من الإثم والفسوق !  
 كنت مخلصاً ، يا ليلي ، فيما اخترت لنفسي من التصوّن والعفاف .  
 وأقسم بالله وبالحب أني ما تركت حظوظي من جمالك الفُتّاح إلا لأني رأيت أعظم  
 وأشرف من أن تخوض فيه هواجس الظنون .  
 أنت يا محبوبتي « حليوة » كما كانت تعبّر ظمياء .  
 ومن حق « الحليوة » أن تصان عن الأهواء الفواتك .  
 لقد استطعت وأنا غويّ أئيم أن أصونك عن الدنس والرّجس ، فتصوّني يا ليلي عن الدنس  
 والرّجس ، واقضي دهرك كله وأنت مصونة بتوّل .  
 إن قلبي يكاد ينصهر من الغيظ كلما تصورت أن نورك الوهاج قد يجتذب إليه فضول  
 الفَرّاش .

فارحميني يا ليلي من هذه الغيرة القتّالة التي تبدّد رشدي ، وتُسحق قلبي .  
 ارحميني يا ليلي فإني أخشى أن أموت وأنا من الغاضبين .  
 ولك الويل إن متُّ وأنا عليك غضبان !

\*\*\*

فكرت في عصر اليوم في التنزه بحيفا فسألت عن أجمل حيّ في المدينة فقيل أنه حيّ العزيزية ،  
 ثم قيل إن ملاهيه ستقفل في المساء بسبب الثورة . وليست حيفا في ثورة ظاهرة ، ولكن  
 التعادي بين العرب واليهود يسبّب حوادث كثيرة في كل مساء .  
 وكذلك اكتفيت بالطواف في الحيّ الذي تقع فيه المحطة وفندق السترال .

\*\*\*

— ٣٢٤ —

وفي ذلك الحى جلسْتُ على قهوة بعد الغروب لأجتلى وجه الحياة فى حيفا ، فأقبل شابٌ يقول :

— حضرتك من الإسكندرية ؟

— أنا من القاهرة .

— ولكنى أتذكر أنى رأيتك فى الإسكندرية .

— قد يكون ذلك : فلى بالإسكندرية صلات

ودعوته إلى الجلوس فلم يرفض ، ثم قال :

— ظننتك أول الأمر أجنبيًا .

— ماذا تعنى ؟

— لأنك تجلس على قهوة أجنبية .

— هذه قهوة أجنبية ؟

— نعم ، لأن أصحابها يهود .

وكذلك يرى العرب أن اليهود أجانب فى فلسطين .

واقترح الشاب أن نزور معًا بعض الملاحى فقمْتُ معه وأنا متهيّب ، وكنتُ أحب أن أدرس بعض السمائل من حياة المرح فى هذه المدينة ، ولكنى لم أستطع أن أدخل الملاحى : فقد خشيتُ أن أرى ما أكره فى ليال لا يسهر فيها إلا المعربدون .

وحاول الشاب أن يقنعنى بأنه مصرى وأن ضميره لا يبيحه أن يقودنى إلى مواطن الشبهات ، فاعتذرتُ بتلطّف وانسحبتُ .

\*\*\*

لم أجد فى حيفا مجلة مصرية ، على كثرة ما بحثتُ ، ولعل ذلك لأنى دخلتها فى أيام الهياج ، ومع تهيجهم حيفا بسبب الفتن فقد رأيتها مدينة جميلة ، بغض النظر عما لمائها من طعم مجوج . وقد تأملت « ورقة الفندق » التى تسمى « قائمة الحساب » فرأيتها تذكر بورقات الفنادق فى دمشق : فهى تنصّ على أنواع الشراب .

ولذلك دلالة يدرك قيمتها الباحث الاجتماعى .

\*\*\*

فى مثل هذه الساعة من الليلة المقبلة سأكون بإذن الله فى مصر بين أهلى وأبنائى . ولولا الشوق إليهم لمضيتُ إلى القدس وناجيتُ لىلى على منبر الإذاعة الفلسطينية ، لإجابة

— ٣٢٥ —

- لدعوة الشاعر إبراهيم طوقان .  
فيا أيها القدس الشريف .  
سلام عليك من شاعرٍ يعرف فضلك في إحياء القلوب .  
سلام عليك من مؤمنٍ يعرف فضلك في إيقاظ الأرواح .  
ويا إخواني في القدس .  
لا تحسبوني نسيئُ العهد .
-

هنا القاهرة !

هنا القاهرة !

هنا القاهرة !

إلى ذراعى ، يا عروس الشرق .

إلى ذراعى ، يا جنية النيل ..

إلى ذراعى ، يا وطن لى المريضة فى الزمالك .

إلى ذراعى ، يا ملاذ كل خائف ، ومأمن كل ملهوف : فقد مرّت أجيال وأنت المأوى

الأمين لكل من تضيق عنه بلاده من أحرار العرب والمسلمين .

إلى ذراعى ، يا وطن الشاعر الذى قال وهو يخاطب قلبه المفطور فى باريس :

ستأسو عذارى النيل آصار ما جئت عليك عذارى السين حين تعود

\*\*\*

امتطيت القطار من حيفا إلى القنطرة ورأسى معمور بما كنت شاهدت فى فلسطين من معالم  
الوقائع الإسلامية فقد شهدت المكان الذى وقعت فيه واقعة حطين ، وقد أقمت لحظة لاهية  
على شاطئ بحيرة طبرية ، وبقي أن أمتع البصر بما سأراه من بساتين فلسطين وأنا ماضٍ إلى  
القنطرة . ونحقت القلب حين مررت على رفح ، فقد كنت موعودًا بزيارتها حين اعتقلنى  
الإنجليز أيام الثورة المصرية ، وهو اعتقال دام مدة أطول من المدة التى قضيتها فى سجن ليلى  
بالعراق !

وما كدت أصافح قناة السويس حتى دخلت مع المصريين فى قيل وقال حول فاجعة بغداد ،  
ودام ذلك الجدل ساعات إلى أن حان موعد قطار القاهرة ، فأسلمت نفسى إلى هدوء مزيج  
لأستعد للسمر مع أبنائى ليلة الوصول .

كدت أجن حين رأيت محطة باب الحديد ، المحطة التى يتخطى فوقها الظباء فى كل وقت ،  
والتي شهدت ألطف التحيات ، وأعذب القبلات ، المحطة التى كان مقصفا موعدا غرامى يوم  
كنت موصول القلب بأفنان الجمال .

لم يستقبلنى أحد على محطة باب الحديد لأنى وصلت على غير ميعد .

وأخذت سيارة إلى منزلى بمصر الجديدة فوجدت أطفالى :

يناجون في الأحلام أطيايف واليد لعهد بنينه والبنيات نساء  
وكانت دقة واحدة من الجرس كافية لأن يطرب جميع أهل البيت ،  
قالت زوجتي وهى تبكى من الفرح : ما كنت أحسب أنى سأعيش حتى أراك !  
فقلت : أنتم تفعلون نشاطى بهذا الحنان المزعج ، ألم تكف الرسائل التى أُرَقم بها جفونى في  
بغداد ؟

وفتح الحقائق فأخرجت التحف المهداة من البصرة والموصل .  
وكان في نيتى أن أقدم قلبى ، ولكنى خشيت أن تظن زوجتى إلى أن ليلى لم تترك منه غير  
أشلاء !

ثم سألت سليمان عن أحوال القاهرة فقال : كان مقالك في الأهرام عن فاجعة بغداد شغل  
الناس بالأمس .

وقدم لى جريدة الأهرام فرأيت مقال فى الصدر ، فقرأته بلهفة وشوق : لأنى أعتقد أنه  
أنفع مقال كتبه في حياتى .

ولكنى رأيت في العدد نفسه ما آذانى : رأيت كلمة للصديق أحمد الصاوى ، وهى نموذج  
من التحامل الفظيع على أهل العراق .

فكيف استباححت جريدة الأهرام أن تنشر تلك الكلمة في أعقاب فتنة نكراء ؟  
إن جريدة الأهرام أحسنت في الاحتفاء بمقالى ، لأنه مقال كتبه رجل شهد بعينه فاجعة  
بغداد ، ولكنها أساءت بنشر كلمة الصاوى ، الكلمة الجافية التى خلث من العقل ومن  
الدوق .

\*\*\*

أوى أطفالى إلى مضاجعهم بعد الأئس بأبيهم ، وبقى سهران أفكر في الرد على الصاوى ،  
وقد انتهيت بحمد الله من إنشاء كلمة تُفحمة وتردّه إلى الصواب .

\*\*\*

هذا مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران .  
فما الذى صنع ؟

قضيت اليوم في الاستخبار عن أحوال أهلى في سنتريس ، وتغديت مع أبنائى بعد طول  
الغياب . وبعد المغرب مضيت إلى جريدة الأهرام لأقدم إلى الأستاذ أنطون الجميل مقالى في الرد  
على الأستاذ الصاوى ، فنظر فيه مرة ومرتين ، ثم قال : الأفضل أن تغلق هذا الباب لأن  
الصاوى كتب مقالاً في الرد على مقالك الذى نشرناه منذ يومين ، والفتن تزداد ضرماً بكثرة  
التقليب .

وما الذى فى مقالى من الخطأ حتى يحتاج إلى رد ؟  
هذا والله أغرب ما رأأت العيون !

\* \* \*

وخرجتُ لأسلم على الأصدقاء الذين يَسْمُرُونَ فى بار اللواء فوجدت الصاوى هناك ،  
فاستقبلنى بشورة مجنونة دلتنى على أنه كان ينتظر جنازة يلطم فيها حتى يشبع ، وهل يجد فرصة  
أنسب من جنازة الدكتور سيف ؟

وما عسى أن أصنع فى تقويم هذا الصديق ؟  
لقد طاف بالخاطر أنى أعرف الصاوى منذ سنة ١٩٢١ يوم كان يدعونى لمعاونته على فهم  
ما يعجز عن فهمه من النصوص الفرنسية ، وكان يتسامى إلى ترجمة بعض روايات أناطول  
فرانس .

ثم وثب الخيال فتذكرت أيامنا فى باريس يوم كنا نتواعد على التلاقى فى المكتبات لنوفر  
تكاليف التلاقى فى الأندية والقهوات .

أينسى الصاوى اللثيم هذه الذكريات العذاب ليراجعنى بلا بينة فى بار اللواء ؟  
كنتُ أستطيع أن أناضله لو شئتُ ، ولكنى رأيت التلطف معه أفضل وأنفع ، لأخفف  
غَضَبُهُ على العراق . والتلطف مع الأصدقاء القدماء من أشرف ما يتحلى به كرام الرجال .  
وتذكرت أن الصاوى يؤدى مهنة صحفية ، والصحفيون يؤذيهم السلام ، لأنه يقلل عدد  
القراء ، فمن واجبه نحو مهنته أن يصرخ ويستغيث ليزيد عدد القراء ألفاً أو ألفين !  
ولكن التهويل فى فاجعة بغداد يباعد بين أمتين شقيقتين هما مصر والعراق .  
وما يجوز أن نفرح بالمغامم العاجلة حين تكون باباً إلى الخسران .

\* \* \*

وأخذت الصاوى من يده وانتحينا ناحية ثم قلتُ : اسمع ، يا صديقى ، إنه لا يجوز لك أن  
تكتب حرفاً واحداً عن العراق قبل أن تستشيرنى : لأنى قادمٌ من هناك ، وما راي كمن سمع .  
فاطمأن لكلامى وانصرفنا بسلام .

علمت أن جريدة المصرى كتبت كلمة قالت فيها إن أهل العراق كتبوا فى جرائدهم عبارات  
تشهد بأنهم يرون أن الشاب الذى اعتدى على محمود عزمى وحسن سيف « بطل » وقد تأذى  
الجمهور المصرى بذلك ، فأخذتُ أفهم كل من ألقبهم أن كلمة « بطل » صارت كلمة  
اصطلاحية يراد بها النص على الشخصية الأساسية فى الحوادث ، وهو اصطلاح نقلناه عن  
اللغات الأوربية .

وجريدة المصرى نفسها تكتب فى كل يوم عبارات من هذا النوع وهى تتحدث عن

للصوص وتجار المخدرات ، فما تعبّر به صحف مصر تعبّر به صحف العراق .

\*\*\*

تفضل الأستاذ أحمد أمين بزيارتي عصر اليوم فوجدته سمع كثيرًا من الأخبار المتصلة بفاجعة بغداد ، وقد عرفت من لحن القول أن بعض خصوم محمود عزمي انتهزوا الفرصة وطوّقوا اسمه بأغلال من الأراجيف ، وقد حدثت الأستاذ أحمد أمين بكل شيء ليطمئن ، وليعرف أن أسباب الحادثة أهون مما يشيع المرجفون .

\*\*\*

قابلني اليوم سعادة الدكتور عبد الرحمن بك عمر فقال : أرجو أن لا تكون لفاجعة بغداد أسبابٌ أعمق مما نشرت الجرائد .  
فعجبتُ من هذا الطبيب ، لأنني لم أر شواهد هذا العقل الحصيف منذ أيام . وقد أقنعتني بأن الحادثة فردية ، وهي بالتأكيد جنائية من جنائيات القبط في بغداد .

\*\*\*

زرت سعادة العشماوي بك في مكتبه بوزارة المعارف فقال : أمن أجل هذه التصرفات السيئة أرسلناكم إلى العراق .

فأجبتُ : حاسب الأقدار إذا كنت تملك !

ثم استطرد فقال : يعزُّ عليّ أن تسوء سمعة العراق في هذه البلاد بعد الذي شهدته بعيني من لطف أهل العراق .

ثم زرت معالي الدكتور هيكل باشا فسألني عن أسباب الفاجعة فقلت إنها ترجع إلى تصرفات لم يصحبها التوفيق ، ولم أشأ أن أطيل ، فقد كان في مكتبه ناس ، وخشيت أن يُنقل ما بيننا من أحاديث .

\*\*\*

أرسلتُ اليوم خطابًا إلى سعادة الدكتور الجمال أعذر فيه عن فراق بغداد قبل أن أراه ، وقد أكدت له أني آسف على أن لم أستطع إجابته إلى دعوتي لمواجهته قبل الرحيل .

\*\*\*

أشارت الجرائد إلى عودتي من العراق إشارة خفيفة وتفردت جريدة المصري بنشر كلمة لطيفة تشهد بأن كاتبها صديق نبيل . وسأزور جريدة المصري زيارة تحية ، ثم أرجو أصدقائي هناك أن يراعوا المودة في كل ما يكتبون عن العراق .

## ٤٠

هنا القاهرة ا  
هنا القاهرة بلد العقل .  
هنا القاهرة بلد الجنون .

\*\*\*

أصبحت همومى لا تطاق .  
كنت نذرت وأنا فى بغداد أن لا أترك فى القاهرة مكاناً بلا نحية يوم أعود .  
وكنت أتوهم أن القاهرة ستمد ذراعها لعناقى يوم أرجع .  
ثم أخلفت الأيام ظنونى كل الإخلاف .  
أمسيت أنقر من القاهرة لأنى لا ألقى إنساناً إلا وقفْتُ أمامه موقف المسئول عن تعليل فاجعة  
بغداد .

وقد عرفت من تجارب هذه الأيام القليلة أنى لا أريح أهل مصر من همومهم إلا فى أحد  
أمرين :

الأول : أن أصرح بأن محمود عزمى وحسن سيف كانا يعيشان فى بغداد عيش السفهاء ،  
والثانى أن أعترف بأن أهل بغداد وحوش ، ثم أضمت صوتى إلى أصوات من يهجمون على  
العراق .

وهما أمران أحلاهما مرّ فأنا لا أعرف أن محمود عزمى وحسن سيف وقعا فى أغلاط غير التى  
دونتها من قبل فى هذه المذكرات ، وهى أغلاط لا تستوجب القتل .

وأنا لا أقول بأن أهل العراق وحوش ، ولو كانوا كذلك لما أمكن أن يعيش فى بلادهم مئات  
من أهل مصر وسورية وفلسطين ولبنان .

ولكن هذا العقل الذى اعتصمت به لا ينفع فى أوقات الفتن ، ولا يطمئن إليه إلا من صيغت  
أعصابهم من حديد .

ولتكيف هذه المعضلة أسوق الحادثة الآتية :

نشرت جريدة الدستور مقالاً فظيحاً جدّاً حول فاجعة بغداد بقلم الأستاذ محمد لطفى  
جمعة . وقد فكرت فى الرد على ذلك المقال ، ثم خشيت أن يكون فى الرد ما يغرى الكاتب  
بانشاء مقال جديد فيفتح الباب للجدل واللجاج ، وصحّ عندى أن الرأى الأصوب هو مقابلة



الأستاذ محمد خالد صاحب جريدة الدستور وهو صديق قديم فيه مخايل كثيرة من النجابة والعقل ، وبعد أن قضيت لحظات في مراجعة الأستاذ محمد خالد تبسم وقال :  
أترى أن يُطلق الرصاص في بغداد على أستاذين مصريين ، ثم يكون من واجبتنا أن نعتذر عن أهل العراق ؟

وفي هذه الكلمة الخلدونية جميع المعاني :  
فالمصريون يمثلون بفطرتهم أن فاجعة بغداد تقبض صدر الحليم ، وتقهر أعقل الناس على اصطناع الجنون ، وهل من الكثير أن يسمع من أطلقوا الرصاص كلمة أو كلمتين من مَوجع التأنيب ؟  
هذا حق .

ولكن لا بد من إفهام أهل مصر أن أهل العراق لم يُفْتَهُمْ أن يُسَمِّعُوا أنفسهم تلك الكلمات اللواذع ، ولم يُفْتْ جرائدهم أن تكتب بالخط العريض أن تلك الفاجعة أساءت إلى سمعة العراق وعرضته لأن يتهم بالوحشية .  
وأنا رأيت بعيني كيف توجّع العراقيون لمصير المرحوم حسن سيف .  
فكيف أسكت عن تحامل الجرائد المصرية على أهل العراق ؟  
كيف أسكت وأنا أعرف أن الحادثة فردية ولا ينبغي أن تُفسد العلاقات بين أمتين شقيقتين ؟

كيف أسكت وقد رأيت بعيني دموعاً تسيل في بغداد جزعاً على صديقي سيف ؟

\*\*\*

ولكن كيف عرّضت سمعتي للأراجيف وأنا أدافع عن أهل العراق ؟  
لذلك أسباب يجب تدوينها في هذه المذكرات :  
رأيت كثيراً من الذين عاشوا في العراق يطربون لما أكتب في الدفاع عن العراق ، فسألتهم :  
ولماذا لا تتقدمون لمعاونتي ؟ فقالوا : نحن معك بقلوبنا !  
فقلت : وذلك أضعف الإيمان !

وحدثني قلبي بأن الشرق لم ينحط من قلة القلوب ، وإنما انحط من قلة العزائم ، وتذكرت أن الأمم العظيمة هي التي يوجد فيها رجال شجعان يقولون كلمة الحق حين نخرس ألسنة الجبناء .

وما الذي يمنع من أن أزكى عن شجاعتى بمقاومة من تحدّثهم أنفسهم بمحاربة العراق ؟  
ما الذي يمنع من أن أكتب صفحة جديدة في لوح المجد المصري بإعلان كلمة الحق ؟  
ما الذي يمنع ؟

آه ، ثم آه !!

يمنع من ذلك أن ناسًا حيث أعراضهم بقلمي ولساني يقدمون الشواهد الكواذب لتغذية الأقلام التي تنقض ما أكتب في الدفاع عن العراق .

ومن هم أولئك الناس ؟

هم أصغر وأحق من أن أشير إلى أسمائهم في هذه المذكرات .

وستجلى العمة بإذن الله ويسود الصفاء بين مصر والعراق ، ثم لا يبقى لأولئك الناس غير

الخرى والهوان !

أهؤلاء مصريون ؟

لو كانوا مصريين لتذكروا أن لهم إخوانًا في العراق يؤذيهم أن تسوء الصلات بين مصر والعراق .

لو كانوا مصريين لتذكروا أن في العراق عشرات من المهندسين والأطباء والمدرسين يؤذيهم أن تنقطع العلاقات بين مصر والعراق .

ولكن أين المصري الذي يسند أخاه ؟

نحن نعيش في عصرٍ غادٍ لا يعرف الوفاء .

\*\*\*

لقيني اليوم جماعة من الأصدقاء وهم يصرخون : كيف تقول إن حادثة بغداد فردية وقد شاع أن الشاب الذي أطلق الرصاص كان له أعوان ؟

فقلت : والحادثة مع ذلك فردية .

فقالوا : كيف تكون فردية وقد اشترك فيها جماعة ؟

فقلت : الحادثة فردية لأنها موجهة إلى فرد .

فقالوا : ما معنى ذلك ؟

فقلت : معناه أنها موجهة إلى رجل مصري ، ولم توجه إلى الأمة المصرية .

فقالوا : كل فرد يمثل أمته .

فقلت : لا يمثل الفرد أمته حين يخطئ ، وإنما يمثلها حين يصيب .

فقالوا : وهل أخطأ محمود عزمي ؟

فقلت : إنه إنسان يخطئ ويصيب !

\*\*\*

تلقيت خطابًا بإمضاء مجهول يتهمني كاتبه بأخذ رشوة من حكومة العراق لتهوين فاجعة

بغداد ، فعرفت أن هناك مؤامرة سرية يراد بها إفساد ما بين مصر والعراق .

— ٣٣٣ —

ولكن من الذى كتب ذلك الخطاب ؟  
لست من الغفلة بحيث أجهل أسرار تلك الألاعيب .  
وهل يمكن أن يكتب هذا الإنذار السخيف غير مخلوق وسوس إليه شخص حَرَمه الله نعمة  
الصدق ؟

وهل يضرني أن أتهم بالرشوة ؟  
إن التهم لا تفل من عزيمة الرجل إلا حين تكون صحيحة ، وقد عشتُ دهري رجلاً شريفاً  
لا آكل لُقمة بغير عَرَق الجبين .  
فلأَمْضِ في طريقي غير هَيَّاب ، وللسفهاء أن يقتلوا أنفسهم من الغيظ .  
وستنجلي الغمة بإذن الله ويوعون بالخسران .  
أمثلي يُتَّهم بالرشوة ؟  
غضبة الله على الدساسين المناكيد !

\* \* \*

لقد حمى وطيس المعركة بينى وبين خصوم العراق .  
ولا بدّ مما ليس منه بدّ .  
لا بدّ من سدّ جميع الطرق في وجوه الآئمين .  
وتلك الطرق هي الجرائد .  
أما جريدة الأهرام فقد أغلقت الباب بعد المحادثة التي كانت بينى وبين الأستاذ الجُمَيْل .  
وأما جريدة المقطم فقد ضمنتُ سكوتها عن الحادثة بعد أن قابلت الرجل الحصيف خليل  
ثابت .  
وأما جريدة الدستور فهي جريدة صديقي محمد خالد ومن حقى أن أقترح عليها ما أشاء .  
وأما جريدة البلاغ فقد وعد صاحبها الأستاذ عبد القادر حمزة أن لا تتعرض لتلك الفاجعة  
بغير ما يهون أثرها في القلوب ، وكان ذلك بمحضر زميلين من أصدقاء العراق هما المازني  
والعقاد .  
وأما السياسة الأسبوعية فزامها اليوم بيد صديق أريب هو الأستاذ حافظ محمود ، وقد  
وعد بأن يكتب ما يرضيني ويرضى الحق .  
وأما جريدة المصرى فلي فيها صديقان عزيزان هما محمد على رفاعي ومحمد شافعي البنا ، ولي  
أن أردهما إلى جادة الحق حين أجد ما يوجب ذلك .  
ومجلة الاثنين لى فيها صديق هو الأستاذ حسين شفيق المصرى ، وهو رجل لا يهمه شيء ،  
ولكننى استطعت أن أقنعه بأن التحامل على العراق لا يليق .

ومجلة الدنيا لي فيها أخ هو الأستاذ طاهر الطناحي وهو أعقل من أن يحتاج إلى إرشاد .  
ومجلة المصور فيها الأستاذ فكرى أباطة ومركزه الأدبي والسياسي يصده عن البغى  
والعدوان .

ومجلة الصباح هي مجلتي ، ولي الحق المطلق في تصحيح ما يقع فيها من أغلاط .  
فما الذي بقي من الأقلام المصرية ؟  
لقد تلقيت اليوم خطاباً من السيد حقي سليمان الخالدي يخبرني فيه بأن الحكومة العراقية  
صادرت مجلة اللطائف لأنها نشرت كلمة غير لائقة عن حادثة بغداد .  
وقد سألت عن كاتب تلك الكلمة فعرفت أن كاتبها هو الأستاذ حسن مظهر ، وهو أديب  
لم أعرفه من قبل ، ولكن يظهر مما قرأت من آثاره الأدبية أنه شاب على جانب من الأدب  
والذوق ، وسأصل به ، ولو تليفونيا ، بعد يوم أو يومين .

\* \* \*

ومجلة آخر ساعة ...  
وما الذي أخافه من مجلة آخر ساعة وصاحبها هو صديقي محمد التابعي ، ومحررها هو  
تلميذي الوفي الأمين مصطفى أمين ؟  
اليوم عرفت أن المرء قد يخاف من حيث يأمن .  
ولذلك تفصيل مزعج :

عرف الأستاذ أحمد الصاوي أني أغلقت في وجهه جريدة الأهرام فمضى يناوشني ويناوش  
العراق في مجلة آخر ساعة ، وساعده صديق عزيز هو الدكتور سعيد عبده .  
فماذا أصنع ؟

لا يزال الصاوي هو الصديق القديم الذي عرفته في القاهرة وباريس .  
لا يزال الصاوي هو الأخ المخلص الذي تعز علي إهانته ، وإن ظلم وخان .

\* \* \*

وأما الدكتور سعيد عبده فهو صديق حميم لم تغير ودّه الأيام الطوال ، فكيف أستبيحُ  
المجوم عليه ؟  
كيف أستجيز العدوان على هذين الصديقين والدنيا أحقر من أن يعتدي فيها صديق على  
صديق ؟

وما الذي أستفيد أو يستفيد العراق من العدوان على هذين الصديقين ؟  
لم يبق إلا باب واحد هو إفحامهما بترفق في مجلة آخر ساعة .

وكذلك مضيئاً فأقصيتهما عن الميدان إلى غير مرجع بمقالين نفيسين يرقّ لهما أقسى القلوب .  
وكفى الله المؤمنين القتال .

\*\*\*

وأعود إلى تصفية الحساب فأقول :  
أراد الأستاذ الصاوي أن يثبت أن المصريين لم يلقوا في العراق غير الضيم والهوان .  
وأضاف إلى ذلك أني لم أكن سعيداً في بغداد ، وهو يعرف أني لم أسعد في حياتي كما سعدت في بغداد . وهو كذلك يعرف أن شعراء العراق خلدوا اسمي في كثير من القصائد الجياد<sup>(١)</sup> .  
وأراد الدكتور سعيد عبده أن يفهم المصريين أنني أدافع عن العراق لأحفظ مكاني بدار المعلمين العالية في بغداد .

فهل يعرف هذا الصديق أنني اعتذرت اعتذاراً قاطعاً عن الرجوع إلى بغداد ؟  
هل يعرف هذا الصديق أن الدكتور زكي مبارك يستطيع أن يشوى لحم الأسود إن قضت عليه المقادير أن يجوع ؟

وما الذي يُخوِّجني إلى مصانعة أهل العراق لأرجع إلى عملي في بغداد ؟  
أنا بفضل الله من الأغنياء ومن كبار الملاك في بلدي ، فما الذي يوجب أن أتزلف لأهل العراق لأحفظ مكاني في بغداد ؟

ما الذي يعوزني لأعيش ولي داراً في مصر الجديدة وداران في سنتريس ؟  
ما الذي يعوزني لأعيش ولو فرغت لتدبير أملاكي لعشت في ظلها عيش السعداء ؟  
وكيف أخاف العيش وأنا أعرف أني سأموت قبل الأوان بسبب الإسراف في الطعام والشراب ؟

من العيب على الدكتور سعيد عبده أن يتهمني بالمصانعة من أجل الرزق ، وهو يعرف أني أبذل من الصدقات ما لا يبذل كبار الأغنياء .  
ومن العيب على الأستاذ الصاوي أن يسمع في أقوال السفهاء وهو يعرف أني أفضل صديق صافحته يمناه .

وسيثبت بإذن الله أن الدكتور زكي مبارك أشرف رجل أنجبه وادي النيل .  
فانتظروا قليلاً حتى تسمعوا صوت التاريخ .

\*\*\*

---

(١) سأنشر بعض تلك القصائد في ختام هذه المذكرات ، إن شاء الله .

كنت أظن أن قومي سيدكرون أنى رفعت صوت مصر في العراق .  
 كنت أظن أن قومي سيدكرون أنى قضيت العام كله في بغداد وأنا أصحح أغلاط الكتاب  
 المصريين الذين يجهلون قواعد الذوق وهم يتحدثون عن علاقة مصر بالأمم العربية .  
 كنت أظن أن مكائتي ستحفظ في مصر وقد غنمت لها قلوباً عزيزة في الشرق .  
 كنت وكنت ، فمن أنا في وطني وفي دنياي ؟  
 أكل ما يرجو فلان وفلان أن لا أحفظ مكائي في بغداد ؟  
 وهو كذلك .

فلأعلن في مجلة آخر ساعة وفي سائر الجرائد والمجلات وفي جميع الأندية أنني اعتذرت  
 اعتذاراً قاطعاً عن الرجوع إلى العراق لأقيم الدليل على أن المصري قادرٌ على أن يكون من أهل  
 المعاني حين يشاء .

أهذا كل ما يرضيكم ، أيها الإخوان الأعزاء ؟  
 لن أراجع إلى بغداد في العام المقبل ، وإن كان في هذا التمتع خروجٌ على رغبة الأستاذ الجليل  
 مدير التربية والتدريس بوزارة المعارف العراقية ، فقد كتب إلي يقول :  
 ( وزارة المعارف ) بغداد ١٢ / ٧ / ٣٨ .

الأخ العزيز الدكتور زكي مبارك ، أيده الله .  
 تحيات عاطرة ، وأشواق أخوية « وبعد » تناولت رسالتك المختصرة التي تحمل على  
 اختصارها سعة نفسك وسمو عواطفك .

أجل ، قد أكدت على الدكتور عقراوى أن يجمعني والأخ الدكتور زكي مبارك قبل  
 سفره ، ولكن شاءت الأقدار أن تنتهى سنة مملوءة بالصفو والسمر بحادث ترك كل حزن  
 وكدر .

أما الداعي الأصلي لرغبتى في الاجتماع ، فهو أن أستطلع رأى الأخ الدكتور زكي في العودة  
 إلى العراق في السنة القادمة . إن الكتاب الموجه إلى الدكتور عقراوى والذي تعتذر فيه عن  
 العودة في السنة القادمة لا يحوى أسباباً كافية تدعو لعدم العودة . أما نحن من جهتنا فقد بدأنا  
 نتذوق حلاوة الأخ وأدبه ، وليس من الإنصاف تركنا بهذا الشكل ، ولذلك فأرجو رجاء  
 أخوياً أن تنظر في الأمر نظرة جدية ثانية وتجربني إن كان في إمكانك العودة في السنة القادمة ،  
 وأرجو أن يكون ذلك ممكناً . وأرجو أن تعلم أن معالي وزير المعارف يشاركني في الترحيب  
 بك إن قررت العودة في السنة القادمة . في انتظار قرارك الأخير الإخوان جميعاً يلهمجون  
 بذكرك . تحيات عائلتي وأطفالي لكم وللعائلة والأطفال . أهدي التحيات للدكتور منصور  
 فهمي وللاستاذ العشماوى ( وإن لم أحظ بشرف التعرف عليه بعد ) ولكل من يذكرني من

ولك من أخيك المخلص أسمى بالتحيات وأطيب الشوق محمد فاضل الجمالى

( ليلي المريضة في العراق )

ما كنت أحب أن لا تتحقق رغبة الأستاذ مدير التربية والتدريس الذي نصّ في خطابه الكريم على أن معالي وزير المعارف العراقية يشاركه في الترحيب بي ، إن قررت العودة في السنة المقبلة ، والذي رجائي رجاءً أخوياً أن أنظر في الأمر نظرةً جديّةً ثانية ، والذي شرفني كل التشريف حين قال : « لقد بدأنا نذوق حلاوة الأخ وأدبه وليس من الإنصاف تركنا بهذا الشكل »

أنا بين نارين : نار التخوف من أراجيف من يشيعون أني لم أتحمس في الدفاع عن العراق إلا لأحفظ مكاني بدار المعلمين العالمية في بغداد .

ونار الخوف على مصير كتاب التصوف الإسلامي الذي يتوقف على طبعه تسوية حالتي بوزارة المعارف المصرية .

وهل يصدّق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطيني غير مرتبٍ مؤقتٍ إلى أن يُطبع ذلك الكتاب ؟

هل يصدق أحد أني لا أستطيع النص على قيمة ذلك المرتب المؤقت لثلاثي عشر عاماً ، ولثلاثي عشر ناساً أن رجال الأدب في مصر قد يعيشون عيش الفاقة والإملاق ؟ .

لمصر أن تدعى الزعامة الأدبية كيف تشاء ، ما دامت « حرفة الأدب » تلازم في ظلها أحرار الأدباء !!

\*\*\*

الخير كل الخير في أن أحرم نفسي من رؤية العراق في العام المقبل .  
الخير كل الخير في أن أسارع إلى طبع كتاب التصوف الإسلامي لأسوي حالتي بوزارة المعارف المصرية .

ولكن كيف أطبع ذلك الكتاب ؟  
وأين ؟

\_\_\_\_\_



قضيت بقية حُزيران ، ثم أتبعته بشهر تموز ، في دفع الأذى عن العراق ، وسرّني أن أفلح في تهدئة النفوس التي امتعضت من فاجعة بغداد ، وقد أصبح مفهوماً عند أكثر المصريين أن الحادثة فردية وأنه لا يجوز أن تُفسد ما بين مصر والعراق من صلات . ولكن هذا لا يكفي .

لا يكفي أن يقع الصلح بيني وبين من خاصمته في سبيل العراق ، وهو صلح قد تذكره الأهواء بعد حين .

لا يكفي أن تصفح مصر عن حادثة وقعت لأحد أبنائها في العراق . بل يجب أن نحاول رياضة أهل مصر على حب أهل العراق . وهذا الحب المنشود ستكون له ثمرات : لأن العراق هو أعظم شعب عربى بعد مصر ، فإذا تحابّ هذان الشعبان القويان كان ذلك نواةً صالحة لشجرة الوحدة العربية . وفاجعة بغداد أطلعتنى على حقائق لم أتنبه إليها من قبل : فقد رأيت العراقيين والمصريين يتشابهون في أشياء كثيرة منها الأنفة وسرعة الانفعال .

فماذا أصنع لأروض أهل مصر على حب أهل العراق ؟ مضيت فاقترحت على الأستاذ محمد سعيد لطفي أن يمهّد السبيل لسلسلة محاضرات ألقيا في الإذاعة اللاسلكية عن العراق ، وقلت له بعبارة صريحة إننى أريد أن أحدث أهل مصر عن محامد العراق ، لأن من الظلم أن يشيع بالحق أو بالباطل أن أهل العراق متوحشون ، وهم قوم كرام وثقوا بمصر واثمنوها على توجيه الحركة العلمية في معاهدهم العالية . وقد شرعت في إلقاء تلك المحاضرات وسيكون لها بإذن الله قبول حسن عند الجمهور ، وستصل إلى ناس لم يقرأوا ما نشرت عن العراق في الجرائد والمجلات .

ورأيت أن أخطو خطوة جديدة فقررت أن أطبع كتاب « وحي بغداد » وهو كتاب يؤدّى مهمتين عظيمتين في وقت واحد : فهو يقدم إلى أهل العراق صوراً شائقة عن مصر ، ويقدم إلى أهل مصر صوراً شائقة عن العراق . والتعارف أساس الحب . وكذلك أصبح في ليلى وفي نهارى مشغولاً بشواغل نبيلة ترفع نفسى درجات عاليات .

\*\*\*

لم أجد صعوبة في طبع كتاب « وحي بغداد » فقد اشتركت فيه المكتبة التجارية بالقاهرة

والمكتبة العصرية في بغداد .

ولكن الصعوبة في طبع كتاب التصوف الإسلامى لأن حجمه مزعجٌ مخيف .  
ومن الذى يصدّق أنى لم أجد ناشراً لكتاب التصوف الإسلامى بين أهل القاهرة مع أنى وجدت ناشراً لكتاب النثر الفنى بين أهل باريس ؟  
ولكن لا بدّ من طبع كتاب التصوف الإسلامى لأسوى حالتى بوزارة المعارف ، وهولن يطبع إلا إذا خاطرتُ في سبيله بأتمن ما ادخرتُ من الأموال .  
وأين أطبع ذلك الكتاب العظيم الذى تؤج هامتى بتاج المجد ؟  
أطبعه في مطبعة دار الكتب المصرية التى طبعت فيها كتاب النثر الفنى

\* \* \*

قدمتُ كتاب التصوف إلى مطبعة دار الكتب وأنا أتوهم أنى سأُنجز طبعه في شهرين ،  
ولكن مدير دار الكتب وهو سعادة الدكتور منصور فهمى أعلمنى أن الإذن بطبعه قد يحتاج إلى أسابيع طوال ، لأن اللجنة المختصة بمراجعة الكتب لا تجتمع إلا في أحيان قليلة بسبب عطلة الصيف .

فقلت : هذا كتابٌ أقرّته الجامعة المصرية ، وكنتُ أنت من أعضاء لجنة الامتحان ، فكيف يحتاج إلى من ينظر فيه من جديد ؟  
فقال : لا بدّ من مراعاة الشكليات .  
وقد خرجت من مكتبه محزوّناً ، لأنى اطلعتُ على مرضٍ جديد من أمراض الشرق : هو مراعاة الشكليات .

وحياقٍ مُلِفتٌ بالأكدار : لأنى لم أكن أراعى الشكليات في بلاد الشكليات !!

\* \* \*

ثم نظرتُ فرأيتنى أعيش عيش العزلة والانفراد ، وتذكرتُ ما عانيتُ في الأسابيع الماضية من الشقاء في الوصل بين مصر والعراق ، وهو جهادٌ لم يجد من يسيغه من أهل هذه البلاد ، ولم أُجَزْ عليه خير الجزاء ، مع أنى كنت في ذلك الجهاد أصدق الرجال .  
نظرتُ فرأيتنى محروماً من النعيم بأندية القاهرة ، ورأيت أكثر أصدقائى صدفوا عنى ، فقررت الاعتكاف في بيتى ، ونشرت الكلمة الآتية في مجلة الرسالة الغراء :

## هذه دارى وهذا وطنى

### ولكن أين أحبابى ؟

هذه دارى ، الدار التى أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لأفتح أمام قلبى آفاق المجهول من عوالم المعانى .  
وهذا وطنى ، الوطن الذى عانيتُ من أجله ما عانيتُ ، ولم أُخنهُ فى سرٍّ ولا جهر ، ولم يرَ منى غير الصديق والوفاء .

هذه دارى وهذا وطنى ، ولكن أين أحبابى ؟  
من كان يظن أنى أقضى الأيام والأسابيع فلا أجد من يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال ؟ من كان يظن أنى لا أجد أنيساً غير بريد بغداد على بُعد ما بينى وبين بغداد ؟  
من كان يظن أنى أحبس نفسى فى دارى ليالى وأياماً فلا يُسهد لعزلتى جفن ، ولا يحزن قلب ، ولا يرتاع وجدان ؟  
من كان يظن أنى لم أتلق من الإسكندرية غير خطاب واحد ، ولم أتلق من دمياط غير خطاب واحد ، ولم أتلق من سنتريس غير خطابين اثنين ، وسكت من أهواهم فى المنصورة وأسيوط ؟

من كان يظن أنى لم أعبرُ شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد ؟  
وما فائدتى من عبور ذلك الشارع المتموج ؟  
كان لى فى القاهرة هوئى معبود فتبدد وضاع ، كانت ليلاى فى الزمالك ، فأين ليلاى وأين الزمالك ؟

أنا أطفئ المصباح بعد نصف الليل وأفتح النوافذ لأرى كيف يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء ، فماذا تصنع ليلاى بالزمالك أو ليلاى بالعراق ؟  
آه ثم آه من حيرة القلب فى غفوات الليل !

\* \* \*

أيتها الصحراء .  
إن حالك مثل حالى مَوَاتٍ فى مَوَات .  
وقد تمرح فوق ثراك الميت هوامٌ وحشرات .

— ٣٤٢ —

وفوق ثرى قلبى الميت تمرح هوامّ وحشرات هى السخرية من الناس ، واليأس من صلاح .  
القلوب ، وجمال الوجود .

وقد ترقّ حواشيك بالندى أو الغيث فتبت فوق ثراك الأعشاب !  
أما قلبى فقد أحمل إلى الأبد ولن ينبت فيه شئ .  
وأشقى الناس من يعيش بقلب أجذب من الصحراء .

\* \* \*

أيها الليل !  
هل رأيت فى دنياك من ينافسك فى ظلامك غير قلبى ؟  
هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاءً مثل شقائى ؟

\* \* \*

أيها الليل !  
خذ السواد من قلبى ، إن أعوزك السواد .  
خذ الظلام من حظى ، إن أعوزك الظلام .  
خذ من قلبى ومن حظى ذخيرتك للأحقاب المقبلات .  
خذ منى ما تشاء ، أيها الليل ، فلن تجد مشتهاك عند إنسانٍ سوى .  
خذ منى ما تشاء بلا من عليك : فما أخذتُ السواد إلا منك ، ولا ورثتُ الظلام إلا  
عنك .

ومثلى يحفظ الجميل .

\* \* \*

أيها الليل !  
لا تجزّع من العزلة ، فأنا هنالك أسامرك وأناجيك .  
لا تفزع من الوحدة ففى قلبى ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات .  
عندى الآمى ، وعندك آلامك . والجريح يأنس بالجريح ، يا ليل !  
أنا أعرف من أنا فى دنيائى ، فمن أنت فى دنياك ، يا ليل ؟  
أنت جزء من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه .  
وأنا جزء من الوجود هجرته الشمس فأظلمت دنياه .  
إن شمسى تغرب فى الزمالك أو فى بغداد ، فأين تغرب شمسك ؟  
إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع إليك .  
وشمسى تغرب فلا ترجع .

— ٣٤٣ —

فليت حظى كان مثل حظك ، يا ليل !  
 والمقادير تترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك .  
 وأنا أعانى الظلام المطلق حين تغيب الشمس التى تعرف .  
 فليت حظى كان مثل حظك ، يا ليل !  
 وأنت باقى على الزمان ، وأنا صائرٌ إلى الفناء .  
 فليت حظى كان مثل حظك ، يا ليل !  
 والناس يخافون بأسك فيتقربون إليك بالقناديل والمصابيح .  
 وأنا مأمون الجانب فلا يتقرب أحدٌ إلّى بشىء .  
 فليت حظى كان مثل حظك ، يا ليل !  
 من اسمك يا ليل جاء اسم ليل ، ففيها طغيانك ، وفيها ظلامك ، فلا عفا الحب عنها ولا عفا  
 الله عنك !

\*\*\*

هذه دارى ، وهذا وطنى ، ولكن أين أحبابى ؟  
 إن قلبى يستحق التأديب ، فليتلق من الضيم ما هو له أهل :  
 ألم يتلق رسائل الشوق من بغداد فسكت عنها سكوت الغادرين ؟  
 ألم يتلق رسائل الشوق من باريس فسكت عنها سكوت الجاحدين .  
 ألم تنتقل إليه الغادة النورمندية فاستعفى من صحبتها بالقاهرة محافظة على سمعته بين الناس ؟  
 إن قلبى يستحق التأديب ، فليتلق من الضيم ما هو له أهل .  
 أيها الليل !  
 قد اقترب صباحك ، فمتى يقترب صباحى ؟  
 لك خلاص من ظلماتك ، فأين الخلاص من ظلماتى ؟  
 ستمضى لشأنك وتركنى ، يا ليل !  
 إن الظلمات تقتل شبابى ، وتحبى شبابك .  
 إن الظلمات تصيرك أقوى وأعنف ، وتصيرنى أرق وألطف . والرقه واللفظ من بواكير  
 الفناء .

أيها الليل !  
 لقد عرفتُ قسوتك فى بلاد كثيرة من الشرق والغرب ، وما كنت أعرف أنك أقسى ما  
 تكون فى دارى وفى وطنى .  
 أما بعد فأنا أعترف بأن قلبى يستحق التأديب .

— ٣٤٤ —

كنت أصمُّ أذني عمن يسألون عني في باريس وفي بغداد : لا فرغ لما سموه الواجب ، فليتني  
أجبت الدعوة في باريس وفي بغداد لأخذ ذخيرتي من الحب والعطف !  
ليتني صنعت وصنعت ، ولكن هيهات ، فقد فات ما فات !  
أيها الليل في مصر الجديدة !  
أنا على كل حال رفيقك وأخوك .  
وستمضي الأعوام والدهور ، ولا تعرف أصدق مني .

\* \* \*

سيدكرني الناسون يوم تشوكتهم	شمائل من بعض الخلائق سود
سيدكرني الناسون حين تروغهم	صنائع من ذكرى هواي شهود
فوالله ما أسلمت عهدى لغدره	ولا شاب نفسي في الغرام جحود
ولا شهد الناسون مني جناية	على الحب إلا أن يقال شهيد

—————

## ٤٢

تداوَيْتُ من ليلي بليلى من الهوى كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمر  
وكذلك أدأوى حبًّا بحب ، وغرامًا بغرام : كما كان يصنع زميلي قيس في الأيام الخوالي .  
إن ليلاى بالعراق مغفورة الذنوب : لأنها أوحث إلى قلمي فنوَّنا من الغرائب ، وقد رقت  
اسمى بأحرف من نور فوق جبين الزمان .

فما حجة ليلاى بالزمالك في تجنيها الأثيم ؟  
ما حجة هذه اللثيمة في سفك دمي ، وقد أذعت محاسنها عند صبايا دجلة والفُرات ؟  
كنت أتشهى أن أرى النور المتوهج في جبينها المشرق .  
كنت أتشهى أن ألهو بها في ليلة قمراء بطريق السويس .  
كنت أتشهى أن أقضى معها سهرة في زورق يترئج فوق أمواج النيل .  
كنت أتشهى أن أخاصرها في بساتين الجيزة الفيحاء .  
كنت أتشهى أن نهيم على وجوهنا في حيّ القصر العالى الذى يسميه الجهلاء ( جازين  
سيتى ) .

كنت أتشهى أن أرى معها البيت الذى كنا اصطلفيناه بمحاذيق القبة .  
كنت أتشهى أن أهصير قودها بحى الزيتون .  
كنت أتشهى أن نغرق معًا في النيل عند القناطر الخيرية .  
كنت أتشهى أن أرى وجه الله في وجهها الجميل .  
ولكن من الذى يدرك كل ما يتمناه ؟  
أنا أعيش بروح سماوية وهى تعيش بروح أرضية ، مع أنها والله حُوريَّة نزلت إلينا من  
الفردوس .

إن ليلاى بالزمالك لا تعقل ، لأنها حسناء ، والحسنُ يغرى بالجنون .  
سأحاربها بقلمى ، كما حاربت انجلترا بقلمى .  
وأنا رجل يحارب الظلم في جميع الأشكال .  
وكذلك أنشر الرسائل لأفضح ليلي المريضة بالزمالك ولأجعلها عبرة لغادات المعادى  
وحلوان .

« وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلبٍ ينقلبون » .

## الرسالة الأولى

سيدتي .

أشكر لك الخطاب الرقيق الذي نشرته في مجلة الصباح ، وأتمنى أن أقرأ لك متلة من حين إلى حين ، فأمثال هذه الرسائل هي آخر ما أظفر به من نعيم الحب في الزمالك . وما كنت أظن أن الدنيا ستصل إلى هذا الحد من الإفكار والإيحاش ، ما كنت أظن أن تفسد الدنيا حتى أحبس نفسي عن رؤية الزمالك أربعة أسابيع بعد أن طال اغترابي في العراق ، واشتقت إليك وإلى الزمالك أشد اشتياق .

كان الوهم يحدّثني أن الأرض سترقص تحت قدميك حين تسمعين بقدمي ، كنت أتوهم أني سأموت مقتولاً بأريج الأزهار في قصرك المنيف ، كنت أحسب أن حساني سيطول على ما قدّمت وما أخرت ، وأن العتاب سيقتل الليالي المطلولة حين نلتقي .. فما الذي وقع من كل ما توهمت وحسبت وظننت ؟

لم يقع شيء ، ولم تطأ قدماي أرض الزمالك ، لأنني عرفت بوحى القلب أنك انتقلت من رياض الملائكة إلى حظائر الشياطين . وأنا الجاني على نفسي حين تركت الثمرة الشهية لتتوشها اليوم والغربان !

ليتك تعرفين يا سيدتي ما صنع الدهر بقلبي !

ليتك تعرفين أني لم أعذ ضاحكاً بساماً على نحو ما كنت في الليالي الخوالي !

كان هوائي يا غادرة يُبهر الدنيا أمام روجي ، وكنت كلما تشكّيت بلالي المريضة في العراق منيت النفس بالعيش السعيد حين ألقى ليلى المريضة في الزمالك . ولكنني عرفت فيما قرأت في بعض المجلات أن قصركِ فُتحت أبوابه فدخلته وجوة مشثومة لا تصلح لمجد ولا حب ، وعرفت أن الأكواب في قصركِ العالي لمستها أفواه كان يكثر عليها أن تظفر بالماء القراح !

أترين الدنيا تصلح مرة ثانية فأرى أني حين اهتمتك كنت من الظالمين ؟

أيحيى يوم أرى فيه أنك لا تزالين نقية القلب طاهرة الوجدان ؟

أكتب هذا وأمام قلبي خيال اليوم الذي دفعنا فيه مرة حساب النور لقصركِ العالي ، فقد عجبنا حين رأينا حساب الكهرباء يصل إلى عشرة جنيهات فنظرتُ إليك وقلت : ولكن قلبك يا شقية لا يزال ظلاماً في ظلام !!

كنا نلهو ونلعب ، وكانت الدنيا من حولنا تلهو وتلعب ، وكان للقمر رقصات تميد لها



راسيات الجبال من الرفق والحنان .

فمن يُعيد تلك الأيام السوالف ؟

من يعيدها لأرى بعينى جبينك المُشْرِق وهو يتوهج ويتألق ؟

من يعيدها ، يا ليلي ، من يعيدها يا روح القلب الذى شرده الزمان !

إن قلبى يموج بالوساوس والأوهام والأضاليل .

فهل يكتب الله أن أراك وعلى وجهك نضرة الصيانة والوفاء ؟

هل يكتب الله أن أقف بين يديك لأستغفر من سيئات الظنون ؟

الأمر إليك يا ليلي ، إن كنت لا تزالين على كرم العهد .

لا تظنى أبداً أنى سأعبر الزمالك بعد اليوم إلا حين يصبح عندى أنى كنت فى سوء الظن من

الخاطئين .

اعرفى يا ليلي وتيقنى أنى أصبحت أحمل فوق كاهلى هوماً لا تحملها الجبال .

اعرفى أنك ملأت الدنيا سواداً فى وجه عاشقٍ مخلص كان ملاً الدنيا نوراً فى وجهك

الوضاح .

اعرفى يا ليلي ما تعرفين ، وأنكرى ما تُنكرين ، ولكن تذكرى أنى لم أكن إلا رجلاً كريماً

يحفظ العهود والمواثيق .

وتحدثك الغيرة بأنى أحضرت معى ليلي المريضة فى العراق .

فما الذى يمنع من أن تفاجئنى بزيارة فى غَسَق الليل لتعرفى ما تضر دارى من ملاح

الليليات ؟ ليتك تحضرين مرة على غير موعد لتعرفى أن أنيسى فى دارى هو صورتك الباسمة التى

انتبهتها منك انتهاباً فى ليلة مُقْمِرة من ليالى الربيع الأسبق !

تعالى مرةً يا غادرة وانظرى كيف صارت تلك الصورة وثناً يعبد القلب .

تعالى تَرَى صورتك مصحوبةً بصورةٍ عزيزةٍ غالية هى صورة أختك العزيرة الغالية ،

صورة ليلي المريضة فى العراق .

تعالى وانظرى كيف جمعت بين الصورتين لينعم القلب بمحبيمين !

تعالى مرة ، فما فى شريعة الحب أن نعيش فى عبادة الصور والأشكال .

تعالى مرة ، تعالى ، تعالى واستغفرى من ذنبك فى الصدود لا فى العقوق ، فما زلت أرجو

أن يكون ارتياى فى وفائك المعهود أضلولةً من أضاليل الخيال .

تعالى ، يا ليلي ، تعالى ، تعالى نقرأ معاً بريد بغداد !

أحبك يا ليلي ؛ أحبك وأحب بغداد ، وليلاي فى العراق .

أحبك بلا أمل ولا رجاء ، وإن كنت أتشهى أن أقبل ذلك الوجه مرةً ثانية ، قُبلة أئيمة

تنزعج لها شياطين الأرض وملائكة السماء .  
 أحبك يا ليلي ، فتعالى خذيني ، خذى الطفل الكبير الذى لم تؤدبه الأيام ولا الليالى ، ولم  
 يعرف أن الثقة بعهود الملاح ضربت من الخبال .  
 تعالى يا عروس الزمالك ، تعالى إلى قلبى وروحى وضميرى ، تعالى إلى الرجال العارم الذى  
 لا يزال على ما تعهدين من العُنف والجموح .  
 تعالى يا ليلي ، تعالى ، تعالى نقرأ معاً يريد بغداد لتعرف أن ليلاى هناك تسأل عنى ، وهى  
 ترتاب فى وفائى كما ترتابين ، ولكنها تقول فيمن أحبُّ :  
 « أفوقهم باخلاصى »  
 تعالى وانظرى هذه الجملة « أفوقهم باخلاصى » لتعرفى أن الاخلاص له فى عالم الحب  
 ميزان .

اسمعى يا ليلي .  
 سأزور الزمالك بعد أسبوع أو أسبوعين ، فإن دار رأسك من حيث لا تحتسبين فاعرفى أن  
 روحاً شفافاً يزور ذلك الحى الجميل ، ولن يكون ذلك الروح غير روحى المشرد الذى أشقاه  
 الغرام بالملاح .  
 اسمعى ، يا ليلي ، اسمعى .  
 ستطوف بالدنيا قلوباً وأرواح ، ويبقى فى عالم الخلود قلبى وروحى .  
 لن يكون لك أثر فى الوجود إلا بفضل العاشق الذى تكوين فؤاده ببارك الحامية .  
 ستفنى مَجَلَّة الزمالك ، ويبقى ما قلت فى عروس الزمالك .  
 اصنمى ما شاء لك الغدر والجحود ، ولكن تذكّرى أن غضب الحب سيحل عليك ،  
 وسيدلك الهوى فتسألين عنى بعد حين .  
 أستغفر الحب :

فما أتمنى إلا أن تعيشى بخير وعافية ، وأن تظلى ريحانةً مطلولة تبسم للشروق والغروب ،  
 وتطالع الدنيا بالنضرة والنعيم .  
 أحبك يا ليلي ، أحبك يا غادرة ، وأحب من أجلك جميع الملاح .  
 وسلام الحب على الجدائل المعطرة التى كانت ذكرها تؤنس وحشتى فى أيام الاغتراب .  
 وسبحان من لو شاء لأرضانى عنك وأرضاك عنى .

## الرسالة الثانية

لم أكن أعرف وليتني ما عرفت !  
 لم أكن أعرف أني قدأم على سعي العذاب حين فكرت في إغناء الأدب العربي بألوان من  
 الصور الشعرية التي تصوّر عذاب الأرواح والقلوب .  
 لم أكن أعرف أني سأضع قلبي بيدي فوق جمرات الصباية ثم أنظر إليه وهو يتنزى ويتوئب  
 عساه يظفر بالخلاص ، ولا خلاص !

لم أكن أعرف أني سأجد ليل في طريقي ، ليل ، ليل التي عذبت روحي وأحرقت قلبي .  
 لم أكن أعرف أن الهيام بالعيون السود سيسوقني إلى الهيام في غياهات الليالي السود .  
 لم أكن أعرف أن الأقدار تدخر لي هذا النصيب الضخم من العناء والشقاء .  
 وهل يصدّق أحد أني صرت لا أعرف غير الحيرة والضلال في يقظتي ومنامي ؟  
 هل يصدّق أحد أن الدنيا تحولت أمام عيني إلى منادح من الهول والعذاب ؟  
 أين من يصدق أني أقضى الأيام والليالي في أحزان وكروب ؟  
 وفي سبيل من ؟  
 أحب أن أعرف في سبيل من ؟

في سبيل المخلوقة التي تقيم في الزمالك ، عليها غَضَبَةُ الحب !  
 لم أكن أعرف أن ليلى التي نقلت قلبها من مكان إلى مكان ، وعلمتها كيف تناجي النجوم ،  
 وتصافح الأزاهير وتباغم البلايل ، وتسامر الأحلام ، وتراود الأمانى ، لم أكن أعرف أن هذه  
 الإنسانية الظلوم ستسقينى أكواب العَلَم بعد أن سقيتها أكواب الشهد .  
 إنك يا ربي تعلم أني لم أكن سيىء القصد فيما صنعت .  
 كنت أحب أن أقيم في دنيا الشرف هيكلًا يُعبد فيه الجمال .  
 كنت أحب أن تقوم في عالم الأدب العربي دولة للقلوب والأحاسيس .  
 كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لا تزال غنية وأن فيها كُتّابًا وشعراء يعرفون مواسم  
 القلوب .

فكيف كان جزائي ؟  
 كنت كالطبيب الذي يحمل المِشرط ليدأوى جرحاه فينقل إليه المِشرط جرائم الهلاك .  
 ليتني أعرف كيف أصور بلائي بما أسلفت من جميل !

إن اللغات كلها تعجز عن وصف ما أعانى ، وما أخطر ما أعانى !  
وما خَفَقَتْ أرواح النسيم ، ولا بَرَقَتْ لوامع النجوم ، ولا هتف هاتِف بالوجد في صباح  
أو مساء ، إلا حسبت ذلك لمحات من وميض قلبي .  
أمن أجل ليلي أصبح إلى ما صرتُ إليه ؟  
ومن أنتِ يا ليلي ؟ من أنتِ ؟ أملكين شيئاً غير عينين سوداوين ، وخدين أسيلين ، ومبسم  
يتلألأ بسحر البريق ، وقوام يترنح وما سَقَوْه الصهباء ؟  
أمن أجل ليلي التي تفضح نفسها حين تمشي وحين تنطق يضيع رشدى وصوائى ؟  
ماذا عندك من الحسن حتى يسير غرامى بلحظك الساحر سَير المثل الشُّرود ؟  
ماذا عندك حتى أصبح إلى ما صرت إليه من الجنون والفتن ؟  
أشهد أنى كنت أرى النور يتموج فوق جبينك الوهاج في بعض ليالىنا بالزمالك .  
وآه ثم آه من ليالى الزمالك !  
ولكن ما هذا الطغيان وما تملكين من شواهد الحسن غير لفتات مسروقة من لفتات الظباء ،  
وغير ساقين ملفوفتين لا توضع إحداهما فوق الأخرى إلا مادت الأرض وترنحت الجبال .  
أمن أجل ليلي أصبح إلى ما صرتُ إليه ؟  
ومن أنتِ يا ليلي ؟ من أنتِ ؟  
من أنت حتى تحولى دنيائى إلى أمواج من الظلمات ؟  
تذكرى ما تملكين من شواهد الحسن التافه السخيف !  
هل تملكين غير ذلك الدلال الذى يُزِلُّ قلبى وعقلى ؟  
هل تملكين غير ذلك الصوت المتكسر الناعم الرفيق المقتول الذى يذل الأسود ؟  
هل تملكين غير ذلك الصدر المشرق الذى يُغرق الناسك في بحار الضلال ؟  
هل تملكين غير تلك الطلعة البهية التى تنجّل الأقمار والأزاهير ؟  
ماذا عندك حتى أصبح إلى ما صرت إليه من الجنون والفتن ؟  
ماذا عندك وماذا تملكين ؟

\* \* \*

أنا الذى خلقتُ بقلمي وخیالى كل ما وصفك به الواصفون من حُسن وإشراق .  
أنا الذى جعلتك ریحانة الدنيا وأنس الوجود .  
أنا صاحب الفضل ، يا ليلي ، ولولاي كنتِ زهرةً مجهولة من أزهار الصحراء .  
أنا صاحب الفضل على ليلي المريضة في الزمالك وليلي المريضة في العراق .  
ولكن أين جزائى ؟

أين جزاء العاشق المهجور الذى صار حظه أشد سوادًا من قطع الليل ؟  
كل حظى أن أتلقى خطابًا فيه خصلة من الشعر أتذكر بها سواد حظى فى غرامى .  
كل حظى أن أصبح وأمسى مُبَلِّل الخاطر ، مقروح الكبد ، مفطور القلب .

\*\*\*

ولكن لا بأس .  
فقد كنت أو من بأنى أواسى بحبى فتاة لا تأنس بجمالها غوافل القلوب إلا كما تأنس العيون  
الرمد بضوء الشمس .  
كنت أشعر أنى أخلق هذه الفتاة خلقًا جديدًا ، وكنت أرى من الوطنية أن أشيد بمحاسنها  
ومفاتها لتجد مكانها فى عالم الصباحة والجمال .  
وقد وصلت من ذلك إلى ما أردت ، فهى اليوم أمل الآمل وأمنية المتمنى .  
أما أنا فقد كان مصيرى فى هواها مصير من يعبد النار ، وعابد النار يؤججها بيديه لئلا تحرقه  
حين يداعبها وإن ترفق وتلطف !

وما أنكر أنى عرفت بفضل هذه الفتاة ما لم أكن أعرف .  
عرفت أن النبات الجميل قد يكون أُمَرَّ من الصاب .  
عرفت أن البحر لا يروى الظمآن لأن ماءه مِلْحٌ أجاج .  
عرفت أن الثقة بعهود المرأة تشبه الثقة بعهود الزمان .  
وعرفت ما هو أعظم من كل أولئك :  
كنت بالرسمية ذات مساء مع أعضاء « نادى القلم العراقى » ومضينا نستروح بسكون  
الليل حول نهر ديانة فراعنا أن تنبج الكلاب بنزق وطيش .  
قال أحد الزملاء : ما أقبح بُباح هؤلاء الكلاب !  
فقلت : هذا البباح صورة من صور الجمال !  
فقال : وكيف ؟  
فقلت : لأنه يكمل صورة الليل .  
وكذلك تصنع المرأة الغادرة ، فهى تكمل صورة الوجود .  
أه من زمنى ومن دنياى !

\*\*\*

ورجعت أسائل نفسى : ماذا غنمت من حب ليل التى تقيم فى الزمالك ؟  
لقد ظفرت بمغانم كثيرة سأنتفع بها فيمابقى من حياتى .  
والظاهر أنى لا أدخل من لؤم ، لأنى أحب اللقام من الملاح .

ولمّا كان الأمر كذلك لأنى قضيت أكثر من عشرين سنة فى الدراسات الفلسفية ، فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسنى إلا قليلاً ، لأن عقلى أكبر من قلبى ، وأنا أشتى المرأة اللئيمة التى يكون غرامى بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول .  
أردت مرة أن أساهم فى نفقات البيت فقالت : أنت تريد أن تحتل بيتى .  
وتلك نظرة دقيقة قد يغفل عنها السياسيون .  
وهجمت عليها ذات مرة فدفعتنى بعنف وهى تقول : إن مظهر القوة يذكر الضعفاء بالذلة ويغريهم بالعصيان .

أشهد أن هذه اللئيمة على جانب عظيم من الذكاء ، واللؤم باب من الذكاء .  
أحبك يا لئيمة حباً لئيمًا ، ولا يُقَلُّ الحديد إلا الحديد .

\*\*\*

آه من زمنى ومن دنياى !  
أنا اليوم فى خلاف مع ليلاى .  
هى تريد أن تنتصر فتتقلنى إلى الزمالك ، وأنا أريد أن أنتصر فأنقلها إلى مصر الجديدة ووطن الملائكة والشياطين .  
إن آدم عليه السلام انتقل فى سبيل حواء من الجنة إلى الأرض ، فلأنتقل فى سبيل ليلى من مصر الجديدة إلى الزمالك .  
ويظن الناس أن آدم باء بالخسران حين انتقل من الجنة إلى الأرض فى سبيل حواء ، وهم والله جاهلون ، فلو بقى آدم فى الجنة لعاش أغلف القلب ، خامد الإحساس .  
إن نزول آدم إلى الأرض كان فرصة لمعرفة الشهوات والضغائن والأحقاد . والعلم مع الشقاء أفضل من الجهل مع النعيم .  
سأرجع إليك يا ليلاى ، سأنتقل من مصر الجديدة إلى الزمالك فى سبيل البحث عن سرائر الروح الإنسانية .

وسترضين عنى يا شقية لأحترق فى كوثر الوصال .

ولكن ما هو الوصال ؟

هو أن تكشفى الحجاب عن قلبك الغادر لأرى ما فى الوجود من حقائق وأباطيل .

أحبك يا ليلى .

أحبك يا ليلاى .

وأستبيح الشُّرك ، فأحب معك الإنسانية النقية التى أمتعتنى بخطابين كريمين ولم تظفر بجواب .

لا تغارى من تلك الإنسانية فيبني وبينها أهوال ، ولن ترانى إلا فى عالم الخيال .  
 أيتها الإنسانية التى تخاطبنى فلا أجيب !  
 أنت كل شىء فى دنياى ، ولو كرهت ليلى المريضة فى الزمالك .  
 وسأوقد نيران الغيرة فى صدور من هنا ومن هناك إلى أن يقضى الحب بما هو قاض ، وأنا  
 راضٍ بحكمه وإن كان أظلم الحاكمين .  
 أكتب هذا وقد طلع الصبح ، ولا تزال ظلمات الهجران تسيطر على قلبى .

### الرسالة الثالثة

صديقى ...  
 سألتنى أن أكتب كلمة عن ليلى المريضة فى الزمالك فأثرت فى صدرى لوعةً محرقة كنت  
 أرجو أن تصير بفضل الكتان والتناسى إلى الخمود .  
 وماذا يهمنى من أمر تلك الإنسانية الظلوم ؟  
 إن الدنيا كلها سخفٌ فى سخف ، والحب كله بلاءٌ فى بلاء ، فلتمض تلك الذكريات إلى  
 جحيم النسيان والجحود .  
 وقد تعلمت فى حياتى أشياء ، وكان أتمن ما تعلمت هو اليأس من وفاء القلوب .  
 وأقسم بالله وبالحب ما خططت هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع ، فمن الحسرة  
 واللوعة أن أنفض يدى من العواطف بعد أن جعلت الكتابة فى العواطف مذهباً أدبياً له أنصار  
 وأشياء فى سائر الأقطار العربية .  
 ولكن خيبتى فى الحب لها أسباب .  
 وآه ثم آه ، من الاعتراف بالخيبة !  
 ليت ضلالى فى هواى كان دام حتى أخرج من دنياى وأنا موصول العطف على الملاح !  
 فإن سألت عن أسباب القطيعة بينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك فإنى أحدثك بأن تلك  
 الأسباب ترجع فى جملتها إلى سبب واحد هو العظمة الحقيقية التى فطر الله عليها قلبى .  
 ومعاذ الأدب أن أكون من المفتونين أو المخدوعين ، فلى قلب ما عرف الناس مثل جوهره  
 النفس فى قديم أو حديث ،  
 هو قلبٌ فُطر على الحب والعطف والوفاء .

( ليلى المريضة فى العراق )

— ٣٥٤ —

وقد شاء هذا القلب أن ييسط حنانه على ليلي المريضة في الزمالك .  
فماذا صنعت تلك الحمقاء ؟

\* \* \*

لا تسأل كيف كنا إلى خريف سنة ١٩٣٧ .  
كنا عاشقين .  
وما أسعد العشاق !  
كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطئ النيل .  
وما أسعد من يستصبحون بظلام الليل على شواطئ النيل !  
كان قلب ليلي أصغر من قلبي .  
ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبي ، وهو قلب يرضى بالقليل في بعض الأحيان .  
وكنت أتلقي القليل من عطف ليلي بالحمد والثناء .  
والذوق كل الذوق أن نفرح بالقليل من الملاح .  
كانت ليلي تبعد وتُخلف ، وكنت أرى إخلافها من الدلال .  
وكنت أروضها بنفسى على الإخلاف ، لأنى كنت أحب أن أخلق منها دُميةً روحانيةً أعاقِرُ  
في محيّاها كؤوس التُّبَل والصفاء .  
وكان ما أردتُ وأراد الحبُّ العذرى حينًا من الزمان .  
أردنا مرة أن نؤلف رواية ..  
فهل ألفنا الرواية ؟  
ليتنا ألفنا الرواية !  
آه من ليلي ومن زمانى !

\* \* \*

ودامت دنيانا في قبض وبسط ، وبؤس ونعيم ، إلى مساء اليوم الثامن عشر من الشهر التاسع  
سنة ١٩٣٧ .  
ففى ذلك المساء تفضلت ليلي فدعتنى إلى تناول العشاء لتمنحني القُبلة الموعودة قبل رحيلى  
إلى العراق .

وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ما حييت ، وإن كدّرتها ليلي بعد ذلك .  
أحبك يا ليلي ، أحبك لتلك اللحظة التى بلبّلت نجوم السماء .  
أحبك يا ليلي وإن صيرت حياىى بؤسًا فى بؤس ، وشقاءً فى شقاء .  
أحبك يا صغيرة القلب ، ويا ضعيفة العقل ، ويا قليلة الوفاء .



أحبك يا مثال النرق والطيش والجنون .  
أحبك لتلك اللحظة القصيرة التي بددت أضواؤها ظلمات قلبي .

\*\*\*

وفي اليوم التالي رحلتُ إلى بغداد وأطياف الزمالك تؤنس روحى .  
ثم سمعتُ ليلاى فى الزمالك أنى تعرفت إلى ليلى المريضة فى العراق .  
فماذا صنعت الحمقاء ؟  
أرادت أن تتقم منى ففتحت أبواب قصرها للواغلين من أدعياء الأدب والبيان .  
ولم تكشف بذلك ، بل أعلنت غضبها على فى رسائل نشرتها فى مجلة الصباح .  
وأسرفت الشقية فى الحمق فنشرت فى مجلة المصور أخبار سهرة تناول فيها السامرون عندها  
أكواب الصهباء .

وكانت الشقية تعلم أن ذلك سهم سيصيب صدر حبيبها فى العراق .  
ولكنى تجلدت وتماسكت ، وكتبْتُ إليها أعتب فى رفيق ولطف .  
فأجابت الحمقاء :

« هل كنت تنتظر أن أضع يدى على خدى إلى أن ترجع من بغداد ؟ » .

خبر أسود !

خبر أسود !

خبر أسود !

كذلك هتفتُ كما يهتف الفلاح المصرى حين ينزعج — وعبارات الفلاحين تسبق إلى لسانى  
حين يثور غضبى — .

إن ليلى المريضة بالزمالك لا تريد أن تضع يدها على خدّها حتى أرجع من بغداد ، وهى  
تعرف أنى هاجرت إلى العراق لغرض نبيل هو توثيق علائق المودة بين مصر والعراق .

وهل تفهم المرأة هذه المعانى ؟

آمنتُ بالله ، وكفرتُ بالحب !

\*\*\*

أما بعد فقد انتهى ما بينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك ، وقد حرّمتُ على نفسى رؤية  
الزمالك إلى أن أموت ، فحدّثونى يا رفاقى عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالى الزمالك ،  
حدّثونى كيف يغنى الكروان فى الزمالك ، حدّثونى كيف تكون أشجار الزمالك فى الليل ،  
حدّثونى كيف يتبّ النيل ليقبّل أقدام الزمالك ، حدّثونى كيف تصير عنى ليلاى فى الزمالك ؛  
حدّثونى كيف تغيب الشمس عن الزمالك ، وكيف يطلع القمر على الزمالك ، وكيف تثور

عواصف الحب والبغض في الزمالك .  
 حدثوني ، حدثوني ، حدثوني .  
 انتهى حُلُم الحب ، وانتهت أيام الزمالك ، وانقضت ليالي الزمالك .  
 تلك الزمالك لم تكن إلا قطعة من وطني ، ولو شئتُ لقلت إنها قطعة من كبدِي .  
 في الزمالك تعلمت طب الأرواح والقلوب .  
 وبالزمالك شقَى روحي ومرض قلبي .  
 فأين السبيل إلى الرجاء ؟ بل أين السبيل إلى اليأس ؟  
 أحبك يا غادة الزمالك ، أحبك يا غادرة ، وأعشق ضلالي في هواك النبيل وهواك الأثيم .  
 ليلاي ، ليلاي .  
 مازال روحي الظاميء يحوم على وِردك التمر ، فارحمي الطائر الذي يرفرف حول جِماك في  
 السَّحَر والضُّحى والأصيل ، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لدَّعهُ الشوق إلى صهباء الرُّضاب .  
 أنا مشتاقٌ إلى الكوثر الممنوع الذي كانت فطراته تُسكر روحي وتُغَيِّر فؤادي .  
 أنا مشتاقٌ إلى النار التي سَكَّوت كبدِي ، فمتى أواجه تلك النار العَصُوف ؟  
 سأقْبَل قدميك حين أراك يا شقية ، ولكن متى أراك ؟ متى أراك ؟  
 أفي الحق أننا تخاصمنا إلى آخر الزمان ؟  
 أفي الحق أن غريدة الهوى لن تعود ؟  
 لقد شمت فينا الشامتون ، فمتى يندحر الشامتون ؟  
 إنني واثق بطهارة قلبك يا شقية ، ولولا ذلك لأصليتك نار العقوق .  
 فحدِّثيني متى ترجعين إلَيَّ ؟ متى ترجعين ؟ متى ترجعين ؟

\*\*\*

ليلي ، ليلاي التي خرجتُ من جِماها كما خرج آدم من الفردوس ، ليلاي أجيبِي .  
 مضت أعوام وأنا أتلقي منك تحية رمضان ، فأين تحية رمضان ؟  
 إن الناس يذكرون موتاهم في هذه الأيام يا معبودتي ، وأنا قتيل الهوى ، فمن يذكرني إذا  
 صدفت عني ؟  
 لا تؤاخذيني بما جنيْتُ في حب ليلي المريضة في العراق ، فما كانت ليلاي هناك إلا صورةً  
 من صور الطهر والنبيل والعفاف .  
 أحب ليلاي في العراق ، وإن تأذيت بذلك ، فاصنعِي ما تشائين .

— ٣٥٧ —

أيتها الحمقاء فى الزمالك !  
لا أحب أن أراك إلا يوم تعرفين أنى صاحب الفضل على جميع الملاح ، فلولا قلمى ولولا  
بيانى لصارت الصبابة العوبة من الألاعيب .  
أنتظر أن تكون دنيا الصبابة والملاح طوع يدى .  
فإن لم تفعلى — وستفعلين — فودّعى دنيا الرفق والحنان .  
ليلى ، ليللى .  
إلى صدرى يا عروس الزمالك .  
إلى صدرى يا جارة النيل .  
إلى صدر العاشق الوفى الأمين .

---

## ٤٣

أنا في هذه الأيام فريسة الكدح والتعب والعناء :  
 أنا أشغل ثلاث مطابع في وقت واحد لأخرج « وحى بغداد » ولأخرج الجزء الأول والثاني  
 من كتاب التصوف الإسلامي .  
 ويظهر ألى لن أرى الإسكندرية في هذا الصيف ولن أرى جنّيات الشواطىء إلا في عالم  
 الأحلام .  
 وكيف يتسع الوقت للطواف بالشواطىء وأنا أشغل وقتى بالتأليف والتصحيح من الصباح  
 إلى منتصف الليل ؟  
 والسهرات التى أقضيها بمصر الجديدة بعد أن تنام العيون لم تستطع أن تمحو حزنى على فراق  
 شارع فؤاد .  
 والمجلات تكلم عن المصايف كلاماً جذاباً ، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تخرجنى من  
 عزلتى ، ولم تنقلنى إلى الشاطىء الذى قال فيه أحد الشعراء :

رعاه الحب من شطّ جميل	خفيف الروح مصقول أنيق
بهى الرمل تحسبه سجوفاً	مطرزةً بمجات العقيق
أطوف به فيغلبنى خشوعى	كأنى طفئت بالبيت العتيق

\* \* \*

أيا حَرَمَ الظباء أنرت روى  
 يراك الأكمهون حمى مباحاً  
 ولو كُشِفَتْ غشاوتهم لقالوا  
 صبايا الخلد تسبح فى الرحيق  
 فهل رأى الناس شاعراً قبلى يزهد طائعاً فى فراديس الشواطىء بالإسكندرية ودمياط وبور  
 سعيد ، ويجنى على نفسه بالبعد عن شواطىء النيل فى الصيف ؟

أتمضى لىالى الصيف لا تنقُ الجوى	مباسمُ بالعذب التمر تجود ؟
ويذُرُج فى مَعْدَاهُ أسوانَ صاديّاً	فؤادُ بأثقال الشجون يمد ؟
وتخلو مغانى النيل من لهُ فاتلك	له من ربّها جنةٌ وخلود ؟
ويحيا أسيرَ الحزن فى مَيعة الصبّا	فتى مَرِحَ طاغى الشباب مريد ؟

الحق أنى أسأت إلى نفسى فى هذا الصيف ، فقد حرمتها دواعى الوجد ، ولم يسعنى الخيال بغير هذا القصيد :

تجاهلت أياما هيامى لعلنسى  
ولم أدِر أن الحب يسرى ضريمه  
فأين المفر اليوم من فتك لوعة  
أكابد فى بأسائها كل لحظة  
أثوب إلى رشدى فأرجع عن جهلى  
ليعصف بالباقي المشرّد من عقلى  
مضرمة الأقباس مسمومة النصل  
شدائد من وجد عصف ومن خبل

\* \* \*

لقد كنت ودعت الصبايات وانقضت  
فكيف أرائى عدت ولهان صاديا  
ضلالة أحلامى لدى الأعين التجل  
أبيت على هم وأصبح فى شغل

\* \* \*

إلى أين يا قلبى ؟ إلى أين ؟ إنسى  
أما لك فى الماضى المضرج عبرة  
إلى أين ؟ حدثنى ، فلم تبق لى قوى  
طوتنى خطوب الوجد طيا فلم أعذ  
أخاف عليك اليوم عادية القتل  
ألم تشرب الآلام سجلا إلى سجل  
أصد بها جيش الملامة والعذل  
أتوق لجدي فى الغرام ولا هزل

\* \* \*

هواك الذى تهوى لئيم يسره  
هواك الذى تهواه قاس وإن يكن  
هو الورد أشواكا هو الوبل نقمة  
هو الراح تسرى فى السرائر خفية  
جذارك منه يا فؤادى فإنه  
أرق من الزهر المصبّح بالطل  
هو الرفق رفق الهول فى غسق الليل  
ليمسى بها النشوان فى قبضة العول  
وإن يك بساما لأحب من صل

\* \* \*

إلى حبه يا قلب سارع ولا تحف  
إلى قلبه الظلام تحذنى فإننى  
عديمت فنانى فيه إن كنت أشتى  
فظلّ الملاح الهوج أندى من العدل  
أحب ظلام الليل والحب والهول  
سوى طبعه المشبوب بالغدر والختل

\* \* \*

أحبك يا صنو الزمان الذى قسا  
أحبك وليصنع بنا الدهر صنعه  
فلطف من طبعى وخفف من جهلى<sup>(١)</sup>  
فلدهر أو للحب مثلك أو مثلى

\* \* \*

(١) الجهل هنا ضد الحلم ، فهو الحدة والطيش .

ولكن هذا الصيف الأجرد وقعت فيه أشياء تستحق التسجيل :  
أنا أتلقى في كل يوم أخبار ليلى وظمياء ، وتصل إليّ جرائد بغداد بلا انقطاع ، يرسلها  
أديب لم أعرفه في بغداد ، وهو السيد عبد القادر أحمد ، أراى الله وجهه بخير وعافية ، وجزاه  
عن الأدب والذوق خير الجزاء .

وفي جرائد بغداد قرأت أن جريدة « العقاب » تقترح أن أُمْنَح لقب « ابن بغداد » .  
ثم قرأت أن جريدة « اليوم » تقترح أن أُمْنَح لقب « ابن العراق » .  
فما هذا الكرم يا أبناء الرافدين ؟

ابن بغداد ؟

ابن العراق ؟

أهلاً وسهلاً ، فأنا بإذن الله أخوكم الشقيق ما حيئُت .  
أنا ابن بغداد وابن العراق ، لأنى وقفتُ وقفة الأسود أدفع التهم الكواذب عن بغداد  
والعراق .

فهل يعرف العراقيون كيف وقفت ذلك الموقف ؟  
الله يشهد أنى فكرتُ في خدمة مصر قبل أن أفكرُ في خدمة العراق .  
ومع ذلك اهتمنى الغافلون بأنى أجمال أهل العراق .  
وهل يكون من المجاملة أن نقول كلمة الحق ؟  
لم أرد — يشهد الله — إلا أن أحفظ لوطنى مكانةً في قلوب الصناديد من أهل العراق .  
فإن كان العراقيون رأونى أديتُ لوطنهم خدمةً حين دفعت عنهم قالة الزور والبهتان فذلك  
منهم تلطفٌ وترفقٌ ، وستحفظ لهم مصر هذا الجميل .

أنا ابن بغداد ؟ أنا ابن العراق ؟

إن من الشرف العظيم أن أكون ابن بغداد وابن العراق .  
لم يبق في نفسى إلا كلمة أقولها لكم ، يا أبناء الرافدين ، وهى دعوتكم إلى الثقة بأن  
المصريين يحبونكم أصدق الحب ويرونكم إخوانهم الأشقاء ..  
وما رأيتموه من عُنف الصحافة المصرية لم يقع إلا لهول فاجعة كلية الحقوق .

أنا ابن بغداد ؟ أنا ابن العراق ؟

الحمد لله الذى كتب أن أكون موصول العهد بأهل العراق .  
الحمد لله الذى جعل لى مقام صدق فى البلاد التى رفعت لواء الحضارة الإسلامية .  
الحمد لله الذى قضى أن أذكر بالخير فى المدينة التى فيها شارع العباس بن الأحنف وشارع  
صريع الغواني .

— ٣٦١ —

الحمد لله الذى تفضل فوصل قلبى بالغرّ البهاليل من أهل العراق .  
الحمد لله الذى رفع اسمى فى بلادٍ تحفظ الصنيع .  
الحمد لله الذى أعزنى فى وطن ليلى وظمياء .

\* \* \*

إخوانى فى بغداد .  
أشكر لكم ما حَبَوْتُمُونِي من لُطْفٍ وعطف .  
تم أعترف بأنى أغار غيرةً شديدةً على سمعة العراق .  
فهل أنتظر أن تغاروا على سمعة مصر كما أغار على سمعة العراق ؟ .  
إنى أرجوكم أن تحفظوا عهد البلد الذى أَحَبَّكُمْ أصدق الحب ، ورحب بأخوتكم أجمل  
ترحيب .

فى مصر ذخائر من الأدب والذوق ، وإن خفيت عنكم بعض الخفاء .  
إن مصر تنتظر أن يكون لها سِندٌ من عواطف أهل العراق ، فكونوا عند ظنها الجميل .  
أرجو أن تذكروا أنى لم أتفرد بالصدق فى هواكم ، فلكم فى مصر أصدقاء يعدُّون بالملايين .  
ثقوا ، أيها الأخوان ، بأننا أقسمنا أمام الله وأمام الضمير بأن نحفظ العهد .  
ثقوا بأننا نؤمن أن الوفاء هو أكرم ذخائر الرجال .  
أنا ابن بغداد ، أنا ابن العراق .  
أنا ابن بغداد ، أنا ابن العراق .  
أنا أُنَّ صادق لأبناء دجلة وأبناء الفرات .  
أنا الصبَّ المشغوف بالبلاد التى عرفت بكاء الحمائم ، وظلام الليالى ، ونور القلوب .  
أحبك يا مَهْدَ ليلى ويا وطن ظمياء .  
وأرجو أن تحبَّ مصر كما أحب العراق .

—————

## ٤٤

أنا أتلقى في كل يوم مجموعة من الجرائد العراقية ، فأقضي في تصفحها ساعة أو ساعتين لأستخرج الفقرات التي تساعد على وضع كتاب عن حياة التعليم في العراق ، ولأتعقب سير الحياة الاجتماعية في بغداد .

والوقت الذي أقضيه في مراجعة تلك الجرائد يؤنس روحى كل الإيناس لأنه ينقلنى إلى الجو الذى يعيش فيه أصدقائى هناك .

ولكنى أنظر فأرى جريدة « العراق » تقول :

### أستاذ الآداب العربية

#### في دار المعلمين العليا

علمنا أن وزارة المعارف قد طلبت إلى المفوضية العراقية في مصر أن تراجع ذوى الشأن في مصر لانتداب أحد أساتذة الآداب في مصر للقيام بتدريس الآداب العربية في دار المعلمين العالية بعد أن أبدى الدكتور زكى مبارك إصراراً على عدم تجديد عقده للسنة الدراسية القادمة .

\*\*\*

وعندئذ أعرف أنى لن أرجع في السنة المقبلة إلى العراق .  
أنا أصررت على الاعتذار عن الرجوع إلى بغداد ؟  
هذا حق .

ولكن كيف وقعت في ذلك الغلط الفظيع ؟  
ندمت على ما كان منى — فقدتني — كما يندم المغبون حين يبيع  
لو كنت أعلم أنى سأشتاق هذا الاشتياق إلى العراق لما أصررت على الاعتذار عن الرجوع  
إلى منصبى في بغداد .

وما قيمة الحرص على طبع كتاب « التصوف الإسلامى » والحرص على تسوية حالتي  
بوزارة المعارف المصرية بالقياس إلى الحرص على جو المدينة السحرية التى أوحى إلى قلبي



— ٣٦٣ —

خمسة آلاف صفحة في أشهر معدودات ؟  
لقد نصحنى العشماوى بك وعوض بك وفهم بك ودعوى إلى مراعاة عواطف أهل  
بغداد ، ولكنى جهلت قيمة ذلك النصح التمين ، وأصررت على الاعتذار لأخرس الألسنة  
التي قالت إنى أدافع عن أهل العراق لأحافظ على منصبى فى بغداد .  
أنا نادئ نادم ، ولكن ما فات فات .

\*\*\*

أيها العراق النبيل .  
تذكر أنى وقفت بجانبك يوم خذلك أصدقاؤك .  
تذكر أننى لم أحنك فى سر ولا علانية .  
تذكر أننى عرضت سمعتى فى سبيلك إلى أقبح الشبهات .  
تذكر أننى خاصمت فىك أهلى وقومى .  
تذكر أن أحاديثى عنك وصلت إلى أسماع المشرقين والمغربين .  
تذكر أننى أديت إلى بغداد ما لم يؤد بعضه بييرلوتى إلى استامبول .  
وقد حفظ الأتراك فضل بييرلوتى ، فهل تحفظ فضلى أيها العراق النبيل ؟  
ستسأل عن ذلك أمام الله وأمام التاريخ .

\*\*\*

وأنت يا مصر ، ماذا تريد منى ؟  
كنت لك سفيراً نبيلاً فى الشرق .  
فماذا تريد أنيتها الظلوم ؟  
ماذا تريد منى ، وقد وصلت مؤلفاتى إلى كل بلد يذكر فيه اسم الله واسم الرسول ؟  
ماذا تريد منى ، يا مصر ؟ أحب أن أعرف ماذا تريد منى ؟

\*\*\*

الآن ، وبعد أشهر قضيتها فى كرب من حُزيران إلى أيلول ، أترك الحديث عن ليلى  
المريضة فى العراق .

فإن كنت آذيتك يا ليلى فاغفرى ذنبى .  
سامحنى ، يا ليلى ، فأنا أضعف من أن أحتمل العتاب .  
سامحنى ، يا ليلى ، واذكرنى بالخير عند قومك الأبرار ، فأنا أذكرك بالخير عند الأبرار من  
قومى .

سامحنى ، يا ليلى ، فأنا رجل مودع ، والمودع تُغفر له جميع الذنوب .

— ٣٦٤ —

إن عشتُ ، يا ليلي ، فسأطوِّقَ جِديكَ الأَغيدَ بطوقِ نفيسٍ من المعروف .  
 وإن لم أعشَ فحسبُكَ هذه المذكرات ؛ وأغلب الظن أنها ستُنشر قبل أن أموت .  
 خلعتُ على الدنيا جمالكَ فانتثتُ      تخايَلُ في طيبٍ وحُسنٍ ولألاءِ  
 تذكري ، يا ليلي ، أني قلتُ في بغداد أضعافُ ما قلتُ في القاهرة وباريس .  
 تذكري ، يا ليلي ، أني كنتُ أصدقُ صاحبَ وأشرفَ صديق .  
 تذكري أن دجلة مرثٌ عليها أزمانٌ طوال ولم تسمع مثل عتاني في قصيدة :  
 « من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعيبر الوجد في بغداد » .  
 تذكري ، يا ليلي ، أني أصدقُ من استصبحَ بظلام الليل في مدينة الرشيد .  
 تذكري ، يا ليلي ، أني أصدقُ من ضلَّته العيون السود .  
 تذكري ، يا ليلي ، أن العيون الخضر لم تر في أرجاء العراق غير الجميل .  
 تذكري ، يا ليلي ، أنني عانيتُ فيكَ ما لم يعانِ قيسٌ في ليلاه .

\*\*\*

أما بعد فقد تنفس الصباح في اليوم التاسع والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٣٨ .  
 وسيكون من واجبي أن أسلمَ نفسي لوزارة المعارف المصرية لتوجه جهودي كيف تشاء .  
 أنا منذ الغد موظف في الحكومة المصرية ومسئولٌ أمام القاهرة لا أمام بغداد .  
 فمن شاء أن يعرف كيف حالي فأنا أسير ليل المريضة في العراق وأسير اللياليات في الزمالك  
 والجيزة ومصر الجديدة ودمياط وحلوان وأسيوط .  
 أنا منذ الغد مسئولٌ أمام حكومة مصر ، ولكن قلبي سيظل أبد الدهر مسئولاً أمام الأمة  
 العراقية .

فيا أصدقاء في ضفاف الرافدين تذكروا أن لكم صديقاً وفياً في ضفاف النيل .

\*\*\*

أحبك ، يا ليلي ، وأشكو من فراقك ما شكوتُ يوم فارقتُ أُنَى وأُمى .  
 إلى الله أشكو فَقَدَ ليلي كما شكَا      إلى الله بعد الوالدين يتيمُ  
 لن أرجع ، يا ليلي ، إلى العراق ، ولك الأمر فاصنعى ما تشائين .  
 ومن بينات الحب أن كان أهلها      أحبَّ إلى قلبي وعيني من أهلي  
 وإلا فكيف صح أن أحبَّ الفرات أكثر مما أحب النيل !  
 إلى اللقاء ، إن كان لمثلي أملٌ في البقاء .  
 أحبك ، يا ليلي ، فاذا كرّني بالشعر يوم أموت .  
 وكيف يموت من يرقم اسمه على جبين مصر وجبين العراق !

كيف يفنى من يخلد اسم السين والنيل ودجلة والفرات !  
الفناء لأعدائي .  
أما طيب ليل فله الخلود .

سبدي الدكتور زكي مبارك

بعد السلام

فقد ارسلت لك كتاب محلول ومفصل ولم ياتي الجواب وتلت بمكن اشغلوك  
بلادك واهلك ونسيت من لا ينساك وقد هاج قلبي وثاكدت عندي خيانتك  
عندما قرأت كتاب ليلي في الزمالة وكيف انك نسيتها ونسيت علي نسيانها  
وتم قرأت كلمة الرفض حول تدريسيك في السنة المقبلة فأساسي لك  
امرين احلاهما يروخيرهما الأسر إما (خائن للمروية وكافر بالحب)  
او جباناً اما الاول فيهي بك واما الثانية فلم اعهد لها بك  
اصدق واحلص بالخي لا ينفع غير الصدق والاخلاص والله مع المحقين  
أي بن هو حقتك حتي يكون الاء ممك لا اريد اكتب لك اكثر من هذا لان  
الهباج اخذا ما خذه مني كيف ثم كيف تسلب قلبي وتتركني لقد نغرت  
قليلاً انت رحل تحب الفروا مصروها انا كتبت لك كتابي ولم اعلمك بنفسني  
سوف اري هل يمكنك ان تميزني من بين ليلاتك الكثيرات اكبر درس وصعت  
للمعرايين واكبر جناية نسيت علي ليلاتهم لا ينفع الا الصبر والاخلاص والصدق  
ولك اصدق التحيات تذكر تذكر من تذكرك اكثر منما تذكر نفسك انت  
انثي عارفة بخطئي وصوابي في كلماتي هذه فقلتها عبدا حتي اسعد الطارق  
عليك ( ) ( ) ( ) ( ) يسلمون عليك وأنا بدوري اقبلك قبلة من وعدت  
واخلفت أعذر منك ثم أعذر منك . ماذا اقول لك ومن استمعين عليك  
عنواني تجده في الكتاب الاول الذي وصلك وأهملته راقبك  
يا حبيبي اقبلك ولا تنسني

ليلي

ليلي

حل هذه المعاد

١٩٣٨/٧/٢٤

## ٤٥

أنا في هذه الأيام بعافية من مرض الحب .  
ومن شواهد العافية أن ليلى لا تخطر في البال أكثر من مئة مرة في اليوم ، ولا يؤرق خيالها  
نومي غير مرة أو مرتين في كل ليلة ، والطيف ينقلها إلى راضية مرضية ، فلا عتاب ولا ملام .  
وقد تسلمتُ عملي في وزارة المعارف في مطلع تشرين الأول .

ولكن أى عمل ؟

إنه عمل طريف لم تُسِنده وزارة المعارف إلى أحد من قبل : وهو التفتيش على المدارس  
الأجنبية بالديار المصرية . وما اختارني قومي لهذا المنصب إلا وهم يعرفون أني أصلح الرجال  
للاتصال بالأجانب ، ويفهمون أني أقدرُ الرجال على رفع دعائم اللغة العربية في المدارس  
الأجنبية .

وقد صرّح سعادة العشماوى بك بأنه مستعدٌ لتنفيذ كل ما أقترح في سبيل تقوية اللغة  
العربية في تلك المدارس .

والواقع أن التجارب أثبتت أني لا أصلحُ لغير السفارة بين مصر وبين من تعامل من الأمم  
الغربية والشرقية : فأنا حين أتولّى عملاً مصرياً صبراً أملاً الدنيا بالمشاغبات والمناوشات  
والمصاولات ، وقد أصل في ذلك إلى حدود من العنف يأبأها الذوق السليم ، ولكنني حين  
أتولّى عملاً يقضى بأن أكون سفيراً لوطني أترفق وأتلفظ ، وأؤديه تأديةً صحيحةً يراها  
المنصفون غاية ما يتسامى إليه العقلاء .

وأياي في العراق هي من شواهد هذا الغرض الشريف : فقد قضيتُ أيامي هناك في كدحٍ  
دائم وكفاحٍ موصول ، وكنْتُ حريصاً أشد الحرص على أن يفهم العراقيون أن المصريّ خليقٌ  
بأن يظفر بثقتهم الغالية ، ومضيتُ أبدد التَّهم التي أراد المُغرضون أن تسوء بها سُمعة مصر في  
بلاد الرافدين . ولم أكتف بذلك : بل شاركتُ العراقيين في أفراحهم وأحزانهم ، واتصلتُ  
بالشعب نفسه فساقيته كؤوس الوداد في مختلف البلاد العراقية ، وشربت ماء الفرات ، شربته  
صبراً وهو ممزوج بالطين فرأيتُه أشهى من الرضاب المعسول .

وكان في نيتي أن أقترن بالفتاة « المثلثة الرائ » ولكنني خشيتُ أن تموت زوجتي مقتولةً  
بالغيرة ؛ فهل يكتبُ الله لأحد أبنائي أن يتشرف بمصاهرة العراق ؟  
إن في صدر المرأة العراقية كنوزاً من العطف والحنان ، وفيها شمائل كثيرة من الأمانة

والصدق ؛ ألم يكف أنها أُنجبت الصناديد من أبطال الحرب والقتال ؟  
ألم يكف أنها استطاعت أن تنتصر على الطبيعة الهوجاء في العراق ؟

\*\*\*

أنا اليوم أواجه الأجنبي في مصر بقلبٍ راضئته الأيام بعد الجموح .  
أنا اليوم أحاول أن أوجه الأجنبي إلى خدمة اللغة العربية . فهل أفليح ؟  
إن ذلك ليس بالمستحيل ، وكيف يكون مستحيلاً وقد استطعتُ من قبل أن أرفع دعائم  
اللغة العربية بمعهد الليسيه فرانسيه بالقاهرة يوم كنتُ أستاذاً بذلك المعهد ؟  
اتصلتُ بمعهد الليسيه في سنة ١٩٢٨ فرأيتُ تعليم اللغة العربية هناك مزاحاً في مزاح ، ثم  
صحَّ عندي أن الفرنسيين الذين عرفتهم قبل ذلك في باريس لا يمكن أن يكونوا مازحين ،  
ورأيتُ الخير كل الخير في دعوتهم إلى تقوية اللغة العربية في الليسيه ففرحوا بذلك وأفهموني أن  
غايتهن الأصلية هي الظفر باكتساب ثقة الأمة المصرية .  
ولما اشتركتُ في مؤتمر المسيون لايبك في باريس سنة ١٩٣٣ وقفتُ أصاول المسيو هُريو  
لأفهمه أن الثقافة الفرنسية لن تجد أصدقاء في مصر إلا إذا اهتم الفرنسيون بالمشاركة الجديدة في  
إحياء الثقافة العربية .

واتفق بعد ذلك أن اعترفت الحكومة المصرية بالشهادات التي تمنحها كلية فيكتوريا في  
مصر وأعطت حاملها جميع الحقوق التي يتمتع بها حملة البكالوريا المصرية فنشرتُ في جريدة  
البلاغ مقالاً بينت فيه الخطر الذي يهدد الثقافة المصرية ، وقد قلت في ذلك المقال :  
« والآن — بعد هذه الصدمة — لننظر ما سيكون في الغد ، ولسنا في حاجة إلى منجم ولا  
عُراف ولا بديهة كبديهة وزير المعارف لنتنبأ بما يحيطه الغد ، فإن هذا معروف منذ هذه  
اللحظة : فسيتوجه في الغد القريب جداً سفراء الدول الأجنبية ليطالبوا المدارس سهم نفس الحقوق  
التي أُعطيت لكلية فيكتوريا ، وسيحرص وزير فرنسا بنوع خاص على كسب هذه الحقوق :  
لأن الفرنسيين أكثر الأجانب مدارس ومعاهد في هذه البلاد ، ويومئذ تقف الحكومة المصرية  
بين نارين : نار الرفض ونار القبول ، فإن رفضتُ كان معنى ذلك أنها حكومة متجلتزة تخصّص  
الإنجليز بالطبقيات صدقاً أو رياءً ، وإن قبلتُ كان معنى ذلك أنها تصوّب السهم طائفة إلى صدر  
الثقافة المصرية » (١) .

ويظهر أن شخصاً من « أولاد الحلال » سارع فترجم هذه الكلمة إلى المسيو دي كومنين

(١) تجد هذا المقال في الجزء الثاني من كتاب « البدائع » وفيه تفصيل ما اقترحه لتقوية الثقافة المصرية  
بالمدارس الأجنبية .

فعاتبني بحضرة الأستاذ كانيرى فقلت له ما ترجمته :  
 « لن أكون صديقاً صحيحاً لفرنسا إلا بعد أن أكون مصرياً صادقاً » .  
 فتهلل وجه الرجل بعد عبوس وقال ما ترجمته :  
 « إن فرنسا التي تفردت بصدق الوطنية لا تستطيع أن تعادى الوطنيين الصادقين » .  
 وانقضت السهرة بسلام .

\* \* \*

أنا اليوم رجلٌ نافعٌ جدًّا ، وطبيبٌ ليليٌ خليقٌ بأن يستمدَّ من روحها معاني الصدق والشرف .  
 أنا أدخل المدارس الأجنبية بلا استئذان : لأن الأجانب يعرفون أني لا أحاول السيطرة عليهم ، وإنما أحاول معاونتهم على كسب ثقة الأمة المصرية ، وهم لن يصلوا إلى ذلك إلا إذا أمكنوا تلاميذهم من ناصية الثقافة العربية .  
 وما دخلتُ مدرسةً أجنبيةً إلا حوَّلتُ أصحابها إلى أصدقاء أوفياء .  
 وقد هدتني التجارب إلى أن أنفع سلاح هو الصدق : فأنا لا أوارب ولا أختل ، وإنما أصل إلى غرضي بأساليب صريحة لا تعرف الالتواء ولا الاعوجاج .  
 أنا اليوم على صلات وثيقة بأصحاب المدارس الفرنسية والأمريكية والإسرائيلية والأرمنية واليونانية ومن إليهم من الأجانب ، وهم جميعاً يعرفون أني أعاونهم على أشرف غاية يتسامون إليها وهي الظفر بثقة الأمة المصرية .  
 وليس لي في معاملة هؤلاء الناس أسرار مكتومة أحاول الوصول إلى تحقيقها بالختل والمراوغة واللين ، وإنما أنا مصريٌّ صادق يسعى إلى غرضه في وضَّح النهار بلا بغى ولا عدوان .  
 وأقسم بالله وبالشرف إلى لم أتلُق أية إشارة من وزير المعارف بتنفيذ سياسة خاصة في المدارس الأجنبية ، وإنما أوصاني الوزير والوكيل بالدعوة إلى الحق ، وهي أن تكون اللغة العربية لغةً خليقةً بالسيادة في بلاد حفظتُ ثراث العرب بعد سقوط بغداد على أيدي التتار والمغول ، ونُبِّهاني إلى أن لمصر في تلك المدارس أبناءُ أعزاء ، وأن من الواجب أن تحرص مصر على أن لا يفوتهم التفوق في اللغة القومية .

\* \* \*

استطعت في هذه الأيام أن أدخل مدارس لم يدخلها المفتشون المصريون من قبل ، فما هي الخصوصية التي دخلتُ بها إلى قلوب الأجانب ؟  
 هي الصدق .  
 هي الصدق .

هى الصدق .

والرجل الصادق يُذيب الصخر ولو كان من الكافرين .  
وفى مدارس الأجانب مدرسة واحدة بحى الفجالة صرّح مديرها بأنه مستعدّ لقبول إشراف  
وزارة المعارف على شرط أن يضمن أن لا يرى غير وجه الدكتور زكى مبارك .  
فليعرف هذا المدير أنني لم أتفرد بصدق النية بين المفتشين المصريين ، ففى وزارة المعارف  
رجال فضلاء يملكون من صدق النية أكثر مما أملك .

فى وزارة المعارف المصرية كنوز مخبوءة من العزائم والقلوب ، ولكن لم تُتَح الفرص التى  
تقضى بأن تبلّوهم الأيام كما بلّثنى الأيام .

لو أُتيح لتلك العزائم والقلوب أن تقف على الجمر كما وقفتُ ، وأن ترى اصطخاب  
العواطف فى باريس وبغداد كما رأيتُ ، وأن تفهم أن مصر صلة الوصل بين الشرق والغرب كما  
فهمتُ ، لو أُتيح لأحد زملائي أن يذرف الدموع على مصير وطنه كما ذرفت غاليات المدامع  
على مصير وطنى ، لو أُتيح لهم شئ من ذلك لعرفوا أن من القليل أن يشقى المصرى فى سبيل  
مصر الغالية .

إن أحمال مصر أحمال ثقّال : لأنها تريد أن تكون عند ظن الشرق .

وماذا يريد الشرق ؟

هو يفهم أن مصر عندها العلم وعندها المال ، وفى مقدورها أن ترفع دعائم القومية العربية .  
والبخل قبيح حين يصدر عن العلماء الأغنياء .

\*\*\*

خذوا الدرس عن طيبب ليلى ، يا بنى وطنى .  
وليلى علمتني أن أكون شجاعاً وأن أكون كريماً ، وسأظل على هذه الأخلاق إلى أن  
أموت ، فهل تذكروننى بالخير يوم أموت ؟  
لقد غنمتُ لكم ثقة الأجانب فى مصر وثقة العرب والمسلمين فى الشرق ، فهل تحفظون .  
هذا الجميل ؟

لا تؤاخذونى إذا طالبتكم بالوفاء ، فهذا درس ستعرفون قيمته بعد حين .

إن مصر هى أعظم أمة عربية ، ولكنها لا تقول إنها عربية .

فما هذا الحمق ؟

وما هذا الخبال ؟

إن مصر تصرّح فى كل لحظة بأنها أمة عربية ، مع أنها تعلم بأن العروبة هى مصدر  
الإسلام .

( ليلى المريضة فى العراق )

— ٣٧٠ —

إن عشتُ لكم ، يا أهل مصر ، فسأوجهكم إلى وجهة الحق .  
وإن متُّ — وعمرُ الصادقين في مصر أقصر من عمر الورد — فستكون هذه المذكرات  
وصيتي إلى أمتي .

\* \* \*

أنا في هذه الأيام سعيدٌ لأنني أخدم وطني .  
ولكن يؤذيني أن ليلي بعيدة مني .  
كنت أريد أن أستصبح بوجهها فيما أعاني من مُشكلات ومُعضلات .  
كنت أريد أن آوى إلى صدرها في كل مساء بعد الفراغ من عناء الأعمال .  
كنتُ أحب أن لا تتركني لرعاية ليلي المريضة في الزمالك ، الزمالك التي يعبرها شارع  
فؤاد ، ويا لوعة القلب من سحر الأصائل والعشيات في شارع فؤاد !  
أمثلي يحرم عليه أن يصطحب ويغتنق في شارع فؤاد ؟  
في سبيل الواجب أحرم نفسي من ملاعب القاهرة وأكتفى بخيال ليل في تخفيف ما أحمل من  
ثقال الأعباء .

\* \* \*

أنا وليلي ، وليلي وأنا ، أخوان لا يفترقان .  
أنا أحب العراق أكثر مما أحب مصر ، وهي تحب مصر أكثر مما أحب العراق .  
ومن بينات الحب أن كان أهلها أحب إلى قلبي وعيني من أهلي  
هي ترى السعادة في رؤية النيل ، وأنا أرى السعادة في رؤية دجلة والفرات .  
هي مجنونة وأنا مجنون ، وما لذة العيش إلا للمجانين .

\* \* \*

إلى صدرى يا سمكة شط العرب .  
إلى صدرى يا حلوة ، يا جميلة ، يا فتانة ، يا ظلوم .  
إلى صدرى بمصر الجديدة في ليالى السُّرار .  
إلى صدرى ، إلى صدرى ، إلى صدرى .  
إيش لون يصير !  
إيش لون يصير !

أنا والله هالِكُ      آيس من سلامتي  
أو أرى القامة التي      قد أقامت قيامتي



## ٤٦

أصبحتُ بحمد الله والهوى جَذوةً من الجذ والنشاط ، وقد فرغتُ من طبع كتاب ( وحى بغداد ) وسيظهر كتاب « التصوف الإسلامى » بعد أيام . وقد شرعتُ فى طبع مذكراتى عن « ليلى المريضة فى العراق » وأن أستاذ لأخراج الطبعة الثانية من كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وسأضيف إليه دراسة مفصلة عن الشريف المرتضى ، وبذلك أتمم فى القاهرة ما فاتنى إتمامه فى بغداد .

\*\*\*

ولكن الشواغل التى تساورنى فى هذه الأيام هى فهم المهمة التى أسندتها لى وزارة المعارف ، وقد أصبحت هذه المهمة عسيرة أشد العُسْر : لأنى أعالج هذا العمل أول مرة ، ولأنى أحب أن أنتصر فى عملى بمصر كما انتصرت فى عملى بالعراق . والله وحده هو المستعان . يضاف إلى ذلك أنى أغار من رجال المعارف أشد الغيرة ، لأنهم يكافحون ويجاهدون ، وكأنهم ليسوا بموظفين وإنما يدبّرون ملكهم الخاص ، وأنا أخشى أن يكونوا أصدق منى فى خدمة الواجب .

\*\*\*

والواقع أننى اليوم أجاهد بين تيارين عنيفين : تيار وزارة المعارف وتيار الجامعة المصرية . ويخيّل لى أنى قد أصبح من المغرّقين ، إن لم أستنصير بما فى قلبى وعقلى من ذخائر الصدق والقوة :

فرجال المعارف لا يمكن الظفر بثقتهم إلا إذا صرت من كبار المفتشين ، ورجال الجامعة لا يمكن الإخلاص من طغيانهم إلا إذا صرت من كبار المؤلفين .

وانتصارى على رجال الجامعة المصرية مضمون : فلن يسبقونى فى التأليف ولوركبوا متون الهواء ، وسلطوا أفواههم على مسامع البرق .

أما انتصارى على رجال المعارف فلن يتحقق إلا يوم يظهر جلياً أننى أدخلت رُوحاً جديداً فى تعليم اللغة العربية بالمدارس الأجنبية .

وكيف أصل إلى هذا الغرض ؟

تلك هى النقطة ، كما يقول لا فونتين .

الوسيلة الصحيحة هى اختبار المدرسين والتلاميذ لأعرف مواطن القوة والضعف فى تلك

العقليات ، ولأعرف كيف ينظر أولئك وهؤلاء إلى تلك المدارس ، ولأفهم ما بينهم وبين الأجانب من صلات .

وقد توهمت لأول وهلة أنى سقطت في بُرج بابل ، ثم عرفت بعد قليل أن الأمر أيسر مما توهمت .

الصعوبة في سياسة المدارس الأجنبية ترجع إلى فرعين :

الأول اكتساب ثقة النظار بتلك المدارس .

والثاني نوع التربية التي تصلح لتعليم اللغة العربية بالمدارس الأجنبية .

أما اكتساب ثقة النظار من الأجانب فلم أعان فيها إلا مشقة واحدة : هي إقناعهم بأنهم يعيشون في مصر ، وأن من الواجب عليهم أن يراعوا ذلك وقد جاءوا من بلاد تؤمن بأن الثقافة يجب أن تُلَوَّن بانتقالها من إقليم إلى إقليم .

وقد اقترحت عليهم أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدرس في جميع المواد ليعيش تلاميذهم في الجوّ الذي يعيش فيه تلاميذ المدارس المصرية ، وليستطيع النظار أنفسهم أن يقولوا إنهم يخدمون الثقافة المصرية .

وقد أدهشهم هذا الاقتراح حين سمعوه ، ثم عادوا فاطمأنوا إليه وسألوني أن أمدهم بما يحتاجون إليه من الخرائط التعليمية باللغة العربية في المواد التي تحتاج إلى خرائط .

وكنت أظن أنى أخرج وزارة المعارف حين أطلب منها تحقيق ذلك ، ثم رأيت بعد أن زرت مخازن الوزارة أن عندنا كل ما يطلب الأجانب لتسهيل التدريس باللغة العربية ، وحدثني سعادة العشماوى بك بأن الوزارة قد تقدّم إليهم كل ما يطلبون بالجمان .

وقد فهمت وأنا أتقل بين القاهرة والإسكندرية أن آباء التلاميذ بتلك المدارس يتشّهون أن يتفوق أبناؤهم في اللغة العربية بجانب تفوقهم في اللغات الأجنبية ، وهذه الرغبة المشروعة وصلت إلى آذان النظار بتلك المدارس : فهم يريدون أن يسايروا هذه الرغبة ليظفروا بثقة العائلات المصرية .

\* \* \*

وهذه المسألة لا تهمنى من حيث الشكل فقط ، وإن كان الشكل هنا يعاون على تقوية القومية المصرية .

إنما الذى يهمنى هو مصير الأدب العربى ، فأنا أعتقد أن تلاميذ المدارس الأجنبية بمصر هم جيلٌ مُخَضَّرٌ سيكون صلة الوصل بين الشرق والغرب ، وهؤلاء قد يمدّون الأدب العربى بمحصول نفيس إذا استطاعوا إجادة الإنشاء باللغة العربية .

وانضمام هذا الجيل المخضّر إلى جيش الأدب العربى قد يعوّض النقص الذى تتعرض له لغة

العرب في هذه الأعوام ، فالعرب في أعوامنا هذه يريدون أن يخلُّوا إلى أنفسهم ، وهم يصرحون بانسلاخهم عن الأمم الإسلامية ، وهذا المسلك قد يقوَّى الرابطة العربية لأنه يحدِّد في حدود مأونة الثغور ، ولكنه يسوق الأدب العربي إلى هاوية الخمود .

فإذا استطعنا أن نضمن تفوق أبنائنا بالمدارس الأجنبية في اللغة العربية فقد نكوِّن منهم جبهة أدبية تُعيد للأدب العربي مجده يوم كان من الآداب العالمية ، ويوم كان في لغتنا أدباء من الفرس والروم والهنود والأسبان .

وهناك جانب لم يلتفت أحد إليه ، وهو الحالة الصحية لأبنائنا بتلك المدارس ، فهم في الأغلب من أبناء الميسير ، وعلى وجوههم نُصرة النعيم والعافية .

والأدب العربي سيقوى ساعده حين تُسند سواعده أولئك الشبان الأصحاء .  
وما رأيت أولئك الشبان إلا تذكرت الحديث الشريف « لأن يَهْدِي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم » فنقل شاب واحد من أولئك الأصحاء إلى ميدان الأدب العربي قد يحوِّله إلى رياض وبساتين .

وأقول بصراحة إن الأدب العربي قد شبع من أخيلة الضعفاء والمهازيل من الذين يأكلون الفول ويشربون الماء .

والأدب العربي ينتظر طلائع من أصحاب الأريستوقراطية الفكرية والمعاشية .  
الأدب العربي ينتظر كُتَّاباً وشعراء ومؤلفين ينهضون به نهضة الأمراء لا نهضة البوساء .  
ولست بذلك أتجنَّب على الفقراء من أصحاب المواهب ، وإنما أقول إن الأغنياء يعانون من المشكلات والمعضلات أضعاف ما يعاني الفقراء ، وهم لذلك أقدر على تصوير المآسي الإنسانية ، وأبصر بتقلبات النوازع والأهواء والميول .

وقد عرفتُ حافظ إبراهيم وأحمد شوقي معرفة شخصية وعرفتُ أسرارهما عدداً من السنين ، وصحَّ عندي بعد الدرس أن أحمد شوقي أقل ذكاءً من حافظ إبراهيم ، ولكن اصطدام شوقي بهوم السياسة وهوم المعاش حوَّله إلى عبقرية ترى بالوهم ما لا تراه العيون .

والأديب الفقير تغلَّق أمامه أبواب كثيرة من فهم المجتمع ، لأنه لا يرى غير ألوان قائمة من العيش ، أما الأديب الغني فيحسُّ فرح الحياة وحزن الحياة ، ويصل إلى دقائق لا يصل إليها الأدباء الفقراء .

الشبان الأغنياء سيكون إليهم الأمر في الأيام المقبلة وإن كثرت التهويل بسيطرة الديمقراطية ، فليست الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي شاباً فقيراً يضعه الجوع ، وإنما الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي شاباً غنياً يدرك قيمة الأناقة في الفكر كما يدرك قيمة الأناقة في الثياب .

وأقول مرة ثانية إنى لا أتجننى على الفقراء من أصحاب المواهب ، فله حكمة في رفع الفقير الموهوب ، وإنما أنتظر أن ينتصر الأدب بالأدباء الأغنياء ، كما انتصر الإسلام بالمؤمنين الأغنياء .

وإنما أُلح في شرح هذا المعنى لأنى أرى الأدب العربى يقصر تقصيراً ظاهراً فى وصف الحياة الاجتماعية ، الحياة الشاملة التى تنتظم ألوان البؤس والنعيم من جميع الصنوف ، فما عندنا اليوم من رسائل وأشعار وأقاصيص يدور فى الأغلب حول جانب واحد من جوانب المجتمع ، وهو مجتمع تعددت ألوانه وعُدِّدت واشتبكت ، وهو ينتظر أدباءً يتذوقون طعمه المختلفة ليعرضوه للقارئ فى تماثيل مختلفات .

وإن صحَّ شىء مما أرجوه فقد نبعث دولة الأدب من جديد ، وهل يرتاب عاقل فى أن الأدب العربى لم يزدهر إلا حين قدر على تصوير ألوان الحضارة فى العصر العباسى ؟ إن المزية الصحيحة للأدباء الذين سبقونا بالتفوق هى اتصاَلهم بالأدب الأجنبية ، وقدرتهم على التجول فى أقطار المشرق والمغرب . وشباننا الأغنياء سيؤدُّون هذا الواجب حين يصبحون من أدباء اللغة العربية .

وهل كُتِب على لغتنا فى العصر الحاضر أن لا يكون فيها أدباء يقدرُون على الاتصاَل بمصادر الثقافة فى الشرق والغرب كما كان ذلك من حظها فى الأعصر الماضية ؟ إن الأديب هو أحوَج الرجال إلى اعتلاج العواطف والأفكار والأحاسيس ، ولا يتمُّ له ذلك إلا إذا استطاع معايشرة الناس من جميع الأجناس .

وأنا أنتظر أن أجد هذا الجوهر النفيس بين أبنائنا بالمدارس الأجنبية ، لأنهم أغنياء ولأنهم يجمعون بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية .  
فهل نصل فى تثقيفهم إلى ما نريد ؟

\*\*\*

العائق الوحيد هو الطريقة التى ندرِّس بها اللغة العربية . وقد عرفت بالتجربة أن تلاميذ المدارس الأجنبية يرون أساتذتهم فى اللغة العربية من الغرباء فى بيء الحياة ، وكان الأمر كذلك لأنهم يرون فى الأساتذة الأجانب شمائل لا يرونها فى الأساتذة الوطنيين ، فالأستاذ الأجنبى رجل يتصل مباشرة بالحياة الاجتماعية ، وهو يحدث تلاميذه بما يفهمون ، لأنه يعيش كما يعيشون ، ولذلك شواهد فصلتها فى كتاب « ذكريات باريس » وكتاب « البدائع » فلا أعود إليها الآن .  
واتصاَل الأساتذة الأجانب بالحياة الاجتماعية يعطيهم فرصة الابتكار فى موضوعات الإنشاء ، وفى المحادثات الشفوية ، ويجعل ظلهم خفيفاً حين يحاورون التلاميذ .

والأستاذ الأجنبي يرى من حقه ، بل من واجبه ، أن يشارك التلاميذ في ميادين النشاط الاجتماعي ، وتدفعه الحماسة إلى دعوتهم لمشاهدة ما في مصر من متاحف وحُصون .  
أما الأستاذ المصري — ولا سيما أستاذ اللغة العربية — فهو شخص « ملخوم » يرى الحركة تنافي الوقار ، ويرى الابتسام من أخلاق السفهاء !!  
وقد رأيت منهم أستاذًا يفتخر بأنه لم يدخل دور السينما مرة واحدة ، فهو خليفة الشيخ خليل ، وهو رجل من أئمة المالكية كنتُ سمعت أنه افتخر في بعض كتبه بأنه لم ير النيل ، وإنما قضى حياته كلها فوق حصير الأزهر الشريف !!

\*\*\*

ماذا أصنع في توجيه هؤلاء المدرسين لأحوّلهم إلى قلوب تفرح بالحياة لتغرس في نفوس التلاميذ حُبَّ الحياة ؟

ماذا أصنع وأنا أول مفتش من الجامعة المصرية وآرائي قد تجد من يسئ التأويل ؟  
رأيت أن أسأل التلاميذ من وقت إلى وقت عما يقرأون من المؤلفات الجديدة وما يشاهدون من الأفلام ، ورأيت أن أعرف الفروق بين صلاتهم بالحركة الفكرية في الغرب وصلاتهم بالحركة الفكرية في الشرق ، فهاأني أن أعرف أنهم يعرفون من الغرب كل شيء ، ويجهلون من الشرق كل شيء .

هم يعرفون الغرب لأن أساتذتهم في اللغات الأجنبية أحياء ، ويجهلون الشرق لأن أساتذتهم في اللغة العربية أموات !

وكيف لا يموت من يخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش ؟!  
لقد حدثت تلاميذ بعض المدارس بأني سأخذ عناوينهم من إدارة المدرسة لأزورهم في بيوتهم على حين غفلة عساني أعرف كيف يكوّنون مكتباتهم الخصوصية .  
مع أني واثق بأن أكثر أساتذة اللغة العربية ليس في بيوتهم مكاتب .

أليس منهم فلان الذي يعتقد أن كتاب « النثر الفني » من تأليف الجاحظ ؟  
أليس منهم فلان الذي يظن أن « حديث عيسى بن هشام » من تأليف بديع الزمان ؟  
لم يبق بدّ من توجيه أساتذة اللغة العربية إلى فهم العصر الحديث ليستطيعوا الوقوف على أقدامهم بجانب الأساتذة الأوربيين .

ولكن هناك ما هو أوجب من ذلك .

هناك تغيير الطريقة التي تُدرّس بها اللغة العربية في المدارس الأجنبية .

ولكن كيف أُغيّر طريقة نزلت من قلوب الأساتذة منزلة التقديس ؟

كيف أُغير تلك الطريقة وحولّي أرسادًا وعُيون ؟

إن كلمة واحدة من فلان وفلان قد تقصيني عن التفتيش بحجة أني أخطب المدرسين بما لا يفهمون .

ولكن الله قَدَّر ولطف :

فالرجل الذي أقدم إليه التقارير هو الأستاذ محمد رخا بك وهو رجل مُشرق العقل إلى أبعد الحدود .

وقد حدثته بما تساميتُ إليه في إصلاح الطرق القديمة لتدريس اللغة العربية . وأنا أحدث هذا الرجل عن كل شيء ، وللتقارير التي أقدمها إليه صيوان خاص ، والمفهوم بنى وبينه أن مصر لها في أعناقنا ديون ، وأن الصدق في تأدية الواجب هو أشرف ما يتحلى به الرجال .

وقد دخلت عليه منذ يومين فدارت بيننا المحادثة الآتية وهي نموذج لما نفتزع من فنون الأحاديث :

ابتدأ فسألني عن الليسيه الفرنسية المصرية بمصر الجديدة ، فقلت إن مديرها هو المسيو دي كومنين ، أعظم أصدقائي في دنياي ، فاستطرد وقال : وما رأيك في ذلك المعهد بعد أن زرتة مرتين ؟ فقلت : إن الغاية نبيلة ولكن تحقيقها صعب ، لأن هذا الرجل يريد أن يصل تلاميذه إلى البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية في وقت واحد ، وهذه الغاية مع صعوبتها ليست من المستحيلات .

ثم انتقلنا بسرعة إلى الأصول التي يجب أن يراعيها أساتذة اللغة العربية في المدارس الأجنبية ، فقلت : إن الخطر كل الخطر أن يفهم تلاميذ تلك المدارس أن عندنا لغتين : الفصحى والعامية ، فهذا الفهم الخاطئ يُشعر التلاميذ بأن اللغة الفصحى لغة ميتة وأن مكانها يشبه مكان اللاتينية بالنسبة إلى الفرنسية والإيطالية .

وهنا يحسن أن نسجل ما اتفقنا عليه في ذلك الحوار الطريف :

اتفقنا على أن التلميذ إذا كتب « محطة باب الحديد » فليس من واجب المدرس أن يشطب كلمة « محطة » ويضع مكانها كلمة « مَحَطَّ » بحجة أن هذا هو اللفظ المختار في كتب المطالعة المدرسية .

وإذا كتب التلميذ « بائع متجول » فليس من حق المصحح أن يشطب كلمة « متجول » ويضع مكانها كلمة « جائل » .

والتلاميذ جميعاً يقولون « قُط » بضم القاف كما يقع على ألسنة الناس في أكثر البلاد العربية ، فليس من الحتم أن نصح هذه الكلمة كل يوم وأن ننص على أنها بالكسر : لأن سيورتها مضمومة تشهد بأن الضم لغة من اللغات ، وإن لم تنض المعاجم على ذلك .

وإذا قال التلميذ « فُرشة » فليس من الواجب أن نفرض عليه أن يقول « فِرْجُون » لأن الفرشة ذاتها مخففة من الفرجون .

وإذا قال التلميذ : أجفف وجهي « بالقوطة » فلا تفرض عليه أن يقول « القَطِيلَة » لأن الكلمة الأخيرة مهجورة ومنسية وثقيلة ، ولا كذلك الكلمة الأولى فهي مأنوسة ومألوفة لجميع الناس .

وإذا قال التلميذ جلست على « السُّفرة » فلا تحم عليه أن يقول « المائدة » لأن السفرة كلمة فصيحة وإن كان العرف نقلها من وضع إلى وضع .

وإذا قال التلميذ « الليالي القمراء » فلا تلزمه بأن يقول « الليالي القمر » لأن الكتاب في العصر الحديث تسامحوا في هذه القضية ، ولأن أسئلة الامتحان بوزارة المعارف جاء فيها مرة كلمة « الليالي القمراء » ولأن للشيخ النجار كتاباً اسمه « الأيام الحمراء » ولأننا نستقل عبارة « الحدائق الغنّ » ونستخفّ عبارة « الحدائق الغنّاء » .

وإذا قال التلميذ « خطوة » بالفتح فلا توجب عليه أن ينطقها بالضم ، لأن الفتح لُغِيَّةٌ وهو اليوم أسهل وأفصح .

وإذا سكّن التلميذ بعض أواخر الكلمات فلا تفرض عليه أن يراعى التحريك في كل وقت ، إلا إذا كان يهمل أن تختبره في الإعراب لأن من المستبعد أن يكون العرب التزموا الإعراب في جميع المواطن ، وهم قد نصبوا على أنه يجوز نصب الفاعل ورفع المفعول عند أمن اللبس ، ومعنى ذلك أن الإعراب لا يُطلب إلا لتحديد المعاني .

وأغلب الظن أن العرب لم يلتزموا الإعراب إلا في موطنين اثنين : الشعر والقرآن . وإنما التزموا الإعراب في الشعر لمراعاة الوزن ، والتزموه في القرآن لأن القرآن نُظِمَ نظماً غنائياً فهو في أغلب أحواله كلام موزون رُوعِيٌّ في وزنه أن يصلح للترنم والترتيل .

واتفقنا على أن اللغة العربية ليست بدعاً بين اللغات ، فالتعبير بها يختلف باختلاف أقدار المخاطبين ؛ والمدرس الحق هو الذي يفرق بين ما يعبر به وهو يلقي درساً في مدرسة أولية ، وما يعبر به وهو يلقي درساً في مدرسة ثانوية ؛ والمدرس الغافل هو الذي يتكلم بطريقة واحدة في جميع الفصول .

واتفقنا على أن أساليب التعليم لا يجب أن تكون واحدة في جميع المدارس ، وإنما يجب أن نراعى مقتضيات الأحوال فنسلك في المدارس الأجنبية غير ما نسلك في المدارس المصرية . وأصول التربية نفسها توجب ذلك ، إنها توجب أن تُخاطَبَ كل تلميذ بأسلوب خاص بعد أن تدرس نفسه حق الدرس ، لأن الناس يختلفون في العقول كما يختلفون في الوجوه . وهذا لا يمنع من أن تكون هناك سياسة عامة يعامل بها جميع التلاميذ .

واتفقنا على أن مدرس اللغة العربية يحق له أن يكون أقرب الأساتذة إلى قلوب الطلاب ، لأن عنده فرصاً لا تتاح لسواه ، إذ كان يقدر بلباقته أن يجد في دروس المطالعة والمحفوظات والأدب مجالاً لمحادثة الطلبة في معان كثيرة تتصل بالعقل والقلب والوجدان .

ومدرس اللغة العربية يستطيع إذا كان من أصحاب المواهب أن يضع في صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية في الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية ، وفي مقدوره إن أخلص لواجبه أن يدفع تلاميذه دفعاً إلى رحاب الواجب في خدمة الوطن الغالي . وهو يستطيع أن يخلق منه رجالاً يفرقون بين المعاني الوطنية والمعاني الإنسانية ، بحيث يصبحون فيما بعد من دعائم الحياة القومية .

مدرس اللغة العربية مسئول قبل سواه عن خلق الروح المعنوى في المدارس لأنه يملك التعبير الجميل ، ولأنه ارتاض على سياسة القول ، ولأن لديه فرصاً كثيرة يستطيع بها توجيه التلاميذ إلى شريف الأغراض وكريم المعاني .

\*\*\*

ثم انتقلنا إلى موضوع شائك هو تحديد الفروق بين المدارس المصرية والمدارس الأجنبية . والظاهر أني أحب المدارس الأجنبية حباً يجعل ذنوبها حسنات ، وقد فصلت رأيت في حضرة رخابك وارتضاه ، فما هو ذلك الرأي ؟

من بين أبنائي ثلاثة يتعلمون بمعهد اللينسيه في مصر الجديدة . وهؤلاء الأبناء الثلاثة يختلفون عن أحيهم الأكبر الذي يتعلم في مدرسة مصرية : فأخوهم الأكبر يأخذ مصروفه على أسلوب رتيب لا يتغير ولا يتبدل ، أما أولئك الثلاثة فيزعجون المنزل بالمطالب المتنوعة في كل يوم ، وقد قاست أمهم ما قاست حين كنت بالعراق ، فلما اختبرث الأمر بنفسى ضيقاً به ذرعاً لأول وهلة ، ثم تبينت أن تلك المطالب المتنوعة هي شواهد الحيوية في الحياة المدرسية ، فالتلميذ لا يجد الفرصة ليهداً ويسكن ، وإنما يشعر بالمسؤولية تتجدد أمامه في كل لحظة : فهو اليوم في حاجة إلى كتاب ، وكان بالأمس في حاجة إلى كراس ، وهو غداً في حاجة إلى ثوب جديد للحفلات ، وهو بعد شهر سيقدم إلى المدرسة ديناراً للاشتراك في رحلة مدرسية ، إلى آخر ما لا آخر له من موجبات اليقظة في المدارس الأجنبية .

أقول إن هذه المطالب راعتني لأول وهلة ، ثم رأيت أن هؤلاء الأبناء حالهم أحسن من حال أيهم ، الأب المسكين الذي يخترق شوارع القاهرة في كل يوم ولا يراها ، لأنه لا يمتطي تراماً أو سيارة إلا وهو مشغول بمطالعة الجرائد والمجلات أو مراجعة بعض الأوراق .

أترؤنى على حق في استحسان هذا المذهب في الشقيف ؟

إن كنت مخطئاً فاعذروني لأن اتصالي بالأجانب حبب إلي الحركة وزهدني في السكون !



هل تصدقون أنني لا أستريح إلى الدعوة التي تكررّها الجرائد في الصباح والظهر والمساء ،  
الدعوة إلى الوفاق والاتحاد والائتلاف ؟  
هل تصدقون أنني أعتقد أننا نختلف أقل مما يجب ، وأنه ينبغي أن لا نعرف غير النضال  
والصبر ؟

هل تصدقون أن التجارب علمتني أن الراحة نذير الموت ؟  
هل تصدقون أنني نفرت من منزل جميل في باريس لأن أصحابه كتبوا على بابه عبارة تشير  
إلى أنه معروف بالهدوء ؟  
هل تصدقون أنني لم أسترح في بغداد إلا حين اهتديت إلى منزل تحيط به الضوضاء ؟  
الحق أن مزاجي أفسدته المدنية الحديثة فساداً لا يرجي له صلاح .  
ولكن هذه هي المدنية ، وهذا هو عقل العصر الحديث ، وأنتم تطلبون أن نروضكم على  
التخلق بأخلاق العصر الحديث .

\*\*\*

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟  
ثم انتقلنا إلى تعليم البنات فعرفنا بعد الأخذ والرد أن البنت في المدرسة المصرية تُقتل قتلاً  
بالدروس ، فلا تستطيع أن تكون بهجة البيت في المساء .  
والواقع أننا كنا أخطأنا في تقدير مناهج التعليم بمدارس البنات : فقد كانت البكالوريا  
واحدة للبنات والبنين ، مع أن المزاج يختلف بين النوعين أشد الاختلاف .  
وقد لوحظ أن البنات في المدارس الأجنبية يعاملن معاملة تقوم على أساس العطف والرفق ،  
والمفهوم عند الأجانب أن البنت إنما تتعلم لتصلح تمام الصلاحية لتكون ربة بيت .  
ولوحظ أيضاً أن مديرات المدارس الأجنبية يحاولن أن يعرفن كيف تعيش العائلات التي  
تجىء منها التلميذات ليستطعن تلوين الحياة المدرسية بألوان مختلفات .  
وهذا شيء قد لا تعرفه المدارس المصرية : لأن الصلات قد تكون مقطوعة بين المدرسة والبيت .  
والظاهر أنني لا أزال أستجيد الوصف الذي أطلقته على مدارسنا منذ أكثر من عشر سنين  
حين سميتها « مجازر بشرية » فنظام هذه المدارس لا يتيح فرصة للتعلم ، وإنما يلهي الطلبة  
بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون .  
وسيجيء يوم يعرف الناس فيه أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية ، لأنهم كانوا  
يعرضون على الطالب علوماً قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق .  
ولو شئت لقلت إن المدارس الفرنسية تُريح التلاميذ من الدروس يومين كاملين ، ومع ذلك  
لم يقل أحد بأن الفرنسيين تخلفوا في الميادين العلمية .

ولو شئت لقلت إن الامتحانات عندنا لا تزال جائزة الميزان ، فليس من المعقول أن يكون تلاميذنا من الضعف والجهل بالمنزلة التي توجب أن لا ينجح من كل مئة غير عشرين أو ثلاثين .

وهناك مجموعة يعرفها جميع المعلمين ، وهي مجموعة الأسئلة الخاصة بالامتحانات العمومية ، ونظرة واحدة إلى تلك المجموعة تشعر المنصف بأن الممتحنين لا يرون التيسير من الأمور ذوات البال ، والأساتذة أنفسهم يحتاجون إلى تأمل يسير حين ينظرون إلى الأسئلة المسطورة في تلك المجموعة ، فكيف يصنع التلاميذ وبينهم وبين أساتذتهم من الفروق ما تعرفون ؟

ولو شئت لقلت إن أسئلة الامتحانات العمومية يضعها رجال مكدودون من بين المفتشين والمراقبين ، والعقل يفرض أن يتفرغ لوضعها جماعة من الأساتذة ينقطعون إليها أسبوعاً أو أسبوعين حتى تسلم من العنت والإرهاق .

أحب أن يشعر التلميذ المتوسط بأن من حقه أن ينجح ، أحب أن يشعر التلميذ الضعيف بأنه قد ينجح إذا ضاعف من نشاطه وبذل ما يملك من العافية في الاستعداد للامتحان . ولكن هذه آمال لا تتحقق إلا إذا غير الممتحنون ما بأنفسهم فعرفوا أن الشهرة بالشدة والعنف مطلبٌ سخيف .

ثم ماذا ؟

ثم تحدثنا عن الصلة بين المدرسة والبيت ، واتفقنا على أن الواقع أننا نتكلم ولا نفعل . وأين المدرس الذي يجد من الوقت ما يزور فيه بيوت التلاميذ ؟ وأين الناظر الذي يجد في جيبه ما يسعفه بأن يقيم للتلاميذ أو آبائهم حفلة أو حفلتين ؟ لقد حاولت ذلك بنفسى ثم عجزت ، لأني كنت أخرج من المدرسة مكدوداً لا أصلح لشيء .

ولو شئت لصرحت بأن المدرسين يعجزون عن متابعة النشاط المدرسي ، لأن المناهج لا تقيم له أي ميزان ، وهو سُخرة يقوم بها المدرسون بلا جزاء .

أما بعد فهذه صورة لساعة لطيفة قضيتها مع الأستاذ رخا بك ، فإن أعجبته هذه الصورة فذلك ما أرجوه ، وإن رآني أذعت ما لا ينبغي أن يذاع فليعرف أن هذا مذهبي ، وعليه أن يعقل لسانه حين يراى .

يا مصر .

إنك تستعدين لأخطار عظيمة في بناء الجيل الجديد ، فاعرفي ما تأخذين وما تدعين ، واحذري أن يعتقد أبناءك الأوفياء أنهم لا يلقون منك حسن الجزاء .

وأنتم أيها المدرسون .  
ثقوا بأن واجبك الأول هو التغلب على المصاعب ، المصاعب التي تواجهكم في الحياة  
المعاشية والحياة المدرسية ، واعرفوا أن الاخلاص للواجب هو الكفيل بأن يرفع عن كواهلهم  
أثقال العيش وأعباء التعليم .  
إن التدريس مهنة لا يعرف فيها الراحة إلا من يُتعب نفسه في تأدية الواجب ، ولا يشقى  
في هذه المهنة إلا من يؤديها بتهاونٍ واستخفاف .  
إن العناية التي تبذلونها في إلقاء الدروس تُعدى تلاميذك بالجد والنشاط ، وتروضهم على  
النظام ، وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون وما يقرأون .  
وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ ، فاحذروا أن تُعذّبوهم بالضجر واليأس ، وتذكروا دائماً  
أن المدرس المنشرح الصدر ، المبتهج النفس ، هو وحده الذي يقدر على جعل المدرسة أحب  
إلى التلميذ من كل مكان .  
إن في الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذك فاعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة  
ما يدفعون به متاعب الحياة في الأيام المقبلة . والله بالتوفيق كفيل .

---

## ٤٧

وقع حادث لم يخطر في البال ، وستكون له عقايل .  
 لقيني الأستاذ عبد الحليم الغمراوي بشارع الفلكي مصادفةً فقال :  
 — كيف نسيت جريدة المصري ، يا دكتور ؟  
 — ما نسيته ، وقد كانت أول جريدة زرته بعد الرجوع من بغداد .  
 — هل تستطيع أن تتفضل بمقالة عن حديث الصيام ؟ أم تخاف غضب الحكومة ؟  
 — أنا لا أخاف الحكومة يا جبان ، وهل تظن أن الحكومة تحرم على رجل مثل أن ينشر ما  
 يشاء ، حيث يشاء ؟

\* \* \*

ولكن ما الذي أكتب في حديث الصيام بجريدة المصري ؟  
 لقد كنتُ صاحب الفضل في هدم التقليد السخيف الذي يوجب أن يكتب حديث الصيام  
 رجل واحد ، وفي موضوعات متصلة بالدين .  
 أنا الذي أرحت الجمهور من استبداد أغبياء الفقهاء بالصحف اليومية ورغبتهم المبتدلة في  
 أن يشغلوا الصائمين كل يوم بأحاديث الفضائل والردائل والمباحات والمحظورات .  
 وقد مات الشيخ التفتازاني وهو يحقد على أشع الحق لأني أزحت كابوس قلمه عن صدر  
 جريدة الأهرام في شهر رمضان .

\* \* \*

ماذا أكتب ؟ ماذا أكتب ؟  
 تمثلت لي العزلة التي أعانيها بضيا ع حظي من ليلي المريضة في الزمالك ويلي المريضة في  
 العراق ، فكتبت أقول :

---

## إلى متى الصوم يا قلبي ؟

قلبي !

كيف أصبحت ؟ وكيف أمسيت ؟ فما عدتُ أسمع خفوقك في صباح ولا مساء !  
صام الناس منذ أيام فتذكرتُ صيامك .

إنهم يصومون من الفجر إلى الغروب ثم يفطرون ، وأنت يا قلبي تصوم ليلك ونهارك ؛  
وأخشى أن تصوم دهرك .

وسينقضي صيام الناس بعد أسابيع حين يجيء العيد ، وتبقى وحدك بلا عيد .

أسمع يا قلبي ؟

لقد كان شهر الصوم فرصة لمن تعودوا في مثل هذا الموسم أن يقيموا منحةً على الآداب ،  
وملطةً على الأخلاق .

وصومك يا قلبي هو الجدير بأن أذرف عليه غاليات المدامع .

ولو كان لصومك نهاية لتعزيتٍ وتأسيت ، ولكني أعرف أن بلاءك بالصوم سيطول ،  
ويؤذيني أن أعترف بأنني لا أملك رجعتك إلى ملاعب هواك .

وكيف أملك ذلك وقد شاركتك في صيامك ؟

أما رأيت يا قلبي كيف تمضي الليالي والأيام وأنا مبلبل الخواطر لا أعرف غير بياض  
القرطاس وسواد المداد ؟

قلبي !

إن بعض الناس ينافقون فيفطرون في السر ، ويصومون في العلانية ، وقد استوى سرّك  
وجهرك فألفتَ الحرمان من أطايب الحسن وغرائب الجمال .

كنت أنتظر أن أصير شاعرًا على حسابك ، فأين أنت يا قلبي ؟

كنت أطيّر إلى دنيا المجد والحب بجناحيك ، فماذا صنع الدهر بجناحيك ؟

كانت القاهرة لا تسعني في ليالي رمضان ، وكنت أملأ المحافل والأندية بالجدل  
والضجيج ، وأنا اليوم لا أعرف غير القرار في بيتي لأداوى جراحك يا أشرف جريح ، فمتى

يعود إليك نشاطك لأصاول بك الدنيا والناس ؟

يعز عليّ يا قلبي أن أصبح بالرغم مني حكيمًا من الحكماء .

اعترف ، أيها القلب الصائم ، بأنك تخذل نصيرك وأخاك .

— ٣٨٤ —

اعترف ، أيها القلب الضائم ، بديوني عليك .  
 ألم أخرج على تقاليد المجتمع مليون مرة ومرة من أجلك ؟  
 ألم أضيع ألوف المنافع في سبيلك ؟  
 فما الذى يضريك يا قلبى لو تركت صومك يوماً أو بعض يوم لأواجه بك الحياة لحظة أو لحظتين ؟

لقد شمت الشامتون بالشاعر الذى يعيش في مصر الجديدة ولا يرى مصر الجديدة ، ويخترق شوارع القاهرة ولا يحسّ جمال القاهرة ، ويدخل عليه رمضان فلا يحتاج لزيارة صديق أو استقبال حبيب .

كنت أرى الدنيا بك يا قلبى ، فأين أنت يا قلبى ؟  
 أين أنت ؟ حدثني أين أنت ؟ فقد ذهب صيامك بهيامي ، وقضى على عنفواني .  
 قلبى !

لقد تحطمت معاول الأعداء وعجزوا عن هدم بنيانى ، فكيف تهدمنى أنت ؟  
 أحب أن أعرف كيف شاءت المقادير أن لا أرى المتاعب والمضجرات إلا على يدى من أحب ؟

لقد بدأت أبغضك يا قلبى ، ولكن يعز عليّ أن تعيش بلا صديق ، فإن بقيت بجانبك أعطف عليك وأواسيك فاعرف أن ذلك بقية من كرم الوفاء .  
 قلبى !

إلى متى الصوم يا قلبى ؟  
 إن الناس يصومون ليلقوا من الله حسن الجزاء ، وصيامك يا قلبى من أشنع الذنوب ، فاعترف بذنبك يا غافل واجرح صيامك بنظرة أو نظرتين قبل أن تطويك الأيام فلا يُنصَبَ لحفوقك ميزان .

وموعدنا إن شئت طغيان الفتون حيث تعرف وأعرف .. هل فهمت ؟  
 أما أنا فأسأسوقك إلى حيث أريد ، وإن أبيت وتمردت . وإلى اللقاء في مساء الخميس .

\* \* \*

وبعد يومين من ظهور هذا المقال مررت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف فنبهني الأستاذ محمد بيلى الفار إلى أن سعادة العشماوى بك سأل عني ، فطربت وظننت أنه سيشرني بأن حالتي قد سوّيت بوزارة المعارف وأن مرتبى ارتفع بحيث أستطيع الإنفاق بسخاء على مرضاى من الملاح !

وما كدت أدخل على سعادة العشماوى بك حتى نهض واقفاً ، فكيف خرج هذا الرجل

— ٣٨٥ —

على « التباله » الذى عُرف به حين يستقبل الزائرين ؟ .  
 كيف يقف هذا الرجل لاستقبالى وبينى وبين مكتبه خطوات طوال ؟ .  
 — دكتور ! .  
 — مولاي ! .  
 — لقد أزعجتني مقالاتك في جريدة المصرى .  
 — أو قرأتها ؟ .  
 — أنا أقرأ كل ما تكتب : لأنك من ذخائرنا الأدبية .  
 — ومن أجل هذه المقالة تسأل عني ؟ .  
 — أنا أسأل عن صحتك الغالية .  
 — أجزل الله ثوابك ، يا سعادة الوكيل ! .  
 — اسمع ، يا دكتور ، نحن في السنة الماضية حشدنا إلى بغداد مؤتمرًا طبيًا عربيًا مداواة ليلي  
 المريضة في العراق ، فما رأيك إذا عقدنا المؤتمر الطبى العربى في هذه السنة بالقاهرة لمداواة  
 طبيب ليلي .  
 — دوائى عند ليلاي ، يا سعادة الوكيل ، لا عند الأطباء .  
 — إنك رفضت السفر إلى العراق وفيه شفاؤك .  
 — أنا رفضتُ السفر إلى العراق لأنى :  
 أخافُ العيونَ السودَ فليرحم الهوى فجيرةً أهلى يومَ أقضى وأبنائى  
 — نعدّل الغرض بعض التعديل .  
 — وكيف ؟ .  
 — ندعو المؤتمر الطبى للانعقاد بالقاهرة لمواساة طبيب ليلي .  
 — لا بأس .  
 وما هى إلا لحظة حتى كان السيد على مراد ينسخ بالمكتاب خطاب العشماوى بك إلى  
 الدكتور على باشا إبراهيم يوصيه بعقد المؤتمر الطبى الحادى عشر بالقاهرة لمواساة طبيب ليلي ،  
 هداه الله وشفى ليله ! .

\* \* \*

أمن أجل مواساتى ينعقد المؤتمر الطبى في القاهرة ؟  
 هو ذلك ، أو هذا هو ، كما يعبر أهل بغداد .

\* \* \*

بفضلك يا ليلي صرثُ شخصيةً عالمية .

( ليلي المريضة في العراق )

— ٣٨٦ —

بفضلك يا ليلي رفعتي الحبُّ درجات .  
بفضلك يا ليلي صرْتُ في وطني من الأطفال المدلِّين .  
أحبك يا ليلي ، فاذا كريني بالشعر والدمع يومَ أموت .

\* \* \*

سينعقد المؤتمر الطبي في القاهرة لمواساتي .  
الله أكبر ، والله الحمد ! .  
وماذا يصنع الحاسدون والحاقدون والأعداء ؟ .  
أنا أعرف العواقب ، ستُغْلَفُ مؤلفاتي من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم  
بعد حين ، وسوف يعلمون .  
الفناء لأعداء الآداب والفنون .  
أما طيب ليلي فله الخلود .

أرباه أنقذني فأنت رَمِيتني	بقلبٍ على عهد الأحباء بكاءٍ
أرباه لا تفعل فإني أرى الهوى	على وَقْدِهِ بالقلب أنفاسَ رَوحاءٍ
تباركت ما الجناتُ من دونِ لوعةٍ	سيوى بقعةٍ في غابة الموت جرداءٍ

—————



أقبلتُ بكل نشاطى على الكفاح فى خدمة اللغة العربية بالمدارس الأجنبية ، ولم يفتنى أن أشاغب الأساتذة الأفاضل على الجارم وأحمد أمين وطه حسين فى مقالات نشرتها بمجلة الرسالة ومجلة الرابطة العربية ، ثم وثبت فنشرت مقالاً فى جريدة الإهرام أشاغب به من يستكبرون على تعليم اللغة العربية من أعضاء البعثات .

وكنْتُ أريد بهذا الكفاح المختلف الألوان أن أصرف قلبى عن هوى الليليات ، ولا سيما بعد ظهور « كتاب التصوف الإسلامى » وهو كتاب يرشحتى لمشيخة الأزهر الشريف ، إن احتاج الأزهر إلى شيخ يفهم أسرار الفلسفة الإسلامية .

ولكن هذا التعقل لم يَدُم طويلاً ، فقد نشرتُ فصلين بمجلة الرسالة عن بعض غرامياتى فى باريس ، وبهذين الفصلين ساءت سمعتى من جديد فى بيئات المنافقين من عباد الله الصالحين ! اشتكرتُ فى المؤتمر الطبى العربى الذى سيعقد فى القاهرة لمواساة طبيب ليلى . وأنا أنتظر اليوم الذى آنس فيه بالوجه الصبّاح ، والعقول الصّحاح .

\*\*\*

سيُغيّر كل شيء يوم ينعقد المؤتمر الطبى بالقاهرة . وسيكون لهذا المؤتمر تأثيرٌ فى القاهرة كما أثر أشدُّ التأثير فى بغداد . ستظفر القاهرة بحيوية جديدة تزيدها فتوتاً إلى فتون . ستعود القاهرة إلى الأفراح ، والليالى الملاح . فمتى يجيء شهر ذى الحجة لتلبس القاهرة من الحلال بعض ما لبستُ بغداد ؟ متى ؟ متى ؟ متى ؟ فقد اشترك فى المؤتمر نحو ستائة طبيب ، وهذا الجمهور خليق بأن ينقل القاهرة من حال إلى أحوال .

\_\_\_\_\_

## ٤٩

لم يكن يهمنى من أعضاء المؤتمر غير أطباء العراق ، وإن كنت شديد الحرص على التشرف برؤية من يفدون من سورية وفلسطين ولبنان واليمن والحجاز وتونس ومراكش والجزائر ومن إليهم من أطباء العرب والمسلمين .

ورأيت في الجرائد العراقية أن العراق سيوفد أربعين طبيباً للاشتراك في موسسة طبيب ليلى، شفاء الله وهداه !

ورأيت في تلك الجرائد أن العراق سيوفد مع الأطباء عددًا من رجال وزارة المعارف العراقية أسوةً بما صنعت مصر في المؤتمر الذى عُقد في بغداد : فقد حضره عددٌ من رجال وزارة المعارف المصرية .

فقلت في نفسى : هذه فرصة أرى فيها الراوى والجمالى والألوسى .

\*\*\*

— ألُو .

— ألُو .

— مين يتكلم ؟

— طبيب ليلى .

— وأنا مين ؟

— ما أنت « مين » وإنما أنت « مَنُو » !

— عرفتنى ؟

— نعم ، عرفتك .

— وأنا مين ؟

— أنت مَنُو ؟

— ومن مَنُو ؟

— أحد أقارب ليلى .

— أنا شلاش .

— أهلاً وسهلاً ومرحباً بأشبال الفرات .

وبعد لحظة عرفت أن أطباء العراق حضر منهم وفدٌ

برئاسة الدكتور سامى شوكت .  
 لم يبق شكٌ في أن القاهرة تموج بالوافدين من أطباء العروبة .  
 لم يبق شكٌ في أن القاهرة لم يبق فيها موضع قدم أو عربة للراجلين والراكبين .  
 لم يبق شكٌ في أن القاهرة لم يبق في فنادقها أو ملاهيها مكان .  
 لم يبق شكٌ في أن القاهرة أمسّت في ازدحام واشتباك .  
 لم يبق شكٌ في أنى سارى وجوه الضيوف حيثما توجهت .  
 وكيف تخفى وجوه المئات من الرجال والنساء وهم من أقطار مختلفات ؟

\* \* \*

استعددت لزيارة القاهرة عسانى أؤدى بعض الواجب في تحية أعضاء المؤتمر الطبي .  
 ثم فكرت في التحرز من فتنة النساء ، فقد كان لى معهن توارىخ سجلتها في صدر هذه  
 المذكرات .

وخطر بالبال أنى كنتُ ألقىت محاضرة بالجامعة المصرية عن قصة آدم وحواء ، وقد قلتُ في  
 تلك المحاضرة : إن قصة آدم وحواء رمزية ، والغرض منها تحذير الرجال من فتنة النساء .  
 وكانت حجتى أن الجنة لم تُخلق بعد ، ولو أنها كانت تُخلق لاهتدى إليها العلماء الذين  
 عرفوا أسرار ما في الكون من جواذب الكهرباء .  
 لو أن الجنة كانت تُخلقت وعرفها آدم لدخل عليه من نورها ما يُنتجيه من طُغيان المرأة وهى  
 مخلوقٌ منسبٌ في الرقاعة والسُخف والهذيان .  
 وقد قال الدكتور طه حسين يومئذٍ لى لم أبتكر هذا المعنى ، وإن له أصولاً في كلام  
 الفلاسفة من القدماء .

وما أعرف من هم الفلاسفة الذين قالوا بذلك ، فعددُ الفلاسفة يزيد على عدد المهوم  
 والأحزان ، ولكنى أعرف أن قصة آدم وحواء عبرة على أى حال ، فإن كانت حقيقية وذلك  
 رأى القرآن المجيد فهى درس يُلقيه رب العزة والجبروت ، وإن كانت خيالية كما افترض فهى  
 كذلك درسٌ مُفيد .

والمفهوم من قصة آدم أنه عصى ربه لأنه أطاع زوجته ، كما يعصى المتفرنجون ربهم لأنهم  
 يطيعون زوجاتهم ، وهل يقل جمال الجنة عن جمال باريس ؟  
 - كان آدم نبياً ، ثم أضلته امرأة ، بشهادة القرآن .  
 فكيف أنجو من ضلال المرأة ، ولستُ من الأنبياء ؟

لى مع النساء توارىخ وتوارىخ .  
وقد انتهت من تلك التجارب إلى أن المرأة للرجل عدوٌ مُبين .

\*\*\*

المرأة مخلوق جميل ولكنه سخي ، لأنها تجهل ما فُطِرَتْ عليه من الضعف ، وهى لا تسيطر ولا تستطيل إلا على كرام الرجال .  
والرجل الكريم يراعى عواطف المرأة بفضل ما فُطر عليه من الهيام بالجمال والرفق بالضعفاء ، ولكنها تجهل ذلك ، وتظن أنه لا يراعيها إلا بفضل ما تملك من السحر والجاذبية ، وفى المرأة سحرٌ وجاذبية وإن كانت شوهاء ، لأنها بابٌ إلى الضلال .

المرأة !

المرأة !

غضبةُ الله على جميع بنات حواء !  
لن ينقضى عَثْبِي على ربي حين ابتلانا بهذا المخلوق الذى يجمع بين الرفق والعنف .  
المرأة الجميلة قد تؤذى زوجها بلا تهييب .  
والمرأة الدميمة قد تستعبد زوجها بلا ترفق .  
فلأية حكمة تُخلق هذا الجنس « اللطيف » ؟

\*\*\*

آمنت بالله والحب !  
تُخلق هذا الجنس ليستطيع رجلٌ مثلى أن يحاور ليلي وظمياء .  
وما قيمة ذلك فى حُكم العقل الصحيح ؟  
أحب أن أعرف كيف صيغَ نظام الوجود على هذا الأسلوب ؟  
ومتى نُخلّص من بلاء هذا الوجود ؟  
إن لله حكمةً عالية حين وعدنا بالجنة ، فسنسلم فى الجنة من طغيان النساء ، إن كان لنا إلى الجنة سبيل !  
المرأة تملك أصول الشهوات وهى باب الدمار والخذلان ، وما أطاع رجلٌ امرأته إلا ذلٌّ وهان .

وأعظم مزية لنبي الإسلام هى دعوته إلى الحذر من النساء .  
لا ، بل أعظم مزية لنبي الإسلام هى أن يقترن بتسع نساء ثم يسلم مما فُطِرَتْ عليه المرأة من احتراف الزور والبهتان .  
إن المزية الصحيحة لنبي الإسلام هى أن يقترن بتسع نساء ثم لا يضل ، مع أن آدم اقترن

بامرأة واحدة فأنزلته من السماء إلى الأرض ، وقهرته على أكل الفول بعد أكل التفاح !  
أعاذنا الله من كيد النساء ، فإن كيدهن أعظم من كيد الشياطين !

\*\*\*

ولكن ما الذى أشكوه من المرأة حتى أصبَّ على رأسها هذا السَّوط ؟  
ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غُلُوها في الغيرة ، فهي تخاف من جميع المواجهات وجميع  
الظنون ، ولا تترك للرجل منفذاً واحداً من منافذ الحرية ، وهي تؤدُّ لو استطاعت أن تسجنه  
في البيت حتى لا تقع عليه العيون .  
والمرأة لا تفهم أن الحياة تفرض على الرجل أن يتحول من شأن إلى شئون ليصل إلى فهم  
المجتمع الذى يُراوِحه ويغاديه في سبيل الرزق أو في سبيل المجد .  
المرأة لا تطمئن ولا تستريح إلا إذا وثقت بأن زوجها قطعة من الثلج لا تطلع عليها الشمس ،  
المرأة لا يرضيها إلا أن يكون زوجها ألوبة تلهو بها كيف تريد ، وهي مع ذلك تتمنى أن يكون  
أقوى الرجال وأعظم الرجال ، وكيف يقوى ويعظم وهو في سجن حواء ؟  
المرأة هي الجحيم الذى نتمرن به على الإقامة في سقر . هي البلاء الذى يصبه الله على رؤوس  
العباد ، هي الشقاء المعجل والكرب الذى يسبق الموت .  
والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد ، هي التى تفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، ولها  
مداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس .  
ولا يطيع زوجته إلا الضعفاء من أشباه الرجال .  
ومع أن الرجل يُعزُّ المرأة بغناه وعافيته فهي تستريب من ظفره بالغنى والعافية ، لأنها ترى  
في ذلك باباً لتطلعه إلى سواها من النساء .  
المرأة تحبُّ للرجل كل شيء ، على شرط أن تكون هي التى تُعطي وتمنع .  
لقد كنتُ صالحاً للكفر بالله والرسول ، ثم صدَّتني الآية الكريمة :  
« إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » .  
فهذه الآية تشهد بأن القرآن نفحة سماوية .  
الرجل يتقلب ليلاً ونهاره في مجاهدة الخصوم والأعداء ليتزع من أيديهم لقمة يسدُّ بها رَمَق  
من في البيت ، وهو يرجو أن يجد الراحة حين يدخل البيت ، ثم تقهره المرأة حين تلوم على أن  
يعترف بصدق من يقول :  
أَطُوفْ مَا أَطُوفُ ثُمَّ آوَى إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتِهِ لَكَاعِ  
وما في الأرض عدوٌ إلا وهو خَلِيقٌ بأن يتعمى عن بعض عيوبك ، إلا المرأة فهي وحدها  
العدو الذى لا يغفر ولا يصفح .

— ٣٩٢ —

زادها الله ذلةً إلى ذلة ، وضعفًا إلى ضعف !  
ولم يكتف النساء بالسيطرة على الرجال في البيوت ، وإنما يُردن السيطرة على الحياة الاجتماعية والسياسية ، ويطالبن بحرية الانتخاب والمساواة في الميراث .  
وما وقع ذلك إلا لأن الرجال حُرِموا فضائلهم الأساسية فهم اليوم يتظرفون ليقال إنهم متمدّنون !

غَضَبَةُ الله والملائكة على رجال هذا الزمان !

: \* \* \*

ولكن هل يمكن نسيان فضل المرأة في حياة العظماء ؟  
المرأة تؤثر في حياة العظماء بلا جدال ، لأنها توقظ فيهم غريزة المخاطلة والنفاق والرياء ، وهي فضائل يعدّها الغافلون من العيوب .

بفضل المرأة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونراوغ .  
بفضل المرأة عرفنا أن صِفُو الحياة تحيط به شوائب .  
بفضل المرأة راضتنا المقادير على الصبر الجميل .  
وهل هناك أصبر من الذى يحمل الحية في كُفِّه طول الحياة ؟

\* \* \*

وبلائي في دنياى أعظم بلاء : لأنى متزوج وعاشق .  
أنا أرى المرأة في البيت وفي خارج البيت ، أراها حيثما توجهت : لأن الله كتب أن أكون من الأشقياء .

إذا دق التليفون في المنزل سمعته زوجتى ، لأن له وَصْلَةً تُسمع من في الطبقة الأولى ومن في الطبقة الثانية ، وزوجتى تظن أن جميع المحادثات التليفونية آتية من سفير الوجد في الزمالك وحُلوان ، وقد افتضحت بهواى في الزمالك وهواى في حُلوان .

وإذا ذهبْتُ إلى باريس فهي تظن أنى ماضٍ إلى مخادنة مرجريت .  
وإذا مضيتُ إلى بغداد فهي تظن أنى ماضٍ إلى مغازلة ظمياء .

وإذا تقلّبت من مدينة إلى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظننتى على ميعاد مع حسان الإسكندرية أو ملاح أسيوط . فمن يُفهم هذه المرأة أنى لا أريد غير فهم سرائر النساء : لأقدم إلى الأدب ألوانًا من الدراسات النفسية ؟

وللمفتونات بأدى أوهاّم أبشع وأقبح ، فهنّ يَحْسِنُن أنى من كبار المخادعين ، وينسَيْن أنى رجلٌ له أهلٌ وأبناء .

وصاحبة الضحكة الرئانة لا ترحمنى : فهي تضحك في التليفون ضحكات أثيمة توقظ

الأموات ، وقد نهبتها إلى خطر هذا الصنيع فلم تعقل ولم تنزجر ، مع أنها من أزهار الدقهلية وطن أم كلثوم .

كان الإمام الشافعي رضى الله عنه يقول :

« من لم يتزوج بمصرية فليس بمحصن » .

وأنا تزوجت ستريسية ، وعشقت منصورية ، وهويت أسبوطية ، وابتليت بدمياطية ، وثيمت بحلوانية ، وشقيت بإسكندرانية ، وأوذيت بجيزاوية ، وافتضحت بطنطاوية ، أفلا أكون مُحصنًا بعد الغرام بكل هاته الجنيات ؟

ماذا تريد منى مصر وقد أذعت جمالها الفتان في المشرقين والمغربين ؟

وماذا يريد منى العراق ، وقد صيرت ليلي عراقية بعد أن كانت نجدية ؟

وماذا تريد منى زوجتى وقد حفظت عهدا فزهدت في « الرءاء الملتوغة » بين الموصل وباريس ؟

\* \* \*

المرأة !

لعنة الله على جميع بنات حواء ، وإن كنَّ في صَبَاحَةِ ليلي وَخَلَاوَةِ ظمياء وملاحة سُعاد .  
ومع ذلك سأنتقل من مصر الجديدة إلى القاهرة لأحیی الأطباء الذين تجشموا ما تجشموا

لمواساة طبيب ليلي ، شفاه الله وهداه !

ولكن لا بد من الاحتراس من فتن النساء ، فما أريد أن أصنع في مؤتمر القاهرة ما صنعت في مؤتمر بغداد .

أين أعضاء المؤتمر الطبى ؟

أين ؟

\_\_\_\_\_

طوفتُ بجميع أرجاء القاهرة فلم أر أثراً للضيوف القادمين من الحجاز واليمن وسورية وفلسطين ولبنان وتونس ومراكش والجزائر والعراق .

فأين ذهب أولئك الضيوف ؟

أين ذهبوا ؟ أين ذهبوا ؟

ابتلعتهم القاهرة فلم يُحسَّ لهم أحدٌ بوجود .

فما هذه القاهرة ؟ ما هذه المدينة التي استفحلت واستطالت على جميع مدائن الشرق ؟ إن القاهرة أصبحت تضارع أكبر الحواضر الأوربية والأمريكية ، وفيها خصائص تفردت بها بين حواضر الشرق وحواضر الغرب ، وهي الشاهد على أن اللغة العربية صالحة للسيطرة والاستعلاء .

أليس من مفاخر العروبة أن يكون لها حاضرة مثل القاهرة ؟

إن من حق جميع العرب والمسلمين أن تنشرح صدورهم حين يتذكرون أن لهم عاصمةً تجمع بين الملائكة والشياطين ، وتؤلّف بين الهدى والضلال .

وما الذى تطلبه القلوب والعقول والعيون ثم لا تجده فى القاهرة ؟

لقد سمعنا أن الدنيا ستصلح يوماً فيعيش فيها الحمل بجانب الذئب ، والظبى بجانب الغضنقر ، والحمامة بجانب الثعبان .

وقد تمّ ذلك أو كاد فى القاهرة : فهى اليوم ملتقى الناس من جميع الأجناس .

إن كنت عربياً فلك فى القاهرة إخوان ، وإن كنت عجمياً فلك فى القاهرة أمثال ، وإن كنت أوروبياً أو أمريكياً فلك عصاباتٌ ترعاك من سكان العالم القديم والعالم الجديد .

فى القاهرة جرائد ومجلات بأشهر اللغات ، فتقرأ فيها مطبوعات بالفارسية والتركية والأردية والصينية واليابانية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية واليونانية .

أما اللغة العربية فلها فى القاهرة سلطانٌ لم تظهر بمثله يوم استظلت بأفياء قرطبة وبغداد . والشاب العربى لا يستطيع أن يقرأ ما تُصدره مطابع القاهرة فى كل يوم من كُتب وجرائد ومجلات ، ومن هنا كان العرب فى القاهرة ينقسمون إلى جماهير مختلفات الأذواق : فلهى الأزهر قراء ، ولهى الحلمية قراء ، ولقهوات شارع عماد الدين وشارع فؤاد قراء ، ولسكان



الجيزة قراء ، ولمصر الجديدة قراء ، وللزيتون وحدائق القبة قراء ، وللمعادي وحلوان قراء ، ولكل حزب من الأحزاب السياسية والدينية جرائد ومجلات ، ولكل جماعة ألوان من الأذواق والآراء .

القاهرة تحتاج اليوم إلى رجلين لتأريخ ما فيها من جدٍّ ومُجون .  
تحتاج القاهرة إلى رجل مثل الجاحظ ليدوّن ما فيها من المذاهب الأدبية والفلسفية والدينية والاجتماعية .

وتحتاج إلى رجل مثل بديع الزمان يدوّن ما فيها من أخبار الهزل والمجون وحيل اللصوص .  
القاهرة اليوم مدينةٌ خطيرةٌ جدًّا : ففيها يشتبك الجد والهزل ويصطرع الهدى والضلال .  
في القاهرة طوائف من المغفلين ، وطوائف من المخنكين ، ويكفى أن يكون فيها الأزهر والجامعة المصرية .

في القاهرة أقطاب الملحدين وأقطاب المؤمنين .  
في القاهرة تحلفاء الحسن البصرى وتحلفاء إبليس .  
في القاهرة أتباع القرآن والتوراة والإنجيل .  
في القاهرة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة ، والموعودون بالنعيم والجحيم .  
في القاهرة أحياء باريسية ، وأحياء بغدادية ، وأحياء دمشقية ، فيها مشابه من جميع البقاع وجميع البلاد .

فيها منازل لا يدخلها الفأر بسبب النعمة ، ومنازل لا يدخلها الفأر بسبب الجوع .  
في القاهرة ناسٌ يموتون من الظمأ ، وناس يموتون من الشراب .  
في القاهرة حدودٌ تجرحها خطرات النسيم ، وفيها وجوه تعجز عن لفحها الثيران .  
ومن الذى يصدّق أن في أدباء القاهرة رجالاً لهم مطابع لنشر مؤلفاتهم الخصوصية ؟  
من الذى يصدّق أن في القاهرة مئات من الأدباء لهم في منازلهم مكتبات تشتمل على الألوف من نواذر المخطوطات ؟

من الذى يصدّق أن إبليس يقف مبهوراً أمام حيل الفجور في القاهرة ؟  
من الذى يصدّق أن رضوانٌ ينتظر أن لا يجد مكاناً في الجنة بعد أن يحتلها القاهريون ؟  
من الذى يصدّق أن أهل القاهرة يملكون من الحرية الصحفية ما لا يملك أهل باريس ؟  
من الذى يصدّق أن القاهرة تملك أكبر مجموعة من الوجوه القباح والوجوه الصباح ؟  
القاهرة !

القاهرة !

رحم الله القلب الذى يتفطر لحرمانه من نعيم القاهرة !

أليس في القاهرة محطة باب الحديد ، ومحطة الليمون ، ومحطة حُلوان ؟  
أليس في القاهرة شارع عماد الدين وشارع المدايح وشارع فؤاد ؟  
ليس في القاهرة مكان يُحرّم أدبهِ من أقدام الأسود وأقدام الأطباء .

\* \* \*

تنظر في شوارع القاهرة فتري شيخًا يُهطع لإلقاء عظمة في مسجد ، وتري فتى متأنقًا  
يمضي إلى موعد غرام في مصر الجديدة أو حُلوان ، وتري رجلًا يحمل أوراقه ليناقش الميزانية  
في مجلس النواب ، وتري فتاة تصاولك بعينين مصوغتين من السحر الحرام أو الحلال ، وتري  
فقيرًا مسكينًا يستجدي لقمةً يتبلّغ بها في الصباح أو في المساء .

القاهرة !

لَطَفَ الله بأهل القاهرة !

في القاهرة مئات من الأندية الخصوصية والعمومية ، وفيها ألوف من الزوايا والمساجد  
والحانات .

ألم تسمعوا أن الحكومة المصرية غضبت مرة فأغلقت مئة جريدة في يوم واحد ؟  
مئة جريدة ؟

إي ، والله ، مئة جريدة ، كان لها محررون وقراء ومشترون ، وإن ضعف بعضها وهان .  
في القاهرة جرائد لا يقرأها غير الرجال ، وجرائد لا يقرأها غير النساء .  
ولكل تحي من أحياء القاهرة ضروبٌ من الرموز والإشارات .  
ولكل فئة من الصالحين والماجنين أساليب في الرمز والإيماء .

في القاهرة قهوات سيدنا الحسين وسيدنا عماد الدين !

في القاهرة مئة زاوية للصوفية ، وفيها مئة عُزْرة لتدخين الحشيش !

القاهرة !

القاهرة !

ومن الذي يستطيع أن يتعقّب حركات العقول والأهواء في القاهرة ؟

من الذي يستطيع أن يحاور في الصباح والمساء رجال الصحف الصباحية والمسائية ؟

من الذي يتسع وقته لمسامرة الصحفيين القاهريين بعد نصف الليل ؟

من الذي يستطيع أن يسجّل حركات القاهريين قبل الشروق ؟

من الذي يفهم أن أهل القاهرة يموتون قبل الأوان بسبب الافراط في الكدح والكفاح ؟

من الذي يصدق أن من أهل القاهرة من يملأ الدنيا بالنشاط والحركة وفي جوفه خمسون

علة ؟

من الذى يصدّق أن فى القاهرة ألف خطيب فى فصاحة سحبان ؟  
من الذى يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط فى المنافسة والنضال ؟  
من الذى يصدق أن زكى مبارك سيؤلف كتاباً فى مثالب زكى مبارك ؟  
آه ، ثم آه !!

هذه القاهرة صارت موئل الخائفين ، وهى لأهلها مصدر خوف .  
يستطيع أصغر متعلم فى أى بلد عربى أن يحتل أكبر المناصب ، ولا يستطيع أكبر متعلم فى  
القاهرة أن يصل إلى القوت إلا بشقّ النفس .

ومن الذى يصدّق أننا نضيق عن ملاقة الأهل والمعارف والأصدقاء فى الأعياد ؟  
من الذى يصدّق أننا لا نرى شوارع القاهرة إلا كما يراها المعجلون . من عابرى السبيل ؟  
فى القاهرة موسم الشتاء حيث تُحشّر فيها غرائب الجمال من جميع الصنوف .  
وفى القاهرة موسم الصيف حيث تصل لياليها إلى أبعد حدود الحسن والطيب .  
وفى القاهرة تُعرّض جميع الفنون من الشعر والتمثيل والرقص والغناء .  
وفى القاهرة تُسمّع أصوات محمد رفعت وفتحية أحمد وحياة محمد وأم كلثوم وعبد  
الوهاب .

ولكن أين الوقت الذى نتابع به ما فى القاهرة من غرائب وأعاجيب .  
فى القاهرة كل شىء ، وليس لنا منها شىء ، نحن المجاهدين المكذوبين الذين كتب الله عليهم  
الفناء فى سبيل المجد أو فى سبيل المعاش .

هنيئاً لمن يزور القاهرة وعنده ذخيرة من الوقت والمال والعافية .  
وبؤساً لمن يعيش فى القاهرة بالسّماع لا بالعيان .  
ما أنت يا قاهرة ؟

وصدق من سمّاك « قاهرة » فالقاهرة فى عُرف أهل مصر هى المرأة اللّغوب !

\* \* \*

كيف أعيش فى القاهرة وأنا أشتغل سبّعة عشرة ساعة فى كل يوم ؟  
كيف أعيش فى القاهرة ولى فى البيت شاغل ، وفى عملى شواغل ؟  
كيف أعيش فى القاهرة ولى فيها ألوف من الأعداء والمنافسين ؟  
كيف أعيش فى القاهرة وأنا معرّض فى كل يوم لفتنة المباسم والعيون ؟  
كيف أعيش فى القاهرة وهى قاهرة ؟

قال اللاثمون : كيف تؤلف كتاباً عن « ذكريات باريس » وكتاباً عن « وحى بغداد »  
ولا تؤلف كتاباً عن « فنن القاهرة » وما يعلم اللاثمون أنى أسأل الله السلامة من الفتن ، ما ظهر

منها وما بطن ، لا يعلمون أن رماح الداء لا تطعن في الجُسوم كما تطعن رماح القاهرة في القلوب .

وهل نستطيع معايرة الحب في القاهرة وإلى من يمشى في شوارعها وُجَّه هذا الخطاب :  
وإنك لو أرسلت طَرفك رائدًا لقلبك يوماً أتعبتُك المناظرُ  
رأيت الذي لا كلُّه أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ  
وأي المدينة التي تزاخم القاهرة في مُساوَرَةِ القلوب والعقول ؟  
أي المدينة التي تُضِلُّ وتهدي كما تُضلُّ القاهرة وتهدي ؟  
إن الشيطان يجد في القاهرة مراتع لا يجدها في لندن ولا باريس ولا روما ولا برلين .  
هي صلة الوصل بين الشرق والغرب . والجمالُ المُخَضَّرُ هو أفنن ضروب الجمال

\* \* \*

لقد هربتُ من القاهرة وسكنتُ بمصر الجديدة في منزل يواجه الصحراء ، فهل أراى مع ذلك نجوُّ من فتن القاهرة ؟

وكيف أنجو وهي تلاحقنى عن طريق الإذاعة اللاسلكية وطريق التليفون ؟  
كيف أنجو من القاهرة وكان سحرها يتعقبنى في باريس وفي بغداد ؟  
كيف أنجو من القاهرة وهي قاهرة ؟  
أردت أن أخصص يوماً من كل أسبوع لمشاهدة ما يجذُّ في مكتبات القاهرة فضاء الوقت .  
وأردت أن أخصص يوماً لمشاهدة ما يجذُّ في ملاهى القاهرة فضاء الوقت .  
وأردت أن أخصص يوماً لمحاورة الصحفيين بالقاهرة فضاء الوقت .  
وأردت أن أخصص يوماً لمواجهة ضيوف القاهرة فضاء الوقت .  
وأردت أن أخصص يوماً لمسامرة أطفالى فضاء الوقت .  
وأردت أن أخصص يوماً لختاربة أعدائى فضاء الوقت .  
وأردت أن أخصص يوماً لمجاهدة نفسى فضاء الوقت .  
وأردت أن أخصص يوماً لقتل ما فى صدر زوجتى من عقارب الغيرة فضاء الوقت .  
فمن أنا فى القاهرة ومن أنا فى دنياى ؟

لقد دعانى المسيو ماسينيون لسماع إحدى محاضراته بالجامعة المصرية فعجزت عن تلبية  
دعوته الكريمة ، فهل يعرف أن بين بيتى وبين الجامعة المصرية أكثر من تسعين دقيقة بالوسائل  
السريعة ؟

وتصل إلى عشرات من الخطابات في كل أسبوع فأعجز عن الجواب في أكثر الأحيان ،  
فمن يخبر قرائي بأن لي عذراً وهم يلومون ؟

\*\*\*

أما بعد فقد طوّفتُ بشوارع القاهرة لأرى أعضاء المؤتمر الطبي الذي يُعقد في القاهرة  
لمواساة طبيب ليلى ، شفاه الله وهده ، فهل رأيت أولئك الأطباء ؟  
ابتلعتهم القاهرة بلا ترفق ، كما ابتلعتُ نشاطي بلا ترفق .  
ولولا الموعد المضروب مع السيد عبود شلاش لعزّ على أن أرى وجوه أطباء العراق .  
وجدتُ في هذه الليلة الدكتور صادق علاوى والدكتور هاشم علاوى ، أما الدكتور عبد  
الأمير علاوى فقد ابتلعتْ القاهرة من أول لحظة ، ولم نصل إليه إلا بعد أن فتننا عليه أربع  
ساعات في ملاهى عماد الدين .

وفي هذه الليلة رأيت الدكتور سامى شوكت والدكتور صائب شوكت .  
أما الدكتور سامى شوكت فهو عقلية جبّارة كان لي معها مصاولات في بغداد .  
وأما الدكتور صائب شوكت فقد مرّت إليه إشارة في الجزء الثانى من هذه المذكرات .

\*\*\*

وفي هذه الليلة علمتُ أن الشيخ حسن سُهَيْل قَدِم القاهرة لشهود المؤتمر الطبي ، وقد مرّت  
إليه إشارة في الجزء الأول من هذه المذكرات وفي هذه الليلة علمتُ أن الدكتور الريزه لى  
والدكتور حيدر جواد حضرا مع أطباء العراق ، وفيها علمتُ أن الدكتور شوكت الزهاوى  
تخلّف ، وفيها علمتُ أن رجال المعارف بالعراق لم يحضر منهم أحد ، وكنتُ أنتظر أن يحضروا  
لمواساتى .

وعفا الله عن الراوى والجمالى والألوسى !

\*\*\*

واتصلتُ بعد نصف الليل بجميع فنادق القاهرة فعرفتُ أن الدكتور فلان لم يحضر ، وهو  
زوج صاحبة اللسان الالئغ الملجلج ، زوج السيدة التى فضحتُ وقارى في بغداد .  
وشكوْتُ حزنى وبشى إلى الدكتور عبد المجيد القصاب فقال : لا تجزع فقد حضرتُ بنت  
خالتها من أجلك ، وستراها في انتظارك على باب الجامعة المصرية في الصباح .

\*\*\*

موعد غرام على باب الجامعة المصرية ؟

— ٤٠٠ —

آمنتُ بالحب !  
وما الذى يمنع من أن تذكّرني الجامعة المصرية بجامعة باريس ؟  
غداً أساور العيون على باب الجامعة المصرية ، وكنتُ أعظم من ظفر بألقابها العلمية في  
عهدا القديم وعهدا الجديد .

\* \* \*

أيتها الجامعة المصرية .  
خذى بزمامي إلى الحب والمجد .

---

فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية بكّرتُ إلى منزل ليلي بُكورَ النّدى لنحضر معًا حفلة افتتاح المؤتمر الطبى فى بهو أمانة العاصمة بدار السلام . واليوم بكّرتُ لحضور حفلة افتتاح المؤتمر الطبى بقاعة الاحتفالات بالجامعة المصرية .

لبست ثوب البونجور الذى فصلته فى بغداد ، ومضيت أخطّ في زهوٍ وخيلاء .  
 . ولم يؤذنى فى طريقى إلا شيء واحد : هو المرور بحى الزمالك الذى يسمى « روضة البحرين » لأن النيل يحضنه من الجانبين ، وما أسعد الحى الذى يحضنه النيل !  
 وما الذى يؤذنى من المرور بالممالك ؟

هنالك ليلى التى لم ترع العهد ولم تحفظ الجميل .  
 هنالك الجداول المعطرة التى كنت توهمتها تشعّت بعد رحيلى إلى العراق .  
 هنالك الدار التى لم تُسدّل ستائرُها على قلبٍ أحرّ من قلبى ، ولم تشهد هوى أعنف من هوى ، ولم تعرف بين المجانين أصدق منى ، وستعرف تلك الدار كيف يحالفها الشقاء إلى أن أرجع إلى تنسّم الهواء بشرفاتها العالية ، وسوف أرجع ولو كره الواشون .

\*\*\*

مررت على الزمالك وأنا راغم لأنها طريقى إلى الجامعة المصرية .  
 مررت على الزمالك فخفق قلبى خفوقًا عنيفًا ، وكيف لا يخفق القلب والزمالك كلها مراتع غزلان ومرايض أسود ؟  
 تمهل ، أيها السائق ، تمهل .  
 فأنا أشتى أن أحى جميع من أراهم فى الزمالك .  
 إن الزمالك تشبه سنترىس : لأنها تقع بين نهريّن كما تقع سنترىس بين نهريّن : الرياح المنوفى والترعة العامرية .

ولأن ليلى فى الزمالك تنطق اسم سنترىس بلسانٍ ألثغ وصوتٍ مظلول .  
 أنا أحب الزمالك أشد الحب ، وأبغضها أشد البغض .  
 أحب الزمالك من أجل ليلى الظلوم .  
 وأبغض الزمالك لأنها تنافس مصر الجديدة ، وفيها دارى ، الدار التى أقمتها على حدود الصحراء لمناجاة الشعر والخيال .

( ليلي المريضة فى العراق )

مررت على الزمالك مرور الغريب .  
مررت على الزمالك مرور الطَّيف العاتب .  
ثم نظرت فرأيتنى أساير النيل لأصل إلى الجزيرة الفيحاء .  
وفى ذلك الطريق خفق القلبُ خفقةً ثانية ، فهناك الذهبيات المنشورة نثر الأمواج فوق  
بساط الماء ، الذهبيات التي عرفها النيل منذ عهد الفراعين ، والتي قضت بأن يتخوف عمر  
ابن الخطاب على الجيش الذي كان يقوده عَمْرُو بن العاص .  
هناك الذهبيات التي اصطبحت في أمثالها واغتبت حين كنت من تلاميذ سيدنا عمر بن  
أبى ربيعة ، رضى الله عنه وأرضاه !  
ورحمة الله على الشباب الذي بددته في طلب الحب والمجد .

\*\*\*

الله أكبر والله الحمد !  
هنا الجامعة المصرية ، وهى اليوم تسمى « جامعة فؤاد الأول » لأن الملك فؤاد طَّيب الله  
ثراه كان أول رئيس للجامعة المصرية .  
والجامعة المصرية هى بلا جدال ولا نزاع أعظم جامعة فى الشرق ، وطلابها اليوم يزدون  
عن عشرة آلاف ، وفيها حيوية أعظم من حيوية النيل فى أيام الطُّغيان .  
وللجامعة المصرية تاريخ يتلخص فى أنها من صنع الأمة لا صنع الحكومة ، كما عبر على  
الشمسى باشا فى حضرة الملك فؤاد ، أكرم الله مثواه .  
الجامعة المصرية بناءً شامخٌ أقامه المصريون لمقاومة الاحتلال ، أقاموه بعزائمهم وأموالهم  
ليكون شاهدًا على أنهم أهلٌ للحرية والاستقلال ، وهو فى مصر الإسلامية أعظم من الأهرام  
فى مصر الفرعونية ، وهو كذلك أعظم من الأزهر الشريف : لأن الأزهر أقيم لنصر مذهب  
على مذهب ، أما صرح الجامعة المصرية فأقيم ليكون موئلًا لجميع المذاهب والآراء ، وليكون  
منارة ترسل الأشعة إلى جميع أقطار الشرق .  
وعن الجامعة المصرية تصوّر أقباس الهدى ودياجير الضلال : فهى مخوّر الجدل والمراء ،  
وهى التى تقدّم الوقود للباحثين والكاتين والخطباء والشعراء .  
إن صدرت دعوة إلى الزيغ فهى من الجامعة المصرية .  
وإن صدرت دعوة إلى الحق فهى من الجامعة المصرية .  
فهى اليوم تهاجم ، وخصومها يدافعون .  
وموقف المهاجم أقوى من موقف المدافع . فى أكثر الأحيان .  
للجامعة المصرية طريق لم تشهد مثل جماله العيون ، وهو أطيب ما يكون فى الصباح



والأصيل والمساء .

يسير الطالب في ذلك الطريق صباحاً فيبهه عبق الأشجار والأزهار من كل جانب ، ويسير فيه مساءً فيروعه جلال الليل في رحاب الجيزة الفيحاء .  
وفي ذلك الطريق تختلط الطباء بالأسود ، لأن الجامعة شرعت اختلاط الجنسين في التعليم ومهدت السبيل لطغيان العواطف وجُمُوح الأحاسيس ، وسيكون لذلك تأثير حسن أو سيئ في تلوين الأخلاق ، أما الأدب والفن فستكون لهما مغام كثيرة من هذا الابتداء .  
والجامعة المصرية تؤدي اليوم خدمة عظيمة للغة العربية بفضل تفوق أساتذتها في فنون التأليف ، وسبقهم إلى ميادين المحاضرات والمناظرات ، وحرصهم على رفع مكانة مصر العلمية .

وفي الجامعة المصرية رجال أقوى من المردة وأذكى من الشياطين .

\*\*\*

الله أكبر والله الحمد !

هذه إدارة الجامعة المصرية وعلى يمينها كلية الآداب وعلى يسارها كلية الحقوق ، وأمامها الميدان الذي أقيم فيه التمثال التذكاري لشهداء الجامعة المصرية في سبيل الوطنية .  
وهذه قاعة الحفلات ، القاعة العظيمة التي تذكّر بالمدرّج الأكبر في السُوربون .  
أقيمت هذه القاعة وفقاً لرغبة الملك فؤاد الذي أراد أن تتسع لأكثر من أربعة آلاف ، وفيها مقصورات للملوك والأمراء والسفراء ، ومقصورة للنساء المتأنقات ، وأماكن تسمح للطلبة بأن يشاغبوا الخطباء وهم في أمان !  
ولهذه القاعة مدخل للجماهير ، ومدخل لجلالة الملك ، وهي تصافح النور من كل جانب ، ولها مسرح فسيح الأرجاء يذكّر بالمسارح العظيمة في عواصم الغرب .  
ولكن الملك فؤاد الذي أشرف بنفسه على تصميم هذه القاعة نُقِلَ إلى جوار ربه قبل أن تراها عيناه .

رحمك الله يا فؤاد ، وجعل في الجنة مثواك !

\*\*\*

امتازت حفلة الافتتاح هذه السنة بمزيتين : الأولى أدبية ، والثانية علمية .  
أما المزية الأدبية فهي موقف الشاعر على الجارم بك الذي ألقى قصيدة في مصر تذكّر بقصيدته في بغداد ، وقد سجل فضل مصر في القديم والحديث ، وغنم الموقف في القاهرة كما غنمه في بغداد ، مع فرق تُسجّل للتاريخ ، فقد اهتزت بغداد لقصيدة الجارم ودعاه وزير المعارف هناك لإلقائها بالإذاعة اللاسلكية ، ولم تمض أيام حتى كانت قصيدته في بغداد من

محفوظات الشباب والكهول ، وقد لُحِثَتْ لتُغْنَى في الملاهى الشعبية ، وستظل على ألسنة أهل بغداد عدة أجيال .

أما قصيدة الجارم في مصر فقد اكتفى الناس بقراءتها في الجرائد ، وقد تُنسى بعد حين ، لأن مصر في هذه الأيام تُعنى بصراع العقول أكثر مما تُعنى بغناء الشعراء .

وأما المزية الثانية فهي محاضرة الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك في تسجيل ما صنع الدكتور أحمد البقل في علاج مرض الفيل ، وهي محاضرة شهدت بقدرة اللغة العربية على تأدية الدقائق الطبية .

ومحمد خليل عبد الخالق يشبه عبد الواحد الوكيل في أدب النفس ، والفناء في خدمة الواجب ، وسيكون لأمثال هذين الرجلين فضلٌ عظيم في إنهاض الدراسات الطبية .

\*\*\*

وقعت في حفلة اليوم نُكْتة : فقد شاء الجارم أن يسمى الدكتور على باشا إبراهيم « أبا الحسن الجراح » فابتسم عميد كلية الطب وقال : أخشى أن يتطور اللقب فيصير « أبا الحسن المغفل » !

والدكتور على باشا إبراهيم ابن نُكْتة ، وله ذوق في الجمال ، ويملك مجموعة من الأبسطه والسجاجيد تقدّر بعشرات الألوف من الدنانير ، ولولا شهرته بالبخل لاستهديته سجادة أقرأ فوق أزهارها أوراد الصباح .

\*\*\*

لم أر في حفلة اليوم أثراً للنساء المليحات ، فما هذا ؟ وما سببه يا ناس ؟  
لعل السبب هو بُعد الجامعة المصرية : فيبينها وبين القاهرة سَفَرٌ شاقٌ ، بسبب تعقيد المواصلات ، أليس من المؤذى أن لا نصل إلى الجامعة إلا بالعبور فوق جسر فؤاد أو جسر عباس ؟ ما الذى يمنع من أن يكون للجامعة طريق بالسيارات أو بالترام فوق جسر إسماعيل ؟ لو نفذت الحكومة ما اقترحه لصارت الجامعة من منازل القاهرة .  
ولكن الحكومة لا تسمع : لأن أقطابها يركبون السيارات الخصوصية ، والذى يملك سيارة لا تدخل له المسافات الطوال في حسيبان .

ثم خرجت مع السيد عبد الله عبد الغفار ومضيت معه إلى سكرتارية المؤتمر الطبى لآخذ كتاب المؤتمر وتذاكر الدعوات ، فهالنى أن أرى أنى لست مدعوًا للحفلة التى يقيمها رفعة رئيس الوزراء لأعضاء المؤتمر الطبى بقصر الزعفران .  
وسألت عن السبب فى حرمانى من هذه الدعوة الكريمة فقبل إنها خاصة بالضيوف ، ولستُ بضيف : لأنى مصرى .

وعندئذ تذكرت ما وقع في مثل هذه الأيام من السنة الماضية ، فقد تفضل جلالة الملك غازي الأول بدعوة أعضاء المؤتمر الطبي للتشرف بتناول الشاي في قصر الزهور ، ونظرت فرأيتني محروماً من تلك الدعوة الكريمة ، فاتصلت تليفونياً برئيس الديوان الملكي وسألته عن السبب فقال : « إن الدعوة خاصة بالضيوف ولست بضيف : لأنك موظف في الحكومة العراقية » .

فكرت فيما وقع هنا وهناك فتذكرت كلمتي الحزبية في كتاب « ذكريات باريس » إذ أقول :

« إن استقلال إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات ، أو حزب من الأحزاب : فأنا عند أنصار الحزب الوطني شعبى يناصر الوفديين ، وعند الوفديين خيالي يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب ، وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا برّ عند الفجار ، وفاجر عند الأبرار : فأنا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب » .

أحزنتني ذلك لحظات ثم رجعت إلى رشدي فقلت لنفسى :

إن حرمانى من تناول الشاي في قصر الزهور مع أعضاء المؤتمر الطبي شهادة رسمية بأني لم أكن في العراق من الضيوف ، وحرمانى من تناول العشاء في قصر الرغفران مع أعضاء المؤتمر الطبي شهادة رسمية بأني لست في مصر من الضيوف .

فأنا مصري عراقي ، كما يسميني أهل بغداد .

ولله الحمد على هذا التوفيق .

\*\*\*

وفي عصرية<sup>(١)</sup> اليوم أقام سعادة عبد السلام الشاذلى باشا محافظ العاصمة حفلة شاي لأعضاء المؤتمر بمحافل الحيوان في الجزيرة . ولا أعرف الشاذلى باشا معرفة شخصية ، ولكن في ماضيه قصة طريفة : فقد كاد يحال إلى مجلس تأديب بسبب إسراره في تجميل إحدى الحواضر — لا أذكر بالضبط أهى دمنهور أم أسيوط — فهو إذن من أرباب الأذواق ، وسيكون له فضل في تجميل الأحياء القديمة بالقاهرة .

وقد استرقت السمع في محاوره بينه وبين سعادة العشماوى بك فعرفت أن الكلام متصل بالتفكير الجدوى في إنشاد دار عظيمة لبلدية القاهرة . فإن تم ذلك فسيكون من السهل أن تقام

(١) العصرية كلمة حية في مصر وهى تماثل Après midi في اللغة الفرنسية .

حفلات العشاء — الحفلات الرسمية — في دار وطنية ، فنستغنى عن فندق مصر الجديدة وفندق الكونتنتال ، فمن العيب أن تستقبل الحكومة ضيوفها في فنادق أسسها الأجانب .

\* \* \*

وبعد تناول الشاي تدفع الضيوف إلى مشاهدة الغرائب في حدائق الحيوان ، وهي حدائق ليس لها نظير في الشرق ، ولها خصائص لا توجد في أمثالها من الحدائق الأوروبية والأمريكية . ولحدائق الحيوان بالجيزة فضل كبير في البهجة التي تتسم بها الأعياد القومية ، وهي تصنع بالأذواق ما تصنع حدائق الجزيرة وحدائق القناطر الخيرية وحدائق حلوان وحدائق الإسكندرية .

ومن المؤكد أن مصر وصلت إلى مبلغ عظيم من الافتنان في تنسيق الحدائق : فحديقة الأزبكية بالقاهرة لا تقل جمالاً عن حديقة لكسمبور في باريس . وقد كانت حديقة الأزبكية مغطاة الأسوار تغطيةً تمججها عن الناظرين ، فما زلت أطالب برفع تلك الأغشية حتى استمع محافظ العاصمة وأمكن الناس من شهودها وهم يغدون ويروحون ، وليته ييسح عبورها بالبحان .

ولم يبق إلا أن يتفضل جلالة الملك فيقبل الاقتراح الذي نشرته في مجلة الهلال منذ سنتين : فقد اقترحت أن ترفع الأسوار التي تغطي حديقة قصر عابدين ، وهي أعظم حديقة في القاهرة ، ولو رفعت تلك الأسوار لشاهد الجمهور من نضرة النعيم ألواناً وأفانين . وحجتى قوية في الدعوة إلى رفع تلك الأسوار : فقد وضعت يوم كان من المستحيل أن تُنشر صورة لإحدى الأميرات في الجرائد والمجلات ، أما اليوم وقد صار من المألوف أن تُنشر صور الأميرات فلم يبق موجب لأن تعيش حديقة القصر في ظل الحجاب . يضاف إلى ذلك أن قصر عابدين لا يسكنه جلالة الملك إلا في أيام معدودات ، وهو في أكثر شهور السنة يقيم بقصر القبة وقصر رأس التين .

ولأميرات مصر حجاب أحسن من الأسوار هو حجاب القلوب ، لأنهن بنات فؤاد الذي أفنى قوته العاتية في خدمة الأمة المصرية ، فؤاد الذي كان مثال الأبوة الكريمة للشعب الذي يكاه بدماء القلوب يوم مات .

إن رفع الأسوار عن حديقة قصر عابدين سيتيح لأهل القاهرة فرصة الأنس برؤية قصر الملك ، فمن الخسارة أن يمر الإنسان بشارع حسن الأكبر أو شارع جامع عابدين أو شارع المبدولى ولا يحس أنه يسير حديقة غناء .

يا جلالة الملك فاروق :

تفضل بقبول هذا الاقتراح الجميل ، حرسك الله ورعاك !

رجعت من حدائق الحيوان بالجيزة بعد الغروب في سيارة الدكتور محبوب ثابت ،  
ومضيت معه فتر كنا بطاقات التحية لمن نعرف من أعضاء المؤتمر الطبى العربى .  
ثم انطلقت بأودية القاهرة لأجس ليلة العيد .  
فماذا رأيت ؟  
لم أر شيئاً غير هُيام القلوب فى شارع فؤاد ، وليس ذلك بجديد : فالقلوب تهيم فى هذا  
الشارع فى كل وقت ولا تنتظر المواسم والأعياد .  
وبقيت حسرتى على ضياع الحظ من سهرة قصر الزعفران .  
لو أتيج لى أن أشهد هذه السهرة لقابلتُ رئيس الوزراء ، فقد فرطتُ فى مقابلته بعد  
رجوعى من بغداد ، ولعله يظن أنى كنت فى ذلك التفريط من الآثمين ، ومن الذى يخطر فى  
باله أنى لا أخرج من البيت إلا قليلاً بعد تأدية واجباتى الرسمية ؟  
من الذى يظن أنى أنفق على الكتب والخير والورق أضعاف ما أنفق على الطعام والشراب ؟  
عند الله والحب جزائى !

\*\*\*

طوّفتُ بشوارع القاهرة ما طوّفتُ ، ثم رجعتُ إلى دارى مضطّعة الأعصاب .  
فما الذى وقع فى قصر الزعفران ؟  
ليتنى أعرف !  
ليتنى أعرف !

---

لبستُ اليوم بدلة البونجور مرة ثانية لأزور قصر عابدين مع أعضاء المؤتمر الطبي ، فقابلت في طريقى إليه سعادة محمد باشا شفيق فقصصَ علىَّ أحاديث في تاريخ حتى عابدين وما صنعه الخديو إسماعيل في تمدين ذلك الحى ، وقد ذكّرني في حديثه بما كان يقصه أستاذنا إسماعيل بك رأفت وهو يسمر مع أصفياه بمنازل الحلمية الجديدة . فمتى يرسل الله إلى القاهرة رجلاً مثل علىَّ باشا مبارك ليتحدث عن يخططها في العصر الحديث ؟

إن القاهرة تتشوف إلى مؤرخ ، فمتى يُعث ذلك المؤرخ ؟  
سيقام العيد الألفى للقاهرة بعد قليل ، وستنشر عنها وزارة المعارف مجلداً أو مجلدين ، ولكنى أخشى أن لا تظفر القاهرة بغير أبحاث غيّبة بليدة لا تصوّر غير ما وعت كُتب التاريخ . وأنا أعرف بصدق الفراسة أن القاهرة الحديثة لن تظفر بغير صفحات هزيلة من الأساتذة العظام الذين تعرفهم بعض المعاهد العالية .

وسوف تعلمون !

القاهرة اليوم لا يعرفها فلان وفلان من الذين لا يثقون بأعينهم كما يثقون بعيون المؤرخين ، وفي الدنيا « علماء » يرون الرواية المدوّنة في كتاب أصدق من رؤية العيان !  
القاهرة اليوم لا يعرفها إلا الصحفيون الذين يطلّعون على سرها المكنون .  
في القاهرة ألوان كثيرة لا يعرفها غير الراسخين في علم أسرار النفوس وسرائر القلوب .  
فأين الأدب الذى يسجل ما تضمّر القاهرة من غرائب وأعاجيب ؟  
لقد كنتُ أحب أن أكون ذلك الأديب ، ولكن هذا يعرضنى لمناعب يضيق عن دفعها الوقت .

ومن واجبنى أن أراعى أنى مسئول أمام وزارة المعارف ، وهى تحذ من حرية الأديب .  
وأنا مع ذلك قلتُ في القاهرة كل شيء ، كما قلت في بغداد كل شيء ، فمن شاء فليكشف الرموز عما قلت في القاهرة وبغداد ، فلا يزال في الدنيا أذكيا يفهمون أسرار الحروف .

\*\*\*

دونْتُ اسمى في تشريفات جلالة الملك وتمكثتُ عسانى ألقى أصدقائى من أطباء العراق .  
فلما لقيتهم سألت : كيف كانت سهرتكم في قصر الزعفران ؟  
ثم هالنى أن يقابل هذا السؤال بوجوم مزيج .

— يا جماعة ما الذى وقع ؟

— لم يقع شئ !

— يظهر أنكم غاضبون .

— لسنا غاضبين ، وإنما نحن عاتبون .

وبعد أن قهرتهم على المكاشفة أخبروني أن رفعة رئيس الوزراء لم يحضر الحفلة مع أن الدعوة مديلة باسمه ، فضحك ضحكة الاستغراب من أن يضايقهم غياب رئيس الوزراء !  
ولما استوضحونى قلت : إن الدعوة موجهة من رئيس الوزراء ، ولكنها ليست دعوة شخصية ، حتى يجب عليه الحضور ، وإنما هى دعوة الحكومة التى تنوب فى مثل هذه الأحوال عن الأمة ، فأنتم لم تكونوا فى ضيافة محمد باشا محمود ، وإنما كنتم فى ضيافة الأمة المصرية . وقد دهشوا من هذا التفسير ، فقلت : هو ذلك ، ولكن أكثر الضيوف لا يعلمون !

\*\*\*

وعندئذ عرفتُ الخطأ الذى وقع فيه مكتب رئيس الوزراء حين قصر الدعوة على الضيوف ، لأن هؤلاء الضيوف لا يكتفون بأن يتحدث بعضهم مع بعض إلى أن يتناولوا العشاء ، وإنما كان يجب أن يدعى معهم جماعة من أدهاء مصر ليرفعوا عنهم أثقال الاستيحاش . وأغلب الظن أن ما وقع ليلة أمس سيقع مثله فى الحفلة التى يقيمها وزير المعارف والحفلة التى يقيمها مدير الجامعة المصرية .

فمن واجبى أن أنه من ألقاهم من الضيوف إلى أن تلك الدعوات ليست دعوات شخصية ، وإنما هى دعوات قومية .

ومن عيوب مصر أنها قد تسكت حين يجب الكلام ، وقد تتكلم حين يجب السكوت .

فيا بنى آدم من أهل مصر !

علموا أبناءكم سياسة الصمت وسياسة القول .

—————

هنا القاهرة !

هنا القاهرة : وطن العروبة .

هنا القاهرة : وطن الإسلام .

\*\*\*

لم أحضر حفلة الشاي التي أقيمت في عصرية اليوم ، وقد أقيمت حفلتان إحداهما بدار الهلال الأحمر والثانية بمصلحة الطب الشرعى .

ولما مضيت إلى دارى لأستجم وأستريح ، عسانى أصلح للسمر مع ضيوف القاهرة في المساء . وأنا أكتب هذه الصفحات بعد نصف الليل ورأسى مصدوع من الجدل الذى عانيته مع أهل سورية ولبنان والعراق .

وأقول بصوت يُسمع من فى القبور إن بعض الأمم العربية أُصيبت بنوبة من الجنون ، وهذه النوبة تعتادها فى كل لحظة : وهى الزعم بأن مصر تقول إنها فرعونية لا عربية .

وهذا الزعم هو فى الأصل دسياسة استعمارية أراد بها المستعمرون أن يفهموا العرب أن مصر ليست منهم » وإذا صح أن مصر ليست سيناذا للعروبة فستكون العروبة خبراً من الأخبار بعد حين ، لا قدّر الله ولا سمح » .

وكل كاتب يزعم أن مصر ليست عربية وإنما هى فرعونية فهو أحد رجلين : رجل مغفل لا يفتن إلى الدسائس الاستعمارية ، أو رجل مأجور يعيش من فئات روما أو لندن أو باريس ! ويجب أن يكون مفهوماً أن العرب يتعرضون اليوم لأزمة شديدة : هى اختبار ما يقرأون وما يسمعون ، فإن نجحوا فى هذا الامتحان فسيكونون من السعداء .

تجلس مع شاب طيب القلب من أهل سورية أو لبنان فتحدثه محادثة الصديق للصديق ، ثم تراه ينقلب فجأة فيقول : ولكن مصر تقول إنها فرعونية ! وما تكاد تسمع هذا القول حتى تعرف أن ذلك الشاب السورى أو اللباني من المساكين ، لأنه انخدع بما سمع من أبواق الزور والبهتان .

\*\*\*

وأردت أن أصل إلى سرّ العتب على مصر فسمعتُ هذا السؤال من أحد الأطباء :

— ولماذا لا تقرأون مجلاتنا كما نقرأ مجلاتكم ؟



فنظرت إليه نظرة الغضب وقلت : أنتم تقرأون مجلاتنا لأنها تقدم إليكم ما تشتهون من غذاء العقول والقلوب والأذواق ، ونحن لا نقرأ مجلاتكم لأن مجلاتنا شغلتنا شغلاً عنيقاً ، وصرفتنا عن التطلع إلى ما تُصدر المطابع في غير مصر من البلاد العربية .  
ورجع الطبيب الذي أحاوره إلى عقله لحظة ثم قال :  
— هذا حق ، ولكن ...

— أفصح أيها الطبيب .  
— ولكنكم لا تعرفون رجالنا كما نعرف رجالكم .  
— أنتم تعرفون رجالنا ونحن نجهل رجالكم لسبب يخفى عليكم .  
— وما هو ذلك السبب ؟  
— اسمع ، أيها الطبيب ، اسمع ما أقصه عليك ثم انقله إلى كل من يعترض على نحو ما تعترض .

— إليك أذنى وقلبي وعقلي : فأنا أحب أن يزول عَثْبِي على مصر .  
— اسمع ، أيها الطبيب ، إن حرية الصحافة مزية تفردت بها مصر بين سائر أقطار العربية ، فجرائدكم ومجلاتكم لا تحدثكم عن شمائل رجال السياسة ، ولا تكشف لكم عن بواطن الحقائق السياسية ، جرائدكم ومجلاتكم لا تقول إلا ما تحب حكوماتكم أن تقول ، فهي تترك في أفئدتكم فراغاً عظيماً ينتظر من يحتله من الأقلام الحرة في وطن النيل ، ولك أن ترجع إلى نفسك فتسألها عن السبب في غرامكم بمطالعة الجرائد المصرية والمجلات المصرية ، إن جرائدنا ومجلاتنا تصوّر رجال السياسة تصويراً لا يعرف التزييق ولا التهويل هي تُشعركم بأن الوزراء بشرٌ مثلكم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وأنهم من أجل ذلك تعرفون من رجالنا ما لا نعرف من رجالكم . أستغفر الحق : فأنتم تعرفون من رجالنا ما لا تعرفون من رجالكم .  
— ما معنى ذلك ؟

— معناه ، أيها الطبيب ، أن السوري واللبناني يعرف رجال مصر أكثر مما يعرف رجال سورية أو لبنان أو العراق ، لأن جرائدنا تتحدث عن رجالنا بصراحة لا تعرفها الصحافة في سائر البلاد العربية ، وفي قلوبكم فراغ كبير ينتظر من يحتله من رجال الأدب والبيان .  
— زدني ، زدني .

— إن مصر هي اليوم محور القضية العربية ، والأوروبيون أنفسهم يعرفون ذلك : فهم يبدلون نشاطهم في مصر ليستطيعوا السيطرة على البلاد العربية ، فنحن في محنة لا تخطر لكم في بال : لأننا نقاوم كفاح الغرب وعتاب الشرق ، ولذلك تفاصيل أطولها عنك ترفقاً بحياتك الغالية ، وجزاؤنا على ذلك كله أن تقولوا إننا فراعين لتعينوا أوروبا وأمريكا على الطعن في العروبة

المصرية .

- زدنى ، زدنى ، زدنى .
- ومصر تُشتم فى بلادكم كل يوم ، وتقرأون تلك الشتائم باسمين ، مع أن فىنا من يبيت مؤرّق الجفون حين يسمع كلمة لا تليق فى حق إحدى الأمم العربية .
- هذا مستحيل !
- هذا مستحيل ؟ وكيف ؟ أنظر أيها الطبيب ثم احكم : فمصر هى المسئولة عن التنويه بالجمال المبهوث فى سائر الأقطار العربية ، وهى المسئولة عن الدعوة إلى مصايف الشام ولبنان ، وهى المسئولة عن إحياء الثقافة العربية والإسلامية ، ولكن ليس من حق مصر أن تقول إنها أمة عربية أو إسلامية ، وإلا حقت عليها غضبة العرب والمسلمين !
- ما هذا الذى تقول ؟
- كذبنى ، إن استطعت ، ولك أن تذكر السبب فى التحامل على مصر ، التحامل البغيض الذى يصدر عن ناس لم يلقوا منا غير الإكرام والإعزاز والتبجيل .
- ومن هم الذين يشتمون مصر ؟
- لا أريد أن أسميهم ، وهم يعرفون أنفسهم .
- من هم ؟
- هم إخوان أعزّاء يقابلون المعروف بالكران !
- من هم ؟ من هم ؟
- هم أصدقاء لطاف ظراف يتدللون علينا تدلل الأبناء على الآباء .
- من هم ، من هم ؟ من هم ؟
- أظننى أوضحت .
- لم توضّح ، وإنما تركتنى فى عماية وضلال .
- اسمع ، أيها الطبيب ، أنا لا أهتم بالأشخاص وإنما أهتم بالمبادئ ، وما يهمنى أن يخطئ فلان أو فلان ، وإنما يؤذنى أن تخطئ الأمة الفلانية .
- ومن هى تلك الأمة الفلانية ؟
- هى تلك الأمة الفلانية !
- وهل كتب الله على الدكتور زكى مبارك أن لا يتكلم بغير الرمز والإيماء ؟
- وهل كتب الله عليكم أن لا تفهموا بغير التصريح ؟
- اسمع ، يا دكتور !

- قُلْ أَسْمِعْ .
- إن مصر تنسى أننا نميل على جوانبها كما يميل الأبناء على الآباء .
- أشكر لك هذا اللطف ، ولكن هل تظن أن الستة عشر مليوناً في مصر تفتن إلى هذه الدقائق الذوقية ؟ هل تظن أن سكان مصر كلهم سيقولون إنكم تشتموننا من باب الدلال ؟
- نحن نشتمكم ؟ معاذ الله !
- اسأل المعاجم تخبرك .
- وماذا تقول المعاجم ؟
- المعاجم تشهد بأن ألفاظكم تخرج على الذوق في أكثر الأحيان .
- ولكنكم تقولون إن مصر فرعونية .
- تلك هي اللوثة التي تعتادكم من حين إلى حين !
- وهل نحن ملتاثون ؟
- معاذ الله ، وإنما أنتم فضلاء وأذكاء ، وآية ذلك أن تقولوا إن مصر ليست عربية مع أن مصر تنفق ملايين الدنانير في كل عام لنشر اللغة العربية .
- ولكن مصر تقول إنها إسلامية .
- نعم ، مصر تقول إنها إسلامية لتسند العروبة .
- كيف ؟
- إن العروبة مَدِينَةٌ للإسلام ، ولولا الإسلام لظلت بلاد العرب بلاداً ذليلة يعتدى عليها الأحباش من جانب ، والفرس من جانب ، والروم من جانب .
- ولكن نبي الإسلام كان بطلاً عربياً .
- لم يكن نبي الإسلام بطلاً عربياً ، وإنما كان بطلاً عالمياً ، والمرض الذي تعانيه بعض القلوب لم يأت إلا من الجهل بهذا الموضوع الدقيق ، فالإسلام هو الذي مكّن العرب من السيطرة على العالم بضعة قرون ، والقرآن تحدث عن موسى وعيسى بأفضل مما تحدثت التوراة أو تحدث الإنجيل ، وقد كان نبي الإسلام أعظم رجل عرفه الشرق : لأنه حرص على إحياء ما في الشرق من معاني ذوقية وروحية ، ولو كان من أهل الأثرة والأنانية لحارب اليهودية والنصرانية .
- الإسلام لم يحارب اليهودية ولا النصرانية ؟
- الإسلام لم يحارب اليهودية ولا النصرانية ، وإنما حارب الابتداع عند النصراني واليهود .
- أنت بذلك تغير وجه التاريخ .

— ٤١٤ —

- المظلّلون هم الذين يطمسون معالم التاريخ .
- ومن هم أولئك المظلّلون ؟
- هم الذين يستكثرون أن نكون عربًا ومسلمين .
- ولكنكم تدعون إلى الخلافة .
- من قال ذلك ؟
- تقوله جرائدكم في كل يوم .
- ذلك كلام يُنشر في الجرائد المصرية نقلًا عن الجرائد الإنجليزية والإيطالية .
- خبيلتي !
- أنت لا تحتاج إلى خيال جديد !

\*\*\*

تلك خلاصة المحاوراة التي وقعت بيني وبين الطبيب « ف . ص . ج » وهو عربيّ مخلص له في سورية ولبنان أعمام وأحوال ، وقد استظل بأفياء مصر حينًا من الزمان .

ولكن ما موقف مصر من هذه الشؤون ؟

أنا لم أر أحق من المصريين : لأنهم قد يتكلمون حين يجب الصمت ، وقد يصمتون حين يجب الإفصاح .

إن مصر عربية ، وهي في عروبها أصدق من بلاد الحرمين ، وطن النبي العربيّ الأمين ، ولكنها تفتح الباب للدساسين الذين يذيعون الشكوك حول القومية العربية .

ومصر لا تتوى أن تعيد نظام الخلافة الإسلامية ، ولكنها لا تؤدّب من « يمضغون » حديث الخلافة من حين إلى حين ، ليصلوا إلى بعض المآرب الشخصية .

ومن العجيب أن مصر لا تسأل أبناءها المخلصين عن دقائق هذه الشؤون ، ولا تفكر في الاستنارة بأراء من عرفوا الاتجاهات المختلفة في الشرق .

أليس من الغريب أن لا يفكر وزير الخارجية مرة واحدة في محادثة الأساتذة الذين عاشوا في الحجاز أو اليمن أو الشام أو العراق ؟

أليس من الأغرب أن لا يفكر صحفي واحد في استطلاع ما عندنا من فهم الاتجاهات السياسية في الشرق العربي ؟

إننا نقرأ الجرائد فنعجب لأفهامها الخواطيء عن الشرق .

وأكاد أجزم بأن ما ينشر في أكثر جرائدنا عن الشرق لا يزيد في الصحة عما نشرته مجلة « الموظف » عن إيوان كسرى حين زعمت أن أنقاضه نُقلت إلى البصرة والكوفة ، مع أن هذا في حكم المستحيل ، والذي يحكم هذا الحكم يجوز عنده أن تُنقل أنقاض بعض المنازل من

القاهرة إلى أسوان !

لم يسألنا أحد من رجال السياسة أو رجال الصحافة عما عرفناه من الاتجاهات السياسية في الأمم العربية ، ولعلهم كانوا ينتظرون أن نسعى إليهم لنبصرهم بما يجهلون !  
فما الذى عندى من الحقائق التى تدوينها فى هذه المذكرات ؟  
لم ألتفت فى العراق إلى السياسة المحلية ، وهل ألتفت إلى السياسة المحلية فى مصر حتى ألتفت إليها فى العراق ؟

لم يكن يعنى من السياسة فى العراق إلا فهم الجوانب المتصلة بالسياسة الدولية للأمم العربية ، أو الأمة العربية لا يعبر الأستاذ أبو خلدون ، وقد فهمت مما رأيته وسمعت واستنتجت أن الأمم العربية تنفر أشد النفور من فكرة الخلافة ، وهم يرونها من علائم السيطرة والاستعلاء .

فمن الحزم أن تنفض مصر يدها من هذه الفكرة جُملة واحدة ، ومن الحزم أن يفهم المصريون أنهم ليسوا أعقل من الأتراك .

وما هو أثر الخلافة الإسلامية فى التاريخ ؟

لقد كانت دائماً مصدر نزاع بين الأمم العربية والإسلامية ، وبسببها فاضت سيول من الدماء ، ومن أجلها تناحرت أمم وشعوب .

يجب أن نحدد الغرض من اتصالنا بالأمم العربية ، فهذا الاتصال ليست له صبغة استعمارية ، بالتأكيد ، لأن الأمر بيننا وبين إخواننا العرب لا يزال عند قول شوق :

وعلينا كما عليكم حديثاً تنزى الليوث فى قُضبانسه

المنفعة الحقيقية لمصر هى أن تشترك فى إحياء النهضة العلمية بالبلاد العربية ، وهذا الاشتراك ليست له منافع ترجع إلى الجيوب ، ولكن منافعه المعنوية أعظم مما يتصور الشعراء حين يستوحون الخيال . ومن الشرف لمصر أن تكون دولة لها مطامح معنوية ، فهذه المطامح المعنوية تزيد ثقة المصريين بأنفسهم ، وتسوقهم سوقاً إلى ميادين الجهد ، وتقهرهم على الإكثار من تزويد عقولهم بزد العلم الحديث .

فإن لم يكن بد من النص على المغامرات العاجلة فإنى أقول إن اتصال مصر بالأمم العربية اتصال ثقافة ومودة وأخوة يخوف أعداءها أخطر تخويف ، لأن الأمم العربية فيها نخوة وشهامة ، وحرصها على مودة مصر يُدخل فى صدور أعدائها الرعب ، وسلاح العطف ليس بالسلاح المفلول ؛ فمن المؤكد أن إنجلترا لا تُلانٍ مصر إلا وهى تعرف أن لها قوتين : قوتها الذاتية ، وقوتها المكسوبة من عطف الأمم العربية .

وأنا لا أرتجل هذا الكلام ارتجالاً ، وإنما هو كلام أفدته من التجارب : فالإنجليز يعتقدون

أن الثورة الهندية كانت صدًى للثورة المصرية ، وهم يعتقدون أن غضب مصر بعد الهدنة كان له تأثيرٌ مزعج في أكثر أقطار الشرق . وأندية لندن وروما وباريس تنظر بعين الحذر والخوف والجزع إلى ذبوع الثقافة المصرية في الأقطار الشرقية . وما تسنم الحكم رجلٌ من ساسة الغرب إلا فكر في الاحتراس من خطر القاهرة في الشرق .

وهذه الأمم العربية التي نشترك في إنهاض حياتها الأدبية والعلمية والاجتماعية سيكون لها بإذن الله شأنٌ وشؤون ، وإذا صح أن ننتفع بعطفها وهي ضعيفة فسننتفع بعطفها وهي قوية ، وإذا جاز أن تنافسنا هذه الأمم في الأيام المقبلة فستكون المنافسة المنتظرة حافزاً يدعونا إلى مضاعفة الجهد والنشاط . ولا يخاف المنافسة إلا الضعيف ، ولسنا ضعفاء . وأنا أصرح علانيةً بأني مهتدٌ لهذه المنافسة وأنا في العراق ، ولو بقيت هناك مدةً وافيةً لخلقت للقاهرة منافساً خطيراً هو بغداد .

وما خنتُ وطني بذلك : لأن وطني لا يسرُّه أن تخمد جذوة الحماسة العربية . وخالصة القول أن مصر لا تسود بغير الإخلاص ونكران الذات . من حق مصر أن تتغطرس حين تنظر إلى الغرب ، ولكن من واجبها أن تتلطف حين تنظر إلى الشرق .

والشرق جُرب مرةً فأقام الدليل على أنه أهلٌ لحمل الأمانة العلمية ، كما قال الدكتور عبد الرحمن عمر ، فما الذي يمنع من أن نكون جادّين أصدق الجِد في مقاومة الغرب ؟ إن أعظم مجد لمصر هو أن تستطيع التفاهم مع الأمم العربية والإسلامية في الشرق لتخلق منهم دروعاً حصينة تقى اللغة العربية من عدوان اللغات الأجنبية .

وذلك لا يتم إلا بشرط واحد : هو أن تسلم مصر من الاتهام بالغرض . ومصر خالية خلواً تاماً من الغرض ، ولو عرفتُ عنها غير ذلك لفضحتها بقلمى : لأن الحق عندي أعزُّ وأشرف ، ولكنها مع الأسف تسكت عن الدسائس والوشايات ، وتمنح الفرص السوانح لمن يتجرون بالخوض في أعراض الشعوب .

وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول :

عُقد في القاهرة « مؤتمر الخلافة » منذ أكثر من عشر سنين فرأيت أن أسأل بعض « العلماء » عما تستفيد مصر من الخلافة فقليل إن للخلافة مزية هي توطيد مركز « العلماء » .

فمن هم أولئك « العلماء » حتى نعرض مصر في سبيلهم للقليل والقال ؟

وما هو الأزهر نفسه حتى يُبْلِل من أجله خواطر الأمم العربية والإسلامية ؟

يجب أن يذهب لحاله كل من يحترف السياسة أو الدين في سبيل الرزق .

يجب أن نكون من أمثله النزاهة والإخلاص لنضع الحجر الأول في بناء الشرق الجديد .

وهذا حال مصر في هذه الأعوام ، ولكنها تسكت نسكوت المريب ، فتفتح الطريق  
للدساسين من أهل الشرق والغرب . وصدق المتنبي حين قال :  
ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادريين على التمام  
إن مصر شريفة الأغراض إلى أبعد الحدود ، وفيها أريحية تفرض عليها التضحية في كثير من  
الأحوال ، ولكنها تعمل ولا تتكلم في زمن لا يغنى فيه العمل عن الكلام ، لأنه يقوم مع الأسف  
على الدعايات .

\* \* \*

وهذا الدرس البليغ أخذته عما اتصل بحياتي الأدبية :  
أُغْرِمْتُ بِالْأَدَبِ الْفَرَنْسِي مِنْذُ سَنَةِ ١٩١٥ فَرَأَيْتُ أَنْ أَرَاهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَرَامَاتِ الْقُلُوبِ  
وَالنَّفُوسِ وَالْعُقُولِ بِأَسَالِيْبٍ لَا أَجِدُ لَهَا نَظَائِرَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، فَقَرَّرْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى نَفْسِي  
لَأَقْتَبِشَ عَمَّا فِيهَا مِنْ أَسْرَارٍ وَغَرَائِبٍ وَأَعَاجِيبٍ ، عَسَانِي أُمِدُّ الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ بِذَخِيرَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ  
ذَخَائِرِ النَّفُوسِ وَالْقُلُوبِ ، وَمُضِيْتُ فِدْرَسْتُ طَوَائِفَ مِنَ الْغَرَائِزِ وَالطَّبَاعِ وَالْمَيُولِ لِأَسْتَطِيعَ  
تَأْرِخَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ وَقَدْ جَمَعْتُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَحْصُولًا يَعْزُّ عَلَيَّ مِنْ رَامِهِ  
وَيَطْوِلُ .

ثم هالني أن أرى الناس ينظرون إليّ نظرات الرّيبة والاحتراس ، وأزعجني أن يصارحني  
بعض الأصدقاء بالقطيعه لأنه يخاف على أهل بيته من الشاعر الذي يقول :  
أَصْبَاكَ مَا تَخْلَفُ السُّتَارَ وَإِنَّمَا تَخْلَفُ السُّتَائِرَ لَوْلَوْ مَكْنُونُ  
وَالنَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنِّي بِكُلِّ حَسَانَةٍ مَفْتُونُ  
ولما دخلتُ بغداد وجدت ناساً يرتابون في أمانتي بسبب مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب  
« حب ابن أبي ربيعة » وفي تلك المقدمة كلامٌ قلّته في الدعوة إلى الأدب المكشوف .  
وأنا الذي جنيّت على نفسي : لأنّي لم أُبَيِّنِ المراد من الأدب المكشوف ، وما أردت به إلا  
الصدق في تصوير العواطف والأهواء ، ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس .  
ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون ، لأنّي بحكم أعمالِي الرسمية من رجال  
التربية ، ولأنّي رجلٌ متأهل وله أبناء ، ولأنّي أتسامي إلى أكبر منصب من مناصب الخدمة  
الوطنية .

وما الذي كان يمنع من تحديد الغرض الذي قصدت إليه حين أثبتت على الأدب المكشوف ؟  
منع من ذلك أني اعتمدت على غقول بني آدم وفيهم أذكاء .  
ومن هنا جاء الغلط : فالجاحظ وابن قتيبة والثعالبي كانوا يعرفون أن مؤلفاتهم لن تصل إلا  
إلى المياسير من الخواصّ ، أما أنا فأعيش في عصر كثر فيه نقل المؤلفات من أرض إلى أرض ،  
( ليلى المريضة في العراق )

ومؤلفاتي ذائعة ذيوغاً لم أكن أتوقع أن تصل إليهِ ، وقد يكون في القراء من يخفى عليه أني أدعو إلى مبادئ أخلاقية سامية أغشيها بالفتون كما يصنع الطبيب في تغشية « البرشامة » المُرّة بغشائٍ من الحلواء .

وقد يكون لي حُصُونٌ يتخذون من أدبي ذريعة إلى إقصائي عما أطمح إليهِ من المناصب العالية ، وهؤلاء الخصوم قد يعرفون في سرائر أنفسهم أني من أهل الصدق ، ولكن الخصومة لها طبائع سود ، وهي تحرف الكلم عن مواضعه بلا تهيب ولا استحياء . والأصدقاء أنفسهم قد يرتابون فيما يقرأون ، وهل أنسى ما وقع بيني وبين الأستاذ سعد اللبان ؟

إن الأستاذ سعد اللبان صديق حميم ، وهو من الذين يعرفون دقائق الرموز والمعارض ، ولكنه مع ذلك أسرّ إليّ مرة أنه يحب أن يعرف مبلغ الصدق فيما تحدثت به عن نفسي في كتاب « ذكريات باريس » .

وقد ضحكك ضحكةً أصرح من ضحكاته الصريحة ، وأكدت له أني صادق في كل ما تحدثت به عن نفسي من غراميات باريس !

ولما نشرت مذكراتي عن غرامى بمرجريت ورعاية ابنها موريس كتب إليّ ناسٌ من بغداد يرجونني أن لا أفصح نفسي على نحو ما صنعت في نشر تلك المذكرات ، لأن ذلك يؤيد حجة خصومي هنا وهناك .

كان عليّ أن أعتبر بما رأيت وسمعت ، كان عليّ أن أعتبر منذ اليوم الذى أعلن فيه الدكتور طه حسين رأيه في كتاب « مدام العشاق » بمقال نشره في جريدة السياسة وصرح فيه بأن كتاب « مدام العشاق » يحرض على الشهوات .

\* \* \*

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أقول إن العقل يفرض أن نوضح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات ، فلو أني كنت أفصحت عن غرضي منذ أول يوم تصديت فيه للنشر والتأليف لأعفيت نفسي من متاعب القيل والقال .

ولكن تجريح الأفراد غير تجريح الشعوب .  
فمؤلفاتي حين تفهم فهمًا خاطئًا لا تضر أحدًا غيري ، وأراجيف المفسدين لها نتيجة صغيرة وهي إخراجي من خدمة الحكومة المصرية .  
ولكن التجريح حين يوجه إلى أمة تكون له عواقب أفظع وأشنع ، فسكوث مصر عما يوجه



إليها من تُهم كواذب قد يعطل رسالتها العلمية في الشرق ، فيضرها مرةً ويضر الشرق مرتين ، لأن الشرق العربي يريد حقيقةً أن يثق بأن له إخوانًا أشقاء في مصر ، وهو يتأذى حين يوهمه المفسدون بأن العواطف العربية ليست إلا خداعًا في خداع .

وهذه الأزمة شهدتها بنفسى حين زرت لبنان وسورية وفلسطين والعراق ، ولعلى أراها حين يوقنى الله لزيارة تونس والجزائر ومراكش ، فأهل تلك البلاد الشقيقة يجزعون مرات في كل يوم لأن صنائع الاستعمار يوهمونهم أن مصر لا تفكر في غير السيطرة والاستعلاء . وقد دار هذا الحديث بمنزل ليلى منذ نحو خمسة عشر شهرًا ، ودونتُ رأيي فيه بالجزء الأول من هذه المذكرات ، ولا أذكر بالضبط ما دونتُ هناك : لأن وقتي يضيق عن مراجعة ما أكتب ، ولكن المفهوم عندي أنه لا بد من إنشاء قلم خاص بمصلحة الصحافة لمراجعة ما يكتب عن مصر في سائر الأقطار العربية والإسلامية ، ومراقبة ما يُنشر في جرائد مصر عن تلك البلاد .

ومن الواجب أن يكون الموظفون بذلك المكتب رجال لهم خبرة ودراية ومعرفة بأحوال الشرق ، ومن أهل الغيرة على الأخوة العربية ، ويجب حتمًا أن يكونوا عرفوا الشرق وأن يكونوا في صدق إبراهيم المازني وعبد الوهاب عزام ومحمد عبد العزيز سعيد ومحمد فهم وعبد الواحد الوكيل ، ومن إليهم من أفاضل الرجال . وإنما ألحُ في الدعوة إلى إنشاء هذا القلم الخاص لأني أعرف أن الصحافة المصرية معرضة لخطر عظيم : هو محاكاة الصحافة الأوربية ، والصحافة الأوربية تستبيح ما لا يباح !

ولو شئتُ لنصصتُ على أن أكثر الصحفيين عندنا شبان تعوزهم التجارب ، وفيهم ناس يُشبهون التلمذة حين تقف فوق البطيخة : فالبطيخة عند التلمذة هي الكرة الأرضية ، ومصر عند بعض الصحفيين هي أم الدنيا ، وما سواها سرابٌ في سراب !

وبهذه المناسبة أذكر أني قرأتُ للأستاذ أميل زيدان كلمة حول الاختبار الصحفي بمناسبة تفكير كلية الآداب في إنشاء قسم للصحافة ، وهو يرى أن أعظم سؤال يوجه إلى الطالب في قسم الصحافة هو السؤال الذي يشهد جوابه بأن الطالب يفهم جميع الظروف التي تظهر بها الجريدة اليومية من وقت إعداد المقالات إلى وقت ظهورها في السوق .

وقد فهمت من كلمة الأستاذ أميل زيدان أن « الخبر » له قيمتان : قيمة حقيقية وقيمة صحفية .

وهذا حق .

ولكنه سيرٌ في طريق التضليل ، ففي جرائد مصر أخبار لها قيمة عظيمة من الوجهة الصحفية ، ولكنها مشعومة من الوجهة الوطنية : فكتابة مقال عن دخائل بعض البيوت ينفع

نفعًا عظيمًا من الوجهة الصحفية ، ولكنه مؤذٍ من الوجهة الوطنية ، ونشر كلمة مثيرة للخواطر أجدى على الصحفي من الاشادة بكتاب جيد .  
ونشر خير يمزق ما بيننا وبين بعض الأمم العربية من صلات يزيد توزيع الجريدة ألفًا أو ألفين ، ولكنه يرجع على مصر بالوبال .

فما الذى ستصنعه كلية الآداب حين تنشئ قسمًا للصحافة ؟  
أنا أرجو أن يكون لذلك القسم المنتظر فوائد غير التمهيد لأكل العيش وتقليل عدد العاطلين .

أنا أرجو أن يكون قسم الصحافة بكلية الآداب نواة لوزارة الدعاية التى سننشئها بعد عام أو عامين ، يجب أن لا يدخل هذا القسم غير الشبان المزودين بالألقاب الجامعية من الذين ظهرت عليهم أمارات الاستعداد للخدمة الوطنية .  
وليس من العيب أن يفهم أننا نكوّن شابًا يصلون بيننا وبين أهل الشرق أو أهل الغرب .  
بل العيب كل العيب أن نترك علاقاتنا الخارجية تحت رحمة شبان تعوزهم التجارب من الذين يرون أن الخبر الكاذب أنفع صحفيًا من الخبر الصحيح .

\* \* \*

والغيرة على مصر تفرض أن أسجل المشاهدة الآتية :  
لم أدخل مدرسة فى القاهرة أو طنطا أو الإسكندرية أو أسيوط باسم التفتيش إلا حرصت على معرفة ما يقرأ التلاميذ فى أوقات الفراغ .  
وقد تحيل إلى أن هذا أهم من ملاحظة الحضور والغياب .  
فماذا رأيت ؟

رأيت أن التلاميذ عندنا لا يقرأون المجلات الجديدة ، وإنما يكتفون بقراءة المجلات الفكاهية .  
وهذا يخالف تمام المخالفة ما شاهدته يوم كنت فى العراق ، فالتلاميذ العراقيون يُقبلون على المجلات الجديدة إقبالاً شديداً ، على نحو ما كان يصنع التلاميذ المصريون منذ عشرين سنة .  
وأذهب إلى أبعد حدود الصراحة فأقول :

إن مجلاتنا الفكاهية تُقرأ عندنا ، أما مجلاتنا الجديدة فتقرأ فى غير مصر من الأقطار العربية ، ولا يقرأها فى مصر غير الخواص .  
فما معنى ذلك ؟

معناه أننا عجزنا عن رياضة شباننا عجزاً قبيحاً ، ولم نستطع أن نقدم إليهم الجِدِّ فى صورة مقبولة وأسلوب أخذ ، وتلك هى المهمة الحقيقية لسيخر البيان .  
ومعناه أيضاً أننا لا نفكر فى الشبان المصريين حين نكتب ، وإنما نفكر فى الشبان العراقيين

والحجازيين واليمنيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين وفي أمثالهم من شبان تونس والجزائر ومراكش . وهذا غرض شريف ، ولكن يجب أن يدخل الشبان المصريون في الحساب ، لأنهم قوة هائلة جدًا ، ولأنهم سيحملون الأمانة العلمية في المستقبل القريب .  
وقد جمعتُ المدرسين في إحدى المدارس الأجنبية وصرختُ في وجوههم : لماذا يزهّد تلاميذكم في المطالعات ؟

فقال قائل منهم : هذا عيب شائع في المدارس المصرية فكيف تُؤاخَذُ به المدارس الأجنبية ؟ !  
وهذا الجواب أفحمني : لأنني أعرف أن أكثر المدرسين عندنا يخلون على أنفسهم بكتاب ثمنه خمسة قروش ، فكيف أنتظر أن يولّع التلاميذ بالمطالعات !  
ولكن لا بدّ من التفكير في الخلاص من هذه القناعة العقلية .  
إن متوسط ما يقرأ الشاب الفرنسي في العام الواحد ستون كتابًا .  
فكيف يجوز أن يمر العام على الشاب المصري بدون أن يطلّع على كتاب واحد ؟  
العيبُ عيب المؤلفين .

وهل ضَعُفَ التأليف في مصر ؟ مصر لم تضعف فيها التأليف ، ولكنه منحرف بعض الانحراف .

المؤلفون المصريون في هذه الأيام لا يفكرون في غير الخواصّ : فهم يشتغلون بتحقيق الأدب الجاهل والنثر الفني في القرن الرابع وفلاسفة اليونان والتصوف الإسلامي وينسون أن من واجبهم أن يحدثوا الشبان عن معضلات العصر الحديث .  
ومن المحزن أن أصرّح بأن مصر لم يَنْبَغ فيها كاتب يسيطر على عقول الشبان بعد المنفلوطي ، وما كان المنفلوطي بأعلم من العقاد أو طه حسين ، ولكنه كان أقدر منا جميعًا على الوصول إلى أفئدة الشباب .

وقد ظفر المنفلوطي بمجد لم يظفر بمثله أعظم الكتاب في باريس .  
جلسْتُ مع المنفلوطي ساعة في المكتبة التجارية فطلبتُ كتبه وهو حاضر أكثر من سبعين مرة ، فمتى يُخلّق الكاتب الذي تُطلّب كتبه في الساعة الواحدة عشر مرات لا سبعين مرة ؟  
وقد تعب الدكتور طه حسين في محاربة المنفلوطي ، ثم قال يوم مات : يجب أن يُخلّق في مصر منفلوطي جديد .

فمتى يُخلّق المنفلوطي الجديد ؟

\*\*\*

ما لي ولهذا كله ؟ يجب أن آوئ إلى فراشي لأستعدّ لرحلة الغد مع أعضاء المؤتمر الطبي فلي معهم شؤون وشؤون .

إلّى ، أيها القلم ، ولا يُرْعَكَ أن يكون الفجر اقترب ، فلا بدّ من تسجيل ما وقع في اليوم الثالث من أيام المؤتمر الطبى العربى .

لم أحضر الاجتماعات العلمية بكلية الطب ، لأنى قضيت الليلة الماضية في جدال وإنشاء ، والجدال والإنشاء يأخذان الوقود من عافية البدن وقوة العقل . وكذلك استرحْتُ إلى الضُحى ، ولم أخرج من بيتى إلا قبيل الظهر لأهُو ساعة بالطواف حول شارع الألفى وشارع فؤاد وشارع عماد الدين .

وفي تمام الساعة الثانية كنتُ في ميدان إبراهيم لأصحب الضيوف إلى أهرام سقارة . ومن الواجب أن أسجل أنى لم أر أهرام سقارة قبل اليوم ، لأن المصرى مجهل ببلاده أقبح الجهل ، وأستطيع أن أصرّح بأنى لم أر أسوان إلى اليوم ، وسأراها بإذن الله يوم أذهب للتفتيش على بعض مدارس الصعيد ، وتحقيق ذلك سهل : لأنى أسافر في الدرجة الأولى بالجمان ! وهل رأيتُ الأقصر إلا يوم ذهبت إليها بالجمان مندوباً عن جريدة الأفكار سنة ١٩٢٢ لأصف قبر توت عنخ آمون ؟

المصرى في بعض أحواله تُعوزه غريزة التطلع إلى المجهول وهل يصدّق أحد أنى لم أر فلسطين وسورية ولبنان إلا حين سافرت بالجمان مندوباً من الحكومة المصرية لمداواة لىلى المريضة في العراق ؟

إن كان المصريون جميعاً في مثل حالى من حب العزلة والاعتكاف فسيفوتهم شيء كثير من فهم ألوان الوجود .

ركبتُ إلى سقارة ، وأنا أجهلُ من الضيوف بطريق سقارة . ولم أعرف « ستوديو مصر » إلا لأنى كنت ذهبتُ إليه مدعواً لأشهد حفلة الافتتاح .

\*\*\*

كانت الخضرة تروع الأنظار من الجانبين ، وكان للوادي سحرٌ قهار لا يسلم من فتونه إلا من حُرِمَ نعمة الإحساس .

ولقينا في الطريق نخلات تذكّر بنخلات العراق .

ورأينا الإبل والشاة والأنعام وهى تتذوق لذّة القرار فوق ظهر الأرض ، فتذكرتُ أن المصورين لا يرون صورة السلام إلا في طمأنينة تلك الحيوانات فوق مراعٍ الأعشاب

والبقول ، وصح عندى أن المزية الأصيلة للإنسان هى التفرد بحمل الهموم والأحزان فى سبيل الحب والمجد .

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يغزو قلبه الحزن ، ولا يعرف معنى الحزن من غير الإنسان إلا الحيوانات الراقية ، فالحزن ليس علامة ضعف وإنما هو علامة قوة ، وما عاب الناس الحزن إلا لخوفهم من أن يكون باباً إلى الاستسلام والقنوط ، فتورثهم عليه ثورة رجال يعرفون عواقب ما يشعرون .

ولو كان الحزن مآشين فى جميع الأحوال لما كان فى الأنبياء بكاءون .  
والكتب التى سيطرت على العالم — وهى التوراة والإنجيل والقرآن — لم تخل من حزن وبكاء .

وعمره عليه السلام بكى يوم مات ابنه إبراهيم .  
وجميع العظماء ذاقوا ملوحة الدمع .  
وأنا بكيت يوم فارقت ليلاي ، وسأبكي أيامي فى حماها إلى أن أموت .

\*\*\*

هذه هى أهرام سقارة التى خلقت الجدل بين إسماعيل صبرى وخليل مطران ، وقد بينت ذلك فى الطبعة الثانية من كتاب « الموازنة بين الشعراء » فلا أشغل نفسى به فى هذا الحديث .  
وها نحن أولاء نتنسم الهواء فى بقعة صحراوية كانت ملعب الفراعين منذ أماد طوال .  
وما قيمة أهرام سقارة بجانب أهرام الجيزة ؟  
إن العظمة هنا أقل من العظمة هناك .  
ولكن لسقارة مزية : ففيها مدافن العجول .

\*\*\*

دخلت تلك المدافن مع الضيوف فهالنى أن أسمع من « الدليل » كلاماً لا يُقره ذوق ولا عقل ، فقد ظن ذلك الجاهل أن المصريين لم يكونوا يعبدون العجول إلا لأنها مبقعة الألوان .  
وما هى إلا لحظة حتى أشرت إليه أن يسكت وانطلقت أقول :  
سيداتي ، سيداتي :

أنتم هنا فى ضيافة التاريخ ، تاريخ الفراعين ، وهم قومٌ حفظوا التوازن الدولى فى التاريخ القديم ، فمن العقوق أن تسمعوا فيهم ما لا يليق .  
سيداتي ، سادتي :

إن الفراعنة عبدوا العجول ، ولكن لذلك سرٌ يخفى على الجهلاء : فالفراعنة كانوا يعطفون على « البقر » أشد العطف ، لأنهم كانوا يرون فى البقرة صورة الخير وصورة الحنان ، وعن

الفراعنة أخذ الناس حبَّ البقر في الهند وفي العراق . أما الهند فأخبره في هذا الباب لا تخفى عليكم وأما العراق فتاريخ الحجاج يسجله أصدق تسجيل ، فقد نهى الحجاج عن ذبح البقر ليضمن الخير لأهل العراق ، وكان ذلك فرصة لسخرية بعض شعراء العراق من الحجاج . فالفراعنة هم الذين أذاعوا في العالم القديم تقديس هذا النوع من الحيوان المستأنس الظريف ، ولو شئت لقلت إن « البقرة » أوفر حنانا من المرأة ، وقديماً كان العرب يصفون المرأة الجميلة بأنها من بقر الجِواء ، وهم يريدون النص على حلاوة العينين وطراوة الخنان ، وإن لم يفتن إلى دقائق هذا المعنى أكثر الشراح .

كانت الوثنية هي الدين الغالب في مصر قبل أن تنتدى إلى التوحيد ، ولكن أى وثنية ؟ هي وثنية شعيرية جعلت العالم أمام أعينهم وأفتدتهم أمواجاً من النور الوهاج . والمهم أيها السادة أن تعرفوا أن مصر من أعظم أوطان المبادئ : كانت صادقة في الوثنية ، وكانت صادقة في النصرانية ، وكانت صادقة في الإسلام .

أما صدق مصر في الوثنية فيشهد به ما خلفت من الآثار الرائعة التي يندر أن يكون لها مثيل في العالم ، وأتحدكم أن تثبتوا أن العالم القديم في أى بقعة من الأرض خلف آثاراً تشبه أو تقارب ما خلف الفراعنة .

وأما صدق مصر في النصرانية فيشهد به التاريخ ، فالمسيحيون كلهم يؤرخون بميلاد المسيح ، أما نصارى مصر فيؤرخون بمذابح الشهداء .

وأما صدق مصر في الإسلام فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، ويكفى أن تذكروا أن مدينة القاهرة تزدان بمجموعة نفيسة من المساجد ليس لها نظير في أى مدينة إسلامية ، ومن حدثكم بأن في العالم الإسلامى مدينة يظهر فيها سلطان الإسلام كما يظهر في القاهرة فهو مضلل كذوب .

إن مصر أيها السادة هي البلاد التي استعربت استعراباً تاماً منذ اطمأنت إلى الإسلام ، وهي التي دحرت الصليبيين ونجت الشرق من بأسهم الشديد ، وهي كذلك التي استعصمت وعزت فلم ينل منها التار والمغول أى منال .

فأرجوكم باسم الأدب والذوق السليم أن لا تعرضوا لمصر في ماضيها القديم بما يسىء ، فقد اعتنقت الوثنية عن صدق ، ثم اعتنقت النصرانية عن صدق ، وفتحت صدرها للإسلام عن صدق .

\*\*\*

وعند هذه الكلمة صاح بعض الضيوف : ولكن مصر الإسلامية تسمح بشرب الخمر

## علانية !

فقلت : هذا حق ، ولكنه من دلائل القوة الأخلاقية .

فقال : وكيف ؟

فقلت : لأن المصريّ في سريرة نفسه يبغض النفاق ، فهو يستبيح الإثم في العلانية ، وقد يأنف من الإثم في الخفاء ، وهذا الجهر بالمعاصي في مصر هو الشاهد على أن عندنا قوة تخلقية ، لأن المرء لا يجهر بالمعصية إلا وهو يحارب أقوامًا يقاومون العصيان ، ولو ضعفت الأخلاق العامة في مصر لما كان هناك موجب لأن يفتضح من يفتضح في طلب اللذات .  
أضيفوا إلى ذلك ، أيها السادة ، أننا نلقى أوروبا وجهًا لوجه ، ولو اتفق ذلك الحظ السعيد أو المشعوم لغيرنا من المسلمين لشقوا به أعنف الشقاء .

إن أوروبا تدخل إلينا من كل باب ، ونحن مع ذلك نسدّ في وجهها جميع الأبواب .  
وقد تسمعون أننا نأخذ عن أوروبا ما تملك من سيئات ونزهد فيما تملك من حسنات  
وهذا كذب واقتراء :

فمصر هي التي نقلت إلى اللغة العربية فرائد المؤلفات الأوربية ، وما سمع إنسان في الشرق  
بعلوم الأوربيين وآدابهم إلا بعد أن نقلناها إليه .  
أنتم تعلمون أن تركيا كانت تسيطر على مصر سيطرة تكاد تكون فعلية ، ومع ذلك تنسون  
أننا سبقنا تركيا إلى اقتباس المدنية الأوربية ، فعرفنا أسرار الحضارة الحديثة قبل أن يعرفها  
الأتراك .

وعن مصر أخذ الشرق العربي أنظمه التربية والثقيف ، وعن مصر أخذ الشرق الإسلامي  
فكرة التوفيق بين العلم والدين .  
قد تسمعون أن مصر أخذت عن الغرب نظام السهرات وأدب الرقص .  
وهو كذلك .

ولكن متى سلم ابن آدم سلامة تامة من آفة التقليد السخيف ؟  
وما لكم لا تعترفون بأن من أهم مزايا مصر أن تكون من أقدر الأمم على تنويع ما تراه من  
هذى وضلال ؟

إن مصر أطلت فجأة على بساتين الحضارة الحديثة فكانت أسبق الأمم الإسلامية إلى الفتنة  
بما في تلك البساتين من أزهار وأشواك .

أنتم لا تعرفون كيف امشجنا وابتلينا ، يا إخواننا في الشرق ، أنتم لا تعرفون أنكم لو ابتليتم  
بمثل ما ابتلينا لكان مصيركم مصير آدم حين عصى ربه في الفردوس .  
إن بعض الأمم الإسلامية رجعت إليها العصبية الجاهلية فأحيث لغاتها القديمة وزهدت في

اللغة العربية : لغة القرآن ، أما مصر فستظل بإذن الله إلى الأبد وهى الحصن الحصين للغة العربية .

\* \* \*

وهنا هتف هاتف : أهذه محاضرة عن مصر ؟  
فقلت : إن مصر بلدكم ، أيها الضيوف الأعزاء ، ودفعُ التهم عن مصر يجب أن يقع من أنفسكم موقع القبول ، إن عرض مصر هو عرض العروبة ، والدفاع عن مصر دفاعٌ عن العروبة ، ولولا إيماني بأن صدوركم تنشرح حين تُذكر مصر بالخير الجزيل لطويتُ عنكم هذه الشرائط العُمر من أخلاق وادى النيل .

وما الذى تغنم العروبة حين تصح أراجيف المبطلين في عروبة هذه البلاد ؟  
إن مصر تشعر بأنها مسئولة أمام الضمير العربى ، وهى من أجل ذلك تبذل ملايين الدنانير فى كل عام لتقوية الثقافة العربية ، ومن واجب العرب أن يشجعوا هذه الحماسة ، وأن يفهموا أن تحاملهم على مصر قد يخلق أحقاذاً فى بعض الصدور التى لا تُدرك جيداً قيمة الأخوة العربية .

\* \* \*

وهنا اعترض أحد الضيوف قائلاً : أنت قلت إن المصريين عبدوا البقرة مع أن الصور المرسومة على جدران هذا المعبد صور ثيران .

فقلت : إنهم اختاروا الثور فى بعض الصور ليسجلوا رأيهم فى تمجيد القوة ، ولو أنك زرت معبد الكرنك فى الأقصر لرأيتم صوروا الرجال بأسلوب ينافى الحياء ، ليُفهموا من لا يفهم أن الفحولة هى أعظم خصائص الرجال .

ثم خرجنا من المعبد الذى صُوِّرت فيه العجول لندخل السرداب الذى وضعت فيه توابيت العجول ، وكنت فكرت فى التمتع بلحظة لهُو فى ذلك السرداب ، وأغرانى بذلك أن رأيت فتاة جميلة تُشبه ظمياء وهى تنظر إلّى نظر الحنان بعد أن سمعتُ خطبتي فى الدفاع عن وثنية الفراعين ، فسأرتها إلى السرداب مسأرة الطيش للشباب .

وقلت فى نفسى : إن المصريين عصوا ربهم بعبادة البقر ، فكيف يفوتنى أن أتقرب إلى ربي بعبادة الظباء .

وفى أثناء الزحام الذى تدافع فى ظلمات السرداب هجمتُ على تلك الفتاة فضممتها إلى صدرى وقبلتها قبلتين أثيمتين ، وظل ذراعى طوقاً لخصرها النحيل إلى أن فضحتنا مصاييح السرداب ، فنظرتُ إلى وجهها أجتلى ما فيه من إشراق وفتون فإذا هى امرأة حيزبون !  
فأين ضاعت تلك الفتاة ؟



أين ضاعث ؟ أين ضاعث ؟

وكيف اهتدت إلى هذه الحيزبون ؟

أشهد بالله أنني تلميذ الشريف الرضى ، الشريف الذى قال :

أيها القانص ما أحسن صيد الطيِّيات

فألك السرب وما زُودت غير الحسرات

وبعد هذه الخيبة فى الصيد خرجت إلى مقصف الشاي وأنا مكسوف ، فاكثفت بالجلوس خلف سور المقصف مع بعض الضيوف ، فأطل الدكتور عبد الواحد الوكيل وقال : تعال يا دكتور زكى لتسمع خطبة العشماوى بك ، فنهضت متثاقلاً لأسمع خطبة ذلك الرجل البليغ . لم أر سعادة العشماوى بك ولا معالى الدكتور هيكل باشا مع أن الدعوة موجهة من وزير المعارف ، وقد اعتذرت لمن سألونى بأن هذه ليست دعوة شخصية ، وإنما هى دعوة وزير المعارف ، والوزير نفسه ليس فى القاهرة وإنما يقضى أيام العيد فى أسوان .

\*\*\*

آه ثم آه من أخطار السكوت : سكوت مصر عن تصحيح مركزها أمام الأمم العربية . عدت بالسيارة مع أحد فضلاء العراق فحدقت فى وجهى طويلاً ثم قال : إن كان فى الدنيا إنسان يصوّر الحق بصورة الباطل ويصوّر الباطل بصورة الحق فهو الدكتور زكى مبارك الإيش لون طيب لخاطر الله ؟

فقلت وأنا أبتسم : وأنت يا فتى العراق ، ماذا تريد أن تقول ؟

فقال : فهم الناس من خطبتك أن مصر سبقت إلى العروبة ، وهذا غير صحيح ، لأن فكرة العروبة نشأت أولاً فى الشام والعراق .

فقلت : اسمع ، يا صديقى ، ثم بلغ إخوانك فى الشام والعراق : إن مصر سبقت إلى العروبة من الوجهة القومية أما أنتم فسبقتم إلى العروبة من الوجهة السياسية ، والفرق بين الوجهتين بعيد .

فقال : كيف ، كيف ؟

فقلت : إن الدعوة إلى العروبة من وجهة سياسية نشأت عندكم أولاً ، لأن فكرة العروبة كان يراد بها التخلص من طغيان الأتراك ، ونحن قبل الحرب لم نكن نشكو طغيان الأتراك : لأننا كنا ابتلينا بالاحتلال الإنجليزى ، فانصرفت جهودنا كلها إلى مقاومة ذلك الاحتلال ، وكان الوطنيون المصريون فى ذلك العهد يعطفون على تركيا ، لأنهم كانوا يرجون أن يخلقوا للإنجليز أعداء من الأتراك . وآية ذلك أن المصريين الذين عاشوا فى تركيا شاركوا أهل الشام والعراق فى العطف على القضية العربية التى خلقت خلقاً لمقاومة الغاشمين من سلاطين آل

عثمان ، وأنتم تعرفون أن القائل عزيز على المصري باشا وضع الحجر الأول في بناء القضية العربية وهو في استامبول . ويجب أن تعرف أيها الأخ أن فكرة العروبة كانت ذات وجهين : أحدهما مقنّع وثانيهما صريح ، أما الوجه المقنّع فهو وجه المأجورين الذين كانوا يملأون جيوبهم بالدنانير الإنجليزية ليحاربوا الأتراك باسم العروبة، وأما الوجه الصريح فهو وجه الأشراف من أهل الشام والعراق ، هو وجه الرجال الذين آمنوا بوجود الدعوة إلى إنشاء أمبراطورية عربية تعيد بناء الإسلام والعروبة على أساس متين .

وأنتم في العراق جهلتم ما أحيط بتلك القضية من دنائس فشبه لكم الخطأ بصورة الصواب ، واهتمتمونا بالتخاذل عن نصره القضية العربية ، ولو اطلعتم على السرائر لعرفتم ما نحن عليه من الصدق والاخلاص .

— هذا كلام نفيس جدًا ، ولكن كيف سكتكم عن إعلانه إلى هذا اليوم ؟  
— إن المصريين أجهل الناس بالسياسة ، وأكثرهم يتوهم كما توهم سعد زغلول أن الحق فوق القوة ، وأنه سينتصر ولو بعد حين ، هل تصدق أيها الأخ أن الحكومة المصرية ليس فيها موظف مسئول عن تعقب ما يقال عنها في الشرق ؟ هل تصدق أن الحكومة المصرية تُصدر على حسابها بعض الأعداد من الجرائد الأوربية والأمريكية للتحدث عما وصلت إليه مصر في ميادين العلم والاقتصاد ولم تفكر مرة واحدة في أن تُصدر على حسابها عددًا من الجرائد العراقية أو السورية أو اللبنانية ؟ إن مصر تعتمد على أصدقائها في الشرق ، ولكن فاتها أن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء !  
لو كانت الحكومة المصرية تعقل لنشرت كتابًا تبين فيه ما صنعت في خدمة العروبة من الوجهة القومية .

فقال الرفيق العراقي : ولم لا تصدر أنت هذا الكتاب ؟

فقلت : أنا مشغول عن السياسة بالحديث عن الملاح !

— وكيف تُشغل بالحب عن السياسة ؟

— لأن الحب هو الذي نبّه العرب إلى أخطر الطغيان .

— وكيف ؟

— لأن أبيات سيدنا عمر بن أمي ربيعة رضى الله عنه هي التي بصّرت الرشيد بمواقع الرشد ، وهل تنبه الرشيد بمواقع الرشد ، وهل تنبه الرشيد إلى واجبه في صيانة العروبة إلا حين غنّته إحدى الجوارى قول فتى قريش :

ليت هندا أنجرتنا ما تعدّ      وشفت أنفسنا مما تجد  
واستبدت مرة واحدة      إنما العاجز من لا يستبد

— ولنفرض أنك عَقَلْتَ ، فما الذى كنت تقول لتثبت أن مصر سبقت إلى فكرة العروبة من الوجهة القومية ؟

— كنت أقول إن مصر أول بلد عربى حمل راية النهضة فى العصر الحديث ، وقد نقل المصلح الكبير محمد على من حال إلى حال ، فقد كان محمد على باشا الكبير تركياً وكان يتمنى بالطبع لو استطاع تترك مصر ، ولكنه رأى ذلك يعطل مطامحه الإصلاحية ، فتعرب هو ليخلق من مصر دولة عربية ينافس بها قومه من الأتراك ، وقد رأى أن جلالة الملك فاروق نسى لغة أجداده من الأتراك مع أن العهد بهم قريب ، فحدثنى عن بلد استطاع أن يُخْضِرَ ملوكه كما استطاعت مصر أن تخضرم ملوكها الأمراء .

— ولكن مصر تكثر فيها الوشائج الأجنبية .

— لأن الله عز شأنه جعل صلة الوصل بين الشرق والغرب ، ومن حسن الحظ أن يكون لنا هذا النصيب من عناصر النبوغ والعبقرية .

— ولكن هذا يقدر فى المصرية .

— وهل كان هارون الرشيد عراقياً وهو صاحب الفضل الأكبر على العراق ؟ وهل كان عبد الرحمن الداخل أندلسياً وهو صاحب الفضل الأكبر على الأندلس ؟ وهل كان المعز مصرياً وباسمه بُنيت القاهرة ؟

وهل كان فيصل عراقياً وأنتم ترونه مؤسس العراق الجديد ؟ وهل كان نابليون فرنسياً وبأجماده وحروبه تعطر تاريخ الفرنسيين ؟

إن « المانجة » فاكهة هندية الأصل ، ولكنها حين غُرِسَتْ فى مصر أقامت الدليل على أنها كانت فى الهند من الغرباء ، والإسلام نشأ فى بلاد العرب ، ولكنها حين اتصل بمصر عرف أن مصر هى وطنه الأصل ، واللغة العربية نشأت فى جزيرة العرب ، ولكنها حين استأنست بمصر آمنت بأن العروبة هى من خصائص وادى النيل ، والليل المظلم الموحش لم يتوجع منه أحد كما يتوجع المصريون والعراقيون ، ولكن المغنين المصريين تفردوا بالاجادة فى ترتيل « يا ليل ، يا ليل ، يا ليل » وصديكم الوقى أبوه عربى الأصل وأمه تركية الأصل ، ولكنه قيثاره تغرّد بمحاسن النيل والفرات .

فكيف تنكرون أن يكون من فضل مصر أن تلتقى فيها حضارة البحرين : بحر القلزم وبحر الروم ؟

أحب أن أعرف كيف تنكرون الخلق والعراق لم يعرف التضحية بالأنفس والأموال إلا فى سبيل الحق ؟

— حَبِّلْتَنِي ، حَبِّلْتَنِي !!

— إن مصر تريد أن تريح العالم العربى من وباء الجنسيات .

— إيش لون ؟

— لم يرتفع العرب والمسلمون إلا بفضل الثورة على العصبية الجاهلية التى تقوم على أساس الجنس ، وباء النسب فى تاريخ العرب كانت للتمييز فقط ولم تكن للتفريق ، فكان يقال بصرى وعراقى وموصلى ، كما كان يقال لسنوى وباجورى وشنشورى ، وكما يقال جامعى وأزهرى . إن مرض الجنسية يا صديقى مرضٌ خبيث ، وهو قادرٌ على تمزيق الأواصر بين الأمم العربية والإسلامية إن تركناه بلا علاج . إن كثيرًا من الشبان المصريين يزورون أوروبا وأمريكا ثم يرجعون وفى أيديهم زوجات أوريبات أو أمريكيات ، فمتى أرى الشبان الذين يزورون الشرق من المصريين يرجعون وبأيديهم زوجات عراقيات أو سوريات أو حجازيات ؟ متى يفهم الشاب المصرى أن من الشرف أن يستطيع تحلق مودآت لوطنه فى الشرق ؟ أنت يا صديقى تجهل الأسباب التى مكنت العرب من أن يسيطروا على العالم سيطرة أدبية نحو ثلاثة قرون . — وما هى تلك الأسباب ؟

— هى أسباب كثيرة يدركها فلاسفة التاريخ ، ولكنها عندى ترجع إلى سبب واحد : هو سلامة العربى المسلم من مرض الوطنية .

— إيش لون ؟

— الوطن فى عُرف العربى القديم هو داره فقط ، وكان العربى يحن إلى وطنه يوم كان ضعيفًا ، فلما أُرشدته الإسلام إلى أن الوطن الصحيح هو الكرة الأرضية مضى يصول ويجول من الشرق إلى الغرب وينشر لغته ودينه فى رحاب الأرض . الرجل العربى هو أستاذ الرجل الإنجليزى ، فعن العرب تلقى الإنجليز أصول الرجولة السليمة التى لا تعرف البكاء فى سبيل الوطن . كان العربى أئبى شرقًا أو غربًا يقبل على الجدل والهزل إقبال الأصحاء ، فتراه تارة فى المسجد ، وتراه تارة فى الحانة ، وهو فى جميع أحواله فريح جَذلان ، وكذلك الإنجليزى ينقل إلى كل أرض أصول البهجة والانشراح فيخلق لروحه كنيسة فى كل بقعة ، ويخلق لقلبه حانة فى كل مكان .

وكان العرب فى بعض مذاهبهم المعاشية أبعد نظرًا من الإنجليز ، لأن العربى كان يرى من حقه أن يصاهر من يشاء ، ومن هنا كان الأدب العربى فى أيام ازدهاره أقرب إلى الحياة من الأدب الإنجليزى ، لأن الأدب العربى طعمٌ بأداب كثيرة أما الأدب الإنجليزى فهو فى الأغلب مصبوغ بصبغة محلية . وأنا أعتقد أن العروبة لن تنهض إلا إذا تخلقت بأخلاق الأسلاف . فرحبت بالمصاهرات ، وأقلعت عن الطائفية المذمومة التى تجعل من الأمة العربية شعوبًا مختلفة المذاهب والميول والأذواق ، هل تصدق أيها الأخ أن المصرى حين يعيش فى العراق قد يعانى

من المتاعب ما لا يعانى الإنجليزى حين يعيش هناك ؟  
— كيف ؟ كيف ؟

الإنجليزى يعيش فى العراق بلا هموم لأنه لا يُسأل عن شىء غير الواجب الذى ذهب لتأديته فى العراق ، أما المصرى فيُسأل عن أشياء كثيرة : لأن ابتلاء العروبة بالطائفية يجعله هدفًا للقليل والقال ، ولأن المصرى فى العراق لا يُسأل أمام العراق وحده ، وإنما يُسأل أمام كثير من الأمم العربية ، وله الويل كل الويل إن غفل عن مراعاة التيارات الحزبية التى تدخل إليه من كل باب ، وكان ذلك لأن المصرى يدخل العراق وهو يعتقد أنه مصرى ، ولو اعتقد واعتقد معه الناس أنه عربى لانعدمت تلك المخرجات . فالآفة الكريهة التى تواجهنا فى كل وقت هى أننا نحمل أوطاننا فى قلوبنا ، الأوطان الإقليمية ، ولو أننا اكتفينا بالوفاء للوطن الكبير وهو الأمة العربية لعشنا سعداء فى كل بلد نُحل فيه ، وقد عاب قومٌ أن ألبس السدارة منذ أول يوم دخلت فيه بغداد ، وقالوا إني أتودد إلى أهل العراق ، ولو عقلوا لفطنوا إلى أن المروءة هى التى قضت بأن أتودد إلى العراق . وهل يغض من قدر الرجل أن يتودد إلى قوم وثقوا به واستقدموه لبعض المناصب العالية ؟

هل يكون من العيب أن يقول العراق إنه تمصر أو أن يقول المصرى إنه تعرق ؟  
وقد عاب على ناس أن أطيل القول فى الثناء على أهل العراق ، فهل يجب على الرجل أن يشغل نفسه بعدد العيوب على من يعرف من الرجال ؟  
الرجولة السليمة تُوجب على الرجل العربى أن يؤمن بأنه مسئول عن صيانة الأعراض لكل بلد يحل فيه ، وقد أكرمنى الله بهذا المخلوق فلم أر فى العراق غير الجميل ، وأرجو أيها الأخ أن لا تروا فى مصر غير الجميل .

— إن مصر فى أعيننا أجمل من الزهر المطلول .  
— هى كذلك فى أعينكم لأنكم تنظرون إليها كما ينظر المحب إلى الحبيب ، ولولا الحب لرأيتموها صحراء بجداء ، فليست مصر إلا بلدًا كسائر البلاد فيه الحُسن والقبح ، والخير والشر ، والرشد والغى ، والهدى والضلال ، هى بلد كله محاسن لمن ينظر بعين الحب ، والرجل الموفق هو الذى يشغل بصره باجتلاء المحاسن ويتعامى عن العيوب ، كما أصنع حين أسير فى شارع فؤاد .

— وماذا تصنع حين تسير فى شارع فؤاد ؟  
— أنسى أنه شارع تجارى يقوم على قواعد من مشكلات الحساب ، وأتوهم أنه لم يُخلق إلا ليكون معرضًا للصباحة والملاحة والفتون .  
— أنت إذن من الشعراء .

— ٤٣٢ —

— وهل في ذلك شك ؟ ألم أساير الكواكب في القاهرة وباريس وبغداد ؟

\*\*\*

فرغنا من رحلة سقارة ومن افتراع الأحاديث في الطريق ولم يبق إلا أن نسمع أغاني أم كلثوم بالجامعة المصرية ، فماذا رأينا وماذا سمعنا هناك ؟

أؤجل تدوين ما شاهدت وما سمعت إلى فرصة قد تسنح بعد حين ، ففي صباح الغد سألقى محاضرة في تعريب المصطلحات الطبية ، ويجب أن أسترىح . ويكفى أن أقول إنى قَبِلْتُ الآنسة أم كلثوم أمام جمهور من الناس منهم وزير الصحة ، وقد ابتسم وقال : إن هذه القُبلة شفاء من كل داء .

هذا حق .

ولكن تلك القُبلة زادتني جنوناً إلى جنون .

إشهد ، يا معالي الوزير ، أننى قَبِلْتُ الآنسة أم كلثوم ، ولتصنع ليلى ما تشاء !

---

شُغِلْتُ ليلة أمس بأُم كلثوم وبتحرير ما شاهدت في اليوم الثالث من أيام المؤتمر الطبي ، ولم أفطن إلى وجوب النظر في بريد العيد ، وقد تركه أهلي فوق المكتب لأتملى بالنظر فيه حين أرجع ، فماذا رأيت حين اطلعت عليه في الصباح ؟  
رأيت خطاباً معطراً من ليلى في العراق ، وهي تسأل كيف صبرتُ عنها كل هذه الشهور الطوال ؟

كيف صبرتُ ؟

الله يعلم كيف صبرتُ ؟

لم أصبر عن سُلوان ، وإنما صبرتُ عن يأس .

إن حالي في دنياي شبيهة كُلُّ الشبه بحال الحَمَام في العراق :

فالحمام في العراق ينوح في كل وقت من قسوة الجَوِّ هناك ، وهو مع ذلك لا يفكر في الهجرة لأنه يحب العراق ، وأنا في مصر أشكو الظلم في كل وقت ، ومع ذلك لا أفكر في الهجرة لأنني أحب مصر ، مصر التي فيها القاهرة والإسكندرية والمنصورة ودمياط وأسيوط وستريس .  
ماذا صنعتُ ليلى بقلبي ؟

لو كنت أعقل لهجرت مصر إلى الأبد لأُخرج في الشعر والفلسفة على يدني ليلى في العراق .

كانت ليلى تحدثني في كل لقاء عن خطرات قلبها الخفاق ، كانت تقول « بعد السهرة الماضية أحسست لدع الضمير لأنني صنعت معك كيت وكيت » وكانت تقول « بعد السهرة الماضية أحسست راحة الضمير لأنني منحتك كيت وكيت » وكانت تقول « لم أُنم بعد السهرة الماضية لأنني كنت خرجت في حديثي معك على بعض قواعد الذوق » وكانت تقول : « نمتُ نوماً سعيداً في الليلة الماضية لأنك رُحْتَ وأنت راضٍ عني » وكانت تقول : « استروحتُ معني النعيم بالأمس لأنني أهنتُك في داري » وكانت تقول : « كدتُ أقتل نفسي بالأمس لأنني كشفت أمام عينيك بعض الحجاب » وكانت تقول : « احترس من رفع الكلفة مع ظمياء لئلا تتوهم أنك تلقاها بما تلقاني » وكانت تقول : « إن ظمياء في حاجة إلى العطف فظللها بجناحيك » .

كانت تقول ، وكانت تقول ، وكانت تقول .

( ليلى المريضة في العراق )

وبفضل ليلى رأيت اصطخاب الأمواج فوق السريرة الإنسانية ، ولو بقيت في ضيافة ليلى  
ستتين اثنتين لعرفت الغرائب من أسرار الوجود .

الفرق بعيد بين ليلى ومرجريت .  
كانت مرجريت تقدم إليّ كل أسبوع كتاباً من غرر المؤلفات الفرنسية لأرى كيف يفهم  
الرجال سِر الحياة .

أما ليلى فكانت تحدثني عما رأته وما أحسّت وما عرفت وما جهلت .  
كانت ليلى تحدثني عن كل شيء ، وكنت أرى النور في نور الفلسفة الصحيحة — وأنا  
أستمع قولها المختلف الأفانين ، وكان حديثها أجدي على قلبي وعقلي من ألف كتاب .

وهل أنسى ليلة خرجنا لمشاهدة فلم « يحيا الحب » في سينما الحمراء ؟  
كانت الرواية في جانب ، ونحن في جانب .

كنا في الحقيقة وكانت الرواية في الخيال .

وقد شهدت معها أكثر من عشرين رواية سينمائية ، فرأيت ورأيت أن الحياة لم تنبض في قلب  
عاشقين كما نبضت في قلبي وقلب ليلى . وكانت — حرسها الحب — تميل عليّ من وقت  
إلى وقت لأنسى ما يعتلج في صدري من هموم وأحزان ، كانت ليلى تعرف بوحى القلب أننا  
قد نفترق إلى غير معاد ، لأنني كنت أعيش في بغداد عيش الطائر الغريب .

غفرت لك يا ليلى جميع الذنوب ، وصفححت عما اقترفت من مهلكات .

ما الذي كان يمنع من أن تبغى غاية العُنف فتنبيني من أهلي ومن وطني ؟

ما الذي كان يمنع من أن نفتضح لنعيد سيرة عمر بن أبي ربيعة مع غادة العراق ؟

ما الذي كان يمنع من أن نكون شغل الأفتدة في سائر الأقطار العربية ؟

ما الذي كان يمنع من أن أخاصرك سافرة في شارع الرشيد ؟

ما الذي كان يمنع من أن نفرق معاً في دجلة أو في الفرات ؟

آه ، ثم آه !!

منع من ذلك أنني كنت أحق وأنت كنت حمقاء .

اسمعي ، يا ليلى ، اسمعي .

لقد تشوّفت إليك تشوّف الزهر إلى التّدى ، وتشوّف السارى إلى البدر ، وتشوّف  
الخائف إلى الأمان ، وتشوّف العاشق المهجور إلى طيف الخيال .

أتعجبين من أن أشعل عنك بليلى المريضة في الزمالك ؟

لا تعجبني ولا تغضبني ، فقد كتبت عليّ أن أنتقل من هول إلى هول ، ومن ليل إلى ليل .

فإن آذاك أن أشعل بسواك فتعالني إلى ذراعني أسبوعاً أو أسبوعين ، واعلمي يا ليلى أني لن .



أتركك بلا انتقام إن صبرت عني : سأفضحك في كل أرض ، وسأقول إنى قدّمت قلبي إلى إنسانة لا تعرف أقدار القلوب . وسأغتاب العراق بلا تهيب : سأقول إن العراق لا يملك غير ذخائر قليلة من عذاب الأفعدة وشقاء الأرواح ، سأقول إن العراق لم ير وجه الرشيد ولا طلعة المأمون ، ولم يأنس بأدب طه الراوى ، ولم يفرح بأريحية فلان وفلان من الذين عرفتهم في بغداد ، سأقول إن الحبوى لم يكن من أهل النجف ، وسأقول إن دار المعلمين العالية ليست في بغداد ، وسأقول إن النادى العسكرى لا يطل على دجلة ، ولا يرى الأمواج المفضضة في الليالى المقمرات ، وسأقول إن الأعظمية لا تعرف العيون السود ، وسأقول إن الكرادة ليس فيها شعراء شبيبيون ، وسأقول إن الجزرة لا يؤكل فيها السمك الحى ولا السمك المسقوف ، وسأقول إن ليلي نجدية لا عراقية ، وسأنقل هواى إلى ليلي المريضة في لبنان .

\* \* \*

على روحى أنا الجانى .  
كانت ليلي في يدى ، وكنت أقرُّ منها كما يفر المريض الجاهل من الطبيب .  
جذبتنى بيدها ذات ليلة لنختفى من القمر تحت ظلال الأشجار البواسق .  
فماذا صنعتُ ؟  
وقفتُ بجانبها كالتمثال . وكنت من الآثمين .  
وتلطفت ليلي فقبلت يدى ، فهل فهمتُ مغزى ذلك التلطف ؟  
إن رأيتك ، يا ليلي ، مرّة ثانية ، فسأصنع بك ما يصنع الأسد الفاتك بالرشأ الريب .  
وموعدا في القاهرة أو في بغداد .  
ولكن متى نلتقى في القاهرة أو في بغداد ؟  
إن حولى ملايين من العيون ، وأنا رجلٌ مفضوح النظرات ، وله في كل أرض أعداء ، فأين السبيل إلى أن أخلو بك أسبوعاً أو أسبوعين قبل أن أموت ؟  
ولا تجزعى ، يا ليلي ، من أن أكثر من ذكر الموت ، فأنا أعتقد أن الدنيا ألأم من أن تسمح بأن أسكن إليك قبل الموت .  
كنت تقولين : أنت يا دكتور رجلٌ صبيغ من المعانى .  
وهذا ، يا معبودتى ، حق .  
ولكن من البلاء أن يكون الله صاغى من المعانى .  
فلو كنتُ كسائر الرجال لنسيّتُ هوالك بعد فراق بغداد .  
سأموت ، يا ليلي ، وأنا أهتف باللحظة التى اعتنقنا فيها يوم جُنّ القيط في مطلع حُزيران .  
ومن النعيم أن أذكرك بالوجد يوم أموت .

فأرجوك بالله وبالحب أن تجعلى لمحبوبك الغالى قبراً رمزياً بين قبور الصوفية فى ضواحي بغداد ، فإنى أخشى أن يُنسى قبرى كما نُسى قبر العباس بن الأحنف ومسلم ابن الوليد .  
أحبك ، يا ليلى ، فاذكّرني بالشعر والدمع يوم أموت .  
متى أراك ، يا ليلى ، متى أراك ؟  
ومتى تسكنين إلى صدرى بمصر الجديدة أسبوعاً أو أسبوعين ، أو لحظةً أو لحظتين ؟  
إن متُّ قبل أن أراك فساكون بإذن الهوى من الشهداء .

\*\*\*

شغلنى خطاب ليلى فلم أصل إلى كلية الطب إلا بعد مضى وقت على انعقاد لجنة المصطلحات الطبية .  
كان العشماوى بك رئيس اللجنة ، وكنت أعددت خطبة نارية تشبه الخطبة التى أعددتها لمصاولة الدكتور عبد الواحد الوكيل فى بغداد ، خطبة أسجل بها تهاون الجامعة المصرية فى تدريس الطب والعلوم باللغة العربية ، خطبة يجزع لها وكيل وزارة المعارف ، ويؤرق بها مدير الجامعة المصرية .

وقد نظرت فى الخطبة مرات وأنا فى الطريق وأضفت إليها فقرات تجعلها أهدأ وأعنف .  
وهل يمكن الوصول إلى الإصلاح فى مثل هذه البلاد بغير الحدة والعنف .  
يجب أن يكون السوط حاضراً فى كل وقت لتلا تهاد الجياد ، جياد الفروسية المصرية .

\*\*\*

ولكن شاءت المقادير أن تُطوى تلك الخطبة إلى الأبد ، فقد وقف الدكتور على باشا إبراهيم وقال : لا أذيع سرّاً إذا قلت لكم إن مجلس الأساتذة قرر فى الجلسة الماضية تدريس الطب باللغة العربية .

وبذلك قطعت جھيزة قول كل خطيب !!  
لقد ضاعت علىّ الفرصة فلم أسمع أساتذة كلية الطب ما يكرهون ، ولم أؤذ وكيل وزارة المعارف ولا مدير الجامعة المصرية .

ولكننى ظفرت بمغتمٍ عظيم سيضاف إلى حسناقى فى خدمة القومية العربية ، فمنذ خمسة عشر عاماً وأنا أخطب فوق المنابر وأكتب فى الجرائد والمجلات داعياً إلى تدريس جميع العلوم باللغة العربية فى كليات الجامعة المصرية ، وقد أسرفت فى الحماسة لتلك الدعوة أشد الإسراف ، فلم يكن رجال المعارف يُصبحون أو يُمسون إلا وأفتدتهم مملوءة بالرعب ، وأنفسهم فوّارة بالغيظ ، ولو جمعت ما كتبت وما قلت فى سبيل هذه الدعوة لتألفت مئة مجلدات ضخام تقدى بها أعين الحاقدين .

اليوم عرفت قيمة الصبر على مكاره الجهاد ، فما كنت أنتظر أن أفوز في بلد يكره بعض أهله أن يسمع صوت الحق .

اليوم أسجل صفحة جديدة من صفحات الجهاد في سبيل القومية العربية .  
شعرت اليوم بنشوة روحية لم أعرف مثلها من قبل ، وهل كنت أنتظر أن أصل إلى غرضي بمثل هذه السرعة ؟

الواقع أني أحسنت تخير الفرصة للدعوة إلى سيطرة اللغة العربية في كليات الجامعة المصرية ، فقد قمت بهذه الدعوة في وقت كانت فيه مصر مرفهة الحس ، واعية العقل ، كريمة الوجدان .

كنت أدعو إلى الحق قوما لهم قلوب وعزائم وآمال .  
كنت أدعو إلى الحق رجالاً يتوثبون تمجيد العروبة المصرية .  
فإلى أساتذة كلية الطب أوجه تحيتي وثنائى ، وأرجو لهم المزيد من نعمة التوفيق .

\*\*\*

وقد ذكرنى هذا الفوز بفوز سلف : فأنا أول من دعا إلى أن يكون معلمو اللغات الأجنبية في مدارسنا مصريين لا أجنب .

وقد استقلت في سبيل هذه الدعوة حتى انتصرت ، وكانت بشائر النصر إنشاء قسم بكلية الآداب لتخريج مدرسين للغات الأجنبية ، وإيفاد بعثات من الشبان المصريين إلى الجامعات الأوربية ليشغلوا بعد عودتهم بتدريس اللغات الأجنبية في المدارس المصرية .

وهنالك انتصارات كثيرة توج الله بها جهادى في سبيل القومية العربية تضيق عنها صحائف هذه المذكرات . وما أغرانى بالإشارة إلى ذلك حبّ الشئ ، كما يتوهم الغافلون ، وإنما أردت أن يفهم جميع الشبان أن الصديق في الجهاد لا يخيب ﴿١﴾ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴿٢﴾ .

\*\*\*

لم أشارك في زيارة المتحف المصرى ولا زيارة دار الآثار العربية ، وإنما اكتفيت بشهود رواية مجنون ليل ، وسأدون ملاحظاتي في صباح الغد ، لأن حديثى عنها قد يطول ، وأحب أن أوى إلى فراشى لأناجى ليلى في الأحلام ، إن لم يكن طيفها قد اعتصم بالهجر الجميل .

— إيش لون ليلي ؟

— عُوفيت ومرض الطبيب .

\* \* \*

كانت عصرية الأمس من أعجب العصريات ، وفيها خفق القلب ثم خفق حتى خشيتُ أن يفرّ من قفص الضلوع ، إن كانت فيه بقية من العافية يستعين بها على النجاة من شرك الحب .

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليلى العامرية أو يُراح

قطاة عَزَّها شرك فبات تجاذبه وقد علّق الجناح

فلا في الليل نالت ما تُرجى ولا في الصبح كان لها براح

وتفصيل ذلك أن وزارة المعارف دعت أعضاء المؤتمر الطبي العربى إلى شهود رواية مجنون ليلي بدار الأوبرا الملكية ، وقد رأى سعادة العشماوى بك أن يلقي كلمة يبين فيها كيف اختارت الوزارة هذه الرواية فقال :

« اخترنا هذه الرواية لسببين : الأول أنها من نظم أمير الشعراء شوقي ، وكان رحمه الله شاعر العروبة والإسلام ، وهو الذى قال :

كان شعرى الغناء فى فرح الشر قى وكان العزاء فى أحزانة

أما السبب الثانى فهو رغبة وزارة المعارف فى أن تستهدى بآرائكم فى مشكلة الحب : فقد عُقد مؤتمر السنة الماضية فى بغداد لمداواة ليلي المريضة فى العراق ، ومؤتمر هذه السنة عُقد بالقاهرة لمواساة الطبيب الذى عرفتموه فى بغداد ، وفيه مشابهة كثيرة من المجنون ، ويهمنى أن أخبركم أن معالى الدكتور هيكى باشا يسره أن توفّقوا إلى حلّ حاسم لمشكلة الحب ، وقد اعتذر عن الحضور لأنه يقضى أيام العيد فى أسوان ، وسأبلغه آراءكم بالتفصيل .

وقد قولت هذه الكلمة الوجيزة بالإعجاب ، ولكن أزعجنى أن يجهل بعض الأطباء شخصية الطبيب الذى أشار إليه وكيل وزارة المعارف .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن فى الناس من يشتزكون فى المؤتمرات للنزهة والسياحة بدون أن يعرفوا الغرض من عقد المؤتمرات ، ألم أسجل من قبل أن أحد الأطباء البولونيين كان يظن أن « ليلي » اسم لبعض الأمراض ؟

وقد وقع شيءٌ من ذلك في هذه السنة فقد ظن بعض أعضاء المؤتمر أن « طيب ليلي » شخصية معنوية يُراد بها الطبيب الحيران .

وأعوذ بالله من الجهل !

إن ليلي يا بني حواء امرأة جريئة القلب تقيم في بغداد ، وطيب ليلي يا بني آدم رجل مفطور الفؤاد يقيم في مصر الجديدة ، فكيف غابت عنكم هذه الحقائق وأنتم أطباء ؟

\*\*\*

ثم رُفع ستار المسرح ليشهد النظارة فجيرة المجنون .

ورفعت أستار قلبي لأشهد فجيعتي في هواي .

وأين حظي من حظ المجنون ؟

كان المجنون يحب « ليلي » واحدة بسبب احتجازه في البداء .

أما أنا فصريع الليالي في الحواضر والوادي .

كان المجنون يقرأ صفحة واحدة من كتاب الوجود .

أما أنا فأطالع جميع الصحائف من أسفار الوجود .

وهل أتيح للمجنون أن يهيم حول شواطئ النيل والسين وبردى ودجلة والفرات ؟

هل أتيح للمجنون أن يشهد ليالي الجنون في القاهرة وباريس وبغداد ؟

هل أتيح للمجنون أن يعانى من بلاء العقل ما أعانى ؟

إن المجنون كان يخاطب ليلاه فيقول :

وقد يُبتلى قومٌ ولا كبلتسى ولا مثل وجدى في الشقاء بكم وجد

غزنتى جنود الحب من كل جانب إذا حان من جُنْدٍ قُقولٌ أتى جُنْدُ

أما أنا فلا أدري من أخاطب : لأنى أصبحت وترّاً من أوتار القيثارة الوجدانية ، ولأن قلبي

مشدودٌ إلى القوة الكهربائية التي تربط الوجود كله برباط وثيق .

كان قيس في جنونه يدرك أن في الدنيا أنواراً وظلمات ، أما أنا فلا أعرف الفرق بين الأنوار

والظلمات ، لأن الهوى محانى ومحا وجودى فلم أعد أدرك كيف يُظلم الليل أو كيف يُشرق

الصباح .

وأنا مع هذا الخبال مسئول أمام قوانين الوجود .

فأنا أعظم نكبة من قيس لأن بلاءه كان أخف من بلائى .

خرج قيس من دنيا العقل فاستراح .

وبقيت في دنيا العقل فابتليت ما عنف فنون الجنون .

\*\*\*

— ٤٤٠ —

أما بعد فما أريد أن أنتظر قرار الأطباء في فضّ مشكلة الحب كما تنتظر وزارة المعارف ، فإن الأمر لا يزال عند قول الشريف :

دَعُوا لِي أَطْبَاءَ الْعِرَاقِ لِيَنْظُرُوا      سِقَامِي ، وَمَا يَعْنِي الْأَطْبَاءُ فِي الْحَبِّ  
أَشَارُوا بِرِيحِ الْمَنْدَلِ اللَّدْنِ وَالشَّدَا      وَرَدُّ ذِمَاءِ النَّفْسِ بِالْبَارِدِ الْعَذْبِ  
يَطِيلُونَ جَسَّ النَّابِضِينَ ضَلَالَةً      وَلَوْ عَلِمُوا جَسُّوا النَّوَابِضَ مِنْ قَلْبِي

آه ، ثم آه !!

سيرجع الأطباء إلى بلادهم صحاح القلوب ، وسيطول حديثهم عما رأوا في القاهرة وضواحي القاهرة من حُسنٍ وقتون .

وسأبقى في بلائي وهيامي .

سأتحسّر أبد الدهر على ما ضيَّعتُ من شهوات القلب يوم كنتُ في بغداد .

أنا ، يا ليلي ، عليل .

فإلي صدري وقلبي وروحي ، يا سمكة الفرات .

أما والله لو تجديني وجدى      جَمَحَتِ إِلَيَّ خَالَعَةُ الْعَذَارِ  
إن ضمنتك إلى صدري مرةً واحدةً قبل أن أموت فسأصير قيثارةً تتغنّى بالحمد والثناء على

فاطر الأرض والسموات .

وإن حُرِمْتُ نِعْمَةَ الْإِنْسِ بِرُوحِكَ الشَّافِ فسأتمرد على خالق السُّحْرِ في العيون .

رباه !

أنقذني من كرب الشكِّ في كرمك ، فأنا أستحق منك كل عطف ، لأنني أصدق من

خلقت من عقلاء المجانين .

انتهى اليوم بخير : فلم أغرق نفسى فى النيل عند القناطر الخيرية ، ولم أقتل نفسى فى فندق مصر الجديدة . وحياتى مع ما أعانى فى سبيل المجد والحب أعجوبة من الأعاجيب .

\*\*\*

مضيت مع الضيوف إلى القناطر الخيرية ، وأنا أعرف هذه القناطر منذ الطفولة لأنها فى منتصف المسافة بين القاهرة وستريس .

وصلتُ إلى هناك وأنا أدمم بقول ابن النحاس :

كم أداوى القلبَ قلْتُ حيلتى كلما داويتُ جرحًا سال جُرحُ  
فالقناطر الخيرية أجمل بقعة فى الأرض ، وليس لها نظيرٌ فى مشرق ولا فى مغرب ، وبسببها مات الشيخ سيد درويش : فقد وقده حسنُها الفضَّاح وهو يلحن رواية « هدى » فلم يرجع من هناك إلا وهو فى علة الموت .

\*\*\*

هنالك تذكرت الإنسانية الغادرة التى اقترحت أن نؤجل فرصة الهُيام فوق سَدِّ الهندية إلى أن نلتقى فوق القناطر الخيرية ، وقد وعدتُ بتحقيق هذا الأمل العذب يوم عُقد مؤتمر فلسطين بالقاهرة ، ثم أخلفت . عليها وعلى جميع بنات حواء أشنع اللعنات !  
وهنالك تذكرت أن القناطر الخيرية أنشئت بسواعد الأمة كما أنشئت الأهرام بسواعد الأمة ، فعرفتُ لماذا سموها القناطر الخيرية .

وهنالك سألت الله أن يمدَّ فى عمري إلى أن أعانى طغيان الحب فى موسم طغيان النيل .  
وهنالك ظهرتُ فى عدة صور فيها وجوه من مصر والشام والعراق .  
وهنالك صافحتُ فتاة من دمشق وطن ...

وطن من ؟

لا أريد أن أفضح نفسى وقد سترنى علامُ الغُيوب .

\*\*\*

ثم نُصبتُ موائد الشاي .  
وبعد ذلك أعلن الدكتور عبد الواحد الوكيل أن هذه الحفلة أقامها سعادة الأستاذ أحمد لطفى السيد باشا مدير الجامعة المصرية ، وأن الدكتور عبد الوهاب عزام سيلقى كلمة .

الجامعة .

فما الذى قاله ذلك الخطيب ؟

قال إنه يتكلم باسم الجامعة وباسم مصر .

وما كاد يفرغ من خطبته حتى هتف الجمهور :

الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك .

فوقفتُ وقفة الأسد الغضبان ثم قلت :

إن الدكتور عبد الوهاب عزام تكلم باسم الجامعة وباسم مصر فلم يبق إلا أن أتكلم باسم

العراق .

وعندئذ تقدم الدكتور سامى شوكت فوضع سدارته فوق رأسى ، فكانت تلك السدارة

تاج العافية .

أيها العراق .

أنا أحبك ، وأشتاق إلى سفير الوجد فى بغداد .

أيها العراق .

متى تُقضى ديونى عند نخلات البصرة وسنابل الموصل وسمكات الفرات ؟

متى ؟ متى ؟

إن بلائى بالشوق سيطول .

---



وفي مساء اليوم أُقيمتُ حفلة العشاء في فندق مصر الجديدة .  
فما الذي وقع ؟

وقع ما سمّوه شرب الأنخاب !  
وشربُ النَّخب هو أن يرفع الحاضرون كؤوسهم بأسماءٍ مختلفات .  
وقد شربوا نخب جلالة الملك فاروق الأول وأنخاب الأقطار العربية .  
ولكن الكؤوس لم يكن فيها غير الماء !  
فضحمتونا يا ناس !

ينبغي لأهل مصر أن يختاروا واحداً من اثنين : الرّى أو الجفاف .  
إن شرب الخمر يعدُّ في مصر من المنكرات ، ولكن شرب الأنخاب مقبول ، فكيف غاب  
عن أهل مصر أن « خيال » الشراب يذكر « بحقيقة » الشراب ؟  
أتريدون الحق ؟

إن أهل مصر يصطبغون المزاح في بعض الأحيان !

\*\*\*

ومال عليّ الدكتور عبد الأمير علاوى وهو يقول :  
ألا تذكر أن الخمر كانت في مؤتمر بغداد أُرخص من الماء ؟  
فقلت : لأن صحافة القاهرة أطولُ لسائناً من صحافة بغداد !

فقال : وكيف ؟

فقلت : لو أن الجمعية الطبية المصرية سمحت بشرب الخمر كما سمحت الجمعية الطبية  
العراقية لنشرت ذلك صحافة القاهرة تحت إظارٍ من السواد !  
فقال : وهل يسلم الصحفيون عندكم من غَوْل الصهباء ؟  
فقلت : إن الصحفيين عندنا يقتصدون في الشراب ، والرجل من عقلائهم لا يشرب في  
اليوم الواحد أكثر من عشرة أكواب !  
فقال : وما ذنبنا نحن حتى نعيش في القاهرة عيش الجفاف ؟

— ٤٤٤ —

فقلت : سأسقيك حتى تغفر ذنوب القاهرة يا شيطان !  
ومضيتُ فأتمخفته بثلاثة أكواب من شراب الزنجبيل في القهوة التى أقضى فيها سهرات  
الصيف .

\*\*\*

كانت تُخطب هذا المساء تفوقُ العدِّ ، ولم أع منها غير خطبة الدكتور عبد الرحمن عمر ،  
وخطبة الدكتور سامى شوكت ، وخطبة الأستاذ عبد المنعم رياض ، وقصيدة الدكتور  
إبراهيم ناجى .  
وقد طالت الخطب ثم طالت حتى قال العشماوى بك : لم تُبقوا لنا شيئاً نقوله فى مؤتمر  
الثقافة العربية !

\*\*\*

انتهى المؤتمر وانقضت أيامه ، فهل واسانى ؟  
كان هذا المؤتمر يملك وسائل المواساة ، لو كنت أصلح للمواساة ، وكيف أقبل المواساة  
ودائى فى الحب داءٌ عُضال ؟  
لن أصل إلى العافية إلا يوم يفهم قومى أن لعلتى وصفاً غير الذى يعرفون .  
أنا أعيش فى الشرق عيش الأذلاء ، لأن أهلى فى الشرق ليسوا أعزاء .  
سأحس روح العافية يوم أشعر أن الشرق للشرقيين وأن أهل الغرب لا يعيشون فى الشرق  
إلا عيش الغرباء .  
سأحس روح العافية يوم أشعر أن الشرق خلا من المنافقين والمخادعين .  
سأحس روح العافية يوم أشعر أن اللغة العربية تحاول تعريب الغرب مرةً ثانية كما صنعت فى  
عهد بنى أمية وعصر بنى العباس .  
إن الشرق العربى والإسلامى يملك أخصب بقاع الأرض ويسيطر على أعظم البحار ،  
فمتى نعيد سيرة الأسلاف ؟ ومتى يكون للعروبة الإسلامية علمٌ واحدٌ يلقي الرعب فى صدور  
الأعداء ؟

إن ذلك لا يتم إلا يوم ننساع بالأخلاق .

وما هى الأخلاق ؟

أنا أعيذ الشرق من أخلاق العبيد ، الأخلاق السلبية التى تنحصر فى البعد عن آفات  
الشهوات ، وإنما أريد له أخلاق الفحول ، الأخلاق الإيجابية التى تفرض عليه أن يحب الحياة

ليكافح في سبيل الحياة .

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

\* \* \*

وإلى اللقاء في ساحة المجد المنيع ، المجد الذي عرفته جيوش قرطبة والقاهرة وبغداد ، يوم كنا  
أقطاب السياسة والقوة في المشرق والمغرب ، ويوم كنا أساتذة الممالك والشعوب .

---

أما بعد فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط الطوال ، فقد ابتدأت في تدوين هذه المذكرات في الشهر التاسع من سنة ١٩٣٧ وانتهيت منها في الشهر الثالث من سنة ١٩٣٩ ، وبذلك أكون شغلت نفسي بمحدث ليلي سبعة عشر شهراً ، أو تزيد . فما الذي جنيْتُ من سهر الليالي في تدوين هذه المذكرات ؟ .

غنمتُ أشياء ، وخسرتُ أشياء .  
غنمتُ الإيمان بالشرف ، فلو لا تصوُّري وعفائي وأمانتي في حبِّ ليلي لخدمتُ وقْدَةُ الشوق منذ أول يوم تلاقينا فيه ، ولو لخدمت تلك الوقْدَة لاندثرت جميع المعالم من ذلك التاريخ الجميل .

وغنمتُ الإيمان بالقلب ، فقد عرفتُ كيف استطاع قلبي أن يحيلني إلى قوة روحية قليلة الأمثال .

وغنمتُ الإيمان بالصدق ، فبفضل الصدق بكتُ ليلي في داري بكاء الحنان يوم كنتُ في بغداد .

وغنمتُ الإيمان بالحب ، فبفضل الحب صرْتُ شغل الأفئدة في جميع الأقطار العربية .

\*\*\*

وخسرتُ أشياء :

خسرتُ السلامة من سماجة المتقولين وسفاهة العدّال .

وخسرتُ الراحة من كمد القلب وعذاب الروح .

وخسرتُ الفضيحة في حب ليلي ، لأنني كنت مع الأسف من عقلاء المجانين .

\*\*\*

أيها القمر الذي يملأ أرجاء مصر الجديدة في شهر المحرم ، أيها القمر ، أيها القمر ، بلغ ليلاي في بغداد أني أعاني آلام الكتان ، بلغ ليلاي أن سرّي لا يزال مكتوماً بعد هذه المثات من الصفحات .

وآه ثم آه من عذاب الكتان !

كان غرامى بك يا ليلي قدراً من الأقدار ، وكان مكتوباً خطأ بالدمع على أسارير الجبين .  
وكم توقرت يا ليلي لأصدّ الجوى عن قلبك الخفاق .  
فإن كنت ضيعت عليك فرصة الفضيحة في غرامى فقد حفظت لك نعمة الصيانة من  
أراجيف السفهاء ، وذلك أجمل ما تظفر به القلوب والنفوس ، في زمن يكفر أهله بشريعة  
الحب أبشع الكفران .

\*\*\*

ولو كنت كتمت هواى عن الناس وحدهم لحف الأمر وهان ، ولكنى كتمت هواى عن  
ليلاى وضلتها أشنع تضليل ، فهى لا تعرف اليوم مواقع هواى ، ولا تفهم أنى مفتون بها أعنف  
الفتون .

سألتنى ليلاى ذات مساء : أنا ليلاك يا دكتور ؟  
فأجبت : علم ذلك عند علام الغيوب .  
وكان ذلك لأنى كنت ألزم الأدب حين أراها مع أنى أفضح نفسى فيما أنشر بالجرائد  
والمجلات ، فهى تتوهم أن هواى عند غيرها من الليليات ، وما أكثر أوهام الملاح !  
ومن ليلاى فى العراق ؟ من ليلاى فى العراق ؟  
هى ليلاى فى العراق ، هى أم العينين السوداوين ، هى الإنسانة التى كانت تشتبى أن تكون  
نور بيتى فى بغداد ، هى الإنسانة التى اقترحت أن نفرق معاً فى دجلة أو فى الفرات .  
وليتنا غرقنا معاً فى دجلة أو فى الفرات

\*\*\*

كتمت هواك ، يا ليلي ، فهل تكتمين هواى ؟  
أنت الآن مضللة أعنف تضليل : لأنى حرّفت هواى فيك أعنف تحريف .  
فأرجوك بالله وبالحب أن تؤمنى بأنى لم أتحدث عنك بحرف واحد فى هذه المذكرات  
الطوال .

إن عريضى فى يديك ، يا محبوبتى الغالية .  
وعرضك فى يدى ، يا محبوبتى الغالية .  
وسترى الأيام أننا أحفظ للعهد ، وأكتم للسّر ، وأعرف بالوفاء .  
ليلاى .  
كنت وعدت بأن تقيمي بين ذراعى فى مصر الجديدة أسبوعاً أو أسبوعين .

ومؤلفاتي ذائعة ذيوغاً لم أكن أتوقع أن تصل إليهِ ، وقد يكون في القراء من يخفى عليه أني أدعو إلى مبادئ أخلاقية سامية أغشيها بالفتون كما يصنع الطبيب في تغشية « البرشامة » المُرّة بغشائٍ من الحلواء .

وقد يكون لي حُصُونٌ يتخذون من أدبي ذريعة إلى إقصائي عما أطمح إليهِ من المناصب العالية ، وهؤلاء الخصوم قد يعرفون في سرائر أنفسهم أني من أهل الصدق ، ولكن الخصومة لها طبائع سود ، وهي تحرف الكلم عن مواضعه بلا تهيب ولا استحياء . والأصدقاء أنفسهم قد يرتابون فيما يقرأون ، وهل أنسى ما وقع بيني وبين الأستاذ سعد اللبان ؟

إن الأستاذ سعد اللبان صديق حميم ، وهو من الذين يعرفون دقائق الرموز والمعارض ، ولكنه مع ذلك أسرّ إليّ مرة أنه يحب أن يعرف مبلغ الصدق فيما تحدثت به عن نفسي في كتاب « ذكريات باريس » .

وقد ضحكك ضحكةً أصرح من ضحكاته الصريحة ، وأكدت له أني صادق في كل ما تحدثت به عن نفسي من غراميات باريس !

ولما نشرت مذكراتي عن غرامى بمرجريت ورعاية ابنها موريس كتب إليّ ناسٌ من بغداد يرجونني أن لا أفصح نفسي على نحو ما صنعتُ في نشر تلك المذكرات ، لأن ذلك يؤيد حجة خصومي هنا وهناك .

كان عليّ أن أعتبر بما رأيت وسمعتُ ، كان عليّ أن أعتبر منذ اليوم الذى أعلن فيه الدكتور طه حسين رأيه في كتاب « مدام العشاق » بمقال نشره في جريدة السياسة وصرح فيه بأن كتاب « مدام العشاق » يحرض على الشهوات .

\* \* \*

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أقول إن العقل يفرض أن نوضح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات ، فلو أني كنت أفصحت عن غرضي منذ أول يوم تصديتُ فيه للنشر والتأليف لأعفيت نفسي من متاعب القيل والقال .

ولكن تجريح الأفراد غير تجريح الشعوب .  
فمؤلفاتي حين تُفهم فهماً خاطئاً لا تضر أحداً غيرى ، وأراجيف المفسدين لها نتيجة صغيرة وهي إخراجي من خدمة الحكومة المصرية .  
ولكن التجريح حين يوجّه إلى أمة تكون له عواقب أفظع وأشنع ، فسكوث مصر عما يوجّه



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

الثلث ٥ جنيهات

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه